كتاب

الازاهير المضمومة في الدين والحكومة

الاعتصام بالدين حبل النجاة المتين

للشيخ امين ظاهر خير الله صليبا

هذا الكِتابُ حَوى عِلماً ومَوعِظةً
بطاعةِ اللهِ في جَهرٍ وإِسْرارِ
مَنِ اصْطَفاهُ دَليلاً في مَناهجِه
يَحُز بِدُنيا وأُخرى خيرَ أَوْطارِ

مطبعة امين هندية بمصر

سنة ١٩١٩ — ١٣٣٨

الرسائل بشأن هذا الكتاب

١

رسالة المؤلف الى صاحب الجلالة والمهابة الهاشمية دام تأييده

استئذانًا بالتأليف

الى صاحب الجلالة والمهابة الهاشمية أيَّده الله

الحمد لله الذي اصطفاك أبًا للعرب وأسعدهم بك . واياه اسأل ان يديم بدر مجدك في هالة الإقبال . ويحقّق بحميد هَدْيك الآمال . ويُبلغ بك العرب من السؤدد والفضل آية الكمال

اما بعد فقد اقبل شهر الخشوع . والسجود والركوع . وذكرِ الله وافراغ الضلوع . اعترافًا له جل ثناؤهُ بالربوبية . وعلى عبادِهِ بالعبودية . فاجزل بمَنِّه وكرَمهِ ثوابكَ على صوم وصلوات . وفضائل ومبرَّات . فانك ابن بيت البرّ والطهرِ وحُسنِ العِبادات . يوفي كلُّ يوم بك صلاحًا على صلاح . ليُضفي بِفضلك لشعبك نجاحًا على نجاح . ولاقيتَ العيدَ

السعيد على أجلّ نعمة واكمل فلاح . وأعاد بألطافهِ عليك شهر الصوم المجيد وسناء العيد السعيد اعواماً على اعوام وكلُّ يوم مقبِل عليك مُربٍ على يوم مرتحلٍ عنك برحماتٍ كالعبير نشرُها وبركاتٍ كالسحائب قطرُها

ثم اعرض باحترام بين يدَي مولاي ان الالسنة هنا (في القطر السوري) لاكت كلمة هي ان الحكومة العربية ستكون على قاعدةٍ أَنَّها لا دينيَّة . وذلك ما لا يصحُّ فالحكومة غصن والدين أرومة ولا يكون لغصن نضارة وليس له أَرومة . وصحة الوضع ان تكون الحكومة العربية حكومة اسلاميَّة . تتساهل بمقتضى ما للاسلام من السماحة والعدالة الوفيَّة فتظلل بوارف نعمتها كل عربيّ مسلماً وعيسويًّا وموسويًّا . وقد وضعتُ في نفسي أنْ أُنشئَ كتاباً أُضَمّنهُ بسط هذا الإجمال . اتشرَّفُ بوضع فذلكة باحاثهِ . فاذا شاءَ مولاي دام تأييدهُ أن يرضاني لاعتابهِ خادماً فيجيز لي هذا العمل شرَّفني أمرُهُ بلسان حبيب الامة العربية الامير الشريف فيصل المؤيد نجل صاحب الجلالة ولا زال رأي مولاي العالي موفقاً في أكرومةٍ يظهرها .

ومبرّةٍ ينشرُها ومحمدةٍ هو مصدرُها

ولا زال عونُ اللهِ يُسعِدُ أَمرَهُ

واذكى عبيرِ الروض ينفح باُسْمِهِ

دمشق في ٣ رمضان سنة ١٣٣٧ الخادم الامين

امين ظاهر خير الله

٢ً طرس صاحب الجلالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الديوان الهاشمي الحمد لله وحده ختم جلالته

من الحسين بن علي الى الفاضل الاجل الشيخ امين ظاهر خير الله

السلام ورحمة الله وبركاته كتابك المتضمن التهنئة بحلول شهر الصيام وصل اعاد الجميع لامثاله بما يحبه ويرضاه واوجب الممنونية من همم اخلاصك والاسف مما اشرتَ وانما تقدم هذا لولدنا فيصـل ليجري لك رغبتك وللمعلومية بوصوله تحرر م في ٢٠ رمضان ١٣٣٧

٣ ــ عرض الكتاب لدى سمو الامير فيصل المعظم

الى صاحب السمو الملكي الامير الشريف فيصل المعظم دام تأييدُهُ

يا ملاذ البلاد السورية وقبلة احترام أهلها

خير ما يعمله الخادم الامين لوطنه ان يعمد الى حقيقة علمية فينشرها او الى موعظة حسنةٍ فيرويها . وقد فتح الله عليَّ بحثاً في صلة الحكومة بالدين أتى على ما تمُّ فائدتهُ وتجلُّ عائدتهُ . ورفعتُ الى جلالة المليك المعظم والدكم فذلكته فشرَّفني كرمهُ بطرس كريم تاريخه ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٧ باطلاع مولاي عليه كفاية

فالآن ارفع الى اعتابكم نسخة الكتاب الذي تمَّ بمدد الله تصنيفه . فاذا حسن لدى مولاي ارسله الى المجمع العلمي الموقّر للنظر في محتوياتِهِ والجلاء عن مكانتها العلمية فاذا جاءت الشهادة له بما يوليه كرامة ، التمس الاجازة بطبعه وان يُقبلَ تقدمة احترام . ولا زال مجدكم الاسنى يتلألا بالمفاخر وشخصكم الجليل يزدان بجواهر المآثر

دمشق في ٥ شوّال سنة ١٣٣٧ الخادم الامين

امين ظاهر خير الله

٤ً ـ صورة كتاب الامير فيصل المعظم للنظر في محتويات هذا الكتاب

دار الامارة في ٧ شوال سنة ١٣٣٧

للحاكم العسكري العام

وضع الشيخ امين ظاهر خير الله كتاباً سمّاه « الازاهير المضمومة في الدين والحكومة ضمّنهُ ابحاثاً يذكر انها ذات فائدةٍ يحسن انتشارها بين ابناء الامة العربية لازدياد الاقبال على العلم والاداب ومكارم الاخلاق ورفعهُ الينا ملتمساً ان ينظر المجمع العلمي الموقّر في محتوياته للتثبُّت في امرهِ فارسلنا الكتاب اليكم لإجابة ملتمسه والسلام عليكم

فيصل

الى رئيس المجمع العلمي الموقر

في ٧ شوال سنة ١٣٣٧ الركابي

الى الشيخ عبد القادر المغربي المكرَّم

للنظر في محتويات هذا الكتاب وتقديم تقريرٍ بشأنه

في ٧ شوال سنة ١٣٣٧ رئيس المجمع العلمي

محمد كرد علي

٥ً ـ تقرير الى رئاسة المجمع العلمي العربي بشأن كتاب الازاهير المضمومة في الدين والحكومة

حضرة الاستاذ الفاضل رئيس المجمع العلمي العربي

اطلعتُ حسب اشارتكم على كتاب « الازاهير المضمومة في الدين والحكومة » لمؤلفهِ امين ظاهر خير الله فرأَيتُهُ قد أصاب الغَرَض فيما توخَّاهُ فيه من اثبات الأُلوهة والنُّبُوَّة والحكومة ولزوم الدين للبشر حاكمين ومحكومين افرادًا اوجماعاتٍ مستدلاًّ على كل قضيةٍ من قضاياه بالنصوص الدينية مقرِّباً مسائله الى الاذهان بالامثال والشواهد العقلية والتاريخية . وفي خلال هذه الابحاث حضٌّ على الفضائل والتمسك بالآداب ومكارم الاخلاق . وليس فيه تحزُّب الى دين او تشيع الى مذهب . وانما هو يرمي الى تأييد الدين المطلق وخاصة الاديان السماوية (اليهودية والمسيحية والاسلامية) وابطال كل دين تضمن من التعاليم مافيه ضرر بالعمران او افساد لنوع الانسان

ويؤخذ على المؤَلف اشياء لاأراها تضرُّ بالكتاب او تحول دون نشرهِ بين ابناء الأُمَّة . وربما كان السبب فيها

تقدمة الكتاب

(الى اعتاب صاحب الجلالة الهاشمية مولانا ملك الحجاز)

الحسين بن علي الحسني

واصحاب السمو الملكي انجاله الامراء الاشراف

علي وعبد الله وفيصل وزيد

اطال الله بقاءهم　وخلد ملء الدهر سناءهم

يا حمسة العصر الأولى قدروا　عن حمسة خير السجايا الحسانْ
فيكم بدا حسن التقى والندى　والعلمُ والحزمُ وثبتُ الجنانْ
عدتمُ للعُرب مجداً سما　نظير ما كان بذاك الأوانْ
شيدتمُ الملك الذي أسهُ　مخافة الله وجود البنانْ
وجودة الخلق على حكمة　وصادق العلم ونشر الأمانْ
قد حطتمُ العرب بآلائكم　بالعدل بالحلم باوفى حنانْ
يا أيها البدر وشهبانه　أنواركم فى كل قاص ودانْ
حبكمُ ضمن الحشا قد صفا　نبعاً فيروي عنهُ صدق اللسانْ
وها أنا أعربُ عن حبكم　بكل معنى مستحب البيانْ
هذا كتابي من سجاياكم　مقتطف أشهى قطوف دوانْ
دامت معاليكم ودامت لنا　دولتكم الى أبيد الزمانْ

الخادم الامين

امين ظاهر خير الله

﴿ حقائق لا بُدَّ منها ﴾

(١)

أَللهُ اِلهُ الرَّحَماتِ وَالعَدلِ رَبُّ الجَميع . فَسَحابُ رَحْمَتِهِ لِلمَلِكِ الصالِحِ ، بِأَنْ يُسْلِسَ لَهُ قِيادَ شَعبِهِ فِي مَا يُولِيهِ قُرَّةَ عينٍ وَٱنْشِراحَ صَدْرٍ * وَلِلشَّعْبِ المُبَارَكِ ، بِأَنْ يَكِلَ أَمرَهُ إِلَى مَلِكٍ حَكِيمٍ نِيرُهُ خَفِيف ، والخَيرُ بِهِ مُطِيف * وسَوطُ عَدْلِهِ لِلمَلِكِ الغاشِمِ ، بِأَنْ يَجْمَحَ شَعْبُهُ مِنْ تَحْتِ نِيرِهِ الثَّقِيل * ولِلشَّعْبِ البَطِرِ بِأَنْ يَسوقَهُ مَلِكٌ جائِرٌ سَوْقاً عَنِيفاً

(٢)

الحاكِمُ الَّذِي يَفْرِضُ على رَعِيَّتِهِ حُسْنَ الطاعةِ لَهُ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يُرْفِهَ مَعِيشَتَهَا وَيُجِلَّ مَكَانَتَهَا وَيَصونَ حُقوقَهَا ، عَلَيهِ أَوَّلاً حُسْنُ الطاعةِ للهِ سَيِّدِهِ * فَإِنَّ للهِ مِنَ الحَقِّ عَلَيْهِ ما هُوَ مَصدَرُ الحَقِّ الذِي لَهُ عَلَى النَّاس فَإِنِ ٱسْتَضْعَفَ سُلْطانَ اللهِ عَلَيهِ فَهُوَ بِذلِكَ يَسْتَضْعِفُ سُلْطانَهُ

على الناسِ * وما طاعَةُ الناسِ لَهُ الا ثَمَرَةُ طاعتِهِ لله * وما اجتِرَاءُ الناسِ على مَعْصيَتِهِ إلا عَن اجتِرائِهِ على رُكوبِ مَعصيَةِ اللهِ * فعَلَى الحاكِمِ أَنْ يَكونَ في سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وقَولِهِ وعَمَلِهِ في طاعَةِ اللهِ بالمَكانَةِ العُليا * لأَنَّهُ أُعْطِيَ مِنَ الكَرامَةِ الدُّنيَوِيَّةِ المَكانَةَ العُلياَ * وَمَنْ فُضِّلَ في العَطاءِ وَجَبَ أَنْ يَكونَ الأَفْضَلَ في جُودَةِ العَمَلِ

(٣)

أَلشَّعبُ الّذي يَتَطلَّبُ مِنَ الحُكومَةِ أَنْ تُحسِنَ إِلَيهِ صَغيرًا ، وتُجِلّهُ كَبيرًا ، وتحوطَ لَهُ مالَهُ مُوسِرًا ، وتفِيضَ لَهُ النِعمةَ مُعْسِرًا، عَليهِ أَنْ يَكونَ مُعْتَصِماً بِطاعَةِ رَبِّهِ في كلِّ أَدوارِ حَياتِهِ وعَلَى تَلَوُّنِ الحالِ * فهُوَ تعالَى شأْنُهُ وجَلَّ مُلْكُهُ يَذكُرُ مَن يذكُرُهُ بِطاعَتِهِ شَرِيعتَهُ ، وينسَى مَن يَنْساهُ بِرُكوبِهِ مَعْصيَتَه ، وَمَنْ ذَكَرَهُ السَّيِّدُ بِسَخَطٍ امْتَهَنَهُ الخادِمِ * واللهُ السيّدُ والحاكِم خادمُهُ * فكَما يَكون الشَّعبُ يَكونُ حاكِمُهُ

فَالدِّينُ حبلُ النَّجاةِ المتِينِ لِلْحُكّامِ والمَحْكومين ،

لِلْمُعْتَصِمِ بِهِ كَرَامَةُ دُنْياهُ وَسَعَادَةُ أُخْراهُ * ولِلْمُعْرِضِ عَنْهُ فِي دُنْيَاهُ هُمومٌ وأَكدار، وَفِي أُخْراهُ جَحِيمٌ وبِئْسَ القَرار

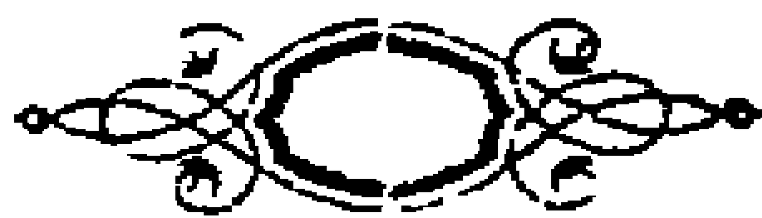
(٤)

أَلأَدْيانُ السَّماوِيَّةُ تَحُضُّ كلَّ شَعْبٍ عَلى طاعةِ حُكومَتِهِ الشَّرْعيّة، فَكلُّ حُكومةٍ شَرْعِيّةٍ عَلَيها أَنْ تَحُضَّ شَعْبَها على احتِرامِ الأَدْيانِ السَّماوِيَّة، لِأَنَّ الجزَاءَ من جِنْسِ العَمَلِ

(٥)

مَن سَوَّغَ لنفسه أَنْ يَخْرُجَ عمّا سَنَّهُ اللهُ ديناً وأَلزَمَ بهِ عِبادَهُ، وَهوَ يَعْلَمُ أَنَّ مِنَ اللهِ مُبْتَدَاهُ واليه مُنْتَهاهُ، يُجيزُ لِنَفْسِهِ وَلا رَيبَ الخُروجَ عما تَسنُّهُ الحكومةُ شَرْعاً يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتّبِعَهُ فِي شؤُونِ دُنْياه * فَمَنِ اجْتَرَأَ على عِصْيانِ القَوِيّ لا يَرهَبُ مَعْصيَةَ الضَّعيف * وَمَن اسْتَبَاحَ إِنكارَ النعمَةِ الكُبْرَى (نعمَةِ الله عليه بِخَلْقِهِ وتخويلِه الحَياةَ في الدنيا فالحياةَ فِي الأُخْرَى) يَستَبِيحُ إِنكارَ النعمَةِ الصُّغْرى (نعمَةِ اهتِمامِ الحكومةِ بِهِ) * وَمَن أَوجَبَ على نَفْسِهِ تِباعَ ماسَنَّهُ اللهُ ديناً، يأْتمِرُ بِشَرْعِ الحكومةِ التي يُقيمُ في ظِلِّها لِأَنَّ

دِينَهُ يوجِبُ عليه ذٰلِكَ الائْتمار * فالحكومةُ التي تَحُضُّ على طاعة الدينِ في قَولٍ وعَمَلٍ ، تَعمَلُ ماعائدُهُ خيرٌ عليْها * والعاقلُ يَتَطَلَّبُ لنَفْسِهِ الخيرَ مِن كلّ مَصادره ، فَبالأَولى أَنْ تَطلُبَ الحكومةُ الخيرَ لها مِن كلِّ مَصادره ، فتَحُضُّ الشَّعبَ على الاعتصامِ بالدينِ والعَمَلِ بِأَوامره ، والِانتهاءِ بِنَواهيه ، لِأَنّ الدينَ نصيرُ الحكومةِ ومؤَيِّدُها وسياجُ كَرامَتِها وَهو مَصدَرُ وَضعِها ومنهُ تَنْبَثِقُ مادَّةُ شَرْعِها



ديباجة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْحَمْدُ لله رَبِّ الأَرْضِ والسماء * الخالِقِ مِنْ لاشيْءٍ كُلَّ الأَشْياء * هُوَ سُبحانَهُ وعَزَّ مُلْكُهُ الأَحَدُ المعبُود * وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ بِكَلِمَتِهِ وتَعالى شَأْنًا عَن أَنْ يَكونَ وُجودُهُ عَن مَوجود * قد وَضعَ الحَدَّ على كُلِّ كائِنٍ مَعنَوِيّ او مادِّيّ أَمّا هُوَ فَغَيرُ مَحْدود * لَهُ المُلْكُ ولا شَريكَ ولا مُنازِعَ فَيَنْشُرُ وَيَطوِي العُهودُ وَما طَيَّ العُهود [1] . وإِلَى قَضائِهِ ولا مَهْرَبَ منهُ مَبْدَأُ ومَصيرُ الوالِدِ وَالمَولودِ والسَيِّدِ والمَسُود * فَلِمَن تَجاوَزَ ما يُرضيهِ شَقاءٌ وَلِمَن لَزِمَ طاعَتَهُ سُعود * وَسَتُجزَى لَدَيهِ نَفسٌ بِما كَسَبَت بَعدَ سُباتِ الجَسَد [2] إِذْ يَدعوها فَتَعود [3] * وَلَنِعمَ الثَّوابُ نَعيمٌ خالِدٌ ولَعَدلٌ عِقابُ المُسِيْءِ نارُ جَهَنَّمَ ذاتَ الوَقود

---

(١) الاوقات (٢) السبات النوم والمراد به هنا الموت (٣) المراد بالدعوة والعودة . النهوض من القبر

اما بَعدُ فَإِنَّنا قد فُزْنا بِرَحمةٍ منهُ تَعالى خَوَّلَتنا [١] انتعاشاً بَعدَ ذُبول . وانتياشاً [٢] بَعدَ خُمول . فَانْحَلَّ غُلٌّ [٣] كانَ من حَديد . وانفتَحَ لَنا بابُ عَهدٍ جَديد . فَتَمَتَّعنا بنعمةٍ مَرَّ على حِرماننا مِنها زَمَنٌ مَديد. وَعُدْنا الى مُسْتَوى الأُمَمِ التي قيادُها بِأَيدي أَبنائِها يَذُودون [٤] عن حِياضِها ويَجِدُّونَ [٥] في تَعزيزِ بِنائِها لِتَسيرَ الى قَصِيّ [٦] المطالِب. في مِنهاجٍ لاحِب [٧] . مَصونٍ من المَثالِب [٨] . كَفيلٍ بالوُصول إِلى كَريمِ الرَّغائب . فَعَلى ما أَزالَ عَنَّا مِن نقمة . وأَدنى الينا نِعمةً ، جَلَّت بها الحُرمة [٩] . وعظمت القِسْمة [١٠] . حَمدٌ لا يَذبَلْ زَهرُهُ . ولا يَنْفَدُ عِطْرُهْ . وَلا يَحْتَجبُ بَدرُهْ ، الآنَ وإِلَى مَدَى الدَّوَران

وقد تَقَسَّم الرَّأيُ في الخُطَّة [١١] التي يَجِبُ أَنْ تَتبَعَها حُكومتُنا في صلَتها بِالدِّينِ * فَمن داعٍ إِلى أَنْ يَكونَ نِطاقُ الحُكومةِ مَحصُورًا في إِنصافِ المَظلوم مِنَ الظالِمِ ،

---

(١) اعطتنا (٢) انقاذاً (٣) قيد (٤) يدافعون (٥) ويحققون (٦) بعيد (٧) واسع (٨) نعايب (٩) الذمة (١٠) النصيب (١١) الطريقة

وصَونَ الضَّعيفِ مِنَ القَوِيِّ ، وأَمَّا ما عَدا ذٰلِكَ ، فلِكُلِّ فَردٍ أَن يَكونَ عَلَى ماشاءَ ، وحُجَّةُ القائِلينَ ذٰلِكَ هِيَ : إِنَّ الناسَ اليهِ تَعالَى مآبُهُم وعَلَيهِ حِسابُهُم وعِندَهُ لا تَضيعُ لِمُحسِنٍ ذَرَّةُ ثَواب . ولا لِمُسيءٍ لَحظَةُ عِقاب . فَكُلُّ مَن أَحسَنَ او أَساءَ فِي أَمرِ دِينِهِ مُوَفًّى الأَوطابُ [١] . فَإِنْ لم تُناقِشِ الحُكومةُ أَحَدًا في الصِلَةِ الدِينيَّةِ فَقَد تَنَحَّت [٢] عنها إِلَى مَن يَدُهُ فَوقَ الهامِ [٣] أَجمَع، وَلَدى جَبرُوتِهِ كُلُّ جَبَّارٍ يَخشَع

ومِن ذاهِبٍ إِلَى أَنَّ الحُكومةَ مُلزَمَةٌ بِدَعوةِ الأُمَّةِ إِلَى التَّمسُّكِ بالدِينِ فإِنَّهُ القُطْبُ الّذي تَدورُ عَلَيهِ رَحَى العُمرانِ. وإِن لم يَكن قُطبٌ فلا رحى ذاتُ دَوَران . فمصلحةُ الحكومةِ مُرتَبِطةٌ بِصيانةِ حُدودِ الدين . فما دامَ الدِينُ مَرعِيًّا فَلِلحكومةِ كَلِمةٌ جَليلةٌ ومَرتَبةٌ عَلِيّة. وإِن أَظلَمَ مَنارُ الدينِ

---

(١) الاوطاب جمع وطب وهو جلد الماعز يجعل فيه اللبن والكلام مجازي مفادُهُ انه موفى المجازاة (٢) اعتزلت (٣) الرؤوس اي انه سيد الجميع

تَداعَى بِناءُ الحكومةِ الى الدَّمار.[1] ومن رَغِبَ فِي بَقاءِ الثَّمرَةِ. وَجَبَ عَلَيهِ أَن يَسْهَرَ على سَلامةِ الشَّجَرة

وهٰذا الَّذي أَراهُ المَذهَبَ الهادِيَ الدَّليل. القَويمَ السَّبِيل. فَلو صَحَّ أَنْ يُترَكَ أَمرُ الدينِ الى الله لِأَنَّ الثَّوابَ والعِقابَ لَهُ أَخِيرًا لَاقتَضَى ذٰلِكَ ان يُترَكَ له أَوَّلاً ولَصَحَّ على هٰذا القِياسِ أَنْ يُترَكَ لَهُ العَلِيلُ لِأَنَّهُ هُوَ الطَّبِيبُ الشافي. فَكانَ مِنَ الواجِبِ ان لا يَكونَ دَواءٌ ولا مُداو. ولَمَشَينا خُطْوةً ثانيةً فقلْنا هُوَ وَلِيُّ القَضاءِ في الدُّنيا كما في الأُخرَى فهُما في سُلطانِهِ سَواءٌ فَلا حاجةَ إِلَى حاكِمٍ وأَحكام. أَمَّا إِذَا كانَ مَصِيرُ الأَمرِ إِلَيهِ أَخِيرًا لا يَحولُ دُونَ أَن يَنظُرَ الإِنسانُ فِي الأَمرِ أَوَّلاً فيُداوِيَ المُداوِي ويَحكُمَ الحاكِمُ فلا وَجهَ لِامتِناعِ الإِنسانِ عَن أَن يُلزِمَ أَخاهُ بِخَوفِ رَبِّهِ فِي سِرٍّ وعَلانِيَةٍ فَيَهدِيَهُ في سَبِيلِ الصالحات، ويَزْجُرَهُ عَنِ الإِلْمامِ[2] بِالسَيِّئات

---

(١) تداعى البناء تصدع من جوانبه واذن بالانهدام والسقوط. والدمار الهلاك (٢) الفعل

وَقَدِ اتَّفَقَ الدِينُ والعَقلُ السَّلِيمُ عَلَى أَن يَكُونَ لِأُمورِ الدُّنْيا هَيْأَةٌ حاكِمَةٌ فَلَم يَكُن دِينٌ بِلا وَصيةٍ في طاعةِ وَلِيّ الأَمْرِ والعَمَلِ في اكتِساب رِضاهُ . فَيَأْتَمِرَ المُوسويُّ بِما أَتَى فِي أَقوالِ سُلَيمانَ الحَكِيمِ هٰكذا « قَلبُ الملِكِ فِي يَدِ الرَّبِّ جَداولُ ماءٍ حَيثُما شاءَ يُميلهُ »[١] وَيَأْتَمِرَ العيسويُّ بِما جاءَ فِي سِفرِ رُومية « لِتَخْضَعْ كلُّ نَفسٍ لِلسَّلاطِينِ الفائِقَةِ . لِأَنَّهُ لا سُلطانَ إِلاّ مِنَ اللهِ . والسَّلاطِينُ الكائِنَةُ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ حتَّى أَنَّ مَنْ يُقاوِمُ السُّلْطانَ يُقاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ والمُقاومونَ سَيَأْخُذونَ لِأَنفسِهم دَيْنونة »[٢] وفي ما يأْتَمِرُ به المُسْلِمُ الآيةُ الشريفَةُ « يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا أَطيعوا اللّهَ وأَطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأَمرِ مِنكُم »[٣] وَفي اقوالِ الحِكمةِ لشاعرٍ قَديمٍ قَولُهُ :

لا يَصلُحُ الناسُ فَوْضى لا سَراةَ لهم
ولا سَراةَ إِذا جُهّالُهُمْ سادوا[٤]

---

(١) امثال سليمان العدد ١ من الفصل ٢١ (٢) رسالة رومية العددان ١ و ٢ من الفصل ١٣ (٣) سورة النساء الجزء الخامس (٤) السراة جمع سري وهو السيد الشريف

والبَيتُ لا يُبْتَنَى إلاَّ لَهُ عَمَدُ

ولا عِمَادَ إذا لم تَرْسُ أَوْتادُ [1]

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتادٌ وأَعْمِدَةٌ

يَوماً فَقَدأَدرَكُوا الأَمرَالَّذي كادوا

فاذا كانَ أَمرُ الدُّنيا قد وَقَعَ الإجماعُ بِشأْنِهِ أَنْ تَقومَ بِهِ هَيْأَةٌ تَحوطُهُ [2] فَبالأَولَى أَن يَكونَ أَمرُ الدينِ وَهُوَ مَصدَرُ أَمرِ الدُّنْيا أَحْوَجَ الى هَيْأَةٍ تَحوطُهُ. وما يَحتاجُ إِلَيْهِ التَّابِعُ مِنْ عِنايَةٍ وَإِجْلال فالمَتبوعُ أَحَقُّ بِهِ

فَرَأَيتُ مِن حَسَنِ العَمَلِ أَنأَتجرَّدَ لِبَيانِ ما بَيْنَ الدينِ والحكومةِ مِنَ التَّضامُنِ فَأَجِيَ على شَيءٍ مِنَ الادِلَّةِ المُحقِّقَةِ أَنَّ الحكومةَ إِنَّما هِيَ وَسيلةُ تَنْظيمِ شُؤُونِ الدُّنيا لإِسعادِ الناسِ وأَنَّها مُسْتَمِدَّةٌ قُوَّتَها مِنَ الدينِ،وَمَن استَمَدَّ قُوَّتَهُ مِن مَرجِعٍ فَلا غِنَى لَهُ عَن تَأْييدِ ذٰلِكَ المَرْجِعِ صِيانَةً لِمَكانَتِهِ الخُصوصيَّةِ. لِأَنَّ إِنكارَ حَقِّ الأَصيلِ يَستَلزِمُ إِنكارَ حَقِّ المُتفَرِّعِ عَنهُ. فَمَصلحةُ

---

(١) ترسو . تثبت (٢) تصونه

الحكومةِ تَستلزِمُ أَنْ يَكونَ الدينُ مُطاعَ النَّهيِ والأمرِ. في السِّرِّ والجَهر. فَلِلحُكومةِ رُسُوخُ بناءٍ إذا كانَ مَن تَتَوَلَّى الأمرَ فِيهِم لهم عِصْمَةٌ[١] دِينيَّةٌ فَإنَّها تَستلزِمُ البِرَّ بوُعودٍ مُبرَمَةٍ والوَفاءَ لِحُقوق واجبةِ الإداء ولا مَندوحةَ عَنْ ذَينِك الشَّأنَين. أَمَّا مَن لَيستْ لَهم عِصْمَةٌ دِينيةٌ فَلا مُجبِرَ لهم عَلى عَدَمِ الانفِكاكِ عَن وُعودٍ لَهُم سَبَقَت وحُقوقٍ عَلَيهِم أَقَرُّوا بها. فَإنَّ مَصالِحَهم تَقتادُهُم كَيفَ شاءَت ولا قائِدَ لِمَصلَحَتِهِم إلاَّ هَوَى النَّفسِ فَهم يُجيزونَ[٢] لأَنفُسِهِم المَغنَمَ مِن كلِّ وَجهٍ ويأبَونَ[٣] أَنْ يَنالَهُمْ مَغرَمٌ مِن وَجْهٍ ما. على حِينَ أَنَّ الدِينَ ذو سُلطانٍ على مُعتَنِقِه[٤] يُوجِبُ عَلَيهِ التَّسليمَ بِالمَغرَمِ من وَجهِ الحَلالِ كما يُجيزُ لَهُ المَغنَمَ مِن وَجهِ الحَلالِ. فَمَن لَهُ دِينٌ لَهُ طاعةٌ في ما يَرضَى وما لا يَرضَى. وَمن لا دِينَ لَهُ فلا طاعةَ لَهُ في ما يُعارِضُ[٥] هَوى نَفسِهِ. والهَيأَةُ الحاكِمَةُ تَطلُبُ أَن يَنقادَ لها في الوَجهِ

---

(١) الحاصل من الاعتصام (٢) اجاز الشيءَ استحلهُ (٣) ابى رفض (٤) اعتنق الدين. اي آمنَ بصحته وتيقنهُ (٥) يقاوم

المَشروعِ كلُّ إنسانٍ بِرَغمِ هَوى نَفسِهِ . فَبَينَ عَدَمِ التَّدَيُّنِ ومَطلَبِ الحكومةِ تَعارُضٌ[1] ولا توفيقَ . فاطِّراحُ التَّدَيُّنِ يُنافي الوَجهَ الّذي تَرِدُ الحكوماتُ بِمُقتَضاهُ * فما الحكوماتُ إلاّ مجموعاتُ أفرادٍ اعتَصَموا بِنِظامٍ اعتَرَفوا بِصِحَّتِهِ وأَخَذوا عَلى أنفُسِهِم العَهدَ بأَنْ يَتَقَيَّدوا بِمَوادِّه . ثُمَّ دَفَعوهُ إلى هَيْآتٍ مَخصوصةٍ لِكَي تَحجُزَ[2] بين كلِّ فَردٍ من أُولئك المَجمُوعاتِ . و (بَينَ) الإخلالِ بِشَيءٍ مِن ذلِكَ النِظامِ فَتَجرِيَ العُقوبةَ في ما شَرَعَهُ ذلِكَ النِظامُ لِمُخالِفٍ وتَفيضَ مُكافأةً في ما شَرَعَهُ ذلِكَ النِظامُ لعامِلٍ

والحكوماتُ الّتي مَرَّتْ في عُصورِ العُمرانِ الأُولَى كانَت على بَيِّنَةٍ مِنْ أنّ لها صِلةً بالدِّينِ . فَلَم تَكُنْ حكومةٌ بلا دِينٍ . ولكِنَّ الأديانَ الّتي اُعْتَرَفَتْ بها الحكوماتُ لَيسَتْ جميعاً من مَصدرٍ واحِدٍ فَمِنْها ما هُوَ حَقٌّ ومنها ما هو باطِلٌ فكانَ دِينُ الناسِ أَوَّلاً حَقّاً بتَوحيدِ الله كما يُروَى عن الدُّوَلِ المِصْرِيّةِ الأُولَى .[2] ثُمَّ عَرَضَ الشِرْكُ وعَبَدَ الناسُ

---

(١) مضادّة (٢) جاء ذلك البيان في كتاب حكمة المشرقيين

الحَيَوانَ وصَنِيعَ أَيدِيهِم مِن أَنصاب . ثم عادَ كثيرونَ إِلَى الصَّوابِ وتَرَكوا الزَّيغَ . واللهَ نَسأَلُ أَنْ يَهدِيَ الجَمِيعَ الى حَقِّ عِبادتهِ لِخَيرِ العالَمِينَ جَميعاً فَإِنّ ائتمارَ الناسِ جَميعاً بدينٍ حَقٍّ أَشرَفُ مَسؤُول وأَكرَمُ مَرْجُوّ

والرَّأْيُ فِي صِلَةِ الحكومةِ بِالدِّينِ جاءَ على وُجُوهٍ . فَأَوْجَبَت حُكوماتٌ أَن يَكونَ دِينُ الحاكِم الأَعلى في المَملكَةِ دِيناً لِكُلِّ فَردٍ مِن مَجموعها . وقد حاوَلَت هٰذِهِ الحكوماتُ أَن تُؤَيِّدَ مَبْدَأَها بالقُوَّةِ . فَأَجازت أَن يَقعَ أَشَدُّ العِقابِ عَلَى مَن أَبَى [1] الامتِثالَ لِهٰذا القَضاء فَأَخفَقَت [2] سَعْياً . فَإِنَّ مُلوكَ بابلَ لم يُفلِحوا فِي مَحوِ دِينِ مُوسَى من قُلوبِ أَبناء يَعقوب . ولا أَفلحَ السَّلوقيُّونَ [3] في تَحويلِ ذٰلِكَ الشَّعْبِ عَن عِبادَةِ يَهْوَه . ولا أَفْلَحَ الرُّومانيُّونَ فِي مَنعِ الناسِ عن اعتِناقِ دِينِ عِيسى مَعَ ما أَظْهَروهُ مِنَ الشِدَّةِ والبَطْشِ الذَّرِيعِ [4] . ولا تَمَكَّنَ مُشرِكو مَكَّةَ مِن

---

(١) رفض (٢) لم تنجح (٣) السلوقيون ملوك سورية عقيب الاسكندر المكدوني و يسمون الانطيوخيين ايضا نسبة الى انطيوخوس ابن سلوقوس (٤) اي فظيع

إخفاء دين محمد. وكل تدبير ظهر بطلانه[1] قديماً فهو باطل الآن وفي المستقبل أيضاً.

وحسن عند حكومات أن يكون دين الحكومة مجموع أديان شعوبها فكان الغزاة الرومانيون ينقلون الى رومية آلهة كل أمة تغلبوا عليها فنجم[2] عن ذلك استحواذ[3] الفوضى في المعتقدات الدينية فتضاربت شعائر الدين وتناقضت سننه. ولما كان ورود التعارض بقولين على الامر الواحد يوسع للعقل الصحيح أن يقر بأنهما لا يكونان سواء في الصحة لأن الصحة لا تكون في وقت واحد في قولين متناقضين. وكان من جراء هذه الفوضى أن الدين أمسى عند بعض الرومانيين أثراً يؤخذ عن الآباء لا حقيقة يجب الاعتصام بها. فاستقر الدين وهو بحسب الواجب حقيقة الحقائق عند أتباع هذا المبدإ أمراً عرضياً وبئست النتيجة هذه

وذهب فريق الى أن من صلاحية الحكومة أن تختار

---

(١) سقوط حكمه　(٢) حدث　(٣) غلبة

لها دِيناً أَو مَذْهَباً وتَتَّخِذَ مَنهَجَها اتِّباعَ شَعائِرِهِ وسُنَنِهِ ولا يَمنَعُها ذلِكَ أَن تحتَرِمَ شَعائِرَ الأَديانِ والمَذاهِبِ الاخرَى ولاَ تَرَى بَأْساً أَن يعتَنِقَ تِلكَ الأَديانَ ويَنضَوِيَ إِلى تِلكَ المَذاهِبِ مَنِ اقتَنَعَ بِصِحَّتِها عَلَى شَرِيطةِ أَن تكونَ تِلكَ الشعائِرُ والسُنَنُ لا تُعارِضُ شَعائِرَ دِينِ الحكومةِ وسُنَنَهُ فإِن وَقَعَ تَعارُضٌ فَدِينُ الحكومةِ أَو مَذْهَبُها يُعْمَلُ بِهِ ولا يُعمَلُ بِما عارَضَهُ لِأَنَّ دِينَ الحكومةِ لَهُ الأَفْضَلِيَّةُ

وعَلَى هذا النَّهجِ تَمَشَّتِ الحُكومَتانِ البريطانيَّةُ والأَميركِيَّةُ . فالأُولى حَجَزَت بَينَ هُنودٍ مِن أَتباعِها وإِحراقِهِم نِسوةَ المَيْتِ عَقِيبَ وَفاتِهِ . فَلَمْ تَسوِّغْ ذلِكَ لِمُعارَضَتِهِ دِينَ المَمْلَكَةِ . ولم تُجزْ لِلْمَلِكِ ولاَ لِزَوجَتِهِ الْخُروجَ عَنِ المَذهَبِ الأُسقُفِي . (١) فَإِن اقتَنَعَ ضَمِيرُهُ بالمَذهَبِ البابَوِيّ وَجَبَ عَلَيهِ أَن يَتَخَلَّى عَنِ العَرْشِ . فان المَلِكَ لَيسَ لَهُ ان يَعتَنِقَ مَذهَباً خلا مذهَبَ المَمْلَكةِ

(١) المذهب الاسقفي هو المذهب الذي تسير على ترتيبه الحكومة الانكليزية الآن

الرسمي * والثانية[1] تمنع كل من له زوجتان فأكثر من الاستيطان في بلادها . فاما أنه يكتفي بواحدة او تعيده من حيث جاء . وتمنع العمل يوم الأحد فمن تجرأ على العمل فيه ولو كان يهوديًا غرمته . بل يمنع بعض مدنها سير المركبات في ذلك اليوم .

وهذا ما أراه صوابًا فلأمتنا أن تختار دينًا رسميًا هو ولا مشاحة الدين الإسلامي لأن معظم الشعب منه . وله المنزلة العليا بثروته ومفاداته وجهاده في تحرير الأمة فتكون الاعياد العمومية أعياده والشعائر والسنن شعائره وسننه . فلا تعارض بشعائر وسنن لدين آخر . وبناءً على ذلك لا تمنع شعائر وسنن الدينين المسيحي والموسوي لأنها لا تعارض شعائر دين الإسلام ولا سننه بحيث لا وجه للتوفيق . فإذا اتفقت الكلمة على هذا المبدإ كان الرباط الولائي بين أبناء الأمة متينًا مبشرًا بنجاح لا يذبل روضه ولا ينفد حوضه

---

(١) اي الولايات المتحدة الاميركية

وَفِي كِتابِيَ هٰذا مِن الأَبحاثِ فِي شؤُونِ الدِينِ والحكومةِ ما يُنيرُ البَصائِرِ . ويُنعِشُ الضمائِرِ . ويَحُضُّ عَلى حَياةِ البرِّ والمآثِرِ . ويفتحُ أَبوابَ السعْيِ في جَوادِّ (١) الفَضلِ والمَفاخِرِ . واللهَ اسأَلُ أَنْ يتقَبَّلَهُ خالِصاً لِوَجهِهِ الكَرِيمِ . ويَغفِرَ لي ما كَبا (٢) بِهِ الفِكرُ قصورًا فإِنَّهُ الغَفورُ الرحيم .

الفصل الأَوَّل

وُجودُ اللهِ تعالى

مرَّ عَلَى وُجُودِ هٰذا الكَونِ أَزمِنةٌ يَعُدُّها أَهلُ التدَيُّن من صُفوة (٣) العُلَماءِ أُلوفَ سِنين . ويَعُدُّها فَريقٌ آخرُ مَلايِينَ سِنِين *وعَلَى كِلا القَولَينِ أَسأَلُ . إِن كانَ في خِلالِ تِلكَ الحِقابِ (٤) الطِوالِ حَدَثَ أَنَّ دارًا ما قامَ بُنيانُها على أَحكَمِ أَساس وازدانت غُرَفُها (٥) بالرِياشِ (٦) الفاخِرِ دونَ

---

(١) جمع جادة وهي معظم الطريق و وسطه (٢) سقط (٣) الخالص (٤) جمع حقب وهو الدهر (٥) جمع غرفة اي العليَّة (٦) هو ما كان متاعًا من لباس او حشواً من فراش او دثار

أَن يكونَ عاملٌ أَو عُمَّالٌ فِي إِيجادِ ما وُجِدَ مِنها أَو فيها

هَلْ حَدَثَ مُنذُ أَقدَمِ عَهْدٍ مَرَّ عَلَى الأَرضِ أَنَّ تُرْبَةً صالحةً لِلزراعةِ أَنبَتَت من نَفسِها بُرًّا[1] ثُمَّ تجَمَّعت غِلالُ ذلِكَ البُرِّ مِن نَفسِها في أَهْواءٍ[2] . أَو تفَتَّتَتْ فَصارت دَقيقاً دُونَ أَنْ يكونَ ذلِكَ التَّفَتُّتُ عَن عامِلٍ

هَل حَدَثَ أَنَّ وَرَقَ التُّوتِ الَّذِي مِنهُ مادَّةُ الحَرِيرِ صارَ مِن تِلقاءِ ذاتِهِ[3] حَرِيرًا دُونَ أَن يَأْكُلَهُ دُودُ القَزِّ ثُمَّ يَستَخرِجَ مِن جَوفِهِ خُيوطاً يَنسِجُها فَيالج (شرانق) ثُمَّ تُحَلَّ تِلكَ الفَيالِجُ بِوَسائِلَ مَخصوصةٍ فَتمتَدَّ خُيوطاً يكونُ بَعضُها سُدًى وبَعضُها الآخَرُ لُحمَةً[4] . وعَنِ التَّأْليفِ بَينَهما بِأَدواتٍ يَصيران نَسيجاً واحِدًا وتَمتَدُّ الأَيدي إِلى هٰذا النَّسيجِ فَتَصنَعُ منهُ ثَوْباً يُكتَسَى بِهِ

هَل حَدَثَ مَرَّةً ما أَنَّ الطَبيعةَ أَوجَدَت آنيةً لِلشَّرابِ

---

(١) قمحا (٢) جمع هُرِيٍّ وهو بيت تخزن فيه الحنطة

(٣) اي مختاراً غير مسوق اليهِ (٤) السدى ما مُدَّ من خيوط الثوب في النسج . واللحمة ما نسج في الثوب عرضاً

ذاتَ أَفواهٍ وَعُرًى[1] أو جَعَلت لها أَغطِيَةً

هَلْ حَدَثَ أَنَّ الطَّبِيعةَ مِن تلقاءِ نَفسِها نَقَّت أَرضًا من حِجارَتِها وحَرَثتها حَرثًا ذا أَثلامٍ[2]. أَو شَذَّبت[3] أَغصانَ شَجَرةٍ أَو جَفْنةٍ[4] عِنَبٍ أَو لَقَّحت شَجَرًا بَرِّيًّا كالبَطمِ بِما هُوَ شَجَرٌ أَهْلِيٌّ كالفُستُقِ فَأَعطى ثَمَرًا جَيِّدًا بَعد ما كانَ عَقيمًا[5] مِنَ الثَّمَرِ أَو رَدِيَّ الثَّمَر

بَل هَل حَدَثَ أَو فِي الإِمكانِ أَنْ يَحْدُثَ أَنَّ بَيتًا يَسلَمُ رِياشُهُ مِن أَذى الغُبار والعُثِّ ولا يكونُ آهِلًا بِمَنْ يَتَعَهَّدُ ذَلِكَ الرِياشَ فَيُزيلَ عَنهُ الغُبارَ الذي تَحمِلُهُ الرِياحُ الدائمةُ الهُبوب رَهْوًا[6] أَو عُنفًا

إِنَّ الاستِقراءَ أَي تَتَبُّعَ حَوادِثِ ما حَدَثَ يُنكِرُ أَن يكونَ شيءٌ مما ذُكِرَ آنِفًا قد وَقَعَ فِعلًا . والاستِدلالُ العَقلِيُّ يُنكِرُ أَن يكونَ شَيءٌ مِن ذلِكَ مُمكِنَ الحُدوثِ

---

(١) جمع عُروة وهي من الاناءِ اذنهُ ومقبضه (٢) الثلم شق في الارض تحدثه سكة الفلاح وجمعه اثلام (٣) التشذيب قطع ما على الشجرة من الاغصان (٤) واحدة الجفن اي اصل الكرم — الدالية — (٥) اي لا ثمر له (٦) الرهو اللين

فيما مَضَى والآنَ والمُستَقبَل

وذلك لأَنَّ العَقلَ السَليمِ يُسَلِّمُ بصِحَّةِ أَوَّليةٍ أَي حقيقةٍ لا يَعرِضُ رَيبٌ عليها بَتَّةً لا عَن بَحثٍ عقَليّ ولا عَن واقِعٍ حِسيّ وهذِهِ الاوَّليَّةُ هي

إِنَّ كُلَّ مَوجودٍ فَلَهُ مُوجِد

لا يَحِلُ النَّسيمُ الى أُذنٍ صَوتًا رَخيماً ذا تواقيعَ شائقةٍ[1] إلاَّ إذا كانَ مُصَوِّتٌ يَقومُ بتَكييفِ ذلكَ الصَّوتِ عَلَى تلكَ التَّواقيعِ الَّتي تُنعِشُ النُّفوسَ بعُذوبةِ تَناسُقِها وذلكَ المُصَوِّتُ مَوجودًا. واما كونُهُ إِنسانًا أَو أَداةً كَعُودٍ او قانونٍ او قيثارةٍ فَلَيسَ من مَوضوعِ كَلامِنا. وإِنما نَحتَجُّ بأَنَّ الصَوتَ المَوجودَ صَدَرَ عن عامِلٍ موجود. فلا يَكونُ مَوجودٌ إلاَّ عن مَوجود خَلاَ اللهَ الواجبَ الوجود

لا يَحمِلُ النَّسيمُ نفحةً طَيِّبةً إِلاَّ إذا مَرَّ بِبُستانٍ فيهِ رَياحينُ أَو أَشجارٌ زَهَرُها في إِبَّانِهِ[2] أَو بإِناءٍ فيهِ مادَّةٌ عطِرة

---

(١) اي تسبب شوقا اي بهجة (٢) الابان الحين

فكل أثر يدل على صاحبه وهذا ماذهب إليه أهل الروية والعلم . فقال أحد الأقدمين « تدل البعرة على البعير وأثر القدم على صاحب المسير » وقال الشاعر

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما دلالة كل أثر على صاحب الأثر إلا وجه من وجوه القاعدة القائلة « إن كل موجود له موجد » والتسليم بوجه من قاعدة يستلزم التسليم بالقاعدة التي لها ذلك الوجه

فلا بد من التسليم بأن الشيء الموجود ثمرة ، والموجد له بمثابة أصل له وبناء على ذلك فلا بد من التسليم بما يأتي

١) كل ثمرة عن أصل جاء بها

٢) اذا وجدنا ثمرة فلا بد لنا من التسليم بأن لها أصلاً جاء بها . واذا لم يكن أصل فلا تكون ثمرة

إذن

إذا كان موجود فلا بد من موجد وان لم يكن موجد فلا يكون موجود . ومن البديهي أن الانسان موجود فلا

بُدَّ مِنَ التَّسليمِ بأَنَّ لهُ مُوجِدًا . فَلِلْإِنسانِ مُوجِدٌ لا بُدَّ مِنَ التَّسليمِ بِوُجُودِهِ

والتَّسليمُ بِوُجودِهِ يَقْتَضِي أَنْ نُسَلِّمَ بِتَسْمِيَتِهِ فهو يُدعى إِلهًا أو رَبًّا أَو خالِقًا فَإِنَّ العِبرَةَ [١] بمَدلولِ الاَسْمِ لا بلَفْظِ الاَسْمِ الدالِّ عليهِ فإِنَّ المَعنى هو المَقصودُ مِنَ الكَلامِ لا لَفظُهُ فليَدْعُهُ مَن شاءَ خالقًا أَو صانِعًا أَو مُنْشِئًا أَو بارِئًا أَو مُبدِعًا أَو فاطِرًا فَهُوَ هُوَ جَلَّ ثَناؤُهُ ولا يُؤَثِّرُ على أُلوهتِهِ أَنَّ أَسماءَهُ مُتَعَدِّدة .

الفصل الثاني

الانسان جسد وروح ونفس

وُجُودُ كُلِّ موجودٍ إِمَّا مادِّيٌّ هَيولِيٌّ [٢] أَي ذو مادَّةٍ محسوسةٍ كالحَجَرِ والشَّجَرِ مَثَلًا أَو غَيرُ هَيُولِيّ أَي غيرُ مادّيّ لِأَنَّهُ أَدقُّ مِنَ المادَّةِ المحسوسةِ فيُدرَكُ بالشُّعورِ العَقْلي .

---

(١) الاسم من الاعتبار وهي بمعناه (٢) نسبة الى الهيولى وهو كلّ ما يدرك بالحواس الخمس

فالماديُّ كلُّ شيءٍ يتمكّنُ الإنسانُ مِن معرفتِهِ عن طَريقِ الحواسِّ البشريَّةِ الظاهِرةِ عياناً وهي العينُ والأُذنُ والأنفُ والفمُ واليدُ . فالعينُ ترى الألوانَ كالبياضِ والسوادِ في الأبيضِ والأسوَدِ والقَطْعَ ضخماً أو دقيقاً في المقطوعِ حِسّاً أو اعتِباراً . والأُذْنُ تَسمعُ الأصواتَ رفيعةً أو خافِتةً[1] ومُطرِبةً أو مُحزِنةً . والأَنفُ يستنشقُ الرَّوائِحَ ذكيَّةً أو كريهةً وصادِعةً أو ضئيلةً[2] . واليدُ تلمِسُ الأشياءَ خشِنةً أو ناعِمةً . والفَمُ يذوقُ ما يدخُلُ الى الجَوفِ فيُميِّزُ الحُلوُ والمُرَّ والمُزَّ والحامِض

ويُسمَّى عقليّاً كلُّ شيءٍ قامَ دَليلٌ على وُجودِهِ وعجزَت هذهِ الحواسُّ عن إِدراكِهِ لِأنَّهُ أَدقُّ من أَن يَقعَ تحتَ سيْطرَتِها كَعُذوبةِ المعاني . فالفرقُ بينَ معنى قولِ القائل

(١) الصوت الخافت هو المخفوض (٢) الضئيل النحيف أي الذي أثره ضعيف والصادعة القوية

هَيهاتِ أَن يَحْنُو حَبيبٌ على
صَبٍّ(١) وَهَلْ تَحنُو الصُّخورُ الصِلابْ

وقول الآخر

أَمرُّ بِالحَجَرِ القاسي فَأَلْثِمُهُ
لِأَنَّ قَلْبَكَ قاسٍ يُشْبِهُ الحَجَرَا

لا يُدرَكُ بِالعَينِ ولا بِالأُذنِ ولا بِاليَدِ ولا بالأَنفِ ولا بِالفَمِ

ومِن هذا المعنويِّ أَيضاً إِدراكُ كَيفَ يَكونُ عَنِ السَّمادِ(٢) الجَيّدِ نُموُّ المَزروعات . فإِنَّ تَفَكُّكَ مُرَكَّباتِ السَّمادِ إِلَى أَجزاءٍ وَكَيفَ تَتَناوَلُ المَغروساتُ مِن تِلكَ الأَجزاءِ ما تَغتَذي بِهِ فَتَنمو باغتِذائِها بِهِ مِمَّا لا تَقْدِرُ(٣) الحواسُّ الحِسيّةُ أَن تُدرِكَهُ ولَكِنَّ القُوَى العَقليَّةَ تُدرِكُهُ الإِدْراكَ التامَّ وتُسَلِّمُ بِهِ كَمَا تُسَلِّمُ بِمُدرَكَاتِها عن طَريقِ الحواسِّ الحِسيَّة

---

(١) عاشق (٢) هو كل مادة تضاف الى التربة لاصلاحها وزيادة خصبها مثل السرقين والزبل (٣) تقوى

ولمّا كانتِ اليَدُ والعَينُ والأَنفُ والأُذنُ والفَمُ من الموادّ المحسوسةِ كانت أَعمالُها محسوسةً. فخاصةُ كلّ شيءٍ تابعةٌ لِذلِكَ الشيءِ فاللّمسُ خاصةُ اليَدِ والبَصَرُ خاصةُ العَين. والشَمُّ خاصةُ الأَنف. والسَّمْعُ خاصةُ الأُذنِ. والذَّوقُ خاصةُ الفَمِ. فَإِن بُتِرَت يَدٌ ذَهَبت قوّةُ اللَّمسِ منها وان فُقِئَت عَينٌ ذَهَبت قوّةُ النَّظرِ منها وان صُمَّتْ أُذنٌ فَقَدَت قوّةَ السَّمْعِ.

فَلَنا أَن نَقولَ: إِنَّ خاصةَ كُلّ شيءٍ تُوجَدُ ما وُجِدَ ذلِكَ الشَّيْءُ سلِيماً فَإِنْ أَصابَهُ فقدٌ تَفقَدْ خاصتُهُ وان وَقَعَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ فكلُّ ضَرَرٍ لَهُ حَدٌّ وتَمتَنِعُ خاصةُ ذلِكَ الشَّيْءِ عَنِ العَمَلِ بِمقدارِ امتِدادِ الضَّرَرِ الواقعِ عَلَيهِ

وإِذا قُلنا: إِنَّ حاسَّةَ اللَّمْسِ تُدرَكُ باليَدِ وبغيرِ اليَدِ كالخَدِ مَثَلاً فَذلِكَ حاصِلٌ عَنْ أَنَّ خاصةَ اللَّمسِ تَشتَرِكُ بِها أَعضاءٌ مُتعَدّدَةٌ ولكِنَّ اليَدَ أَقوى تِلكَ الأَعضاء في تِلكَ الخاصَّةِ أَو أَنّها أَكثَرُ الأَعضاء تَصرُّفاً بِتِلكَ الخاصةِ

وَوُجُودُ الخاصَّةِ يُنبِئُ عَنْ وُجودِ صاحبِ الخاصَّةِ

حَتْماً فإنَّنا لَو رَأَينا رَجُلاً مُغْمِضاً عَيْنَيهِ وشَرَعَ يَتَكَلَّمَ في أَشْياءَ حِسيَّةٍ تُعْرَضُ عَلَيهِ ولَمْ يكُن عالِمًا بأَمرِها قَبْلاً فَيَقولُ الشيءُ الفُلانيُّ أَسوَدُ والشيْءُ الفُلانيُّ أَبيضُ والشيءُ الفُلانيُّ زَهرٌ حَقِيقِيٌّ والشَّيءُ الفُلانيُّ زَهرٌ صِناعيٌّ أَي نَسِيجٌ يُمَثِّلُ زَهرًا وهٰـذا القَريبُ على مِثالِ الهَرَمِ وذٰلِكَ البَعيدُ عَلَى مِثالِ الأُسْطوانَةِ[١] لَقُلْنا : إِنَّ الرَّجُلَ لَهُ عَينانِ صَحيحتانِ لِأَنَّ التَّميزَ بَينَ الأَلوانِ والمُشابَهاتِ والهَيئاتِ آتٍ عن طَريقِ البَصَرِ . والبَصَرُ لا يكونُ إِلاَّ بالعَينِ فَدَلَّ الحاصِلُ بالإِبصارِ عن وُجُودِ البَصَرِ وهٰذا عَن وُجودِ العَينِ سَلِيمَةً

فإِذا كانَ في الإِنسانِ شُعورٌ مَعْنَوِيٌّ يَحدُثُ عن غيرِ الحَواسِّ الخَمسِ الحِسيَّةِ فذٰلِكَ دَليلُ أَنَّ في الإِنسانِ مَوجودًا لا يَنْدَرِجُ تَحتَ حُكْمِ تِلكَ الحواسِّ الخَمْس

وإِذا أَرَدْنا أَن نَعرِفَ ما هُوَ هٰذا المَوجودُ وَجَبَ عَلَينا أَن نَعرِفَ خاصَّتَهُ جَيِّدًا أَو أَن نَعرِفَ ما يَقَعُ عن خاصَّتِهِ

---

(١) السارية تكون من بناءٍ بخلاف العمود فانه من حجر واحد

فإِنَّ ما يَقعُ عن خاصَّتِهِ يهدينا الى خاصَّتِهِ. ومتى اهتدَينا الى الخاصَّةِ عرَفناهُ. واذا كانَتْ خاصَّتُهُ عقليَّةً كان ولا رَيبَ عقليًّا لِأَنَّ الخاصَّةَ تتبَعُ ما تخصصَتْ بهِ ولا يأْتي العَقْليُّ إِلاَّ عَنِ العقْليّ أَما الحِسيُّ فيأْتي تارةً عن الحِسّي وتارةً عَنِ العقلي

الشُّعور العَقليُّ مِن شأْنِهِ البَقاء فشعورُنا بأَنَّ قولَ الشاعر

العِلمُ زَينٌ وتَشريفٌ لِصاحبِهِ
فاطلُبْ هُدِيتَ فنونَ العِلمِ وَالأَدَبا

قَولُ حِكمةٍ صَحيحُ المَورِدِ واجبُ القَبولِ يُلازِمُنا ما دامَت قُوانا العَقليَّةُ سَليمةً مِن الشَّوائِبِ. فلا يَكونُ تَسليمُنا بِصحتِهِ اليومَ مَتبوعًا بإِنكارِهِ غدًا. فنستَنتِجُ مِن ذلِكَ أَنَّ مَصدَرَ هذا الشُّعورِ باقٍ عَلى حالٍ غيرِ مُتغيِّرَةٍ. فلا يَذهَبُ مِنَ الفِكرِ. بخِلافِ الحِسّيّ فإِنَّ شُعُورَنا بلذَّةِ مأْكَلٍ أَو بجَمالِ منظَرٍ او بنفحةٍ طَيِّبةٍ يَنقَطِعُ ولا يَدومُ. فإِذَن من شأْنِ مَصدَرِ الشُّعُورِ العقليّ

الدَّوام * ومَصدَرُ الشُّعورِ العَقلِي أُطلِقَ عَليهِ عِندَ بَعضِ أَهلِ الدينِ والعِلمِ الرُّوحُ . وعِندَ البَعضِ الآخرِ النَّفْسُ (١)

---

(١) يُطلق على نسمة الحياة الناطقة اسم روحٍ في التوراة فورد في سفر التكوين « وهذهِ ايام سني ابراهيم التي عاشها . مئة وخمس وسبعون سنة واسلم ابراهيم روحهُ ومات بشيبة صالحة » (٢٥ : ٨) وجاء ايضا واسلم اسحاق روحهُ ومات (٣٥ : ٢٩) وورد في سفر الجامعة عن وفاة الانسان «فيرجع التراب الى الارض وترجع الروح الى الله الذي اعطاها » (جامعة ١٢ : ٧)

وفي الانجيل ورد في المعجزة التي صنعها السيد المسيح باحياءِ ابنة يايرس المائتة انه «امسك بيدها ونادى قائلا ياصبية قومي . فرجعت روحها وقامت في الحال» (لوقا ٨ : ٥٥)

وفي القرآن شواهد جمَّة على هذهِ التسمية وقد رأيتُ أن أورد من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ما فيه كفاية ومقنع فانظر ما يرد عقيب هذا الفصل

ويطلق على نسمة الحياة الناطقة اسم نفس بدليل قول سليمان الحكيم في امثاله «كون النفس بلا معرفة ليس حسناً» (امثال١٩:٢)

وقال أيضا « هذهِ الستة يبغضها الله وسبعة هي مكرهة نفسهِ : عيون متعالية . لسان كاذب . ايدٍ سافكة دماً بريئاً . قلب ينشئ أفكاراً رديئة . ارجل سريعة الجري الى السوءِ . شاهد زور يفوه بالا كاذيب . وزارع خصومات بين أخوة »(امثال ١٦:١٦) وكل ما يُنسب الى الله منزَّه عن ان يكون زائلاً او حسيًّا

وفي الانجيل آيات كثيرة على ان نسمة الحياة الناطقة تدعى نفساً

وفي الأَشهرِ تعارُفاً أَنَّ الموسويين والمسيحيين يدعون مَصدرَ هٰذا الشعورِ نَفْساً وأَنَّ المسلمين يَدعونَهُ رُوحاً فالإِختلافُ في التَّسميةِ لا في المُسمَّى فهو اختلافٌ في الاصطلاحِ لا في الحَقيقةِ والعِبرةُ بالحَقيقةِ فهيَ واحدةٌ على تَعدُّد التَّسميةِ ومتى تَفاهمَ المُختلِفانِ اصطلاحاً ارتفعَ اللَّبسُ(١) مِن كلامِهما

فللإِنسانِ بِمُقتضَى إدراكِهِ الحِسِّياتِ بأَعضائِهِ المحسوسةِ قِوامٌ حِسِّيٌّ هُوَ الجَسَدُ ويُسمّى أَيضاً البَشْرَةَ والهَيْكَلَ الإِنسانيَّ. ولَهُ أَيضاً بِمُقتضَى إِدراكِهِ العَقليَّاتِ بقُواهُ العَقليَّةِ قِوامٌ مَعنَويٌّ هُوَ النَّفسُ باصطِلاحِ البَعضِ والرُّوحُ باصْطلاحِ البَعضِ الآخَرِ

وَجَسَدُ الإِنسانِ مُؤَلَّفٌ من أَعضاءٍ هيَ الرأْسُ واليدانِ والوَسَطُ والرجلانِ وهٰذا التأَلُّفُ لا يكونُ إِلاَّ برابطٍ أَو رَوابطَ تجعَلُ بينَها وَحْدَةً للقيامِ معاً بالعَمَلِ الواحدِ . وهٰذهِ

منها « قائلين غاية ايمانكم خلاص النفوس » (بطرس ١ : ٩)

(١) الاشكال

الوَحدةُ موجودةٌ . ودليلُ وُجودِها مُشاهَدٌ عياناً . فإنَّ الرِجلَ إذا تأَلَّمَت تنقبضُ اليَدُ عن العَمَل . واذا تأَلَّمَ الرأسُ عَمَّ الشعُورُ بالأَلَمِ في مجموعِ الهيكلِ . حَتَّى تضطَرِبُ الأَعضاءُ كُلُّها . وهذا الشُّعورُ حادِثٌ عَن خُروجِ الدَّمِ في جَرَيانِهِ عن نَهجِهِ السَوِيِّ . فانَّ اللَّطْمَةَ إذا وَقَعَت على عُضْوٍ ما ضَغَطَت على مَجاري الدَّمِ في ذلِكَ العُضوِ . وعَن حُدوثِ الضَّغْطِ الأَلَمُ . عَلَى مِقدارِ تأَثيرِ الضغْطِ . وبانتِقالِ الدَّمِ إلى بَقِيَّةِ الأَعضاءِ يَنْتَقِلُ الأَلَمُ إلى بَقِيَّةِ الأَعضاءِ . فَاشتِراكُ الأَعضاءِ هُوَ بالتأَثُّرِ الواحِدِ عَنِ الدَّمِ فالدَّمُ هو الرابطةُ بَينَ أَعضاءِ الجَسَدِ كلِّهِ فهو رُوحُ الجَسَدِ في قولٍ ونَفسُ الجَسَدِ في قَولٍ آخَرَ (١)

---

(١) هـذا قولٌ ويورد آخرون قولاً آخر هو ان قوَّة الشعور في الدماغ فكلٌّ تأثرٍ منه مصدرُهُ وبين قوة الشعور في الدماغ وكل عضوٍ في الجسد رابطة تصلهُ بها فاذا عرض على عضوٍ مؤثر تأثرت قوة الشعور التي في الدماغ وهذه الرابطة ولا ريب الدم

والقول ان الدم نفس الجسد ورد في التوراة ففي سفر الاحبار «كل انسان من بيت اسرائيل ومن الغرباءِ النازلين في وسطكم يأ كل

يَلُوكُ الفَمُ الطَّعامَ وَتَهْضِمُهُ المَعِدَةُ فما كَانَ خُلاصةً أَرْسَلَتْهُ المَعِدَةُ إِلَى القَلْبِ دَماً . وما لم يَكُنْ خُلاصةً أَرْسَلَتهُ إِلى الجَوفِ نُفايةً . والقَلْبُ يُرسِلُ الدَّمَ الى جميعِ الأَعضاءِ فَيُغَذِّيها فَإِنِ امتَنَعَ الفَمُ عَنْ أَن يَلُوكَ طَعاماً فلا

دماً أجعل وجهي ضدَّ النفس الآكلة الدم واقطعها من شعبها لان نفس الجسد هي في الدم . . . ثم يقول لان نَفسَ كل جسد دمهُ هو بنفسه . (١٧ : ١٠ — ١٥) والمسيحيون يسلمون بصحة هذا وفي سفر اعمال الرسل القرار الجازم بمبلغ اكل الدَّمِ (١٥ : ٢٠) عن هذا الاعتبار عينهِ

وفي ما سيرد من كلام الامام الغزالي في هذا الشأن كفاية وهذا تنبيه اليه

وممَّا يجب ذكرُهُ أمران الأول : انَّ الأصلَ ان يُفرق بين المسمَّياتِ بالاسماء فكلُّ مُسمًّى له اسمٌ فاذَنْ مَن دعا مصدر قوة الشعور الناطقة روحاً يدعو القوة التي هي قوام الجسد نفساً ومن دعا الأولى نفساً دعا الثانية روحاً . الثاني : ان الغيرية بين النفس والروح ثابتة فللحيوان احدهما وللانسان كلاهما وهي اللطيفة التي هي حقيقة الانسان. وفي آيات العهد الجديد : « ولتُحفَظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم (اتسالونيكي ٥ : ٢٣)

تَهْضِمُ المَعِدة شَيئاً ولا يكُونُ في إِمكانِ القَلبِ أَنْ يُرْسِلَ دَماً الى الأَعضاء فَتَشْعُرُ بانحِلالِ القُوى وَإِنِ استَمَرَّ ذلِكَ الانحِلالُ جاءَ دَورُ الخُمودِ فَتَهْبُطُ دَرَجةُ الحَرارةِ ومِن وَراءِ ذلِكَ إِن دامَ مَوتٌ مَحْتومٌ . وكَذلِكَ ما يَحدُثُ عَنِ الزَّمْهَريرِ الشَّديدِ فإِنَّ الدمَ يَقِفُ عن مَجاريهِ فَيَحدُثُ المَوت. وإِنِ اقتَرَبَ الإِنسانُ مِن نارٍ شَديدةِ الاتِّقادِ يَغلُو دَمُهُ حتى يَخرُجَ مِن أَنفِهِ أَو مِن فَمِهِ ويَعْقُبُ ذلِك إِن ام تُؤْخَذِ الوَسائِلُ الفعَّالةُ هَلاكٌ . فالجَسَدُ حيٌّ ما دَامَ الدَّمُ جارياً في أَوْرِدَتِهِ وعُروقِهِ وشَرابينِهِ [1] بانتِظام .فالحَياةُ الجَسَدِيَّةُ مُنتَظِمةٌ ما دَامتِ الدَّورةُ الدَّمويَّةُ مُنتَظِمةً . لِذلِكَ نَرَى الطَّبيبَ يَجُسُّ يَدَ العَليلِ ليَعْرِفَ ما شَأْنُ دَورةِ الدَّمِ في جَسَدِهِ . فَرُوحُ الجَسَدِ هي الدَّمُ أَو قُوَّةٌ كامِنَةٌ في الدَّمِ

---

(١) الوريد عند الاطباء كل عرق يرجع فيهِ الدم من اطراف الجسم الى القلب جمعه اوردة . وعند الادباء عرق في العنق تحت الوداج ويقال له حبل الوريد . والشريان العرق النابض يجري فيه الدم من القلب الى اطراف البدن

﴿ تعليقة ﴾

(منقولة عن الجزء الثالث من كتاب احياء علوم الدّين
تأليف الامام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي [١])

بَيانُ مَعنَى النَّفْسِ وَالرُّوحِ والقَلبِ والعَقْلِ وما هُوَ المُرادُ بِهذِهِ الأَسامي

لَفظُ القلَبِ يُطلَقُ لِمعنَيَين . أَحدُهما اللَّحمُ الصَّنَوبَريُّ الشَّكلِ المُودَعَ في الجانبِ الأَيسَرِ منَ الصَّدرِ وَهوَ لَحمٌ مَخصوصٌ وفي باطنِهِ تَجويفٌ وفي ذلِكَ التَّجويفِ دَمٌ أَسودُ هوَ مَنبَعُ الرُّوحِ ومَعْدِنُهُ . . . وهذا القلبُ موجودٌ لِلبَهائِمِ بل هُوَ موجودٌ لِلمَيتِ . . . والثاني [٢] هُوَ لطيفة رَبَّانيَّةٌ روحانيــة لها بهذا القَلبِ الجسماني تَعلُّقٌ وتِلك

---

(١) نَقلتُ هذهِ التعليقة عن الامام المشار اليهِ لأن اطّلاعَهُ على دين الاسلام موثوق بهِ فلا يُقال ان كلامَهُ غير ثبت

(٢) هذا المعنى وارد عند الموسويين والمسيحيين أيضا وجاءَ في زبور داود النبي والملك « قَلْبا نَقيًّا اخلُقْ فِيَّ ياالله » (المزمور ٥٠) أي أعطني روحانيــة طاهرة لأن القلب المحسوس مخلوق في كل انسانٍ حيّ ولا يكون انسان بلا قلب محسوس

اللطيفةُ هِيَ حَقِيقَةُ الإِنْسانِ وَهُوَ المُدرِكُ العالِمُ العارِفُ من الإِنسانِ وهو المُخاطَبُ والمُعاقَبُ والمُعاتَبُ والمُطالَبُ وَلَها عِلاقةٌ مَعَ القَلبِ الجُسماني . وقد تَحَيَّرَتْ عُقولُ أَكثَرِ الخَلقِ في إِدراكِ وَجهِ عِلاقَتِهِ فانَّ تَعلُّقَهُ بهِ يُضاهِي تَعَلُّقَ الأَعْراضِ بِالأَجسامِ وَالأَوْصافِ بالموصوفات . أَو تَعَلُّقَ المُسْتَعمِلِ لِلآلَةِ بالآلَة . أَو تَعَلُّقَ المُتَمَكِّنِ بِالمَكان . . وإِنَّا إِذا أَطلَقْنا لَفظَ القَلبِ في هٰذا الكِتابِ أَرَدنا بِهِ هٰذِهِ اللطيفةَ وغَرَضُنا ذِكرُ أَوصافِها وأَحوالِها لا ذِكْرُ حَقيقَتِها في ذاتِها

الرُّوحُ وَهُوَ أَيضاً يُطلَقُ فيما يَتَعَلَّق بِجِنسِ غَرَضِنا لِمَعنَيَيْنِ . أَحَدُهما جِسمٌ لَطِيفٌ مَنبَعُهُ تَجويفُ القَلبِ الجُسْمانِيّ فَيُنشَرُ بواسِطَةِ العُروقِ الضَّوارِبِ الى سائِرِ أَجزاءِ البَدَنِ وجَرَيانُهُ في البَدَنِ وفَيَضانُ أَنوارِ الحَياةِ والحِسِّ والبَصَرِ والسَّمْعِ والشَّمِّ منها على أَعضائِها يُضاهي فَيَضانَ النُورِ من السِراجِ الذي يُدارُ في زَوايا البَيتِ فَإِنَّهُ لا يَنتَهي الى جُزءٍ مِنَ البَيتِ الاَّ ويَستَنيرُ بِهِ والحَياةُ

مِثالُها النُّورُ الحاصِلُ في الحِيطانِ والرُّوحُ مِثالُها السِراجُ. وسَرَيانُ الرُّوحِ وحَرَكَتُهُ في الباطِنِ مِثالُ حَرَكَةِ السِراجِ في جوانِبِ البَيتِ بِتَحريكِ مُحَرِّكِهِ. والأطبَّاءُ اذا أطلَقوا لَفظَ الرُّوحِ أرادوا بِهِ هذا المَعنَى وَهُوَ بُخارٌ[1] لَطيفٌ أَنضَجَتهُ حَرارةُ القَلبِ. والثاني. هُوَ اللَّطيفَةُ العالِمَةُ المُدرِكَةُ مِنَ الإِنسانِ وَهُوَ الذي شَرَحناهُ في أَحَدِ مَعاني القلب[2] وهُوَ الَّذي أَرادَهُ اللهُ تَعالى بِقولِهِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبِّي وَهُوَ أَمرٌ عَجيبٌ رَبَّانِي تَعجِزُ أَكثَرُ العُقولِ والأَفهامِ عن دَركِ حَقيقتِهِ

النَّفْسُ وَهُوَ أَيضاً مُشْتَرَكٌ بَينَ مَعانٍ وَيَتَعَلَّقُ بِغَرَضِنا مِنْهُ مَعْنَيان. أَحَدُهُما أَنَّهُ يُرادُ بِهِ المَعنَى الجامِعُ لِقُوَّةِ

---

(١) البخار جسم غازيٌّ مَرِن يتحوَّلُ من سائل او جامد بقوة الحرارة ويمكن ردُّهُ الى اصلهِ بالتبريد. وما يسطع من الماءِ الحار يرى فوقَهُ كالضباب اللطيف (٢) هذا ما ذهبتُ اليه في ان الاشهر عند العلماءِ المسلمين أن تدعى القوة التي هي مصدر الشعور العقلي روحاً كما أوردت في الفصل السابق « امين »

الغَضَبِ والشَّهوةِ فِي الإِنسانِ عَلَى ما سَيَأْتِي شَرحُهُ[1] وهٰذا الاستِعمالُ هو الغالِبُ على أَهلِ التَّصوُّفِ لِأَنَّهم يُرِيدونَ بِالنَّفْسِ الأَصلَ الجامِعَ لِلصِفاتِ المَذمومةِ مِنَ الإِنسانِ فَيَقولونَ لا بُدَّ من مُجاهَدَةِ النَّفْسِ وكَسْرِها وإِلَيهِ الإِشارَةُ بِقَولِهِ عليه السلام أَعدى عَدُوِّكَ نَفسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيك .

والثاني: هِيَ اللطيفةُ الَّتي ذَكَرْناها الَّتِي هِيَ الإِنسانُ بِالحقيقة[2] وَهِيَ نَفسُ الإِنسان وذاتُهُ ولٰكنَّها تُوصَفُ بأَوصافٍ مُختَلِفةٍ بِحَسَبِ اختِلافِ أَحوالِها فاذا سَكَنَت تَحتَ الأَمْرِ وزايَلَها الاِضطِرابُ بِسَبَب مُعارَضَةِ الشَّهواتِ سُمِّيَتِ النَّفْسَ المُطْمَئِنَّةَ قالَ اللهُ تَعالَى فِي مِثلِها « يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ ارجِعي الى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً » والنَّفْسُ بالمَعنَى الأَوَّلِ لا يُتَصَوَّرُ رُجوعُها إِلى اللهِ تَعالى

---

(١) الى هذا المعنى اشرت فى الفصل السابق ان علماء الاسلام يدعون القوة الحيوانية نفساً (٢) هذه التسمية هي التسمية التي يعدُّها الموسيون والمسيحيون التسمية الفضلى

فإنّها مبْعَدَةٌ عَن اللهِ وَهِيَ من حزبِ الشيطانِ . واذا لم يتمَّ سكونها ولكنّها صارت مدافعةً للنّفس الشّهوانيةِ ومعترضةً عليها سمّيتِ النّفسَ اللوّامةَ لانّها تلومُ صاحبَها عند تقصيرهِ في عبادةِ مولاهُ . قال الله تعالى « ولا أُقسِمُ بالنّفسِ اللوّامةِ » وان تركتِ الاعتراضَ وأذعنَتْ وأطاعتْ لمقتضى الشّهواتِ ودواعي الشيطانِ سمّيتِ النّفسَ الأمّارَةَ بالسّوءِ » قالَ اللهُ تعالى اخبارًا عن يوسفَ عليه السلامُ أو امرأةِ العزيزِ « وما أُبرِّئُ نفسي إنّ النّفسَ لأمّارةٌ بالسّوءِ . وقد يجوزُ أنْ يقالَ : المرادُ بالأمّارةِ بالسّوءِ هيَ النّفسُ بالمعنى الأوّلِ فاذًا النّفسُ بالمعنى الاوّلِ مذمومةٌ غايةَ الذمّ وبالمعنى الثاني محمودةٌ لأنّها نفسُ الإنسانِ أي ذاتُهُ وحقيقتُهُ العالمةُ باللهِ تعالى وسائرِ المعلومات

العَقلُ وَهوَ أيضاً مشتركٌ لمعانٍ مختلفةٍ ذكرْناها في كتابِ العلمِ . وَالمتعلّقُ بغرضِنا من جملتِها معنيانِ . أحدُهما أنهُ قد يطلقُ ويرادُ بِهِ العِلمُ بحقائِقِ الامورِ

فَيكونُ عِبارةً عن صِفَةِ العِلمِ الَّذِي مَحَلُّهُ القَلْب . والثاني أَنَّهُ قد يُطلَقُ ويُرادُ بِهِ مَحَلُّ الإدراكِ أعني المُدْرَكَ وَهُوَ المُرادُ بِقَولِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ العَقلَ . فإنَّ العِلمَ عَرَضٌ لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يكونَ أَوَّلَ مَخلوقٍ بَل لا بُدَّ وأَن يكونَ المَحَلُّ مَخلوقًا قبلَهُ أَو مَعَهُ ...

فاذًا قَدِ انكَشَفَ لَكَ أَنَّ مَعانِيَ هٰذِهِ الأَسماءِ مَوجودةٌ وَهِيَ القَلبُ الجُسمانِيُّ والرُّوحُ الجُسمانِيُّ والنَّفسُ الشَّهوانِيَّةُ والعُلومُ فَهٰذِهِ أَربعةُ مَعانٍ يُطلَقُ عَلَيها الأَلفاظُ الأَربعَةُ وَمَعنًى خامِسٌ وَهِيَ اللَّطيفةُ العالِمَةُ المُدرِكَةُ مِنَ الإِنسان. والأَلفاظُ الأَربعَةُ بِجُملتِها تَتوارَدُ عَلَيها فالمَعاني خَمْسةٌ والأَلفاظُ أَربَعَةٌ . وكُلُّ لَفظٍ أُطلِقَ لِمَعْنَيَين . وأَكثرُ العُلَماءِ قَدِ التَبَسَ عَلَيهِم اختِلافُ هٰذِهِ الأَلْفاظِ وتَوارُدُها »

انتهى مُلَخَّصا

الفصل الثالث

اختلاف المخلوقات

إنَّ كُلَّ شَيءٍ يُدْرَكُ بالحَواسِّ الحِسيَّةِ حِسيٌّ . فالتُّرابُ والماءُ والهَواءُ مَوادُّ حِسيَّةٌ . وما كان حِسيًّا فَلَهُ جَسَدٌ فَلاَ يَكونُ ذو جَسَدٍ إلاَّ مَحسوساً ولا يكون محسوساً إلاَّ كان لهُ جَسَد

والنَّباتُ على اختِلافِ أَنواعِهِ يَمتازُ على التُّرابِ وَالماءِ والهَواءِ بِأَنَّهُ نامٍ فَيكونُ التُّرابُ مُفرَدًا بِالنِسْبَةِ إلَى النَّباتِ . فَيَتَضَمَّنُ النَّباتُ تُراباً وماءً وَهَواءً مَعاً

فَإذا قَطَعْنا شَجَرَةً نامِيَةً وَجَدْنا ماءً في غُصُونِها الخَضْراءِ وَإِذا أَحرَقناها نَجدُ لَهيباً يَسْطَعُ وَفي اللَّهيبِ هَواءٌ وماءٌ ويَبقَى رِمادٌ وهٰذا الرِمادُ تُرابٌ . فالنَّباتُ ذُو جَسَدٍ أَرقَى مِنَ التُّرابِ لِأَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِن مادَّةِ تُرابٍ ومادَّتَيِ الماءِ والهَواءِ أَيضاً .

وَقَد ذَهَبَ بَعضُ الباحِثِينَ فِي المَعادِنِ إِلَى أَنَّ في كُلِّ

مَعْدِنٍ قُوَّةً تَتَأَثَّرُ وأَنَّها تَحمِلُ ضَغطَ التَّأَثُّرِ إِلَى حَدٍّ محدودٍ ثُمَّ يَنقَطِعُ تَأَثُّرُها واُستَنتَجَ مِن ذٰلِكَ أَنَّ لها قِواماً داخِلِيّاً. وهٰذا لا يَرْفِضُهُ المَبدأُ العِلميُّ. فإِنَّ كُلَّ مَعدِنٍ مُؤَلَّفٌ مِن اتِّصالِ دَقائِقَ مُتَغايِرَةٍ فَيَتَأَلَّفُ مِنها مَجموعٌ خاصٌّ. وَلِكُلِّ تَأَلُّفٍ مُفْرَداتٌ عَن اجتِماعِها خاصةٌ وعَنْ وُجُودِ الخاصّةِ التَّأَثُّرُ. وانحِلالُ المَجموعِ الخاصِّ الذي يَذهَبُ الفِكرُ إِلَى أَنَّهُ مُفرَدٌ لا مَجموعٌ قَدْ ثَبَتَ ثُبوتاً قاطِعاً بانحِلالِ النُّورِ (الذي يَذهَبُ الفِكرُ الى انه مُفرَدٌ) الى سَبعةِ أَلوانٍ يَتَأَلَّف منها.

والتَّأَثُّرُ الّذِي يَستَلزِمُهُ وُجُودُ الخاصّةِ فِي المُرَكَّبِ مِن مُتَعَدِّدٍ وَهُوَ في ظاهِرِ أَمرِهِ مُفرَدٌ، مُشاهَدٌ عياناً في الحَديدِ. فَإِنَّ جسرَ بروكلنَ الحَديديَّ الواصلَ بينَ نيويوركَ وبروكلنَ أَثبتَ بَحثُ المُهَندِسِينَ في عُلوِّهِ أَنَّهُ يَهْبُطُ شَيْئاً فشيئاً سَنَةً فَسَنَةً لِأَنَّ عِبءَ ما يَمُرُّ عَلَيهِ مِنَ المَرْكَباتِ المُتَعَدِّدَةِ والقَاطِراتِ ثَقِيلٌ فالحَدِيدُ يَتضاءَلُ وهٰذا التَّضاؤُلُ تَأَثُّرٌ والتَّأَثُّرُ يَستَلزِمُ وُجودَ قِوامٍ داخليٍّ

ولَكِنَّ بَينَ المَعْدِنِ والنامي فَرْقاً . فالمَعدِنُ يَتغَيَّرُ في لَوْنِهِ ومادَّتِهِ بِقُوًى مُؤَثِّرةٍ إِذا عَمِلَت فَفي مَدًى زَمَنِيٍّ طَوِيلٍ وَبِعَوامِلَ يَجهَلُ الإِنسانُ مِقْدارَ عَمَلِها كَما يَتحَوَّلُ الفَحمُ الحَجَرِيُّ دُرًّا بِدَليلِ أَنَّ دَقائِقَهما واحدةٌ وَإِن كانَ الفحمُ أَسوَدَ والدُرُّ في الغالِبِ أَبيضَ[1] ولَكِنَّهُ لا يَنمو أَمَّا النامي فَيتَغَيَّرُ في مَظْهَرِهِ مِن زَهرَةٍ إِلى وَرَقةٍ أَو ثَمرَةٍ ويَضْخُمُ الغُصْنُ الذي يَكونُ نَحيفاً ويَقسو على نُمُوِّهِ . فالنامِي تَنظُرُ العَينُ نُمُوَّهُ في الحَجمِ ولا تَرى العَينُ نُمُوًّا لِلمَعدِنِ

والنامي في العُرْفِ العلميِّ يَشمُلُ النبَاتَ والحَيَوانَ من حَيَوانِ ماءٍ وَسَماءٍ ويَبْسٍ أَي السَّمَكَ والطَّيْرَ والحَيَوانَ الضاريَ والداجنَ[2] . والنامي وهو نَباتٌ غَيْرُ مُتحَرِّكٍ ولِلتَّحَرُّكِ شَأْنٌ . فَالحَيَوانُ أَسمَى شَأْناً في وُجودِهِ من النَّباتِ. والماءُ الذي يعيشُ وينمو به النَّباتُ هو ضَروريٌّ لهُ

---

(١) قلتُ في الغالب لأن بعض الدر أسود وهو نادر الوجود وغالي الثمن (٢) الداجن الاليف في المنازل كالغنم مثلا

كالدَّمِ الذي يَعيشُ وَيَنمو بهِ الحيَوان. على أَنَّ الدَّمَ أَشرَفُ مِنَ الماءِ فإذا جفَّتِ المادَّةُ المائيَّة مِنَ النَّباتِ يَبِسَ فَامتَنَعَ نُمُوُّهُ كما أَنَ جَفافَ مادَّةِ الدَّمِ في الحيَوانِ يُفقِدُهُ الحِسَّ بَلِ الحَياةِ والدمُ مؤَلَّفٌ من ماءٍ وموادَّ أُخرَى فهُوَ بالنِّسبةِ الى الماءِ مُرَكَّبٌ والمُرَكَّبُ أَعلَى مِن مُفرَداتِهِ وَلِهـذا يكونُ الدَّمُ أَجلَّ. فالدَّمُ هُوَ نَفسُ الحيَوانِ « فإنَّ نَفسَ كُلِّ جَسَدٍ دَمُهُ »[١] والبعضَ يُسَمّي هذه النَّفسَ رُوحاً بدَعوَى أَن النَّفسَ تُطلَقُ عَلَى اللطيفة العاقلةِ الموجُودةِ في الإنسانِ فقَط

وَقَدْ أَثبتَ الاستِقراءُ إنَّ كُلاً مِنَ الجامِدِ والنامي أَي لشَّجَرِ والحَيوانِ ما عدا الإنسانَ ليست لَهُ قُوَّةٌ عاقِلَةٌ فَلَم يَستَطِعْ حَيَوانٌ غيرُ الانسانِ أَن يَأْتِيَ بِعَمَلٍ مِن أَعمالِ الإنسانِ الدَّالَّةِ على الإدراكِ مَعَ أَنَّ لِبَعْضِ الحَيَوانِ أَعمالاً ذاتَ مَبْدَإٍ عَجيبٍ كَما يُنشِئُ النَّحلُ خَلايا ويَجني الشَّمْعَ والعَسَلَ ويَجمَعُ النَّملُ الغِلالَ في مَخابِئَ ويُسَيطِرُ بَعْضُهُ

(١) سفر اللاويين العدد ١٤ من الفصل ١٧

عَلَى بَعْضٍ وتَعيشُ الفِيلَةُ زَرافاتٍ[١] وتَمْشي النِعاجُ وَراءَ الـكِباشِ ويَتَقَدَّمُها الـكَبْشُ[٢] الأَكبَرُ ويَبني القُنْدُسُ[٣] بيوتاً يُحْسِنُ وَضْعَها ويَحْفِرُ الأَرْنَبُ نَفَقاً[٤] وتَنسِجُ دودةُ القَزِّ فَيلَجَةً وتُعِدُّ العَنكَبوتُ لِنَفسِها بَيتاً الى غير ذٰلِكَ . فَإِنَّ كلَّ ذٰلِكَ يَجري من الحَيَوانِ بالغَريزةِ لا بقُوَّةٍ عاقِلَةٍ . فَما القُوَّةُ العاقِلَةُ الاَّ خاصَّةُ النَّفْسِ الَّتي هِيَ نَسَمَةُ حَياةٍ خالِدَةٍ

وقد عَنِيَ كَثيرونَ بِبَعضِ حَيَواناتٍ كالقِرَدَةِ لِـكَي يَجعَلوها تَقومُ بِعَمَلٍ يَسْتَلزِمُ حُصولُهُ وُجودَ قُوَّةٍ عاقِلَةٍ لِيَسْتَدِلُّوا بِوُجودِ الأَثَرِ عَلَى وُجُودِ المُؤَثِّرِ مَصدَرِ الأَثَرِ فَيَثْبُتَ أَنَّ لِلْحَيَوانِ نَفْساً فأَخْفَقَ سَعْيُهُم ولا عَجَبَ فإِنَّهُ لا يَـكونُ عن غَيرِ المَوجودِ ما يَـكونُ عن المَوجودِ .

---

(١) الزرافة الجماعة من الناس ما فوق العشرة الى العشرين
(٢) هو فَحلُ الضأن (الغنم) (٣) حيوان من القوارض يعيش في الماءِ واليابسة يبني السدودَ في الانهار وبيوتاً وراءَها تحت سطح الماءِ يأوي اليها ويُعرف « بكلب الماءِ » (٤) النفق سَرَب (سرداب) في داخل الارض يأوي اليه الفأر واليربوع والارنب

سُمِعَ مُنذُ سَنواتٍ عن جَوادٍ أَنَّهُ يَعُدُّ الأَشياءَ أو يَحسِبُها وكَتَبَت عَنهُ مَجَلَّتانِ عَريقَتانِ رَاقِيَتانِ مَقالَتَينِ الواحدةَ تَحتَ عُنوانِ (الجوادُ العادُّ) والاخرى تَحتَ عُنوانِ (الجوادُ الحاسِبُ) وسُمِعَ عن جُرَذٍ [1] أَنَّهُ يأْتَمِرُ [2] بِكَلامٍ فَيَعمَلُ ماعَمَلُهُ يُمَثِّلُ تَسْيِيرَ المَلَّاحِ [3] سَفينَتَهُ: وسُمِعَ أَيضاً عن قِرْدٍ أَنَّهُ يَكْتُبُ وبَعدَ البَحثِ الدَّقيقِ ظَهَرَ أَنَّ الجَوادَ والجُرَذَ والقِرْدَ تَعمَلُ ماتَعمَلُهُ عَن تَدريبٍ لاعَنْ إِدراكٍ فَلَم يَخْرُجْ عَمَلُها عَن نِطاقِ الغريزة .

والفَرْقُ بَيْنَ الغريزةِ والقُوَّةِ العاقلة هُوَ أَنَّ الغَريزة مَوجودةٌ في صاحِبِها مُنذُ وُجودِهِ وتَتَمَشَّى إِلَى حَدٍّ مَحْدودٍ تَقِفُ عِندَهُ فَيَتَعَلَّمُ الدُّبُّ الرَّقْصَ مَثَلاً فالعَمَلُ من أَصحابِ الغريزةِ مُتَقارِبُ الأَشْكال . أَمَّا القُوَّةُ العاقِلَةُ فَإِنها تُوجَدُ في صاحِبِها مُنذُ مَولِدِهِ وتَتَمَشَّى بِبَواعِثِ تَقوِيَتِها إِلَى ما لا يُدْرِكُ مُنْتَهاهُ إِلاَّ اللهُ الَّذي مَنَحَهُ هٰذِهِ القُوَّة

فالحَمامَةُ تُنْشِئُ عُشَّها عَلَى مِثالٍ واحِدٍ في كُلِّ عَصْرٍ

---

(١) الذكر الكبير من الفأر (٢) يقبل أمراً (٣) البحَّار

ومِصْرٍ[1] وان غيَّرت مِن شأنِهِ كأَن يكونُ فيه بَدَلَ قِشٍّ نسيجٌ فعَن ضَرورةٍ . أَما الإِنسانَ فقَدْ غيَّرَ مَسكَنَهُ مِن كَهْفٍ أَوجَدَتهُ الطبيعةُ الى خَيْمَةٍ من شَعَرٍ أَوَ مَضْرَبٍ مِن نَسيجٍ الى بَيتٍ من لَبِنٍ الى قَصْرٍ من حَجَرٍ و بِناءٍ من آجُرٍّ[2] ومُسْتَقَرٍّ مِن خَشَبٍ فَصَرْحٍ من حَديدٍ وذٰلِكَ التَّغييرُ عن سَعَةٍ في مَوجوداتِهِ واستِنارةٍ في عَقلِهِ وتَفَنُّنٍ في مَعارِفِهِ . وما بَرِحَ الإِنسانُ يُبَدِّلُ الأَنواعَ المُتعدِّدةَ في مَأْكَلِهِ ومَلبَسِهِ ومَرقَدِهِ ومَشرَبِهِ وأَدَواتِ عَمَلِهِ وطَرائِقِ ارتِحالِهِ مِمَّا يَفتُقُ لهُ خاطِرُهُ أَنْ يَصنَعَهُ ولا يَزالُ الحَيَوانُ على حالٍ واحدة . لا يَلبَسُ الاَّ ما تَخلَعُهُ عَلَيهِ الطَّبيعةُ من صُوفِ بَدَنِهِ ويَرقُدُ في الوجارِ[3] أَوالكَهفِ أَوالجُحرِ أَو الغيلِ الذي يَجِدُهُ أَو يَصنَعُهُ عَلَى أَبسَطِ مِثالٍ وطَعامُهُ ما كانَ يأْكُلُهُ مُنذُ وُجِدَ . فقُوَّةُ الإِدراكِ التي للإِنسانِ وتَنمُو مَعَهُ بِالتَّمَرُّنِ والتَّدَرُّبِ لَيسَت

(١) الكورة والصقع (٢) القرميد والواحدة منه آجُرَّة
(٣) الوجارُ مأوى الضبع وغيرها كالثعلب . والجُحرُ مأوى الضبّ والحية واليربوع والغِيل موضع الأسد

لِغَيرِهِ مِنَ الحَيَوانِ . وكلٌّ ما ثَبَتَ أَنه مَوجودٌ فعَن مُوجِدٍ . وهٰذا المُوجِدُ هُوَ في الإِنسانِ نَفسُهُ أَي (الكائنةُ) اللطيفة التي هِيَ حَقيقةُ الإِنسانِ وَهِيَ ولا رَيبَ في الإِنسانِ وَحدَهُ دُونَ سِواهُ مِنَ الحَيَوانِ* فالمعَادِنُ حِسيَّةٌ فَهِيَ ذاتُ جَسَدٍ

والنَّامي حِسيٌّ وهو مُرَكَّبٌ تَرْكيباً أَفضَلَ مِن المَعدِنِ فَيَنمُو . والحَيَوانُ حِسيٌّ ذو رُوحٍ بَهيميَّةٍ غيرِ عاقلةٍ فَلَهُ جَسَدٌ نامٍ ولِجَسَدِهِ رُوحٌ تَجعَلُ لِأَعضائِهِ وَحْدَةً

والإِنسانُ حِسيٌّ رُوحيٌّ نفسيٌّ فَهُوَ مُؤَلَّفٌ من جَسَدٍ أَخَذَ مادَّتَهُ مِنَ التُّرابِ وَفي تَرْكيبهِ ماءٌ وهَوَاءٌ ولَهُ رُوحٌ هِيَ الدَّمُ الذي يَرِدُ عن تَحْليلِ المَعِدَةِ الغذاءَ الذي تَهضِمُهُ . أَمَّا نَفسُهُ فَهِيَ جَوهَرٌ أَسْمَى مِنَ الرُّوحِ الحَيَوانيَّةِ بِها يَعقِلُ الشُّؤُونَ الحِسيَّةَ وغَيرَ الحِسيَّةِ وَبِها سادَ الكائناتِ فَسَخَّرَ لِخِدمتِهِ السَّماءَ وَمَا فيها من نُجُومٍ وكَواكِبَ وشَمْسٍ . والهَواءَ وما فيهِ من طَيرٍ جارِحٍ وغَيرِ جارِحٍ ورِياحٍ حَتَّى رَكِبَ في هٰذا العَصرِ غارِبَهُ . والماءَ وما فيهِ مِن سَمَكٍ وعُشبٍ وصَدَفٍ ومِلحٍ واليَبْسَ وما فيهِ من معدِنٍ

وتُراب وماءٍ وشَجَرٍ وَحيَوان . فكُلُّ ما في الكائناتِ يَعمَلُ لِخِدمةِ الإِنسانِ في طَعامِهِ وشَرابِهِ وكِسائِهِ وعَمَلِه ومَرقَدِهِ في جِدِّهِ ولَهوِهِ وطَرَبِهِ فَسُبحانَ اللهِ عَلَى ما أَولى عَبدَهُ الإِنسانَ مِن عَظِيمِ السُّلْطان

الفصلُ الرابِعُ

ذوات النفس (١)

ثَبَتَ لنا مما تَقَدَّمَ مَعَنا أَنَّ لِلإِنسانِ نَفْساً عاقِلَةً فَهِيَ لا تَموتُ بِمَوتِ الجَسَدِ الذي يَعودُ تُراباً بانحِلالِ تَأَلُّفِهِ . أَي حِينَما يَعرِضُ عَلَى دَمِهِ ما يُفسِدُهُ . فالجَسَدُ العُنصُرُ المُرَكَّبُ مِن تُرابٍ وماءٍ وَهَواءٍ لا بُدَّ مِن انحِلالِ تَرَكُّبِهِ . فَإِنَّ كُلَّ مُرَكَّبٍ مِنْ شَأْنِ مُفرَداتِهِ أَنْ يَطلُبَ كُلٌّ واحِدٍ مِنها أَن يَعودَ إِلَى انفِرادِهِ . وَبِما أَنَّ النَّفسَ جَوهَرٌ بَسِيطٌ وَالبَسِيطَ

---

(١) وتسمَّى الارواح ايضاً وعالم الارواح قال داود النبي « الجاعل ملائكته ارواحاً وخدَّامَهُ ناراً مُلتهِبة (المزمور ١٠٤ العدد ٤) وفي الانجيل « الله روح . والذين يسجدون لهُ فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا » انجيل يوحنا العدد ٢٤ الفصل ٤

لا يَتَحَوَّلُ عَن حالِهِ فالنَّفسُ لا تَتَحَوَّلُ عن أَن تَكون نَفساً فَنُفوسُ الآباءِ والأَجدادِ من عَهدِ آدمَ الإِنسانِ الأَوَّلِ خالِدَةٌ لِأَنَّها بَسيطَةٌ ولا يُمْكِنُ أَن تَزُولَ إِذ لا يَعرِضُ عَلَيها انحِلالٌ يَعْرِضُ على الجَسَدِ. فَخاصةُّ المُرَكَّبِ الانحِلالُ وخاصةٌّ البَسيطِ الدَّوامُ فالنَّفسُ البَشَرِيَّةُ خالِدَةٌ

وفي مَخلوقاتِ اللهِ أَرواحٌ خالِدَةٌ عدا النفوسَ البَشَرِيَّةَ لم تَدْخُلْ في الجَسَدِ التُّرابيِّ. هِيَ الملائِكةُ خُدَّامُ اللهِ الَّذينَ لم يَخرُجُوا عَن طاعتِهِ ولا يَخرُجُونَ بَتَّةً لِأَنَّ اللهَ يَعصِمُهُم عَنِ الخُروجِ والأَبالِسَةُ الذينَ عَصَوا رَبَّهم ولا يَزالونَ على مَعْصيَتِهِ

والاُستِدلالُ على وُجودِ هٰذِهِ الأَرواحِ يَأْتِي من الوُجوهِ الآتية (الأَوَّلُ) إِجماعُ الناسِ في كُلِّ قُطْرٍ وعَصرٍ وعَلَى اختِلافِ قُوَى المَدارِكِ البَشَرِيَّةِ في الاُستِنارةِ عَلَى وُجودِ هٰذِهِ الأَرواحِ . فقد سَبَقَ للفيلسوفِ هربرتَ سبنسرَ

الإنكليزيّ أَن يَعقِدَ (١) فَصلاً لِهذا البَحثِ (٢) فَذَكَر فيهِ بإِسهاب أَنَّ كُلَّ الدِّياناتِ مِن سَماوِيَّةٍ وغيرِ سَماوِيَّةٍ ذَكَرَت هذا الوُجودَ وأَنزَلَتْهُ في ما تَعتَقِدُهُ وتَتَدَيَّنُ بهِ

وهذا الاعتِقادُ إِمَّا باقٍ من أَصلِ ديانةِ نُوحٍ جَدِّ البَشَرِ الثاني أَخَذَها عَنهُ بَنوهُ فزادوا فِيها ونَقَّصوا وغَيَّروا واستَحدَثوا أَو مَغروسٌ في عَقلِ الإِنسانِ فَهوَ مِيراثٌ من الأَبِ الى ابنِهِ

(الثاني) إِنَّ كثيرينَ قالوا بِوُجودِ هذهِ الأَرواحِ على وَجهٍ يَعودُ الى شُعُورٍ بِتأَثُّرٍ من عَمَلٍ لَها فالشعراءُ قالوا بِوُجودِ جِنٍّ تُلَقِّنُ الشعرَ قال أَحَدُهُم

جِنِّيَّةٌ أَوْلَها جِنٌّ تُعَلِّمُها
رَمْيَ القُلُوبِ بِقَوسٍ مالَها وَتَرُ

وَقالَ آخَرُ

---

(١) من باب عقد الباني البناءَ اذا بني سقفه معطوفاً بالحجارة
(٢) نشرت مجلة المقتطف هذا الفصل مترجماً

كُلُّ امرِئٍ شاعِرٌ فِي ما غَبَرْ
شَيطانُهُ أُنثَى وَشَيطانِي ذَكَرْ

وقالَ جرير

رأيتُ رُقَى الشَّيطانِ لا تَستَفِزُّهُ
وَقَد كانَ شَيطانِي منَ الجِنِّ رَاقِيا

وقال حسَّان

وَلِي صاحِبٌ مِن بَنِي الشَّيصَبانِ (١)
فَحِيناً أَقولُ وَحِيناً هُوَ

فَيذكُرُ الشُّعَراءُ أَنَّ لأُولئكَ الأَرواحِ تأثيرًا . ولا رَيبَ في أَنَّ وُجودَ التَّأثيرِ دَليلٌ على وُجودِ المُؤَثِّرِ . ولكنَّ هذا التَّأثيرَ يُمكِنُ أَنْ يُنسَبُ الى الاعتِقادِ بالوَهمِ فلا بُدَّ من استِنادٍ الى دليلٍ يَنفِي أَنهُ عَن غيرِ تَوَهُّمٍ

(الثالث) قالَ بَعضُ كِبارِ العُلَماءِ كَوليَم كروكس والمستر ستد والمستر أُوليفر لودج (٢) بِوجودِ الأَرواح

---

(١) يقال انه اسم قبيلة من الجن (٢) هؤلاء الثلاثة من اعظم الفلاسفة المتأخرين

وتأثيرها . ولهم في ذلك أبحاث عديدة نُشرت في صحف عديدة . فلوليم كروكس مقالة بل مقالات موضوعها : انَّ في العالم المنظور أرواحاً غير منظورة تؤثر تأثيرًا عظيماً على من في العالم المنظور (١) . وأبحاث ستد في مجلته مجلة المجلات في هذا الموضوع عديدة وقد أشار الطبيب شبلي الشميل في الجزء الثاني من كتاب مقالاته إلى هذا الرأي (٢) ونشرت مجلة المسرة التي كانت تصدر في حريصا (٣) فصولاً طوالا بهذا الشأن . ونشر السيد فريد وجدي في مقتطف هذه السنة رسائل عديدة في هذا الشأن

(الرابع) إنَّ نظام خلق الله يستلزم وجود هذه الأرواح فقد خلق المادة الحسية التي لا روح لها وخلق الحيوان وله المادة الحسية وروح حيوانية وخلق الإنسان وله المادة الحسية وروح حيوانية ونفس هي مادة لطيفة

---

(١) نشرت مجلة المقتطف ترجمتها (٢) تحت عنوان نفق اوليفر لودج صفحة ٢٨٧ (٣) قرية في قضاء كسروان من اعمال جبل لبنان

تدرَكُ بأَثرِ أَعمالِها فاقتَضَى أَن يَخلُقَ نفساً وليسَ لها مادَّةٌ حِسيَّةٌ وَهوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ولا حَدَّ لِقُدرَتِهِ .[1] فإِن قِيلَ بتَركِ ذلك فلا يَصِحُّ بَتَّةً لِأَنَّ ذلكَ التَّركَ إِمَّا عَنْ عَدَمِ وُجودِ عَمَلٍ لِهٰذِهِ الأَرواحِ وَهوَ غيرُ صَحيحٍ فهٰذِهِ الأَرواحُ لَها أَعمالٌ مِنها دَوامُ تَمجيدِ اللّٰهِ وتَسبيحِهِ ومِنها أَنَّها رُسُلٌ مِنهُ تعالى الى أَنبيائِهِ كما أُرسِلَ جبريلُ إِلَى سيدَتِنا مَريَمَ أُمِّ عيسى[2] ومنها العِنايَةُ بِالنُّفوسِ البَشَرِيَّةِ بَعدَ خُروجِها من الجَسَدِ التُّرابي

وإِمَّا عَن عَجزٍ عن إِيجادِها وأَستَغفِرُ اللّٰهَ عَن ذٰلِكَ فالعَجزُ والأُلوهَةُ لا يَجتَمِعانُ فاللّٰهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ

الفَصلُ الخامِسُ

الخالقُ أَعظمُ مِن مَخلوقِهِ

دَلِيلُ وُجودِ الشَّيْءِ عَمَلُهُ فَنَجِدُ أَنَّ لِلصَّخرِ عَمَلاً وَهُوَ

---

(١) وذلك لاستكمال وجوه الخلق على تعددها (٢) والمسلمون يؤمنون بسفارة الملاك بين الخالق ورسول الاسلام

أَنَّهُ يَملأُ حيزَهُ فلا يكونُ صَخرٌ في مكان ويُمكِنُ لِصَخرٍ آخَرَ أَن يُشغِلَ ذلِكَ الحَيزَ . ويقبلُ أَشعَّةَ الشَّمْسِ فيُحرِزُ حَرارةً منها تؤَثِّرُ عَلَيهِ وينقلُها إِلَى الإِنسانِ إِذا استقَرَّ عَلَيهِ . فالعَمَلُ ثمرَةٌ مُلازمةٌ لِلوُجودِ تَبدُو منَ المَوجود . والعُقْمُ أَحَدُ أَنواعِ المَوتِ فالمَوجودُ الذي يَصِحُّ افتِراضُهُ عَقيماً مَيِّتٌ من جِهَةِ عُقمِهِ لَيسَ إِلاَّ . والمَوجودُ والمَيِّتُ يَتَغايران فَلا يكونانِ تَحتَ حُكمٍ واحِدٍ . ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ لَهُما عَمَلٌ واحِد . فالعَمَلُ خاصَّةُ المَوجودِ فَلا يكونُ خاصَّةَ المَيتِ وَكُلُّ ذي خاصَّةٍ وَجَبَ أَن تَبدُوَ مِنهُ حَتماً لِانَّ الخاصَّةَ لا تَنفَكُّ عن صاحِبِها ما دامَ على حَقيقتِهِ فَإِذا انفَكَّ عن حَقيقتِهِ انفكَّت عنهُ خاصَّتُهُ .

وخاصةُ نَفسِ الإِنسانِ هِيَ الَّتي أَوجدَت ما تَراهُ العَينُ من بُيوتٍ مُشَيَّدَةٍ وسَفائِنَ مُسَيَّرَةٍ ومَلابِسَ وحُليٍّ وأَدَواتٍ وسُبُلٍ مُعَبَّدَةٍ . فكلُّ ما عَمِلَهُ الإِنسانُ بيَدِهِ أَو بآلَةٍ إِنَّما هُوَ ثَمَرَةُ إِدراكِهِ العَقلي

ومَهْما قُلنا عَن عَظَمَةِ المَوجوداتِ عَن نَيِّرَةِ العَقلِ

البَشَريّ فَإِنَّ هذا العَقلَ أَعظَمُ مِنْها بِما لا يُقاسُ لِأَنهُ يَقدِرُ أَن يَصنعَ ما يُضاهيها بل ما يَفوقُها وَهِيَ لا تَقدِرُ أَن تَأْتِيَ بِمِثلِ العَقلِ البَشَريّ مَهْما حاوَلَ العَقلُ البشريُّ أَن يُصْدِرَ أَشياءَ مَصنوعةً بِها. فالعَقلُ البشريُّ في طاقتِهِ الإِستِغناءُ عن أَجَلِّ مُخْتَرَعاتِهِ التي أَوجَدَها لِإِفادةِ نَفسِهِ والآخَرِينَ. ولٰكِنْ لَيسَ لِمُخْتَرِعٍ أَن يَستَغنِيَ عنِ العَقلِ البَشَريّ

فَكلُّ ما في الوُجودِ من بِناءٍ وأَداةٍ وغَرْسٍ ومَعْدِنٍ وسِلعةٍ لا يُعادِلُ بِنَفْسِ الإِنسانِ ذاتِ القُوَّةِ الناطِقةِ التي تَستَخدِمُ كُلَّ تِلكَ المَوجوداتِ استِخدامَ السَيِّدِ عبدَهُ. ومَن لَهُ السِيادةُ فَهُوَ خَيرٌ مِمَّا يَسودُهُ في وِجهةِ سِيادتِهِ عَلَيهِ. فَنَفْسُ الإِنسانِ أَعظَمُ مِن مَصْنُوعاتِها

وإِذا كانت نَفسُ الإِنسانِ أَعظَمَ من مَصنوعاتِها فما أَعظَمَ البَونَ (١) بينَ اللهِ الخالِقِ والإِنسانِ المَخلوق. قد

---

(١) مسافة ما بين الشيئين في الفضل والمزية وأما في التباعد الجسماني فيقال بينهما بين

استَخدَمَ الانسانُ النُّورَ والماءَ والهَواءَ والحَيَوانَ والشَّجَرَ والنَّباتَ والتُّرابَ وما فِيهِ في سَبيلِ خدمتِهِ وَهذِهِ الأَشياءُ وَجَدَها ولم يُوجِدْها ولا يَقدِرُ أَن يَخلُقَ شيئاً مِنْها ولكنَّهُ يحَوِّلُ شيئاً مِنها عمَّا وُجِدَ عليهِ بالفِطرةِ الى شَيءٍ آخرَ لهُ طريقُ انتِقالِ اليهِ فيُحَوِّلُ البطاطا الى أَزْرارٍ والسُّمَّ تَرْياقاً يُزيلُ تأْثيرَ السُّمِّ * ولا يَستَطيعُ أَن يُوجِدَ مِن لا شيءٍ شَيئاً وإِن قَلَّتْ مَنْفَعَتهُ أَو صَغرَ حَجْمُهُ . أَمَّا اللهُ الخالِقُ فَقَدْ أَوجَدَ هذِهِ الاشياءَ كُلَّها مِن لا شيءٍ وأَوجَدَ نَفسَ الإِنسانِ وخوَّلَها أَن تعمَلَ ما عَمِلَتْهُ مُنذُ وُجِدَتْ الى الآنَ وما يُمْكِنُ أَن تعمَلَهُ الآنَ وفي المُستَقبَلِ مِنَ الأَعمالِ التي لا يَستَطيعُ الفِكرُ أَن يُدرِكَ لَها حَدًّا لِأَنَّهُ يمتدُّ كلَّ يومٍ الى إِيجادِ أَشياءَ لم يَسبْقْ لَها وُجودٌ . ومَن قالَ بأَنَّ قوَى الإِنسانِ غيرَ محدودةٍ ذَهَبَ الى هذا أَي الى أَنَّهُ لا تعرَفُ غايةٌ يَقِفُ عِندَها العَقلُ في مُبتَكَراتِهِ

كانَ الإِنسانُ وما بَرِحَ يُحِبُّ أَن يَقِفَ عَلَى كُلِّ سِرٍّ

---

(١) ومجازاً يقال خَلقَ عقلُ الانسانِ مِنَ التراب أَباريقَ اي صَنَعَ

من أَسْرارِ المَوجوداتِ وَهُوَ في سَبيلِ هٰذا الوُقوفِ يُجهِدُ قُواهُ العَقليَّةَ فيَرَى من تِلكَ القُوَى عَجزًا عن إِدراكِ تِلكَ الأُمنِيَّةِ⁽¹⁾ ويَجِدُ مَدَى حَياتِهِ ضَيقًا يَحولُ دُونَ ما يَبغيهِ مِن استِكمالِ العِلمِ فَيُقِرُّ بأَنَّ إِدراكَ كلِّ سِرٍّ من أَسرارِ العِلمِ والصِّناعةِ مَطلَبٌ لا يَقوَى على النُّهوضِ بِهِ إِنسانٌ ما بَل كُلَّما زادَ تَبَحُّرًا⁽²⁾ في الحَقائِقِ زادَ اعتِرافًا بِجَهلِهِ الحَقائِقَ ورأَى المَطلَبَ الواحِدَ واسِعًا سَعَةً لا يَتَّسِعُ عُمرُهُ كلُّهُ لِلإِحاطةِ بأَسرارِهِ كلِّها. فَإِسحاقُ نيوتونَ الذي يَعُدُّهُ عصرُهُ نابغَةَ العُلَماءِ قالَ عن نَفسِهِ أَنَّهُ جاهِلٌ لا يَعرِفُ إِلاَّ حقيقةً واحِدةً هيَ أَنَهُ لا يَعرِفُ شَيْئًا. فما أَعظَمَ قُدرَةَ الخالِقِ الَّذي أَنشأَ من لا شيءَ كلَّ شيءٍ وَوَسِعَ عِلمُهُ كلَّ شَيءٍ

وَبِما أَنَّ العَظَمَةَ ثَمَرَةُ نُفوذِ السُّلطانِ وَسَعَةِ العِلمِ، ونُفوذُ سُلطانِ الخالِقِ وسَعَةُ عِلمِهِ لا حَدَّ لَهُما. ولا يُتَصوَّرُ أَن يكونَ لَهُما حُدودٌ. فَعَظَمَتُهُ تَعالى في كلِّ ما يُوصَفُ بِهِ لا يكونُ لَها حَدٌّ ولا يُتَصوَّرُ أَن يكونَ لَها حَدٌّ. فَلِذٰلِكَ

---

(1) ما يتمناه الانسان　(2) سعة اطّلاع

عَلَى الإِنسانِ أَن يَثبُتَ في عبادَتِهِ جَلَّ ثَناؤُهُ عامِلاً ما يُرضِيهِ مُتجَنِّباً ما نَهاهُ عَنهُ . لِأَنَّ في التَّعَرُّضِ لِاستِحسانِ ما نَهَى عَنهُ أَوِ الأَعتراضِ عَلَى ما استَحسَنَهُ إِساءَةً الى عظَمَتِهِ الَّتي لا حَدَّ لَها . ومَن أَساءَ فالعَدْلُ يُدرِكُهُ ولا مُنفلَتَ مِن يَدِهِ . نَسأَلُهُ تعالَى أَن يَتَولَّانا بِرَحمَتِهِ لا بِعَدلِهِ وَهُوَ خَيرُ مَسؤُول

الفصل السادس

الصلاح والطلاح

كلُّ إِيجادٍ أَتَى عن دافِعٍ إِلَيهِ . وهذا الدافِعُ أَحَدُ أَمرَين . الأَوَّلُ الخاصَّةُ في المُوجِدِ التي تَستَلزِمُ الإِيجاد . والثاني حاجَةُ المُوجِدِ إِلَى ما يَتَوصَّلُ لِلْحُصولِ عَلَيه بواسِطةِ ذٰلِكَ الإِيجادِ

وقد سَبَقَ تَعليلُ الإِيجادِ عن خاصَّةِ المُوجِدِ في الفصلِ السابِقِ وَهُوَ أَنَّ الخاصَّةَ الموجودةَ لا بُدَّ لَها مِنَ العَمَلِ . فإِنَّ المَوجودَ لا يَنفَكُّ عَنِ العَمَل

أَمَّا حاجةُ المُوجِدِ الى ما لَيسَ لَهُ وُصولٌ إِلَيهِ إِلاَّ عَن طَرِيقِ الإِيجادِ فأَمثِلَتُها كَثِيرةٌ فإِنَّ حاجةَ الإِنسانِ إِلى حِفظِ حَياتِهِ تَدعوهُ الى إِيجادِ الطَّعامِ فَأَوجَدَ من البُقولِ واللُّحومِ أَلوانًا يَأْكُلُها فَهُوَ قد عَنِيَ بها لِإِشْباعِ بَطنِهِ لا لِطَهْيِها (١) فأَرادَ في عَمَلِها حِفظَ حَياتِهِ . وهكذا يُقالُ في بُنيانِهِ المَساكِنَ فلم يكُنِ الدافِعُ إِلَيها استِحسانَ نَحتِ الحِجارةِ ونَشرِ الخَشَبِ بَل التَّحوُّطُ لِنفسِهِ من أَنْ يَعرُوَ جَسَدَهُ سَقامٌ أَو يُؤْذِيَهُ حَيَوانٌ . ورأَى الحَبُّ صالِحاً لغذائِهِ فَاحتاطَ لِحِفظِهِ بِأَهْراءٍ أَوجَدَها لِصِيانَتِه . وَهُوَ لا يُرِيدُ في إِيجادِ الأَهراءِ وُجُودَها فَمَطْلَبُهُ الاستِفادَةُ الحاصِلَةُ عَن وُجُودِها فَيَصونُ بِها الحَبَّ من لِصٍّ يَسْرِقُها وَمِن حَيَوانٍ يَسطو عليها . وَلِذلكَ جاءَ في الأَمثالِ — والأَمثالُ أَقوالٌ صادِقةُ المَفادِ حَكِيمةُ الوَضعِ — « أَلحاجَةُ أُمُّ الاِخْتِراعِ »

ومِمَّا لا رَيبَ فِيهِ أَنَّ أَعمالَ الإِنسانِ كُلَّها ثَمَرَةُ الحاجةِ

(١) الطهي معالجة اللحم بالطبخ

فالحاجةُ تدفعهُ الى مُزاوَلةِ[١] العَمَلِ اتّباعاً لِأَمرٍ دِينيٍّ او لِأَمرٍ دُنيَويّ . فَإِذا عَمِلَ عَلى وَفقِ ما أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يعمل فَعَمَلُهُ صالِحٌ . وإِنْ أَبَى ان يَعمَلَ وَفقَ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ . أَو عَمِلَ على وَجْهٍ لا يَرضَى اللهُ عَمَلَهُ بِهِ فعَمَلهُ طالِحٌ .

وعَمَلُ الإِنسانِ الصالِحُ عَن حاجتِهِ لِيُثْبِتَ أَنَّ النَّفسَ المُسْتَقِرَّةَ في هَيكَلِ جَسَدِهِ صالِحةٌ . والعَمَل الطالِحُ ناتِجٌ عَن أَنَّ النَّفسَ الرَّدِيئَةَ لا تَعمَلُ الاّ رَدِيئاً . فالإِنسانُ الصالِحُ مِنَ الكَنزِ الصالِحِ في القَلبِ يُخرِجُ الصالحات. والإِنسانُ الشّريرُ مِنَ الكَنزِ الشّريرِ يُخرِجُ الشرورَ[٢]

فإِذا عَمِلَ الإِنسانُ لِدُنياهُ من بِناءٍ وكِساءٍ وطَعامٍ وأَداةٍ فَلِأَنَّ الحاجَةَ تدعُوهُ إِلى هذِهِ العِنايةِ لِيَعيشَ في رَخاءٍ وكَرامَةٍ . وإِذا عَمِلَ لِأُخراهُ فَلِأَنَّ إِيمانَهُ بالأُخرَى راسِخٌ ويَحسِبُ[٣] دُنياهُ دارَ إِعْدادٍ[٤] لِما يَشْتَهي الحُصولَ عَلَيهِ

---

(١) معالجة (٢) هذا الكلام وارد عن سيدنا عيسى عليه السلام
(٣) حسب يحسب من الحساب وحسب يحسِب من الظنّ
(٤) تهيئة

فيها . ولِأَنّهُ في حاجَةٍ الى إحرازِ سعَادَةِ الآخِرَةِ ، لا يَرَى مَندوحةً عَن أَنْ يَنصَرِفَ الى حَياةِ الصلاح ، ويَعملَ أَعمالَ الفَضيلةِ، فيَضْمَنَ لنفسِهِ إِدراكَ تلْكَ السَّعادَةِ التي يَرغَبُ فيها

فاندفاعُ الإِنسانِ الى العَمَلِ الصالِحِ عَن إِيقانٍ بما يأتي

١) اللهُ تعالى عليمٌ بكُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُثيبُ[١] عَلى أَعمالِ الصَّلاح

٢) إِنَّ ما يَعمَلهُ الإنسانُ مِن صالحٍ أَو طالِحٍ يَجدُهُ أَمامَهُ

٣) إِنَّ ثَوابَهُ على الخَيرِ يَجدُهُ في الدُّنيا، ويُوليهِ السَّعادة في الآخرة. وعِقابَهُ على الشرِّ يُدرِكُهُ في الدُّنيا ، ويكونُ خَصيمَهُ يومَ الدِّين

٤) إِنّهُ في حاجةٍ الى نَيلِ رِضَى اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ معاً

٥) إِنَّ عَمَلَ الخَيرِ عَن زُلفى[٢] الى اللهِ تَعالى، يُنيلُ رِضاهُ عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) يجازي واستُعمِل الثواب للجزاءِ الحسن (٢) قربة

واندفاعُ الإنسانِ الى العَمَلِ الطالحِ لا يكونُ الاَّ عَن أَحَدِ الاعتبارات الآتية

١ً) ان حاجةَ حَياتِهِ تَستَلزِمُ ذٰلِكَ العَمَلَ . فاللِّصُّ لا يَسْرِقُ شَيَئاً لِمُجرَّدِ إِحداثِ خُلُوِّ يَدٍ لمالِكٍ ممَّا يَملِكُهُ . بَلْ لِيَسْتَخدِمَ ذٰلِكَ المَسروقَ في حاجةِ حياتِهِ . وَإِذا سَرَقَ شَيَئاً لِمُجَرَّدِ الانتِقام فَذٰلِكَ لأَنَّهُ يَرَى في مَصلَحتِهِ أَن يُرِيَ من سَرَقَ مِنهُ أَنهُ قادِرٌ على الانتِقامِ مِنهُ فَيَخشَى أَذيَّتَهُ

٢ً) يرى أَنَّ امتِناعَهُ عَن ذٰلِكَ العَمَلِ الرَّدِيءِ يُورِدُ عَلَيهِ شَرًّا أَردأَ فيُقدِمُ عَلَى الشرِّ الأَخفِّ لِيَدفَعَ طُروءَ الشَّرِّ الأَشَدّ

٣ً) إِيقانُهُ بِأَنَّ اللهَ رَحيمٌ بعبادِهِ يَصفَحُ عن المُذنِب التائِبِ فَمَن يَتوبُ يَنجو من العُقُوبة . فَهُوَ يَضَعُ في نَفسِهِ أَن يَتبَعَ الإِثمَ بالتَّوبَةِ فَيَتَغَمَّدَ اللهُ ماجَناهُ بِعَظِيمِ عَفوِهِ وَإِذا قيلَ لَهُ علامَ تُوَرِّطُ نَفسَكَ في المَعصيَةِ ثم تَحمِلُ عَلَيها عِبءَ التَّكفِيرِ والا ولى أَن تَتجاوَزَ المَعصيَةَ وتَبقَى

على صَلاحِ أَمرِكَ . لِأَحتجَّ بِحُجَّةٍ مَّا تُرضيهِ ولا تُرضي العَدْلَ

وَكُلُّ عَمَلٍ صالحاً كانَ او طالحاً يَتَضمَّنُ قُبولاً لِدَعوةٍ وإِقبالاً عَلَيها وازدِراءً بِدَعوةٍ وإِعراضاً عَنْها فالصالِحُ يَتضمَّنُ قَبولَ دَعوةِ الدينِ وإِقبالاً على العَملِ بِشريعةِ اللهِ وازدِراءً بِهَوَى النَّفسِ وإِعراضاً عمَّا يُشوِّقُ إِلَيهِ . والطالِحُ يَتَضَمَّنُ قَبُولَ هوَى النَّفسِ والإِقبالَ عَلَى المَعصِيةِ وازدِراءً بِوُعودِ اللهِ ووَعِيدِهِ وإِعراضاً عَن موَعِظَةِ دِينه

ودَعوةُ الدِينِ تُسَمَّى دَعوةَ الضَّميرِ او دَعوةَ الوِجدانِ . ودَعوةُ الهَوى تُسَمَّى دَعوةَ الشَّهَواتِ الاثيمةِ او دَعوةَ الحَياةِ البَهيمِيَّة . لِأَنَّ الرُّوحَ البَهيمِيَّةَ التي فيهِ تَتَغَلَّبُ عَلَى اللطيفَةِ الطاهِرةِ فيُظلِمُ المَنارُ العَقليُّ الّذي يَجِبُ أَن يَظَلَّ مُستَنيرًا بِضِياءِ الصَّلاح

وقد عَرِفَ الأَقدمونَ ذلِكَ فَقالَ حاتِمُ الطائي

لِكُلِّ امرِئٍ نَفسانِ نَفسٌ كَريمةٌ
ونَفسٌ فَيَعصَى نَفسَهُ وَيُطيعُها

أَي لِكُلِّ امرىءٍ نفسانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ ونفسٌ خَبِيثَةٌ فَإِذا عَمِلَ صالِحاً عَصَى الخَبِيثَةَ وأَطاعَ الكَرِيمَة . واذا اساءَ عَصَى الكرِيمَةَ وأَطاعَ الخَبيثَةَ .

ويَتَعَيَّنُ العَمَلُ صالِحاً او طالِحاً بأَن يُعرَضَ العَمَلُ عَلَى النّفسِ مَسوقاً اليها من الغَيرِ فإِن قَبلَت أَن يُساقَ لَها فَهُوَ صالِحٌ وإِن أَبَت قبولَهُ فَهو طالح . أَو أَن يُشارِكَ الإِنسانَ ذا المبرَّةِ في عَمَلٍ مَّا فإِذا أَقبلَ عَلَيهِ راضياً وواثِقاً أَنهُ يَعمَلُ ما يُرضِي اللهَ فالعَمَلُ صالِحٌ وإِن أَباهُ تَذَمُّرًا مِن ثَمَرَةِ العَمَلِ او خَجَلاً من أَنْ يكونَ له صِلةٌ بِذلِكَ العَمَلِ فالعَمَلُ طالِحٌ

ويُعْجِبُنِي في الحَضِّ عَلَى المُشارَكةِ في العَمَلِ الصالِحِ قولُ حاتِمٍ

إِذا كُنتَ رَبّاً للقَلوصِ فلا تَدَعْ
رَفيقَكَ يَمشِي خَلْفَها غيرَ راكِبِ (١)

---

(١) الرب هنا الصاحب . والقلوص من النوق الفَتِيَّة بمنزلة الجارية من النساء

أَنِخْها فَأَرْكِبْهُ فَإِنْ حَمَلَتكُما
فَذاكَ وإن كانَ العِقابُ فَعاقِبِ (١)

الفَصلُ السابع

الصلاح مَوجودٌ والطلاح عارض

الصَّلاحُ إِيجادُ شَيءٍ على وَجهِهِ المَشروعِ أَو مَنعُ شَيءٍ عَن أَن يَجيءَ عَلَى وَجهٍ غيرِ مشروعٍ . والطَّلاحُ مَنعُ وجودِ شَيءٍ على وَجهِهِ المَشروعِ أَو إِيجادُ شَيءٍ عَلَى غَيرِ وَجهِهِ المَشروعِ . ولكي تَتَّضِحَ صِحةُ هذا القولِ يَقتَضي بَسطُ الكَلامِ فأَقول . إِذا رَأَينا صاحِبَ العِلمِ يُنفِقُ من وَقتِهِ وَقُوَى عقلِهِ في سَبيلِ إِنارةِ الَّذينَ لا عِلمَ لَهُمْ . فَيَقِفُ بِهِم أُستاذًا في مَكتَبٍ او خَطِيباً في مَجْمَعٍ عِلمِيٍّ او مُرشِدًا في مَعبَدٍ او ناصِحاً لِرِفاقٍ فَيُبَيِّنُ ما يَجِبُ عِلمُهُ لِيُؤمَنَ

---

(١) اناخ الناقة أبركها . فذاك أي فذاك المطلوب . والعقاب . المعاقبة بمعنى المداولة لا بمعنى العقوبة . اي ان حملتكما فذلك المطلوب وإلا فاركب مسافةً ثم اركب رفيقك مسافة عوضاً عنك

العِثار . ويُوصِي بأَن يَجْرِيَ العَمَلُ عَلَى وَفْقِ ذٰلِكَ العِلم . او يُنشِئُ الرسائِلَ ويُصَنِّفُ الأَسفار (١) وَيَنظِمُ القلائِدَ في جَلاءِ صِحَّةِ عَقيدةٍ دِينِيَّةٍ وتَفنيدِ مَزاعِمَ غيرِ سَدِيدةٍ او بَيانِ حَقيقةٍ عِلميَّةٍ . أَو تَوضيحِ مَطلَبٍ أَخلاقِيّ او تَنْبيهٍ إِلى مَشروعٍ عُمرانِيّ . فَإِنَّنَا نَرَى هٰذا العَمَلَ قَدِ استَنفَدَ مِن وَقتِ العامِلِ وَمن قُوَى عَقلِهِ شَيْئاً ثَمِيناً . فالوَقتُ ثَمِينٌ ، بل أَثمَنُ مِن كُلِّ ثَمِينٍ . لأَنهُ بالنِسبةِ إِلَى العَمَلِ كَالحَقلِ بِالنِسْبَةِ إِلَى الزَّرعِ . فَلاَ غِنَى لِلعَمَلِ عَن وَقتٍ يَملأ مَداهُ كما لا غِنَى لِلزارِعِ عن أَرض يَملأُ مَداها . وكما يكونُ لِلأَرضِ المُعَدَّةِ لِلعَمَلِ ثَمَنٌ يَجِبُ أَن يَكونَ لِلوَقتِ الذي يُشغِلُهُ العَمَلُ ثَمَنٌ . وكما يَحتاجُ الزَّرعُ الى وَسائِلَ لِكي يَستَطيعَ أَن يَتغَلْغَلَ في الثَّرَى وَهُوَ لا يُحصَدُ بَعد ما يَنمُو الاّ بِوَسائِلَ . يَحتاجُ العِلمُ أَيضاً الى وَسائِلَ لإِيصالِهِ الى المَسامِعِ ولإِثباتِهِ في أَلواحِ القُلوبِ . وهٰذِهِ الوَسائِلُ هِيَ القُوَى العَقلِيَّةُ الَّتِي يَستَخدِمُها المُتَكَلِّمُ والكاتِبُ

---

(١) جمع سفر وهو الكتاب

في سبيلِ إقناعِ السامعينَ . وكما لوسائلِ الزرعِ والحصدِ ثمنٌ يجبُ أَنْ يكونَ لوسائلِ التفهيمِ وإزالةِ الريبِ ثمنٌ وكلُّ ذي ثمنٍ موجودٍ فهو ذو وجود

واذا رأينا الكريمَ يُنفِق أموالَهُ على أيتامٍ وأراملَ مُطعِماً أو كاسياً ، أو يُمرّضُ على نفقتهِ المريضَ ، أو يعلّمُ الجاهلَ بإمدادهِ ، ويطبعُ الكتبَ الدينيَّةَ والأدبيَّةَ والعلميَّةَ والإخلاقيَّةَ والإقتصاديَّةَ ويوزّعُها مجاناً[١] أو زهيدةَ الثمنِ، فإنَّ كلَّ هذهِ الأعمالِ ذو وجود . فهيَ لا تكونُ إلاَّ عن بذلِ مالٍ ووقتٍ . وكلُّ هذهِ الأعمالِ أعمالُ صلاحٍ

فإن ضنَّ عالِمٌ بعلمِهِ فلم يفتحْ فاهُ بحقيقةٍ علميَّةٍ ولا موعظةٍ أدبيَّةٍ ولا نصيحةٍ أخلاقية . أو شحَّ الثريُّ[٢] على المعوزِ[٣] بعطاءٍ واختزنَ أموالَهُ في الصناديقِ . أو أوقفَ صاحبُ الأعمالِ ذاتِ التأثيرِ في الحياةِ العمرانيَّةِ

---

(١) اي بلا ثمن (٢) الثري والمثري والغني واحدٌ (٣) المعوز والفقير والمحتاج كذلك

أَعمالَهُ، وصَرَفَ عَنهُ العُمَّالَ الذينَ كانوا مُستَخدَمِينَ في دوائِرِ عَمَلِهِ فكلُّ ذلِكَ مِن بابِ إِيقافِ المَوجودِ عَمَّا وُجِدَ لَهُ حَتَّى يُخَيِّمَ العَدَمُ عَلَى الوُجودِ. فالعِلمُ الَّذي لا تَجري بِهِ مُذاكَرَةٌ يَتَطَرَّقُ إِلَيهِ النِّسْيانُ، والمالُ المَكنوزُ لِغَيرِ اسْتِعمالِهِ في وَجهِهِ المشروعِ هُوَ حَصًى وتُرابٌ، وأَدواتُ العَمَلِ التي لا عَمَلَ لها هِيَ وحِجارَةٌ في قُنَنِ الجِبالِ سَواءٌ، فإِنَّ الصَّدَأَ يَعروها ويُفسِدُ وُجودَها. فإيقافُ الموجودِ عَمَّا وُجِدَ لَهُ هُوَ من قَبيلِ إِيقافِ العَينِ عَنْ وَظيفَةِ النَّظَرِ بالعَمَى، وإِيقافِ الأُذنِ عن وظيفةِ السَّمَعِ بالصَمَمِ، وإِيقافِ الجَسَدِ عَن إِجراءِ الحرَكَةِ بالفالِجِ. والعَمَى والصَّمَمُ والفالِجُ لا وُجودَ مستقلَّ لها وما هِيَ إِلاَّ عَدَمٌ أَتى عَلى أَثَرِ وُجود

وزُبدَةُ هـذا البَيانِ أَنَّ بَذْلَ العالِمِ عِلمَهُ في تَعليمِ جاهِلٍ، والغَنِيّ مالَهُ في إِعالَةِ يَتيمٍ، صَلاح. فالصَّلاحُ بَذلُ المَوجودِ في وَجهِ إِنفاقِهِ المَشروعِ لهُ أَي هُوَ وجودُ الشَّيءِ عَلَى وَجْهِهِ المَشروع(١)

(١) هذا القسم الاول من الصلاح

وَشحُّ العالِمِ بِعِلمِهِ والغَنيِّ بمالِهِ طَلاح . فالطلاحُ إمساكُ المَوجودِ عَن أَنْ يُبذَلَ في وَجهِ إنفاقِهِ المشروعِ لَهُ[1]

فَالصَّلاحُ والطَّلاحُ نَقيضانِ كَما أَنَّ البَذلَ والإمساكَ نَقيضانِ سَواءٌ كانَ البَذلُ لِعلمٍ يُنيرُ العَقلَ أَو لِمالٍ يَصونُ الحياةَ او الكَرامةَ اولِعَمَلٍ يَستورِدُ رِزقاً . وكما أَنَّ العَمى والصَمَمَ والفالِجَ عَدَمٌ أَتى إثرَ وُجودٍ كَذلِكَ شأنُ إِمساكِ الشيْءِ عَنْ مُستَحِقِّهِ سَواءٌ كانَ ذلِكَ الشَّيْءُ عِلماً او مالاً او عَمَلاً . فالطَّلاحُ إِيقافُ المَوجودِ عَن أَنْ يَجرِيَ في ماوُجِدَ لأَجلِهِ أَي هُوَ مَنعُ وُجودِ الشَيءِ على وَجْهِهِ المَشروع

أَمَّا بَذْلُ ذي العِلمِ عِلمَهُ في غَيرِ وَجهِهِ كأَنْ يُزَيِّنَ لِلْجُهلاءِ رُكوبَ المَعْصيَةِ . وَبَذلُ ذِي المالِ مالَهُ في غَيرِ وَجْهِهِ ، في إِقبالِهِ عَلَى استِباحةِ مَحارِمِ الله تعالى والتَجاوُزِ إِلى العَمَلِ بما نُهِيَ عَنهُ . مُنفِقاً عَلى خَلاعةٍ وضَلالةٍ . وأَنْ يَنصَرِفَ العامِلُ الى عَمَلٍ يَأْتِي بِضَرَرٍ مَنهيٍّ عنهُ . فَإِنَّ كلَّ هٰذِهِ الأَعمالِ مِن بابِ استِعمالِ المَوجودِ عَلى غيرِ الوَجهِ

---

(١) هذا الوجه الاول من الطلاح

الَّذي شُرِعَ لَهُ أَي من بابِ العَمَلِ على غيرِ المَبدإِ المَشروطِ جَوازُهُ لِلعَمَلِ فهو طالِحٌ طَبعاً . لِأَنَّ العَمَلَ القانونيَّ ما كانَ على وَجْهِهِ القانونيِّ . واذا كانَ هٰذا طالحاً فَنَقيضُهُ صالِحٌ ونقيضُهُ الِامتِناعُ عَنِ العَمَلِ اذا كانَ وَجهُ العَمَلِ غَيرَ جائِزٍ[1]

فالإِعطاءُ لِعِلمٍ ومالٍ في وَجهِهِ المشروعِ وُجودُ عَمَلٍ . أَو صَونُ اليَدِ عَن سَرِقَةٍ واللِّسانِ عن كلامٍ قبيحٍ ومَنعُ النَّفسِ عَن شَرَهٍ إِلى ما هُوَ لِلآخَرِينَ إِمساكُ وُجودٍ عن عَمَلٍ. وكِلاهما خَيرٌ. وان كانَ في وُرودِهِما اختِلافُ صُورةٍ فَهُما مُتَّفِقانِ على وَحدَةِ مَصدَرٍ

والشُّحُّ بالعِلمِ والمالِ والعَمَلِ عن وَجهِهِ المشروعِ عَدَمُ وُجودٍ . والجُودُ بالعِلمِ والمالِ والعَمَلِ في غيرِ وَجهِهِ المشروعِ وجودٌ وكِلاهما شرٌّ .فَتَعَدَّدت صُوَرُهما واتَّفَقَت مَصدَرًا جاءَ في عَدَمٍ وَوُجودٍ . والعِبرَةُ بِالمَصدَرِ لا بالصُّورةِ ولا بِالطَّريق

(١) هـذا القول اتى على القسمين الآخرين من تقسيم الصلاح والطلاح فجاءَ على ان الطلاح وجود شيءٍ على غير وجهه المشروع . وان الصلاح منع وجود شيءٍ على غير وجهه المشروع

فَالصَّلاحُ وُجودِيٌّ سَوَاءٌ كانَ وُجودًا عَلى وَجهِهِ المَشروعِ لِغَيرِ سابِقِ وُجودٍ أَو مَنْعًا لِإِيجادِ ما لا يَجوزُ أَن يُوجَدَ لِأَنَّ وَجهَ إِيجادِهِ غيرُ مشروعٍ . والطَّلاحُ عَدَمِيٌّ سَوَاءٌ كانَ امتِناعًا عَن إِيجادِ مَا يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ شَرعًا او إِيجادًا لِما لا يُجيزُ الشَّرْعُ وُجودَهُ .

والعَقلُ السَّليمُ يَقضي أَنْ يكونَ كلُّ مَوجودٍ عامِلاً في الوَجهِ الَّذي وُجِدَ لَهُ فالعِلمُ لم يُوجَدْ لِكَيْ يُصانَ بَل لِيُبْذَلَ في مَنفَعَةٍ فَإِن صِينَ عن بَذلٍ في مَنفَعَةٍ أَو بُذِلَ في جَلبِ مَضَرَّةٍ كانَ العَمَلُ في الصِّيانَةِ والبَذلِ لِجَلْبِ الضَّرَرِ عارِضًا طَرَأَ لا عَمَلاً بِمُقْتَضَى الأَصلِ . فالصَّلاحُ أَصلٌ والطَّلاحُ طارِئٌ

وَنَستَدِلُّ على أَصلِيَّةِ الصَّلاحِ بِأَنَّهُ يُعتَرَفُ بِهِ ولا يَخْشَى صاحِبُهُ نَكيرًا في وَجه عَمَلِهِ . والأَصلُ أَن يُعتَرَفَ بِالواقِعِ حَسبَما وَقَعَ . كَمَا نَستَدِلُّ على عَدَمِيَّةِ الطَّلاحِ بِانَّ صاحِبَهُ يُنكِرُهُ وَيَخجَلُ مِنَ الاعتِرافِ بِهِ

فَلا يُعابُ عالِمٌ اذا هَدَى الى حقيقةٍ أَو فاهَ بِمَوْعِظَةٍ

حَسَنَةٍ ولا يخجل هوَ بأَن تُروَى عنهُ تلكَ الحقيقة . وتنسبُ اليه تلكَ الموعظَة . ولكنهُ يُعابُ إِذا أَخفى الحقيقةَ وترَكَ الناسَ يجهلونها وأَمسكَ عن الموعظةِ في محلِّها او عمَّن يَستحقها كما يُعابُ اذا ذكَرَ ما هوَ بُطلٌ وَدعاهُ حقيقةً وأَفتى بجَواز ما لا يجوز

ويَحدُثُ أَنَّ الصالحَ ينكرُ عمَلَ صلاحهِ عن تواضعٍ واجتناب للخُيلاء وذلكَ لأَنهُ يؤمنُ أنَّ اللهَ يرَى عملَهُ ويُثيبهُ عنهُ فإِذا ظهرَ أَنه عملهُ بعدَ إِنكارهِ لهُ كانَ ظهورُهُ من بواعثِ تكريمهِ فيعدُّهُ الناسُ ملَكًا في صورةِ إِنسان

اما الطالحُ فيُنكرُ ما كانَ منهُ طلاحًا عن تبرُّؤٍ من تبعتهِ الرَّديئة فانَّهُ اذا ظهرَ منهُ أَذاهُ ولو كانَ في أَعلى مكانةٍ وصوَّرَهُ للناسِ شيطانًا في هيكلٍ انساني

فإِنكارُ الصَّلاحِ عن استزادة ثوابِ الخالقِ وإِنكارُ الطَّلاحِ عن تجنُّبِ عقوبةِ المخلوق . فالصَّلاحُ إِذا صدَرَ يحلو الثمرةُ المَرجوَّةُ منهُ سواءٌ اعترف بهِ أَو أُنكرَ .

والطَّلاحُ إِنْ صَدَرَ فَثَمَرَتُهُ مَرِيرَةٌ إِنِ اعْتَرَفَ بِهِ أَو أُنْكِرَ لِأَنَّ الوِجدانَ يُؤَنِّبُ عَلَى عَمَلِهِ . وهذا دَليلٌ كافٍ على طُروئِهِ لِأَنَّ الأَصلَ في كُلِّ عَمَلٍ أَن تُجتَنَى ثَمَرَتُهُ بِقَبول . فإِباءُ ثَمَرتِهِ خُروجٌ عَنِ الأَصلِ . وما أَتى بِهِ الخُروجُ عَنِ الأَصلِ طارِئٌ . فالنتيجةُ تُنْبِئُ عَن مُقَدِّمَتِها . فالأَصلُ يأْتي عن الأَصلِ . والطارِئُ عن الطارِئ .

الفصل الثامن

وجوبُ الاقبال على الصلاح والامتناع عن الطلاح

لَنا ان نَقولَ بِتَأَصُّلِ الصَّلاحِ عَن ثَمَرَتِهِ وَبُطروءِ الطَّلاحِ عَن ثَمَرَتِهِ بِمُسْتَنَدٍ آخَرَ هو:

كُلُّ موجودٍ وُجِدَ لِإِنماءِ الوُجودِ لا لِإِذبالِ الوُجود. فإِذا وُلِدَ طِفلٌ فَلِكَيْ يَزيدَ في عَدَدِ الأَطفالِ . واذا نَمَت سُنبُلَةٌ أَو غَرسٌ فَلِلمَزيدِ في عَدَدِ السَّنابِلِ والغِراسِ . ولا تَكونُ وِلادةُ طِفلٍ لِإِفقادِ أَطفالٍ ولا نُمُوُّ سُنبُلةٍ لِجَدِّ (١) سنابِلَ ولا بُسوقُ (٢) غَرسٍ لِهَصرِ (٣) غِراس

---

(١) قطع (٢) بسق الغرس طال (٣) عطف وكسر

وبناءً على ذٰلِكَ يَجِبُ على العالِمِ أَنْ يَتَذَرَّعَ بِعِلمِهِ الى إِنارَةِ العُقولِ بِمَعلوماتِهِ لِيَتَمَكَّنَ الآخَرونَ من المَسيرِ في شُؤُونِ الحياةِ على جَدَدٍ[1] لا عِوَجَ فيهِ ولا عِثار . وعلى الغَنِيِّ أَنْ يُنفِقَ أَموالَهُ على ذَوِي الحاجةِ فيَتَمَكَّنوا من تَحَمُّلِ مَتاعِبِ الحَياةِ وصَدِّ عواملِ الهَلَكَةِ . وعَلَى ذي العَمَلِ أَنْ يُبقِيَ عَمَلَهُ في مَجراهُ الطبيعيِّ فيَستَخدِمَ العُمَّالَ في دوائِرِ عَمَلِهِ . فَإِنَّ سَيرَ هؤُلاءِ الرِجالِ عَلى هٰذا المِنهاجِ عائدٌ الى زيادةِ المَوجودِ فهُوَ مِنَ الوَجهِ المَشروعِ المُنطَبِقِ على مَبدَإِ إِنَّ كلَّ موجودٍ وُجِدَ لِإِنماءِ الوُجود . وهذا هُوَ الأَصلُ في الوجودِ . والأَصلُ يُتَّبَع

وإِنِ امتَنَعَ العالِمُ عَن بَذلِ عِلمِهِ في إِيضاحِ حقيقةٍ فَكَتَمَ مَعلوماتِهِ ، أَوِ انصَرَفَ عن تَوَخِّي الصدقِ في أَقواله ، الى تَضليلِ الأَفهامِ . فإِنَّ المَنارَ الَّذي يَجِبُ أَنْ يَتَلأْلأَ بالنُّور ، يُمسِي مَصدَرَ الظَّلامِ . والطريقَ الذي يَجِبُ ان يهَوِّنَ المَشاقَّ ، تَحدُثُ عَنهُ العَثَراتِ . والحارسَ الذي

(١) الارض الصلبة المستوية ومنه المثل من سلك الجدد امن العثار

عَلَيهِ ان يَصونَ البَضائعَ . يَتولّى سَرِقتَها . فيُمسِي العَمَلُ من العامِلِ وارِدًا من باب إزالة ماهُو مَوجودٌ مِنَ الوجود . فَيعمَلُ الموجودُ عَلَى غيرِ ما وُجِدَ لَهُ . وتُمسِي ولادةُ الطِفلِ سَبَبًا لإِفقادِ الأَطفالِ وهذا يُناقِض ماوُجِدَ الطِفْلُ لِأَجلِهِ

هذا شأنُ الغَنيّ إِن أَمسَكَ يَدَهُ عَن بَذل مالِهِ في تَخفيفِ مَشاقِّ الحَياةِ عَنِ الرازِحينَ تحتَ أَعبائِها . فإِنَّ شِحّهُ بالمالِ في ما يَجِبُ فيه الإِنفاقُ المَشروعُ ، وتَبذيرَهُ اياهُ في وُجوهٍ غيرِ مَشروعةٍ ، مِمَّا يجعَلُ المَصائبَ شَديدةَ الوَطأَةِ. تَقضي على الكَثيرينَ القَضاءَ المُبرَمَ. أَو تُغادِرُهُمُ[1] في شِدَّةٍ وضَنْكٍ ، يعُدُّونَ الحَياةَ مِنَ المَتاعِبِ الَّتي يَوَدُّونَ أَن يُراحوا منها ، ويُنشِدُ لِسانُ حالِهِم قَولَ الشاعِرِ

المَوْتُ خَيرٌ مِن حَياةٍ مُرَّةٍ
تُقضَى لَيالِيها كَقَضْمِ الجَلْمَدِ[2]

وَقِس على ذلِكَ ، إِقفالَ ذي العَمَلِ دائِرَةَ عَمَلِهِ ، أَو

---

(١) تتركهم (٢) القضم اكل الشيء اليابس باطراف الاسنان بجلمد الصخر

اتِّباعَهُ في العَمَلِ ما لا يَجوزُ شَرْعًا ، فَبتَوقيفِهِ عَمَلَهُ يَنْضُبُ[١] مَورِدُ رِزقِ العُمَّالِ في دائِرَتِهِ ، فَتنزِلُ بِهِم الخَصاصةُ[٢] ، ويَعروهم فَقرٌ ، والعواقِبُ المُتَرَتِّبَةُ عَنهُما وَخيمةٌ ، فالفَقرُ يَؤُولُ إلى شَقاء . والوجودُ يَتَطَلَّبُ هَناءً لا شقاءً . وأَمَّا إذَا كانَ عَمَلُهُ لا يَجوزُ شَرْعًا ، فَهُوَ انصِرافٌ الى هَدم غيرِ جائز . بَدَلاً من أَن يكونَ بمُقتَضى وُجودِهِ مُجبَرًا في أَن يُشيِّدَ البُنيانَ الجائزَ . ومِمَّا أَقرَّتْ عَلَيهِ العُلَماءُ أَنَّ مَثَلَ الشَّرْعِ والجائزِ كَمَثَلِ النَّهارِ والشَّمْسِ فكلَّما كانتِ الشَّمْسُ مُنيرةً فَالنهارُ مَوجودٌ . وإِذا لم يَكُنِ النَّهارُ موجودًا ، فلا شَمسَ منيرة . وهكذا يُقالُ كلَّما جاءَ الشَّرعُ في أَمرٍ ، فَذَلِكَ الأَمْرُ جائِزٌ . وكُلُّ أَمرٍ لا جَوازَ لَهُ فلا شَرْعَ بِهِ

فَإِظلامُ مَنارِ الحَياةِ وإِعثارُ طَرِيقِها ، وإِفقارُ نَسَمَةِ الحياةِ ، والإِرزاحُ تَحتَ عِبءِ الشِّدَّةِ ، وتَخييمُ دَواعي الخَصاصةِ على الحياةِ ، شُؤُونٌ تُعارِض نِظامَ امتِدادِ

(١) يخسر ويجف (٢) الحاجة

الوُجودِ . وتَعمَلُ في إِزالةِ المَوجود . فَهِيَ من بابِ عُروضِ ما لَيسَ بِمَوجودٍ عَلَى المَوجودِ . وكُلُّ ما هُوَ كَذٰلِكَ فَهُوَ طارِئٌ . ومَرجِعهُ الى الطَّلاح فَمَن مَنعِ الخَيرِ عَن مُسْتَحِقِ الخَيرِ ، وتَوَقُّفِ مَن يَقدِرُ عَلَى عَمَلِ الخَيرِ عَن ذٰلِك العَمَلِ طَلاحٌ . وما هوَ كَذٰلِكَ فَهُوَ ما يَجِبُ أَن لا يكون . فيَجِبُ أَنْ لا يُعمَلَ . وعَلَى كُلِّ إنسانٍ تَجَنُّبُهُ لخُروجِهِ عَن خِدمةِ المَوجودِ في دَوامِهِ الى أَذِيَّةِ المَوجودِ . ومَن دَرَى حقيقةَ شَيْءٍ وأَصَرَّ عَلَى مُتابَعَةِ الغَيِّ في مَسيرِهِ . غيرَ آبِهٍ لِسُوءِ مَصيرِهِ . فالعَاقِبَةُ عَلَيهِ وَخيمةٌ . فان الحَصادَ من جِنسِ البِذارِ ومَن يَزرَعِ الرِّيحَ يَحصِدِ الزوبعة

مَنْ يَزرَعِ الخَيرَ يَجنِ الخَيرَ غَلَّتَهُ
وزارِعُ الشَّرِّ يَجني الشَّرَّ أَضعافا
فاعكُفْ عَلَى العَمَلِ المَبْرُورِ مُغتَبِطاً
فَسَوفَ تَجني زُروعَ البِرِّ إِنصافا[1] .

---

(١) عدلا

وَاحذَرْ صَنيعاً أَثيماً إِنَّ عامِلَهُ
عَنهُ سَيُرسِلُ فَيضَ الدَّمعِ تَذرافا

الفَصلُ التاسِع

صلاح الخالق

يَتَحَصَّلُ مَعَنا مما تَقَدَم أَنَّ لِلصَّلاحِ مَبدَأَين أَوَّلهما إِيجادُ ما لم يكُن مَوجُودًا والثاني دَعمُ المَوجودِ حَتَّى يَتَمَكَّنَ من حِفظِ وُجودِهِ [١] . كما أَنَّ لِلطَّلاحِ مَبدأَينِ أَوَّلُهما تَخَلٍّ عَن دَعْمِ المَوجودِ حتى يَذهَبُ وُجودُهُ . والثاني هَدمُ المَوجودِ على غَيرِ مُسَوِّغٍ لِلهَدْم [٢]

---

(١) لو بَنى واحـدٌ مستشفى في بلدةٍ لأوجَـد ما ليس موجوداً وكذلك لو اتفقت جماعة على تأليف جمعية لاقامةِ جامعة علميـة او لعناية بشأن مهمٍ

أمَّـا دعم الموجود فكما لو كان في قرية مدرسة وجاد احد المحسنين بمبلغ لها . وكما لو كان يتيمٌ فتبنَّـاه أو أحسن اليه محسن فان حياة اليتيم تجد بهذهِ العناية معونة هي من باب دعم جدار حياتهِ حتى يبقى راسخاً

(٢) التخلي عن دعم الموجود مثـل قطع المساعدات عن المعاهد الخيرية والايتام والارامل . وهدم الموجود مثل السعي لاذية الايتام

والطَّلاحُ ولا رَيبَ يتعقَّبُ الصَّلاحَ . فالمَوجودُ عن صَلاحٍ يقعُ الامتناعُ عن دعمِهِ أَو العَمَلُ في هَدمِهِ بعدَ وُجودِهِ . فالصَّلاحُ الصادرُ مِنَ الإِنسانِ يَندَرِجُ تحتَ المَوجودِ، فهُوَ حتماً يَندَرِجُ تحتَ ما لَهُ مُوجِدٌ . فشأنهُ شأنُ الماءِ النابِعِ الذي لا بُدَّ لهُ من ثقبٍ ينبثِقُ مِنهُ، وكالنُّورِ الساطِعِ الذي لا رَيبَ أَنَّهُ يمتدُّ شعاعاً من جِرْمٍ ، وكالحَرارةِ التي لا مَندوحةَ مِنَ التَّسليمِ بِأَنَّها صادرةٌ عَن باعثٍ . فيَجِبُ أَن نعودَ بِصَلاحِ الإِنسانِ المَخلوقِ الى مَصْدَر

إِنَّ العَقلَ المُستَنيرَ لا يَصعُبُ عليهِ أَن يهتدِيَ الى أَنَّ صَلاحَ الإِنسانِ راجعٌ الى مَصدرِهِ اي مُوجِدِهِ . فقَدِ اهتَدَى إِلَى أَنَّ الآلةَ الطاحنةَ المؤلَّفةَ من قُطبٍ ثابتٍ ورَحًى تَدورُ عليها ، لَمْ توجَدْ لِذاتِها . بَلْ لِأَنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ تَصَوَّرَ في حيِّزِ الفِكرِ وَضعَها . ثمَّ أَبرَزَ هذا الوَضعَ مِن فِكرٍ ليس لَهُ سابِقُ كِيانٍ . الى حيِّزِ الفِعلِ حِسِّيًّا .

وصرف الاخرين عن معاضدة المشاريع الخيرية وكسرقة اموال الاخرين وامثال هذه التصرفات الاثيمة

فالموجودُ الذي يَحتاجُ وُجودُهُ الى صُدُورٍ عَن قُوَّةٍ عاقِلةٍ، هُوَ مَوجودٌ من مُوجِدٍ سابقٍ له في وُجودِهِ . فأَوجَدَ الأَشياءَ كما حَسُنَ لَدَيهِ شَيئاً بَعدَ شَيْءٍ، لا دَفعةً واحدةً . ونَستَدِلُّ عَلى ذٰلِك بأَنَّ نِظامَ المَوجوداتِ الَّتي يُوجِدُها كُلَّ آنٍ يَأْتي بالمَوجوداتِ شَيئاً بَعدَ شَيءٍ . فَيثمِرُ التُّفّاحُ قَبلَ العِنَبِ . ويُعطِي المَوطِنُ الحارُّ ثمرَهُ قَبلَ الموطِنِ البارِدِ فلا تُثمِرُ الغِراسُ كلُّها دَفعةً واحدةً . ولا تُعطِي الاراضي كلُّها غِلالَها دَفعةً واحدة . وهٰذا النظامُ مُشاهَدٌ بالعَينِ الباصِرَةِ . وما هُوَ واقِعٌ الآنَ يُقالُ أَنهُ كانَ قَبْلاً ، لِأَنَّ المَبدَأَ القائِلَ إِنَّ الشيَ يبقى عَلَى ما كانَ عَلَيهِ ، مُنذُ وُجِدَ حتّى يَعرِضَ عَلَيهِ ما يُحَوِّلُهُ عَن وَضعِهِ ، لم يَرِدْ عَلَيهِ ما يَنقُضُهُ فهُوَ صَحيحٌ. وأَمّا الطارِئُ فيُعادُ في حُدوثِهِ الى أَقرَبِ زَمَنٍ يَتَعَيَّنُ أَنَّ ذٰلِكَ الطارِئَ حَدَثَ فيهِ . فيَذهَبُ الفِكرُ بالأَصْلِ إِلَى المَصدَرِ الذي كانَ قديماً وبالطارِئ الى الزَّمَنِ الحَديثِ

وقَدْ سَلَّمَ الإِنسانُ بِأَنَّ الإِبنَ لا غِنَى لَهُ عَن أَنْ يَتلَقّى

عَنْ أَبوَيهِ النُّطقَ . فَإِن يكُن نُموُّهُ في صُحبةِ غَيرِ الإِنسانِ كما لو اختطَفَ وَحشٌ ضارٍ طِفلاً ولم يَفتَرِسهُ . فَنَشأَ الطِّفلُ مع أَبناءِ الوحشِ فانَّهُ لا يَهتَدِي الى التَّكلُّمِ بلُغَةٍ ما (١)

ولَنَا شاهِدٌ أَقرَبُ حُدُوثًا هُوَ أَنَّ المولودَ من والِدَينِ عَرَبيَّينِ إِذا دُفِعَ الى حاضِنةٍ لَيسَت عَرَبيةً فَاعتَنَت بهِ وَنَشأَ وبَلَغَ سِنَّ الكَمالِ يكونُ خَلِيًّا من مَلَكةِ التَّكلُّمِ باللِّسانِ العَرَبي ولا يَفهَمُ كَلامَها ويكتَسِبُ مَلَكةَ لُغَةِ مَن حَضَنَتْهُ وعَلَّمَتهُ فالإِنسانُ المُتَعَلِّمُ لا بُدَّ لَهُ من أَنَّهُ عَلَّمَهُ مُعَلِّمٌ ما لا غِنَى لَهُ عَن عِلمِهِ . وهذا المُعلِّمُ هُوَ اللهُ الذِي أَوجَدَهُ (٢) . فانَّهُ لا يَصِحُّ أَنْ يُقالَ إِنَّ اللهَ أَوجَدَهُ ،

---

(١) في الحديث النبوي « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواهُ يهوِّدانه او ينصرانه او يمجسانه » واذا كان الدين لا يهتدى اليه الا بتلقن فبالاولى أن لا يهتدى الى اللسان الا بتلقن

(٢) مصداق هذا القول ماجاءَ في سفر التوراة «وجبل الرب الاله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل مادعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها» (تكوين ٢: ١٩) وفي القرآن آية «وعلم آدم الاسماء كلها»(سورة البقرة)

ثُمَّ أَهمَلَ ما بقاءُ وُجودِه يَستَلزِمُهُ . وقد عَلَّمَهُ بِوَحيٍ مِنهُ تَعالَى أَنَّهُ خَلَقَ النُّورَ قَبلَ كلِّ مادَّةٍ محسوسةٍ . ثُمَّ الجَلَدَ أَي السماءَ . ثُمَّ اليابسةَ مِن أَرضٍ وماءٍ . فَمَا عَلَى الأَرضِ من عُشْبٍ وبَقلٍ وشَجَر. ثُمَّ ما في الجَلَدِ مِن أَجْرامٍ . ثم الزَّحَّافاتِ والطَّير. ثم البَهائِمَ والدَّبَّابات . وخَلَقَ أَخيرًا الإِنسانَ وَهوَ أَشْرَفُ كُلِّ تِلكَ المَخلوقات .وشَرَفُهُ بنَفْسِهِ الَّتِي هِي اللَّطيفَةُ الإِنسانيةُ الفائِقَةُ كَرامةً على كُلِّ المَخلوقاتِ المحسوسةِ . فَجَوهَرُها لا يُقاسُ بِهِ مَحْسوسٌ ولِسُمُوِّها شأنًا أَعَدَّ اللهُ لَها جَسَدًا أَفضَلَ وَضْعًا مِن جَميعِ ما تَمَتَّعَ بِهِ الحَيَوانُ والطَّير

والنَّفسُ خُوِّلَتِ العَقْلَ الَّذي بِهِ وُجُودُ الإِنسانِ إِنسانًا على مُقْتَضَى ما أَوجَدَهُ اللهُ فَلا يكونُ الإِنسانُ حائزًا إِنسانيَّتَهُ على وَضعِها الصحيحِ إِلاَّ وَهوَ ذو عَقلٍ يأْتَمِرُ بأَمرِ رَبِّهِ ويَنْتَهي بنَهيِهِ . فإِذا عَرَضَ عَلَى العَقلِ تَشويهٌ[1] كَما يُصابَ بالبَلَهِ[2] فانسانِيَّتُهُ مُشَوَّهَةٌ ولَيسَت سليمةً

---

(١) تشبيح (٢) ضعف العقل

ـسي حيَوانًا . وقد صَرَّحَ بذَلك داوُدُ النبيُّ في قولِه
إنسانٌ في كَرامةٍ وَلَم يَحتَفِظْ بِها يُشبهُ البهائِم »
بَهيمُ من حَقِّ التَّصَرُّفِ بإِرادتهِ فَيسودُهُ الإِنسانُ
ـاب بالبَلَه تَحتَ سَيطرةِ مُسَيطرٍ يَتوَلَّى النَّظَرَ
وذلِكَ لأَنَّ العقلَ الَّذي يُحسنُ العَمَلَ في استبقاء
لإنْسانيِّ تَعَطَّلَ فَسقَطَ المُصابُ بالعَطَلِ العقليّ
لإنسانيَّـةِ الرفيعة .
الإنسانيُّ مُخَوَّلٌ أَن يَعمَلَ في استبقاء الوُجود
وفي سَبيلِ هذا الاستبقاء أُطلِقَت لَهُ حُرِّيَّة
ي كلّ المَوجوداتِ ، فاستَخْدَمَ النورَ والظَّلامَ
حَيَوانَ غيرَ الناطقِ والعُشبَ والشَّجَرَ والتُّرابَ
المَعادِن، والهواءَ والنارَ وكلَّ حقيقةٍ تَوَسَّلَ الى
ها عن طَريقِ البَحثِ المَقصودِ أَو عَن طَريقِ
ـًا
كُلُّ هذِهِ المَوجوداتِ أُوجِدَت لِحِفْظِ وُجودِ
وجودِ أَي أُوجِدَت لِصَلاحِ حالِ الإِنسانِ

فَمُوجِدُها وَهوَ اللهُ تَعالى صالِحٌ فإِنَّهُ أَعَدَّ كُلَّ مَخلوقاتِهِ لِلصَّلاحِ . وبِما أَنَّ الإِنسانَ كانَ ولا يَزالُ مُثابِرًا على البَحثِ عَمَّا في المَخلوقاتِ من الخَصائِصِ التي تُفيدُ في استِبقاءِ الوُجودِ الإِنسانيِّ ودَفعِ الجَوائِحِ [1] عَنهُ ويَستثمِرُ من بَحثِهِ ظَفَرًا بأَنهُ يَعثِرُ على خَصائِصَ مَوجودةٍ في النُّورِ او الحَيَوانِ او الهَواءِ أَوِ الماءِ لايَعرِفُها ، وَهيَ تُساعِدُ على استِبقاءِ الوُجودِ الإِنسانيِّ . يَنتُجُ مَعَنا أَنَّ مَوادَّ الصَّلاحِ التي أَعَدَّها اللهُ لِخَيرِ الإِنسانِ لم يَبلُغْ الى نِهايَتِها استِقراءٌ ومِن مُقتَضَى ذلِكَ التَسليمُ بأَنَّ صَلاحَ الخالِقِ لا حَدَّ لَهُ قَدَرَ او يَقدِرُ الإِنسانُ أَنْ يَصِلَ إِلَيهِ فَصَلاحُ الخالِقِ كما يُثبِتُ البَحثُ الإِنسانيُّ غَيرُ مُتَناهٍ

واذا كانَ كُلُّ ما في المَخلوقاتِ الّتي استخدَمَها الانسانُ رأَى فيها صَلاحَ الخالِقِ مُودَعًا على وَجهٍ غيرِ مُتناهٍ فَلا شَكَّ في أَنهُ يُدرِكُ أَن الصَّلاحَ الذي فِيهِ قَدْ أَودَعَهُ اللهُ فِيهِ . فالمَخلوقُ يَكونُ كما يُرِيدُ خالِقُهُ . وَمِن صَلاحِ

---

(١) الجوائح جمع جائحة وهي النازلة العظيمة

المَخلوقِ نَستَدِلُّ على صَلاحِ الخالِقِ عزَّ شأنُهُ

وَإِذا سَلَّمنا بِهٰذا وَجَبَ عَلَينا ان نُسَلِّمَ أَنَّ الذي يَعْلَمُ وُجوهَ الصلاحِ اكثَرَ من سِواهُ ويَعمَلُ بها . أَقرَبُ الى اللهِ وأَحَبُّ إِلَيهِ (١) وهٰذا التَّسلِيمُ يَدعونا الى العَمَلِ الصالِحِ بِرَغبةٍ حارَّةٍ

الفَصلُ العاشِرُ

في أن العقل المستنير لا يمكنه أن يتصوَّر صدور الطلاح عن الله تعالى

إِنَّ البَحثَ في شأنِ الطَّلاحِ هُوَ بمُقتَضى طبيعتِهِ أَدَقُّ مِنَ البَحثِ في شأنِ الصَّلاحِ ، فَإِنَّ المَوجودَ ظاهِرُ وُجوهِ الفائدةِ أَمَّا إِعدامُ المَوجودِ فأَغرَبُ شأْناً . فما مِن أَحَدٍ يَجهَلُ أَنَّ المولود يُولَدُ ليكونَ عَوناً لِأَبَوَيهِ رَأساً أَو

(١) ينطبق على هذا ماجاءَ في سفر رسالة يوحنا الأولى «ان قال أحدٌ اني أحب الله وأبغضَ أخاه فهو كاذب لان الذي لايحب أخاه الذي أبصرهُ كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره» (ايو ٤ : ٢٠) والحديث النبوي الشريف « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله »

بالواسِطَةِ . أَمَّا مَماتُ المَوْلُودِ فَمَوضِعُ الغَرابَةِ . وَلِهٰذا نَجِدُ الحكوماتِ تَستَسْهِلُ سَنَّ القَوانِينِ الَّتي تخَوِّلُ إِهداءَ الجَوائِزِ لِلْمُحسِنِينَ في خِدمةِ الوُجودِ الإِنسانيِّ وتَستَصعِبُ سَنَّ القَوانِينِ الَّتي توقِعُ العُقُوباتِ عَلَى المُسيئِينَ إِلَى الوُجودِ الإِنسانيِّ . وتُطِيلُ مَجالَ البَحثِ في عُقوبةِ القاتِلِ وتُعِيدُ النَّظَرَ في مُدافعاتِهِ . أَمَّا مَن أَنقَذَ غريقاً أَواستَخلَصَ من لَهِيبِ النار نَسَمةً أَوهَدَى إِلَى كَنزٍ ثَمينٍ فَلا تَشاحَّ في إجازتِهِ[١] فَإِذا تَمَهَّلَت في إِسدائِها[٢] فَلِكَيْ تكونَ على وَجهٍ أَوفى أَو أَجَلَّ أَوأَدعَى الى تحبيب عَمَلِهِ الى قُلوبِ الناس

ولِمَا بَينَ الصَّلاحِ والطَّلاحِ مِنَ الاختِلافِ مَبْدَأً زَعَمَ قومٌ أَنَّ لِلخَيرِ إِلٰهاً ولِلشَّرِّ إِلٰهاً آخَرَ فقالوا بوُجودِ إِلٰهَينِ[٣] وَهوَ قَولٌ باطِلٌ لِأَنَّ وُجودَ الاثنَينِ يَستَلزِمُ

---

(١) تشاحَّ تنازع . اجازته اعطاءه جائزة (٢) اي اعطائها
(٣) جاءَ ذلك في دين الفرس. وعمل المسمى مركيون في ادخاله في دين المسيح فرفضه رجال الدين المسيحي رفضاً باتا نحو سنة ٤٠٠ للمسيح

لِنَفسِهِ وُجودَ واحدٍ فَلا بُدَّ في وُجودِ اثنَينِ من سابق وتالٍ ولا يكونُ تالٍ إِلٰهًا لِأَنَّ الألوهيَّةَ لا تَقبلُ أن يكونَ لها سابقٌ فالإِلهُ لا يكونُ تاليًا. فَإِنْ قيلَ إِنَّ إِلهَ الخيرِ وإلهَ الشَّرِّ وُجِدا معًا قُلتُ ان القَولَ بِهٰذا يَستَلزِمُ التَّسليمَ بِأَنَّ قَبلَهما واحِدًا لِأَنَّ الزَّوجيَّةَ فرعُ الفَرديَّةِ وحَيثُما وُجِدَ فَرعٌ اقتَضى وُجودُ أَصل. فما وُجِدَ اثنانِ إِلاَّ وُجِدَ قبلهما واحدٌ.

فَإِذا كانَ اثنانِ مُتَساوِيانِ مَنزِلَةً فلا بدَّ مِن وُجود واحدٍ قَبلَهم أعلى منهما مَنزِلَةً وهٰذا الواحِدُ هُوَ مُوجِدُهما لِأَنَّ التَّثنيةَ مِن عَمَلِ مُوجِدٍ. واذا كانَ لهما مُوجِدٌ فَهما مخلوقانِ لا خالقانِ. فالخالِقُ مُوجِدٌ لا مُوجِدَ لَهُ فَلَهُ وُجودُهُ من نَفسِهِ وسُلطانُهُ في كُلِّ شَيءٍ مُطلَقٌ لا يُنازِعُهُ بِهِ مُنازِعٌ

وبِما أَنَّهُ انتَفى بالدَّليلِ العقليِّ أَن يكونَ إِلهانِ الواحِدُ إِلهُ خَيرٍ والآخرُ إِلهُ شَرٍّ. فَلا بُدَّ من التَّسليمِ بِإِلهٍ واحِدٍ وَهُوَ إِلهُ خَيرٍ خَيرُهُ مالِئٌ كلَّ الكائناتِ الَّتي أَوجَدَها بِإِرادَتِهِ الخاصَّةِ

وهُنا يَعتَرِضُنا بَحثٌ دَقيقٌ هُوَ: البَحثُ في حدوثِ

الشَّرِ . فالقَولُ بأَنَّهُ يحدُثُ من إِلٰهِ الخيرِ يُؤَدِي الى التَّسليمِ بِأَنَّهُ إِلٰهُ شَرّ أَيضًا . ويُعارِضُ ذلك المَبدَأُ القائلُ إِنَّ الخيرَ المَحضَ لا يَكونُ مَعَهُ شَرٌّ بَتَّةً .وإِنْ نَفَينا وُجودَ الشرّ فَنَّدَ قولَنا الواقِعُ فإِنَّ لِلشرّ وُجودًا . فَيَقتُلُ القاتِلُ ويَغصِبُ الغاصِبُ ويَظلِمُ الظالِمُ ويَكذِبُ الكاذِبُ . وأَمثالُ هٰذِهِ الأَعمالِ الشِرّيرةِ كثيرةٌ . ولا يَقعُ إِحصاءٌ على ما يَقَعُ منها في كلِّ يومٍ لِكَثرَتِها

والجوابُ على ذٰلك. إِنهُ من البَديهيّ أَنَّ الظُلمةَ تَعقُبُ النُّورَ في كلّ يومٍ فنُصفُ اليومِ نَهارٌ ونُصفُهُ لَيلٌ وهُما مَعًا يَومٌ واحِدٌ لا يَومانِ. والحاجَةُ الى النَّهارِ لِلعَمَلِ فيهِ ظاهِرةٌ كُلَّ الظُّهورِ ، والحاجَةُ إِلى اللَّيلِ لِلرَّاحَةِ فيهِ ظاهِرةٌ كَذٰلِكَ . فاللَّيلُ ضَروريٌّ لِلوُجودِ الإِنسانيّ كالنَّهارِ : وقِس على ذٰلك ، تأَلُّفَ السَّنَةِ الواحدةِ من أَربعةِ فُصولٍ تَرجِعُ الى عَهدَينِ عَهدِ غَلَبَةِ البُرُودةِ على الحَرارةِ وعَهدِ غَلَبةِ الحَرارةِ على البُرودةِ . ويَتَوالى في كلِّ عامٍ سُقوطُ المَطَرِ واحتِباسُهُ : فلا بُدَّ مِن أَن تُمطِرَ السَّماءُ او تَمتَنِعَ

عَنِ الإِمطارِ . فَيَقَعُ مِنَ الشَّيْءِ الواحِدِ المُتَناقَضانِ . ويَكُونُ ذٰلِكَ الوُقوعُ لاستِبقاءِ وُجودِ الإِنسان

بَل نَجِدُ الإِنسانَ لا يُمكِنُهُ أَن يَستَبقِيَ حَياتَهُ إِلاَّ بأَن يُراوِحَ بَينَ العَمَلِ والراحةِ . وبَينَ اليَقظَةِ والنَّومِ . وبَينَ تَناوُلِ الطَّعامِ والامتِناعِ عَن تَناوُلِ الطَّعامِ . وبَينَ المَسيرِ والامتِناعِ عَنِ المَسيرِ . ولا خِلافَ في أَنَّهُ بَينَ كُلِّ اثنَينِ قَد مَرَّ ذِكرُهُما تَناقُضٌ . والحاصِلُ مِن وُرودِ المُتَناقِضَينِ عَلَى الأَمرِ الواحِدِ ، دَعمُ الوُجودِ حِفظًا لَهُ ومَنعاً لوُرودِ ما يَنقُضُهُ . أَمَّا لَوِ استَقَلَّ أَحَدُ النَّقيضَينِ بالوُجودِ وَلَم يَتلُهُ آخَرُ فَعَنِ استِقلالِ ذٰلِكَ الواحِدِ نَقضٌ لِلوُجودِ، فاليَقظةُ دُونَ نومٍ وراءَها مَوتٌ مَحتومٌ ،وكَذٰلِكَ النَّومُ دُونَ يَقظةٍ . وما قُلتُهُ في إِثباتِ الاحتِياجِ إِلى هٰذَينِ المُتَناقِضَينِ يُقالُ مِثلُهُ في إِثباتِ الاحتِياجِ إِلى أَن يَرِدَ كُلُّ المتناقِضاتِ الآنِفةِ ذِكراً، فَلَوِ امتَنَعَ هُطولُ المَطَرِ عَلَى مَدَى السَّنَةِ كُلِّها لَنَضَبَتِ الجَداوِلُ والأَنهارُ وأَمحلَتِ التُّربَةُ ويَبِسَ الزَّرْعُ وعَمَّتِ الأَوبِئَةُ وثارَت ثَوائِرُ الكَون

وكذلك يكونُ الأَذى عَظِيماً لَو تواصَلَ هُطولُ المَطَرِ فَتَسيخُ الأَرضُ وتَطُمُّ السُّيولُ الجَوارِفُ وَلاُمتَنعَ ان يَنموَ زَرعٌ . فلا يَدومُ الوجودُ الانسانيُّ الاَّ إِذا تعاقَبَ هُطولُ المَطرِ واحتِباسُ ذلِكَ الهُطول

وَمِن هٰذا نَستَنتِجُ أَنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ يَعتَرِفُ بِأَنَّ المُتَناقِضاتِ تَتعاضَدُ في حِفظِ وُجودِ الإِنسانِ ، وأَنَّ الإِنسانَ الحكيمَ يتمكَّنُ بِهِدايةِ العَقلِ المُستَنيرِ أَن يَظفرَ بِمَنفَعَتهِ الحَقيقيَّةِ الحاصِلَةِ عَن تَناقُضِ هذهِ المُتناقِضاتِ وعَن وُرودِ كُلِّ نَقيضَينِ تِباعاً اي يَتلو أَحَدُهما الآخَرَ في الزمانِ . فَلَولا تَناقُضُهما لَذَهَبَ الوُجودُ الانسانيُّ حَتْماً

فإِذا كانَ مِن ضُروبِ الحِكمةِ التي يَعتَرِفُ الإِنسانُ بِجُودَةِ وَضعِها أَنَّ استِبقاءَ وُجودِهِ لاغِنَى لهُ عَن أَن يَعرِضَ عَلَيهِ الأَمرانِ المُتناقِضانِ كالنَّهارِ والليلِ والشَبَعِ والجُوعِ والِارتواءِ والظَماءِ واليَقْظَةِ والنَّوم . وما دامَ التَّسليمُ بِأَنَّ صَلاحَ اللهِ لاحَدَّ لَهُ (١) فَلَا بُدَّ مِنَ التَّسليمِ بِأَنَّ الخالِقَ جَعَلَ

---

(١) تقدم ذلك في الفصل السابق

وُرُودَ مايَعمَلُ فِي حِفظِ الوُجودِ وما يَعمَلُ فِي هَدمِ الوُجودِ لِغايَةٍ واحِدةٍ هِيَ حِفظُ الوُجودِ لا هَدمُهُ . ونَستَنتِجُ مِن هٰذا أَنَّ الشَّرَّ غيرُ مَوجودٍ فِي أَعمالِ اللهِ . ولٰـكِنَّ أَعمالَهُ في مَظهَرَينِ . الأَولُ بُنيانٌ فِي هَيْأَةِ بُنْيانٍ فَلا إِشْكالَ فيهِ . وَالثَّاني بُنْيانٌ في هَيْأَةِ هَدْمٍ وفِيهِ الإِشكالُ . فَكُلُّ مَوجودٍ منهُ تَعالَى إِمَّا عَمَلُهُ لِلخَيرِ تَوًّا وإِمَّا لِلخَيرِ بالواسِطَةِ . إِمَّا أَنْ يَعملَ فِي دَعْمِ المَوجودِ او يَتَوَقَّفُ عَنِ الدَّعمِ ، لِأَنَّ ذٰلِكَ المَوجودَ لا يَحتاجُ الى دَعمٍ . فَدَعْمُ ما لا يَحتاجُ الى دَعْمٍ عَمَلٌ في غيرِ مَحَلِّهِ . وإِمَّا أَن يَعملَ في خُرُوجِ المَوجودِ من حالٍ الى حالٍ أُخرَى هِيَ أَولَى بِهِ . فَلِذٰلِكَ يُقالُ : كُلُّ شَيْءٍ مَصْدَرُهُ اللهُ خيرٌ . وإِنَّ الَّذينَ فِي ظِلِّ رَحمَةِ اللهِ لا يُصيبُهُمْ إِلاَّ خَيرٌ . وإِنَّ كُلَّ ما يَعْرِضُ عَلى مَن قَلبُهُ مَعَ اللهِ خَيرٌ . وما يَحسَبُهُ عِلمُ الإِنسانِ شَرًّا إِذَا نَزَلَ بِمَن يَتَّقي اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ لَيسَ بِشَرٍّ فَهُوَ خَيرٌ

رُبَّما جَهِلَ الإِنسانُ حِكمَةَ ورودِهِ

إِذا كُنَّا نَجهَلُ استِيفاءَ وُجُوهِ الحِكمَةِ في بُنيانِ

المَوجودِ وَهيَ أَوضَحُ من وُجوهِ الحِكمةِ في هَدْمِ المَوجودِ مَعَ مَعرِفتِنا أَنَّ لِلنَّقيضَينِ تَعاضُدًا عَلى العَمَلِ الواحِدِ فَلا بُدَّ من أَن نُسَلِّمَ بِأَنَّ جَهلَنا ما هُوَ واضِحٌ يَستَلزِمُ جَهلَنا ما هو أَدَقُّ مِنهُ . ومَن جَهِلَ شَيئًا فَلَيسَ لَهُ أَن يَتَكَلَّمَ بِهِ فَمَن تَكَلَّمَ بِما لا يَعلَمُ فَهُوَ لا يُصيبُ فَإِنَّ الجَهلَ لا يَهدي إِلى صَواب . ولِكَونِنا نَجهَلُ حِكمةَ الهَدمِ يَجِبُ عَلَينا أَن لا نَتَذَمَّرَ من وُقوعِ الهَدمِ الَّذي اقتَضَتهُ الحِكمةُ الَّتي نَجهَلُ طُرُقَ عَمَلِها عَلى حِينِ نَثِقُ بِهِدايةِ العَقلِ المُستَنيرِ بِأَنَّها تَعمَلُ كُلَّ أَعمالِها لِلبُنْيانِ لا لِلهَدمِ فَيأَتي في طُرُقِها البُنْيانُ عن طَريقِ الهَدْمِ

نَحن نَعلَمُ أَنَّ البُنيانَ يَستَلزِمُ هَدْمًا فلا يُمْكِنُنا أَن نُنشِئَ بَيتًا إِلاَّ بِحَفرِ أَساسٍ وإِخراجِ تُراب . ولا نَعيبُ عَلى مَن أَرادَ بِناءَ بَيتٍ ما يُجريهِ مِنَ الحَفْرِ إِلَى أَن يَصِلَ الحَفرُ إِلى ما يَصِحُّ أَن يَضَعَ عَلَيهِ حِجارَةَ الأَساسِ وذلِكَ لِتَسْليمِنا بِأَنَّ هذا الحَفرَ ضَروريٌّ . فبالأَولى أَن لا نَعترِضَ عَلَى إِرادةِ الله إِذا استَلْزَمت هَدْمًا لِقائِمٍ لِئَلاَّ نَكونَ ونَحنُ

في جَهلٍ نُعارِضُ فِي ما استَلزَمَهُ نِظامُ الإِيجادِ . وقُصارَى مالَنا أَنْ نَعتَصِمَ بِهِ أَن نُؤمِنَ بِأَنَّ الإِيجادَ صادِرٌ من اللهِ تَعالَى . وأَنَّ ما يَعرِضُ من هَدْمٍ بِمُقتَضَى مَشِيئَتِهِ إِنَّما هُوَ عَمَلٌ لِإِيجادٍ . وأَنَّ ايجادَهُ عن الوجُودِ وُجودًا أَوضَحُ من ايجادِهِ عَنِ الهَدمِ وُجُودًا . وبِما أَنهُ مِنَ الثابِتِ أَنَّ لِلّهِ حِكمةً في ما هُوَ واضِحٌ من أَحكامِهِ فَمِنَ الواجِبِ أَن يُسَلَّمَ بِأَنَّ لِلّهِ حِكمةً في ما هُوَ دَقيقٌ من أَحكامِهِ فَإِنَّ البُرهانَ قامَ عَلَى أَن حِكمةَ اللهِ واردةٌ فِي كُلِّ شَيءٍ

فَما هُوَ فِي نَظَرِ النَّاسِ خَيرٌ أَو شَرٌّ في قُدرةِ اللهِ وحِكمتِهِ أَن يَكونَ كُلُّهُ خَيرًا . وهٰذا مما يُلزِمُنا بِأَن نَشكُرَ اللهَ فِي كُلِّ حِين وفي كُلِّ حال وعَلَى كُلِّ شَيءٍ . فسَواءٌ في صِحَّةٍ أَو مَرَضٍ . وفي غِنًى أَو فَقرٍ . وفي صِغَرٍ أَو كِبَرٍ وفي راحةٍ أَو تَعَبٍ . وفي عَهدِ رَخاءٍ أَو عَهدِ مَحْلٍ . وفي رِئاسةِ عَمَلٍ أَو في تابِعيَّةٍ لِرِئاسةٍ عَلَينا أَن نَشكُرَ اللهَ أَتمَّ شُكْرٍ ونُسَبِّحَهُ بِخُشوعٍ وحُبٍّ . فَإِنَّهُ تَعالَى يُولِينا خَيرًا لا شَرًّا . ولا يَجوزُ لَنا أَن نَتَصوَّرَ أَنهُ يُعطِينا شَرًّا . وَإِن كانَ بَعضُ

ما يُعطينا نجهلُ وَجهَ فائدَتِهِ لَنا فإنَّ جَهلَ فائِدَةِ الشَّيءِ لا يُؤَثِّرُ فِي إِفسادِ وُجُودِ تلكَ الفائِدَةِ . وهَل جَهلُ جاهلٍ أَنَّ الأَرضَ تَدورُ عَلَى مِحوَرِها مُوقِفٌ دَوَرانَها أَو مُفسِدٌ هٰذِهِ الحَقِيقة . وإِذا سَلَّمْنا بِوُقوعِ شَرٍّ عَلَى الإِنسانِ بَقِيَ لنا الادِّعاءُ بأَن ذٰلِكَ الوُقوعَ أَتَى عُقوبةً ، والعقوبةُ تُفيدُ ولا تُؤْذِي ، وَهِيَ دَليلُ الحُبِّ لا البَغضاء (١) وَما هِيَ إِلاَّ كالدَّواءِ المُرِّ استلزَمَهُ الداءُ . ومِنَ الجَلِيِّ أَنَّ الطبيبَ لا يَصِفُ دَواءً لِمَن لا يَشكُو مِن طارِئٍ على صِحَّتِهِ

فَمَن يَتَذَمَّرْ عَلَى حِكمةِ اللهِ في عَمَلٍ يَجهَلُ عواقِبَهُ يُسِيءْ إِلَى نَفسِهِ إِذ يَدفَعُها إِلَى أَن تَتَجاوَزَ طَورَها وذٰلِكَ جَهلٌ ذَمِيمٌ . والعاقِلُ مَن عَرَفَ حَدَّهُ فوَقَفَ عِندَهُ . فلا يَكونُ تَذَمُّرٌ عَلَى حِكمةِ اللهِ إِلا عَن إِظلامِ بَصيرَةِ العَقلِ فَمَن رَأَى ما لا يَرضاهُ فَليَعُدْ الى نَفسِهِ وَليُناقِشْها الحِسابَ

---

(١) جاءَ في سفر امثال سليمان . يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأنَّ الذي يحبُّه الرَّب يؤدبه وكأب بابن يسرُّ به

وجاءَ في القرآن الشريف « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » سورة المائدة

الدَّقيقَ فَإِنَّهُ إِنْ ثَبَتَت بَرَاءَتهُ مِنْ مَعصِيَةٍ فَلا عُقوبَةَ عَلَيهِ واللهُ لا يُوقِعُ عَليهِ جورًا . وما يَنتابُهُ من سُوءٍ عَلَى غيرِ ذَنبٍ باعِثٌ يَستَدرِجُهُ إِلى إِحراز نِعمةٍ أَجَلَّ مِنَ النِعمةِ الَّتِي كانَت عَلَيهِ كَمَا استَدرَجَ اللهُ تَعالَى يُوسُفَ الصِدّيقَ عَلَيهِ السَّلامُ بدَفعِهِ الى السِجْنِ إِلى الكَرامةِ ونَيلِ الحَظوةِ لَدَى فَرعونَ مصرَ . وكَما استَدرَجَ أَيُّوبَ بِصَبرِهِ عَلَى المَكارِهِ إِلَى أَن يَنالَ خَيرَ عِوَض عمَّا فَقَدَهُ من ذُرِّيَّةٍ ومَتاعِ دُنيا عَلاوةً عَلَى الأَجرِ في نَعيمِ الخُلدِ والذِكرِ الجميلِ في كلّ مِصرٍ وعَهد .

وبما أَنَّ اللهَ صالِحٌ في كُلِّ أَعمالِهِ فَلنَقِف عِندَ ما أَحَلَّهُ وَلنَجتَنِبْ كُلَّ ما حَرَّمَهُ ، فَكُلُّ شَيْءٍ حَرَّمَهُ رَدِيٌّ ، وكُلُّ شَيْءٍ أَحَلَّهُ صالِحٌ . وإِذا كانتِ النارُ تُحْرِقُ كُلَّ مَن يَغشاها مَن يَعرِفُ حَرارتَها ومَن يَجْهَلُها فَبالأَولى أَنَّ كُلَّ مَن يَستَجهِلُ حِكمةَ الخالِقِ الَّتي تَسمُو كُلَّ عَقلٍ بَشَرِيّ يُؤْذِي نَفسَهُ . فَعَلَينا أَن نُجِلَّ حِكمةَ اللهِ كُلَّ الإِجلال في ما يَصدُرُ مِنَّا قَولاً او عَمَلاً ، فلا نَطعَنْ في حِكمةِ اللهِ

ايجاد الخالق مخلوقه

بَتَّةً لا جدًّا ولا هزْلاً
فَاللهُ جَلَّ عَلاهُ طاهِرٌ قُدُسٌ
والرِفْقُ والعَدْلُ في أَحكامِهِ مَلَكَهْ
فَالْهَزلُ والجَدُّ في أَمْرٍ اذا طَرَقا
طَعْنًا بِحِكْمَتِهِ قَدْ أَوجَبا الهَلَكَهْ

الفصلُ الحادي عشر

الخالق أوجد مخلوقه لامر اراده له

إِذا رأَينا أَبًا لهُ بَنُونَ يُخرِجُ مِن أَحَدِ أَهرائِهِ قَمحاً ، فَيَملَا بِهِ عِدْلا ، ثُمَّ يَخيطُ فَمَ العِدْلِ ، ويَذهَبُ بِهِ إلى طاحونٍ . ثَبَتَ عِندَنا ثُبوتاً لا رَيبَ يُخامِرُهُ ، أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَطحَنَ القَمحَ ، لِيَأْتِيَ بِهِ دَقيقاً ، فَيَستَخدِمَهُ في حاجةِ الاقتياتِ ، لِحِفظِ حَياتِهِ وحَياةِ مَن يَلُوذُونَ بِهِ مِن زَوجةٍ وَبَنِينَ

وإِذا رَأَينا أُمًّا تَأْتِي بِعَجِينٍ ، فَتَستَخرِجُ مِن ذٰلِكَ العِدلِ بَعضَ دَقيقِهِ ، ثُمَّ تَأْتِي بِإِناءٍ فِيهِ ماءٌ ، فلا يُداخِلُنا

رَيبٌ في أنها تريدُ أن تعجِنَ الدقيقَ الذي وَضَعتهُ في المعجَنِ، لِتَخبِزَهُ. فَهِيَ تُعِدُّهُ عَلَى الوَجهِ المَشروعِ لِيَكونَ خبزًا، تقتاتُ بِهِ هي وزَوجُها وأَولادُهما

وإِذا رَأَينا وَلَدًا يَذهَبُ إلى بُستانٍ يَملِكُهُ أَبوهُ أَو أُمُّهُ، ويأتي مِنهُ بِبَعضِ خَضْراواتٍ كَفُولٍ وحِمِّصٍ، أَو بِشَيءٍ آخَرَ من فاكِهةٍ كالعِنَبِ والتِّينِ، فإِننا نُدرِكُ بِدُونِ أَن نُجهِدَ الفِكرَ، أَنَّ الغُلامَ يَجيءُ بما سَيُعَدُّ مأكَلًا

فالفِكرُ ذَهَبَ دُونَ أَن يَشكُوَ تَعَبًا عَقليًا، إلى ما سَيَصيرُ إِلَيهِ الشَّيءُ المَنظورُ قبلَما يُعلَنُ مَصيرُهُ، وما ذٰلِكَ إِلاَّ عَن إِيقانٍ بِوُقوعِ ما سَيَقَعُ قَبلَ وُقوعِهِ، لِأَنَّ حُدوثَ نَتيجةِ ما بَدَأَ العَمَلُ بِهِ شُوهِدَ كَثيرًا، فَصارَ مَأْلُوفًا، ولِأَنَّ الإِدراكَ أَلِفَ ذٰلِكَ الوُقوعَ فَصارَ عِندَهُ أَمرًا أَوَّلِيًّا، أَي معلومَ الحَقيقةِ. فَلا يَحتاجُ إِلى اجتهادٍ في سَبيلِ مَعرفةِ نَتيجتِهِ

وما يَندرِجُ تَحتَ قاعِدةِ المأْلوفِ لَيسَ كُلُّهُ سَواءً عِندَ جَميعِ الناسِ فَإِنَّ الَّذي لم يَرَ آلةَ الطِّباعةِ، يَعُدُّ من

مُعجِزاتِ الوُجودِ ، أَن تَمتلِئَ الوَرَقةُ كلُّها في لَحظَةٍ واحِدَةٍ بِرُسوم وعِبارات . وَإِذا رأَى أَنها تَمتَلِئُ بلونَين في وَقتٍ واحِدٍ ، عَدَّ ذٰلِكَ أَغرَبَ . ولٰكِنَّ مَن أَلِفَ شُؤُونَ الطِّباعةِ يَرَى ذٰلِكَ أَمرًا طَبيعيًّا لا يَدعُو حُصُولُهُ الى دَهشَةٍ . ومَن لم يَسمَعِ الحاكي (١) يَعجَبُ كَثيرًا من سَماعِهِ صَوتًا بَشَريًّا صادِرًا مِن آلَةٍ حَديديَّةٍ ولٰكِنَّهُ مَتَى أَلِفَ ذٰلِكَ أَو وَقَفَ على سِرِّهِ العِلميِّ ، صارَ هٰذا السِّرُّ عِندَهُ جَليًّا وأَمرًا طَبيعيًّا

وَإِذا رَأَينا نَجَّارًا خَبيرًا بِصِناعتِهِ ، أَخَذَ بيَدِهِ خَشَبةً وشَرَعَ يُقَشِّرُها ، ثمَّ يَعمَلُ بِأَدَواتِهِ فيها . فَلا نَشُكُّ في أَنَّه يُعِدُّها لِتكونَ أَداةً أَو جُزءًا من أَداةٍ . وَقَد نُدرِكُ ماهيَّةَ تِلكَ الأَداةِ وَقَد لا نُدرِكُها . وسَواءٌ أَدرَكنا أَو لم نُدرِكْ لَنا ثِقَةٌ بِأَنَّ العامِلَ يَعمَلُ بِمُقتَضَى أُصُولِ فَنِّهِ ، وهٰذِهِ الثِّقَةُ ثَمَرَةُ تَسليمِنا لَهُ بأَنَّهُ مُتقِنٌ تِلكَ الأُصولَ . فَإِذا كانَت ثِقَتُنا بِمَعرِفَتِهِ أُصولَ صِناعَتِهِ راسِخةً كَذَّبنا مَعرِفَتَنا

---

(١) اسم الآلة المدعوة بالفونوغراف

الخُصوصيةَ . لو صوَّرت أنَّ العاملَ يُسيءُ في عمله . لأنَّ خُبرَتهُ بفنِّه علماً وعملاً أثبتُ عندنا من خُبرتنا بفنِّه ونحنُ نجهلُ أصولَ مهنتِه أو نلِمُّ بها إلماماً عرضياً . ولا نتصوَّرُ إنَّ ذلِك العاملَ يعملُ عبثاً (١)

وما ذهابُنا الى تكذيبِ معرفتِنا الخُصوصيَّةِ وتصديقِ ثقتِنا إلاّ لأننا نرجعُ في هذا الأمرِ إلى حُكمِ قاعدةٍ عقليةٍ نُسلِّمُ بصحتِها التَّسليمَ التامَّ وهيَ :

إنَّ كُلَّ عاقلٍ يعملُ عملاً معروفاً بإجادتِه بِهِ ، ينْصرفُ في عملِه إلَى أمرٍ يُريدُهُ علَى الوجهِ الحسَنِ . وإنَّ العملَ عن غيرِ قصدِ الإجادةِ لا يصحُّ للعاقِلِ الَّذي يُوجبُ عليهِ تعقُّلهُ أن يكونَ إجهادُهُ نفسَهُ فِي العمَلِ لاكتسابِ فائدةٍ ، لا لتضييعِ فائدةٍ . وبعبارةٍ أوضحَ أنهُ يُوجبُ عليهِ أن يكونَ عملُهُ على أفضلِ وجهٍ انتهى إليهِ علمُهُ .

فإذا كانَ الإنسانُ الَّذي حازَ صلاحاً في داخلِه مُستمدًّا

---

(١) يحسن في هذا البحث ذكر الآية القرآنية الكريمة « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

مِن خالِقِهِ ، مَدْعوٌّ إلى العَمَلِ بِمُقْتَضَى ذٰلِكَ الصَّلاحِ المُسْتَقِرِّ فيهِ ، فلا يَعمَلُ إلاَّ عَن تَصَوُّرِ فائدةٍ، لِيَستَدرِجَ تِلكَ الفائِدَةَ في سَبيلِها القانونِيِّ ، حَسْبَما يَهدي العَقلُ المُستَنيرُ . فَبِالأَولَى أَن نُسَلِّمَ بِأَنَّ اللهَ الذي أَوجَدَ كُلَّ ما في الـكَونِ ثُمَّ أَوجَدَ الإِنسانَ وخَوَّلَهُ أَن يَستَخْدِمَ كُلَّ ما في الـكَونِ استِخداماً مَشروعاً ، في سَبيلِ حِفْظِ حَياتِهِ ، قَدْ خَلَقَ الإِنسانَ لِأَمرٍ أَرادَهُ. فَوُجودُ الإِنسانِ لَيسَ عَبَثاً . فَالعَبَثُ والـكَمالُ لا يَجتَمِعانِ . وإِذا كانَ العَبَثُ يَعيبُ الإِنسانَ والـكَمالُ يُشَرِّفُهُ فاللهُ، يَنبوعُ الـكَمالِ مُنَزَّهٌ عن أَن يُنسَبَ إِلَيهِ عَبَثٌ

وما دامَ الإِنسانُ مُضْطَرًّا الى التَّبَصُّرِ في عواقِبِ ما يَعمَلُهُ وأَن يَفحَصَ عَمَّا فِي مَوجوداتِ الـكَوْنِ مِنَ الأَسْرارِ، فَبالأَحْرَى أَن يَبحَثَ عَن كَيفِيَّةِ وُجودِهِ وَعَن مَقصَدِ اللهِ فِي إِيجادِهِ، فالإِنسانُ أَجَلُّ شَأْناً من كُلِّ ما يَستَطيعُ صُنْعَهُ . وَإِذا كانَ ما يَصنَعُهُ يَستَلزِمُ تَبَصُّراً لِإِدراكِ سِرِّهِ فما هُوَ أَجَلُّ مِمَّا يَصنَعُهُ يَستَلزِمُ تَبَصُّراً

أَوفى فكُلّما جلَّ الشيء كانَ أَحَقَّ بأَنْ يُبذَلَ لهُ الاهتمامُ الأَوْفى

فَلاَ وَجهَ لِلْقَولِ بأَنَّ اللهَ خَلَقَ الإِنسانَ وأَهمَلَهُ . ولا الى القَوْلِ إِنَّ ما يَعرِضُ عَلَى الإِنسانِ غيرُ واردٍ في عِلمِ اللهِ تعالَى . فَإِنَّ الإِنسانَ إِذا صَنَعَ آلَةً مُفيدةً يُثابِرُ عَلى العِنايةِ بِها، والإِنسانُ أَجلُّ مخلُوقاتِ اللهِ عَلَى الأَرضِ فَهُوَ تَعالى لا يُهْمِلُهُ ولا يَزالُ مُعْتَنِياً بِهِ لِكَي يُتَمِّمَ الأَمرَ الَّذي أَوجدَهُ لَهُ

الفَصلُ الثاني عشَر

التبعة على مقتضى الاقتدار

كُلُّ نِظام مَدرَسِيّ يَجعَلُ بَينَ صُفوفِ التّلاميذِ فُرُوقاً في أَوقاتِ العُكوفِ عَلَى المُطالَعةِ أَو الحُضورِ في حَلَقاتِ التَّدريس ، ومَصدَرُ هذهِ الفُروقِ اعتباراتٌ مَرجِعُها إِلَى السِّنِّ(١) أَو إِلى دِقَّةِ البَحثِ أَو إِلَى حالَةِ الجوّ . فَأَبنُ

---

(١) مقدار العمر

عَشرِ سَنواتٍ لا يُطلَب مِنهُ ما يُطلَبُ مِمَّن في الخامسة عشرة . وَلا في عِلمٍ سَهلِ الفَهمِ كالتَّاريخِ كما في عِلمٍ يَستلزِمُ جِهادَ فِكرٍ كالجَبرِ، ولا في فَصلِ الصَّيفِ الحارِّ كما في فَصلِ الرَّبيعِ، ولا في عَهْدِ الصَّومِ كما في غَيرِ عَهْدِه

وهٰذا شَأْنُ نِظامِ الجُنْدِيَّةِ فالَّذي في مَنزلةٍ حقيرةٍ لا يُطلَبُ مِنهُ ما يُطلَبُ من ذي مَنصِبٍ عالٍ فَلا يكونُ الجُنديُّ مَسؤُولاً كَقائِدِهِ

وكُلُّ تاجرٍ عَلَيهِ أَن يُؤَدِّيَ رُسوماً عن بَضائِعِهِ فالتاجرُ الذي بِضاعتُهُ قَليلةُ الكَمِّيَّةِ أَو رَخيصةُ الثَّمَنِ لا تُطلَبُ مِنهُ الرُّسومُ التي يُطلَب أَن يُؤَدِّيها التاجرُ الكثيرُ البِضاعةِ أَو المُتَّجِرُ بِالبَضائِعِ الثَّمينة

فكَونُ التَّبِعَةِ في كُلِّ أَمرٍ عَلَى قَدرِ الطاقةِ مَبدَأٌ عُمرانيٌّ وُضِعَ بِعَدلٍ ولا رَيبَ في أَنَّهُ جَديرٌ بالقَبولِ . فَعَلى كُلِّ مَوجُودٍ أَنْ يَقومَ بما يُطلَبُ مِنهُ عَلَى مِقدارِ استِطاعتِهِ . فَيُطلَبُ أَن يَعمَلَ العامِلُ ما في إِمكانِهِ عَمَلُهُ ولا يُجوِّزُ العَدلُ أَن يُطلَب مِن أَحَدٍ أَن يَتَعَهَّدَ بِما لَيسَ

في طاقتِهِ التَّعهُّدُ بِهِ . والتَّسليمُ بِصِحَّةِ هـذا المَبدَإِ جاءَ بالمَثَلِ القائلِ « إذا شئتَ أَن تُطاعَ . فَسَلْ ما يُسْتطاع »

والطاقةُ تابعةٌ لِلهِبةِ المُعطاةِ لِلمَسؤُول وهـذِهِ الهِبةُ مُتفاوِتةٌ فَفِي طاقةِ رئيسِ المدرسةِ أَن يَأْمُرَ في شؤُونٍ لاصَلاحيَّةَ لِلمُعَلِّمِ أَن يَأْمُرَ بها . ولِلمُعَلِّمِ أَن يَأْمُرَ في مالاصلاحيَّةَ لِتلميذٍ أَن يَتكلَّمَ بِهِ

فَإِذَن كُلُّ مَن أُعطِيَ طُولِبَ عَلَى مِقدارِ ماأُعطِيَ فَحَيثما وَفَرَتِ العَطيَّةُ وَفَرَتِ التَّبعَةُ أَيضاً . وحَيثما قَلَّتِ العَطيَّةُ قَلَّتِ التَّبعَةُ أَيضاً . وَقَد أُعطِيَ الإِنسانُ مالَم يُعْطَهُ مَخلُوقٌ حِسّيٌّ آخَرُ فَلِذلِكَ يُطالَبُ بِما لا يُطالَبُ بِهِ مَخلوقٌ حِسّيٌّ آخَرَ

للإِنسانِ حَقُّ التَّصَرُّفِ بِكُلِّ شَيْءٍ مَوجودٍ تَصَرُّفاً مَشْرُوعاً في سبَيلِ استِبقاءِ وُجودِهِ وَلَم يُعْطَ هـذَا التَّصَرُّفَ حَيوانٌ آخَر

لِلإِنسانِ في تَركِيبِ جَسَدِهِ فَوارِقُ عَن كُلِّ حَيَوانٍ سِواهُ بِانتِصابِهِ عَلَى قَدَمَيهِ دُونَ أَداةٍ وخُلوِّ بَشْرَتِهِ مِن كَثيفِ الشَّعْرِ إلاَّ حَيثُ الشَّعرُ زِينةٌ لَهُ . ولَهُ وَحدَهُ

نَفسٌ ناطِقَةٌ تَبحَثُ فِي سِرِّ كُلِّ مَوجودٍ لِتَستَفيدَ مِن ذٰلِكَ البَحثِ فوائِدَ لَها تَأْثِيرٌ صالِحٌ في شُؤُون الحَياةِ الزَّمَنِيَّةِ او الأَدَبِيَّةِ او الخالِدَةِ ، إِمَّا كَسْباً لِمَنفعَةٍ أَو دَفْعاً لِأَذِيَّة .

وَمِن اقتِدارِ الإِنْسانِ أَن يَبحَثَ فِي شُؤُونِهِ الخاصَّةِ فَيَفقَهَ[١] السِرَّ الَّذِي وُجِدَ بِهِ وسِرَّ ما وُجِدَ لِأَجلِهِ وسِرَّ نَجاحِهِ إِذا نَجَحَ وسِرَّ فَشَلِهِ إِنْ فَشِل

وَإِذا كانَ فِي طاقَةِ الإِنسانِ أَن يَتَوَلَّى البَحثَ في هٰذِهِ المَطالِبِ العَوِيصة[٢] فَلَيسَ هٰذا الاقتِدارُ من مَجهوداتِهِ الخُصُوصِيَّةِ بل هٰذا مِمَّا وُضِعَ في نَفسِهِ مُنذُ وُجِدَ فَيَصِحُّ لَنا أَن نَقولَ إِنَّهُ مِمَّا وَضَعَهُ الخالِقُ فِيهِ لِأَوَّلِ وُجُودِهِ

وقد سَبَقَ لَنا إِثباتُ أَنَّ الخالِقَ لم يَعمَل شَيْئاً عَبَثاً فَإِيجادُهُ في الإِنسانِ مُنذُ خَلقَهُ قُوَّةً عاقِلَةً تُخَوِّلُهُ أَن يُدرِكَ الأَسْرارَ الدقيقةَ الَّتي تَكتَنِفُ[٣] وُجُودَهُ كَسِرِّ وُجودِهِ وسِرِّ مَنْهَجِ نَجاحِهِ وهُوَّةِ فَشَلِهِ وسِرِّ الغايَةِ من وُجُودِهِ يُلزِمُهُ بِتَحَمُّلِ تَبِعةٍ ثَقِيلَةٍ إِذا لَم يَستَعْمِلْ تِلكَ

(١) يفهم و يعلم (٢) الغامضة (٣) تحيط .

القُوَّةَ العاقِلَةَ . فَإِنَّ الإنسانَ خُلِقَ لِيَستَعمِلَ مَواهِبَهُ مِنْ حِسِّيَّةٍ وعَقْلِيَّةٍ لا لِيُهْمِلَها فَما يُمكِنُهُ أَن يَستَفيدَ مِن استِخدامِهِ يُعاقَبُ على اطِّراحِهِ بِلا مُوجِب . فَعلَى كلِّ إِنسانٍ أَن يَبحثَ في كُلِّ شأْنٍ يُفيدُهُ بِمُقتَضى اقتِدارِهِ إِدراكًا ومالاً وقُوَّةً جَسَدِيَّةً

الفَصلُ الثالِثَ عَشَرَ

من صلاح الله الخالق أن يفهم الانسانَ مخلوقه الغاية المقصودة بوجوده

يَتَكَوَّنُ الطِفلُ فِي بَطنِ أُمِّهِ جَنِينًا يَحتاجُ إِلى غِذاءٍ فَيَغتَذِي وَهُوَ هُنالِكَ بِما يَتَناوَلَهُ مِن دَمِ أُمِّهِ الَّذِي يَأْتِي عَن تَحَوُّلِ الطَّعامِ في مَعِدَتِها دَمًا . فَمَتَى أَتَى على وُجودِهِ في ذٰلِكَ المَخْبَإِ تِسعَةُ شُهورٍ خَرَجَ منهُ وَهُوَ لا يَعِي شَيْئًا مِن شُؤُونِ الدُّنيا التي تُشرِقُ شَمسُها لِعَينَيهِ عَقْبَ وِلادَتِهِ وَهُوَ وَإِن كانَ لا يَعرِفُ من شُؤُونِ الدُّنيا شَيئًا مَمنوحٌ بالفِطرةِ مَعرِفةَ أَنَّ الغِذاءَ ضَرورِيٌّ لَهُ وأَنَّ عليهِ أَن يَطلُبَهُ وأَنَّ طَلَبَهُ بِرَفعِهِ صَوتَهُ وأَنَّ تَناوُلَهُ غِذاءَهُ بِأَن يَمتَصَّ

حَلَمَةَ ثَدْيِ أُمّهِ فَيَدُرَّ لَهُ . فالوَلَدُ لا يَلِدُ خِلوًا مِن كُلّ مَعرِفةٍ ولٰكِنَّ مَعرِفَتَهُ تَكونُ ضئيلةً[١] جدًّا

وينمو جَسَدُ الطِفلِ فتَنمو مَعرِفَتُهُ أيضاً فَلا يَلبَثُ أَن يبتَسِمَ ابتِسامةَ الفَرِحِ حِينَ الرِّضى ويَبْكي بُكاءَ الحانِق إذا مُنِعَ عَمَّا يَطلُبُ أَو إِن رأَى مالَم يأْلَفهُ أَو لا تَروقُهُ[٢] رُؤيَتُهُ . ويأْخُذُ أَبواهُ في تَعليمِهِ مِن لَفظِ كَلِمَةِ « أَبًّا » فيَتَدَرَّجُ بمَعلوماتِهِ شَيئًا فَشيئًا فيُدرِكُ في كلّ يومٍ شيئًا جَديدًا حتّى تَصدُرُ مِنهُ الكَلِماتُ صَحيحةً ثمَّ يَتَمَكَّنُ مِن البَيانِ عَمَّا في نَفسِهِ في أَكثَرِ شُؤونِهِ

ومَتَى صارَ أَهلاً للذَّهابِ إِلى المَدرَسةِ يُرسِلُهُ أَبواهُ إِليها فَيَتَعَلَّمُ هُنالِكَ ما يَقوَى إِدراكُهُ على تَحصيلِهِ بعامِلِ رَغبَتِهِ . واذا كانت هِبَةُ الإِدراكِ التي أُوتِيَها عَظيمةً اندَفَعَ مُنذُ صِغَرِهِ إِلى العَمَلِ في شُؤونٍ دقيقةٍ كما رُوِيَ عن إِسحاقَ نيوتونَ الفَيلسوفِ الانكليزيّ أَنَّهُ وَهُوَ في

---

(١) ضؤل الرجل اذا كان نحيف البدن وقد نقلت الضآلة الحسية الى المعرفة المعنوية مجازاً (٢) لا تعجبه

سَنَتِهِ العاشرةِ تَصَدَّى من تلقاء نَفسِهِ الى أَبحاثٍ هَندَسيَّةٍ ذات شأن يحتاجُ مَن كانَ في السَّنَةِ الخامسة عشرةَ أَن يَتلَقَّى البَيانَ عنها مِن أُستاذه

ويَزدادُ الطِّفلُ اطِّلاعاً على ما لَيسَ له عِلمٌ بِهِ بِدَوام تَمَرُّنِهِ عَلَى اقتباسِ المَعلوماتِ فَبِالمِرانِ يَنضَجُ عِلمُهُ ويَستَكمِلُ خُبرَتَهُ ويحرزُ المهارةَ اليَدَويَّةَ ولا يَستوفي عِلمَ كُلِّ شَيءٍ ولو بَلَغَ عُمرَ نوحٍ عَلَيهِ السَّلامُ وَلاَ يَكبُرُ عن طَلَبِ العِلمِ مهما أَسَنَّ وَقَد جاءَ في الحَديثِ الشريفِ « أُطلُبوا العِلمَ من المَهدِ الى اللَّحد »

وَمَهما عَظُمَ إِدراكُ الإِنسان فَلا بُدَّ لِعَقلِهِ من أَن يَقِفَ عاجزًا عن إِدراكِ أَسرارِ شُؤُونٍ تُغلَقُ في وَجهِ فَهمِهِ أَبوابُها. وَهٰذِهِ الشُّؤُونُ مِنها ما هُوَ حِسِّيٌّ ومِنها ما هُوَ عقليٌّ. وَوُجودُ هٰذا العَجزِ إِنْ (١) هُوَ إِلاَّ دَليلٌ عَلَى عَظَمةِ مُوجِدِهِ الَّذي وَضَعَ فيه نِظاماً يُذَكِّرُهُ عَلَى الدَّوام بِعَجزِهِ لِكَي لا يَتَعالى زَهوًا. ولِكَي يَشعُرَ بِحاجَتِهِ كلَّ حِينٍ

---

(١) اي ليس

الى التماسِ العِلمِ مِن فَيضِ رَحمتِهِ تَعالى لَهُ

فَقَدِ استطاعَ الإِنسانُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الغِذاءَ يَدخُلُ الى مَعِدَتِهِ عَن طَريقِ الفَمِ فَتَستَصفي المَعِدَةُ مَوادَّهُ فتُرسِلُ إِلى القَلبِ خُلاصتَهُ وَإِلى الجَوفِ نُفايَتَهُ فيَطرَحُ المستقيمُ تِلكَ النُفايَةَ لِتكونَ غِذاءً لِلنَّباتِ فَيأْخُذُها النَّباتُ وبِها يَتمكَّنُ أَن يُثمِرَ ثمَرًا صالحاً لِغذاءِ الإِنسانِ. ويَستَخدِمُ القَلبُ الخُلاصةَ في خِدمةِ الجَسَدِ كُلِّهِ فيُرْسِلُ الى كلِّ عُضوٍ من الجَسَدِ سَهماً مِنَ الدَمِ يَكفي لِغِذائِهِ لِكَي يَبقى كُلُّ عُضوٍ قائِمًا بِعَمَلِهِ المُنتَظِمِ . هٰذا لُبابُ ما يَعرِفُهُ ويَقِفُ عِندَهُ فَجَهِلَ ولا يَزالُ جاهِلاً ما هِيَ القاعِدَةُ الَّتي يَتَمشَّى التَّوزيعُ مُقتَضاها . وأَيُّ جُزءٍ منَ الرَّغيفِ الذي يَلوكُهُ بِفَمِهِ لُقَماً (١) يَذْهَبُ غِذاءً الى الظِفرِ أَو إِلَى الرَّأْسِ (٢) فَمَعرِفَةُ الإِنسانِ عَن تَحَوُّلِ الرَّغيفِ غِذاءً لِلجَسَدِ كُلِّهِ مُنطَوِيَةٌ عَلى ما هُوَ

(١) جمع لقمة ما يلقم في مرة واحدة (٢) هذا القول للدكتور جورج بوست الشهير ورد في خطاب القاه في بروكلن سنة ١٩٠٥ وكان صاحب هذا الكتاب احد الحضور لاستماع خطابه

مجهولٌ منهُ فإنَّهُ لا يَعرِفُ الأَجزاءَ التي تتحوَّلُ دَماً والاجزاءَ الَّتي تتحوَّلُ نُفايةً ولا الجُزءَ الَّذي يُغَذِّي عُضوًا مَخْصوصاً دُونَ سِواهُ فعِلمُهُ مَهما اتَّسعَ يَظَلُّ غيرَ كامِلٍ

واذا كانَ عِلمُهُ في ما هُوَ حِسِّيٌّ غيرَ كامِلٍ فَبالأَولَى أَن يكونَ في العَقليِّ غيرَ كامِلٍ . فَإِنَّ قُوَى الإِنسانِ العَقْلِيَّةَ والحِسيَّةَ تَتَضافَرُ (١) عَلَى تفهُّمِ شأْنِ الحِسيِّ . وأَمَّا العَقليُّ فيَنْحَصِرُ تفهمُهُ بِقُواهُ العَقليَّةِ فقَط . وإِذا كانَ الواضِحُ الذي تَقُومُ عَلَى جَلائِهِ القُوَى المُتَعَدِّدةُ يُعجِزُ سِرُّهُ الكاملُ العَقلَ الانسانيَّ أَن يُدرِكَهُ كُلَّ الإِدراكِ فَبالأَحْرَى أَن يكونَ الدَّقيقُ الَّذي لا يَعمَلُ في جَلائِهِ الاَّ بَعضُ القُوَى سِرُّهُ الكاملُ مُعجِزٌ للباحِثِين

وَقَدْ عَرَفَ الإِنسانُ نَفسَهُ مَخلوقاً وأَيقَنَ بأَنَّ لَهُ خالِقاً وأَدرَكَ أَنَّ رِضى خالِقِهِ ضَروريٌّ لَهُ لِيأْمَنَ بإِرضائِهِ على حَياتِه مِنَ العقُوبَةِ إِن هَفا عن ذُهولٍ او عَمْدٍ وأَنَّ إِرضاءَهُ تَعالَى عَن طَريقِ عِبادَتِهِ . وأَرادَ أَن يَحُلَّ بنَفسِهِ الأَسرارَ

---

(١) تتعاون

المُحيطةَ بالخالِقِ فاستَعصَت عَليهِ . وذَهَبَ الى ما ذَهَبَ إِلَيهِ مِنَ العِبادات الباطِلَةِ والمُعتَقَدات الفاسِدَةِ فَعَبَدَ الحِجارَةَ والنُّجومَ والنارَ والحَيوانات النافِعةَ كالثَورِ والضَّارةَ كالحيَّةِ والأَليفَةَ كالهِرِّ وسِواها . والأَرواحَ الخبيثةَ . وتَوَرَّطَ في المعاصي يَحسِبُ أَنَّهُ في عَمَلِهِ عَلَى هُدًى فَضَحَّى للإِلٰهة الكاذبة أَولادَهُ وما كانَ في عِبادَتِهِ هذه الاَّ ضائعاً تاهَ في أَودِيَةِ الضَّلاَلِ وهالِكاً هَبَطَ في مَهاوي الظَّلامِ العَقلي

وتَبِعَةُ هٰذا الضَّلالِ عَلَى الإِنسانِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عُنِيَ بِهِ مُذْ خَلَقَهُ وَلَم يُغْفِلْهُ . ولٰكِنَّ الإِنسانَ لَم يَعمَل بَمشيئَةِ رَبِّهِ كما يَجِبُ عَلَيهِ . فَآدَمُ الجَدُّ الأَوَّلُ أُعطِيَ شَريعةً مُقتَصِرةً عَلَى نَهْيٍ واحِدٍ فَتَجاوَزَهُ ثُمَّ تَطَرَّقَ نَسلُهُ في المَعصِيَةِ الَى ماهُوَ أَشَدُّ قُبحاً لَدَى اللهِ وأَدعَى الى سَخَطِهِ فَقَتَلَ الشَّقيقُ شَقيقَهُ . وَعَطَفَ اللهُ عَلَى الناسِ فَبَعَثَ نُوحاً داعِياً الى تَركِ الضَّلالِ واتِّباعِ الهُدَى فأَبَى أَبناءُ ذٰلكَ القَرْنِ قَبولَ الدَّعوةِ وأَصَرُّوا عَلَى المَعاصي فَعاقَبَهُمُ اللهُ بالطُّوفانِ مُغرِقاً أَهلَ الضَّلالِ وَنَجا نُوحٌ وَبنوهُ . وتَلَقَّى بَنو نُوحٍ عن

أَبيهم شَرْعاً قويماً خلا مِن الشِرك فمنهم مَن حَفِظَهُ كلَّهُ مُدَّةً ومنهُم مَن أَخذَ النِسيان او الذُهُولُ يَستولي عَليهِ . وحَدَثَ والعِياذ باللهِ الشِركُ . فاهتَدَى إِبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ بِعَقلِه الىَ أَنَّ اللهَ واحِدٌ لَيسَ بِحِسّيٍّ لِانَّ الحِسّيَّ مَحصورٌ . وكلَّ محصورٍ محكومٌ . والخالِقُ جَلَّ عَنْ أَنْ يكونَ مَحكوماً . وأَيقَنَ أَنَّ العوالِمَ كلَّها مَخلوقةٌ فَلَيستْ أَهلاً أَن تُعبَدَ فالعِبادةُ لا تُؤَدَّى إِلاَّ للهِ وَحدَهُ . فاتَّخذَهُ اللهُ خَليلاً واهتَدَى بَنوهُ بِهَديِهِ فمَشَى اسحاقُ على ما تَلَقَّاهُ من إِبراهيمَ ومَشَى يُوسُفُ على ما تَلَقَّاهُ من يَعقُوبَ

وبَعَثَ اللهُ مُوسى نَبِيًّا من نَسْلِ لاوي ابنِ يَعقوبَ حفيدِ إِبراهيمَ خليلِ اللهِ فَدَوَّنَ شَرِيعةً انطَوَت على المُعتَقَدِ الدِّينيِّ وما يَتَّصِلُ بِهِ من شَعائرَ وسُنَنٍ وعلى شَرعٍ دُنْيَوِيٍّ . وجاءَ بَعدَ مُوسَى أَنبِياءُ مِنهُم داودُ عَلَيهم جميعاً سَلامُ اللهِ وبِهَديِ مُوسى وهؤُلاءِ الانبياءِ يَهتَدِي الموسويون . ثم جاءَ المَسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ ودَعا الى اللهِ وبِهَديِهِ يَهتَدِي المَسيحيُّونَ . ثم جاءَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ

الهاشِمِيِّ مِن سُلالَةِ إسماعيلَ بنِ ابراهيمَ خَليلِ اللهِ وبِهَدْيِهِ يَهتَدِي المُسلِمون

فَالدِّياناتُ المُوسويَّةُ والعِيسويَّةُ والإِسلاميَّةُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى لم يُهمِلِ الإنسانَ مِن إنارتِهِ بالعَقلِ وأَرسلَ لَهُ من يَهدونَهُ لِيَسيرَ في صِراطِ الحَقِّ . وأَنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ يَهتَدِي مِن تِلْقاءِ ذاتِهِ إِلَى إنكارِ أَن يكونَ الخالِقُ مَحسوساً أو مُتَعَدِّداً . فقد جاهَرَ سقراطُ الفيلسوفُ الآثِينيُّ بِهٰذِهِ العقيدةِ أي بِأَنَّ اللهَ فَرْدٌ غيرُ واقعٍ تَحتَ شَكْلٍ مُتَجَسِّمٍ وأَنكَرَ تَعَدُّدَ الآلِهةِ عَلَى حينَ كانَ بنو قَومِهِ غارِقينَ في الشِّرْكِ بِاللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَعدُّدِ الآلهة . وفي تاريخِ العَرَبِ قَبلَ الإسلامِ أَنَّ أَفرادًا مِن عُقَلاءِ العَرَبِ أَنكَروا الوثنيةَ وأَبَوُا السُّجودَ للأَوثانِ وتَمَسَّكوا بِوَحدانيَّةِ اللهِ تَعالَى كَوَرَقَةَ ابنِ نَوْفَلَ القَرَشِي وأَمثالِهِ

الفَصلُ الرابعَ عَشَر

امتناع أن يكون الانسان قد خلق عبثاً

لايَخفى أَنَّ الأَعمالَ المَعاشيَّةَ تعودُ إِلَى أَربَعةِ أُصولٍ هِيَ الزِّراعةُ والصِّناعةُ والتِّجارةُ والإِمارة . فَكلُّ عاملٍ يَعودُ عَمَلُهُ إِلى أَحَدِ هٰذِهِ الأَصولِ . ولا يَخرُجُ عَملٌ ما عَنها فِي مُعالَجَتِهِ شؤُونَ حَياتِهِ إِن كانَ عَمَلُهُ ظاهِرَ وَجهِ الوُرودِ عَن أَحَدِ هٰذِهِ الأُصولِ أَو غيرَ ظاهرٍ كالخادِمِ الدِّينيِّ فإِنَّهُ في حَقيقةِ الأَمرِ يَقومُ بِعمَلٍ مَرجعُهُ الإِمارة . فما الدِّينُ إِلاَّ مُلكٌ رُوحِيٌّ يُسَيطِرُ عَلَى النَّفسِ بِصَولةٍ تَفوقُ صَولَةَ سَيطَرَةِ الحُكومةِ عَلَى الجَسَدِ بل لِلدِّينِ سُلطانٌ عَلى النَّفسِ والجَسَدِ مَعاً فَيَضَعُ المُعتَقَداتِ لِلنَّفسِ وَيأْمُرُ الجَسَدَ أَن يَقومَ بالشَّعائِرِ مِن صَلاةٍ وصَومٍ وحَجٍّ وزَكاةٍ وصَدَقةٍ . وكالعِلمِ فَهُوَ إِن كان في شَأْنٍ دِينيٍّ أَو فقهيٍّ كان راجعاً إِلى الإِمارةِ أَو في شأْنٍ زِراعيٍّ أَو تِجاريٍّ أَو صِناعيٍّ رَجَعَ إِلَى ما يَتَعلَّقُ بِهِ

فَنَرى الأَميرَ ساهِرًا عَلَى الرَّعِيَّةِ يُنصِف المَظلومَ من الظالِمِ ويَفْتَحُ في وُجُوهِ الشَّعْبِ أَسبابَ الرُّقِيِّ في عِلْمٍ وصِناعةٍ وزراعةٍ وتجارةٍ . وبَواعِثِ الجُودَةِ في الأَخلاقِ وأَسْبابِ الأُلفةِ والوِئامِ ويُقَرِّبُ المَطالِبَ الخَطيرةَ ويَحولُ بَينَ الشَّعبِ البَسيطِ ومَن يُحاوِلُ أَن يَخْدَعَهُ بِمَشاريعَ وَهْمِيَّةٍ او بِخُزَعْبلاتٍ يَسْتَخْرِجُ بِها مِن أَيديهِم أَموالاً تَعِبَت أَجسادُهُم وَعُقولُهُم في سَبِيلِ الحُصولِ عليها — فالأَميرُ يَعمَلُ لِغايةٍ مُعَيَّنةٍ هِيَ مَرضاةُ رَبِّهِ وإِسعادُ شَعبِهِ

والحاكِمُ المَنصوبُ مِن قِبَلِ الاميرِ يَعمَلُ بِإِيعازٍ مِنْ رئيسِهِ وَتَحتَ سَيطَرَتِهِ في نَشرِ الأَمنِ وصِيانةِ كُلِّ فَردٍ مِنَ الشَّعبِ مؤَمَّناً لَهُ عَلَى عِرضِهِ ودَمِهِ ومالِهِ ويَفصِلُ بَينَ المُتَخاصِمَينِ إِلَيهِ بِعَدلٍ وَهُوَ في عَمَلِهِ يُرِيدُ أَن يَستورِدَ الرُّسومَ الَّتي لِلحكومةِ عَلى الشَّعبِ وأَن يُرضِيَ اللهَ وَوِجدانَهُ وأَميرَهُ والشَّعبَ ويَكسِبُ الذِكرَ الحَسَنَ

أَمَّا الفَلاَّحُ فانهُ يُجهِدُ نَفسَهُ في نَقبِ الأَرضِ لِكَيْ يُلقِيَ في تُربَتِها بِذارَهُ فتَنموَ وَتأْتِيَ بِغِلالٍ هِيَ أَضعافُ ما

أَلقاهُ بذارًا فَهُوَ ينتَظِرُ بشَوقٍ زَمَنَ الحَصادِ لِكَي يحوزَ ما يَسْعَى الى حِيازتِهِ

ويَعكِفُ الصانِعُ عَلى عَمَلِهِ بحِرْفتِهِ (١) فإن كانَ بَنَّاءً أَعَدَّ الحِجارةَ إعدادًا خاصًّا ثُمَّ يُقيمُها صفًّا فَوقَ صَفٍّ ويُبقِي في دوائِرِ صُفوفِها خرُوقاً (٢) لِتكونَ أَبواباً ونَوافِذَ . وان كان خزَّافاً أعدَّ الطِّينَ بَعدَ عَجنِهِ عَجناً خاصًّا وتكييفِهِ عَلى أَشكالٍ مُتغايِرَةٍ كأَباريقَ وجِرارٍ وصِحافٍ ثُمَّ يُعِدُّ أَتُّوناً لِكَي يشويَها يُرِيدُ بذٰلِكَ العَمَلِ كُلِّهِ أَنْ تَصيرَ مَصنوعاتُهُ صالِحةً لِلاَستِعمالِ في خِدمةِ الوُجودِ الإِنسانيِّ نظيرَ أَخيهِ البنَّاءِ الَّذي يُرِيدُ بعَمَلِهِ أَنْ يَخدِمَ الوُجودَ الإِنسانيَّ بإِزميلِهِ

وَكَذٰلِكَ يُعِدُّ الصائِغُ الذَّهَبَ والفِضَّةَ حَلْيًا ويُعِدُّ النَّجَّارُ كراسيَ وروافِدَ وخزائِنَ وصناديقَ والحدَّادُ الحديدَ مَحاريثَ ومَناجِلَ ومَعاوِلَ وفُؤُوساً . فَكُلُّ صانِعٍ يُرِيدُ في عَمَلِهِ شَيْئًا مِنَ المَصنوعِ على وَجهٍ يَصلُحُ لِلاَستِعمالِ فالغايَةُ من

---

(١) بصناعته (٢) الخرق هنا الشق في الحائط

العَمَلِ إِيجادُ مَنفَعةٍ لِلوُجودِ الإِنسانيّ يتَقاضَى عَنها أُجرَةً

وَيَستأجِرُ التاجِرُ مَخزَنًا فيَملأُهُ بأَنواعٍ مِنَ البَضائِع ويُريدُ في تكديسِها أَن يُلفِتَ نَظَرَ الناسِ إِلَيها لِيَبتاعوا مِنها ما أَهمّ حاجةٌ إِلَيهِ فيَبيعها بِفئَةٍ أَغلَى مِنَ الفِئَةِ الَّتي أَحرَزَها بِها . والفَرقُ الذي يَقَعُ بَينَ فِئَةِ المُشتَرى و فِئَةِ المَبيعِ هُوَ ما يَتَطلَّبُهُ التاجِرُ

فَكلُّ عامِلٍ يُريدُ مِن عَمَلِهِ مَطلَبًا فلا يكونُ عَمَلٌ مِمَّا ذَكَرناهُ لِنَفسِهِ بل لِلوُصولِ بِهِ الى ثَمَرَةٍ تأتِي عَنهُ فَلا نُسَلِّمُ بأَنَّ عامِلاً عاقِلاً يَعمَلُ في أَمرٍ لا فائدةَ لَهُ مِنهُ

والخَلقُ ولا رَيبَ عَمَلٌ فَلا يُمكِنُ أَن يكونَ صادِرًا مِنَ الخالِقِ عَبَثًا دُونَ أَن يُعَدُّ وَسيلةً لِأَمرٍ ما . فَعَلَينا أَن نَبحَثَ في ما ذا يُريدُ اللهُ الخالِقُ مِن إِيجادِهِ الإِنسانَ المَخلوق

الفصلُ الخامسَ عشر

مصدر الدّين

إذا اقتنى راعٍ نعجةً راغبًا في أن يحصلَ على حاجات حياتِه مِن مأكلٍ ومَلبَسٍ بما يستدِرُّ من ضَرعِها حلَباً وما يجمعُ مِن صُوفِها جزّاً كانَ عيشُهُ في ضيقٍ لأَنَّ ما يستثمِرُهُ مِن رعايَةِ تلكَ الشاةِ قليلُ الكَمِيَّةِ فلا يكونُ كافياً لتمليكِهِ كُلَّ ما يحتاجُ إليهِ . فإذا اقتنى قطيعاً تسنَّى لهُ أَن يجمعَ مِن كُلِّ نعجةٍ قليلاً مِنَ الدَّرِّ وقليلاً مِنَ الصُّوفِ . وعَن انضمامِ قليلٍ إلى قليلٍ كثرةٌ يعيشُ بها في سَعَةٍ

وكذلكَ شأنُ الفلاَّحِ فإنَّهُ إذا عمَدَ الى قطعةِ أرضٍ صغيرةٍ ففلحَها وزرَعَها وحرَسَ حبوبَها مِنَ الطَّيرِ ودَفعَ عنها الحيَوانَ فنما الزَّرْعُ وسنبلَ ثمَّ أحصدَ فحصادُهُ يأتي بغلَّةٍ قليلةٍ إذا قيستَ بغلَّةِ قطعةِ أرضٍ كبيرةٍ جيّدةِ التُّربةِ مثلِها اعتُنِيَ بزرعِها مثلَ تلكَ العِنايَة

وقِس علَيهما التاجرَ فإنهُ إذا تعدَّدت أنواعُ بضائعهِ

وعَظُمَت كَمِيَّاتُها كانت أَرباحُهُ أوفرَ مِمَّا لو اقْتَصَرَ عَلى قَليلٍ مِنَ البضائِع . وَمِن يَتَّخِذُ حيَوانًا كالحِمارِ مثَلاً وَسيلةً لِنقَلِ بَضائِعِهِ فَإِنَّ لَهُ بذلِكَ العَمَلِ رِبحًا تافهًا (١) إِزاءَ آخَرَ يَملأُ مَرْكَبات قِطارٍ ببَضائِعِه الكَثيرةِ

وَهٰذِهِ حَقائقَ أَوَّلِيَّةٌ أَي لا يَقَعُ سَبيلٌ لِإِنكارِها . وَمَن تَفَهَّمَها وَجَدَها تُفصِحُ بِأَنَّ اتِّساعَ دائِرَةِ العَمَلِ يُوسِعُ دائِرَةَ الناتِجِ عَن ذلِكَ العَمَلِ . وضيقَ دائِرَةِ العَمَلِ عَنهُ وُرودُ ضيقِ الناتِجِ . فالكَثيرُ عَنِ الكَثيرِ والقَليلُ عَن القَليلِ . وَما خَرَجَ عَن هٰذا فَهُوَ نادِرٌ ولا عِبْرَةَ بالنادِرِ في تَحَرّي الحقائق

وقَد أَوجَدَ اللّٰهُ تَعالَى السَماءَ والأَرضَ وما فيهما مِمَّا وصَلَ إِلَيهِ عِلمُ الإنسان وما لَم يَصِلْ إِلَى إِدراكِهِ . فَإِنَّ العِلمَ الناضِجَ يُرينا كُلَّ يَوم اتِّساعًا في استيرادِ مَعلوماتٍ جَديدةٍ . وكُلَّما ازدادت مَعلوماتُ الإِنسانِ لِلْحَقائقِ رأَى أَمامَهُ مَجالاً أَوسَعَ لِحَقائقَ يَجْهَلُها يَقومُ جَهلُهُ لها بُرْهانًا

(١) التافه الحقير اليسير

قاطِعًا على أَنَّ الخَالِقَ تَعالَى لا يَدخُلُ سُلطانُهُ ولا عَظَمَتُهُ ولا قُدرَتُهُ ولا عِلمُهُ ولا أَعمالُهُ تَحتَ حَدٍّ بَتَّةً

وامتِناعُ وُجودِ ذٰلِكَ الحَدِّ ناتِجٌ عَن أَنَّ وُجودَ الحَدِّ يَستَلزِمُ أَن يكونَ لَهُ واضِعٌ يُلزِمُ بالوُقوفِ عِندَ ذٰلِكَ الحَدِّ . وهٰذا الإِلزامُ يَتَضَمَّنُ سِيادَةً لِلمُلزِمِ على المُلزَمِ والثَّابِتُ ضِمنًا كالثابِتِ نَصًا . فَلِكُلِّ آمِرٍ سُلطانٌ على المَأْمُورِ . وَلِلخالِقِ تَعالَى سِيادَةٌ على كُلِّ شَيْءٍ وَجَلَّ شأْنًا عَن أَن يَسُودَهُ شَيْءٌ فالمَخلوقُ لا يَسودُ خالِقَهُ . ومَن تَأَمَّلَ الإِنسانَ بِعَينِ عَقلِهِ في اتِّساعِ نِطاقِ المَخلوقاتِ وما لِهٰذا النِّطاقِ المُتَّسِعِ مِنَ النِّظامِ المُحكَمِ العَجِيبِ يُدرِكُ أَنَّ أَعمالَ اللهِ الفائِقَةَ كلَّ حَدٍّ تُنبِئُ عَن أَنَّ سُلطانَهُ فائِقٌ كُلَّ حَدٍّ . وأَنَّ قَداسَتَهُ الَّتِي أَوجَدَت كلَّ شَيءٍ هِيَ بِلا حَدٍّ . وَأَنَّ السَّعادَةَ التي مَنَحَها لِلإِنسانِ الثابِتِ في طاعَتِهِ لا حَدَّ لها

قد استَلزَمَت قَداسَةُ اللهِ وُجودَ الكائِناتِ . وَقَدِ استَلْزَمَ الوُجودُ البَقاءَ . لِأَنَّ صَنيعَ الباقِي يَجِبُ أَن يكونَ

باقيًا . ونرى المَوتَ يعرُو الإنسانَ ليُخرجَهُ منَ البقاء في بَشَريَّتِهِ إلى أن يعودَ جسَدُهُ ترابًا . فلا يمكننا أن تقولَ أنَّ اللهَ الخالقَ أوجدَ الإنسان المخلوقَ ليَجتازَ الإنسانُ مسافةً قصيرةً منَ الوُجُودِ ثمَّ يموت . فإنَّ قداسةَ الخالقِ تعالى تستلزمُ الاحتفاظَ بالموجودِ في وُجودِهِ . فلا بُدَّ لنا من التَّسليمِ بأنَّ في انتقالِ الإنسانِ الموجودِ من حيٍّ يتحرَّكُ بالإرادةِ الى جثَّةٍ هامدةٍ تطوُّرًا ونستدلُّ على هذا التَّطوُّرِ من أنَّ الوقَّادَ يحرقُ الفحمَ في قاطرةِ القطار الحديديِّ فلا تبيدُ قوى الفحمِ بل تتطوَّرُ فتصيرُ نارًا حاميةً تؤثِّرُ على الماء فيسخُنُ ثم يتحوَّلُ بخارًا يندفعُ الى الخروجِ فيدفعُ القطارَ ويُسيِّرُهُ . وما الفحمُ إلاَّ مثالُ الجسَدِ الترابيِّ الهامدِ.وما البُخارُ الاَّ كالنَّفسِ الَّتي لا تموتُ

وإذا كُنَّا لا نعلمُ بمُقتضى العُلوم البَشَريَّةِ ماذا يكونُ حالُ النَّفْسِ بعدَ فراقِها جسدَها . فذلكَ الجهْلُ يُنبئُنا أنَّنا واقفونَ في إدراكِنا حقائقَ حكمةِ اللهِ عندَ حدٍّ . وإذا أرَدنا أن ننظرَ الى وراء ذلك الحدِّ علَينا أن نطلُبَ تلكَ

الهداية مِنَ اللهِ الَّذي يَحُدُّ عِلمُهُ كُلَّ شَيْءٍ

يَجِبُ أَنْ نَرجِعَ الى مَصدَرٍ أَسمى مِنَ العَقلِ البَشَرِيّ فَإِنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ عاجِزٌ فِي كُلِّ مَطلَبٍ عَن بُلُوغِ حَدِّ الاستِقصاءِ . يَجِبُ أَنْ نَعودَ في ما نَجهَلُهُ وعِلمُهُ ضَروريٌّ لنا إِلَى وَحيٍ مُنزَلٍ مِنَ اللهِ تَعالَى تَكونُ حقائِقُهُ أَعلَى مِنْ أَن تَقَعَ تَحْتَ فَحصِ العَقلِ البَشَرِيّ لِأَنَّها تُوضِحُ ما يَعجِزُ العَقلُ البَشَرِيُّ أَن يَتَوَصَّلَ إِلَى عِلمِهِ

فَالدِّينُ لا يَتَنازَلُ إِلَى أَن يَكونَ مَعروضًا عَلَى حُكْمِ العَقلِ البَشَرِيّ إِن شاءَ سَلَّمَ بِهِ أَو شاءَ أَنكَرَهُ لَكِنَّهُ يُقِيمُ الأَدِلَّةَ عَلَى أَنَّه صادِقٌ فَيَجِبُ تَصدِيقُهُ . وأَن يُؤْخَذَ تَعلِيمُهُ عَقِيدَةً يُعْتَصَمُ بِها . فَلَمْ يَكُنْ وَحْيُ اللهِ بِمُقتَضَى مَشِيئَةِ إِنسانٍ أَو بِمُقتَضَى عِلمِ إِنسانٍ . وغايَةُ ما يَستَطِيعُ العَقلُ البَشَرِيُّ مِن فَهمِهِ أُمُورَ الدِّينِ أَنَّهُ يَأْتِي بِالأَدِلَّةِ الَّتِي تُثبِتُ أَنَّ الدينَ صادِرٌ مِن قِبَلِ الخالِقِ . وأَن يَرفُضَ الأَدِلَّةَ التي لا تُثبِتُ أَنَّ ذلِكَ الدينَ صادِرٌ من قِبَلِ الخالِقِ

والدِينُ الَّذي يَثبُتُ أَنَّهُ مِن قِبَلِ الخالِقِ كانَ ولا يَزالُ

قائِدَ العَقلِ البَشَرِيّ إِلَى فِردَوسِ سَعادتِهِ وكابِحَ الشّهَواتِ الرّوحيّةِ والجَسَدِيّةِ عمّا يورّطُ في الهَلَكةِ . والدِّينُ الذي لا يَثبُتُ أَنهُ مِن قِبَلِ الخالِقِ تعالَى كانَ ولا يَزالُ مَصدَرَ كُلِّ شَقاءٍ وإِثمٍ وتَهلُكَةٍ يَمْحُو الآدابَ ويُبِيدُ مَكارِمَ الأَخلاقِ ويَستأْصِلُ النُمُوَّ ويُقفِرُ البلادَ مِنَ السُكّانِ بَعدَ ما يُقفِرُ النُفوسَ من طَهارةِ الوِجدانَ أَعاذَنا اللهُ مِنهُ

الفصل السادِسَ عَشَر

كل مخلوق انصرف الى ما لاجله خلق سعيد . فان عرج الى مالم يخلق لاجله أدركه الشقاء

يَتَعاهَدُ البُستانِيُّ أَشجارَهُ المُثمِرَةَ بِعِنايَتِه لَيلاً وَنَهارًا لا يَشكُو مِنْ تَعَبٍ ولا يَتَذَمَّرُ مِن مَشَقَّةٍ . فَيُزِيلُ الحَشِيشَ والشَّوكَ النابِتَينِ عفوًا في التُّربَةِ ويَستَورِدُ إِلى ثَراها السَّمادَ الصالِحَ لِتَغذِيَتِها فَيَضَعُهُ عَلَى أُصولِها ويَحرُثُ أَرضَها وما يُجاوِرُها . وَرُبَّما لم يَكتَفِ بِذلِكَ فيَتَكَبَّدَ عَناءً بِسَقيِ تِلكَ الأُصولِ بالماءِ نَقلاً بالجِرارِ او القِرَبِ حَتّى

تَرتَويَ . ويُشَذِّبَ الغُصونَ الَّتي يَرَى وُجودَها غيرَ مُفيدٍ ويَسهَرَ على حِراستِها إذا خَشِيَ شَرًّا في شِتاءٍ خَوفاً مِن أَن يُحتَطَبَ مِنها . كما يَسهَرُ عَلَيها صَيفاً تحذُّرًا مِن أَن تُسرَقَ ثِمارُها

وأَمَّا الأَشجارُ العَقيمةُ فَيَزورُها مُصْطَحِباً فأْسَهُ فَيُعمِلُ تِلكَ الفَأْسَ في ما رآهُ مُنتَصِباً مِنها ورُبَّما استَخرَجَ عُروقَها الضاربةَ في عُمْقٍ ثم يَجمَعُ كُلَّ ما أَمكَنَهُ أَن يَحتَطِبَهُ فَيُعِدُّهُ لِلنَّارِ طَعاماً في سَبيلِ طَهْيِ طَعامِهِ وغَسْلِ ثَوبِهِ وتَدفِئَةِ مَقَرِّهِ وَما يَتحَوَّلُ مِن ذٰلِكَ المَجموعِ رَماداً يَطرَحُهُ عَلَى أُصولِ الأَشجارِ المُثمِرَةِ سَماداً فَيكونُ العَقيمُ فِداءَ المُثمِرِ

وكُلُّ أَداةٍ لِعَمَلٍ ما يَحرِصُ عليها صاحِبُها ما دامت صالحةً لِذٰلِكَ العَمَلِ فَإِذا عَرَضَ عَلَيها ما يُفْسِدُ عَمَلَها فَذَهَبَ الرَّجاءُ مِن صَلاحِيَّتِها لِلعَمَلِ نَظَرَ صاحِبُها في أَمرِ استِخدامِها في عَمَلٍ آخَرَ . فَكُلُّ أَداةٍ في طاقةِ صاحِبِها ان يَنْتَفِعَ بِها

لا يَطرَحُها[١] فإِن ذَهَبَ الرَّأْيُ الى أَنَّ الاستفادَةَ منها معدومةٌ اطَّرَحَها أَو باعَها بثَمَن نَزْر[٢] بالنِسبةِ الى الثَّمَن الذي اشْتَرَاهُ بِها فتَعودُ إِلى مَعمَلٍ يَسبِكُها سَبكًا جَدِيدًا لِتَخرُجَ آلةً جَدِيدةً صالِحةً لِعَمَلٍ مَقصود

فلِكُلِّ شيْءٍ حالان . حالٌ تُبذَلُ فيها العِنايةُ لِلشَّيْءِ رَغبةً في الكَسْبِ بهِ . وحالٌ تُحجَبُ فِيها العِنايَةُ عن الشَّيْءِ لِانقِطاعِ الكَسْبِ بِهِ . ولا يَخرُجُ عَن هذا النِّظام شَيْءٌ من مَصنُوعاتِ الإِنسانِ ولا من مَصنُوعاتِ اللهِ تعالَى فالراعي الذي يَعتَنِي بِكَلبِهِ عِنايةً تامَّةً ما دامَ قادِرًا عَلَى مُساعَدَتِهِ في حِراسةِ القَطيعِ لا يُبقِي على حَياتِهِ إِن أُصِيبَ بداءِ الكَلَب . والفَلَّاحُ الذي يَهتَمُّ بالثَّور فيُعِدُّ لَهُ العَلَفَ الجَيِّدَ والمأْوَى المُناسِبَ نَراهُ يَذبَحُهُ مَتَى عَجَزَ عن جرِّ السِكَّةِ فِي تُرْبَةِ الحَقْلِ

وَنَرَى الحاكِمَ الأَكبَرَ يَعتَنِي بِكُلِّ مُوَظَّفٍ في نِطاقِ

---

(١) على هـذا المبدا العمراني ينطبق المبـدأ الفقهي القائل يعمل بالنص ما أمكن حمله على معنى صحيح فان أحال طرح (٢) قليل

عَمَلِهِ فَيُرَقِّيهِ في سُلَّمِ المَناصِبِ. ويَزِيدُ مَكانَتَهُ كَرامةً ومَرْتَبَةً مِقدارًا. ما رأى مِنهُ عَمَلاً وارِدًا على وَجْهِهِ المَشروعِ ودالاًّ عَلى إخلاصٍ وحِكمَةٍ ونَشاطٍ. فاذا تَقاعَسَ المُوَظَّفُ عَنِ العَمَلِ أو خَلا عَمَلُهُ مِنَ الإخلاصِ أوِ الحِكمَةِ أخرَجَهُ من خِدمَتِهِ. وإن جاءَ عَمَلُهُ عَلى غَيرِ وَجْهِهِ المَشروعِ دَفَعَهُ إلَى القَضاءِ لِيُعاقِبَهُ عَلى إساءَتِهِ في استِعمالِهِ وَظيفَتَهُ استِعمالاً رَدِيئًا. ومَتى ثَبَتَ عليهِ ما يُنسَبُ إلَيهِ من إساءَةِ الاستِعمالِ أدرَكَتْهُ طائلَةُ العُقُوبَةِ فيُغَرَّمُ بِمالٍ أو يُلقَى في السِّجنِ أو يَجري عَلَيهِ قَضاءٌ أشَدُّ

وهٰذِهِ الأَحكامُ كُلُّها يَراها المُنصِفُ وارِدَةً عَلَى وَجْهِها المَشروعِ وَهِيَ عَلَى تَلَوُّنِ صُوَرِها وتَعَدُّدِ مَصادِرِها تَرجِعُ إلَى مَبدَإٍ واحِدٍ هُوَ: أَنَّ كُلَّ شَيءٍ وُجِدَ لَمْ يُوجَدْ من تِلقاءِ نَفسِهِ بَلْ عن أمرٍ اقتَضَى وُجودَهُ فَلا شَيْءَ يُوجَدُ عَبَثًا. وَما بَقِيَ ذلكَ الشَيءُ قائِماً بالأَمرِ الذي اقتَضَى وُجودَهُ فَهُوَ مَرْعِيٌّ بِعَينِ العِنايَةِ. ومَن لَهُ حَظوَةُ العِنايَةِ سَعيدٌ تَحتَفِظُ بِهِ يَدُ الحِرصِ. وإنْ خَرَجَ عَمَّا وُجِدَ لَهُ وذَهَبَت

كُلُّ مَنفَعَةٍ مِن وُجودِه فَهُوَ حِينئِذٍ يُمْتَهَنُ وَيُطَّرَحُ وكُلُّ مُطَّرَحٍ شَقِيّ

ولا رَيبَ فِي أَنَّ كُلَّ حِكمةٍ في المَخلوق وُجِدَت فِيهِ عَن حِكمةٍ في خالقِهِ فإِنَّ الحِكمَةَ لا تكونُ إلاَّ عَن حِكمةٍ أَعظَمَ مِنها . ولا تَكونُ حِكمةٌ عَن جَهلٍ . فَعَنِ الحِكمةِ أَن يُدرِكَ الإِنسانُ المُقتضيَ لِوُجودِ الشيْءِ الموجودِ . والمُقتَضِي لِكُلِّ مَوجودٍ يَسبِقُ وُجودَ المَوجُود . إِمَّا وُجودًا أَو استِعمالاً * مثلاً احتاجَ الناسُ الى الكِتابةِ فاصطَنَعُوا الأَقلامَ لَها فالمُقتَضِي لإِعْدادِ الأَقلامِ لِلكِتابةِ وُجِدَ قَبلَ الأَقلامِ حُكمًا لا فِعلاً . لِأَنَّ الاقلامَ من النَّبات . والنَّباتُ أَسبَقُ وُجودًا مِن الإِنسان . واحتاجَ الطَّبيبُ أَن يَستَخرِجَ ما في جَسَدِ العَلِيلِ مِنَ الحَرارةِ فاهتَدَى الى استِعمالِ الكِينا فالمُقتَضِي لاستِعمالِ الكِينا وُجِدَ قَبلَ وُجودِ استِعمالِ الكِينا (١) والأَقلامُ التي اختُرِعَت من حَدِيدٍ

---

(١) لا قبلَ الكينا فالكينا من النبات . والنبات قبـل الانسان وجوداً . والحرارة في الجسد الانساني دليل انحراف المزاج أي من

سَبَقَها قَبلَ وُجودِها السَّبَبُ الذي اقتَضَى وُجودَها . لا أَنَّ المُقْتَضِيَ لِوُجودِ الأَقْلام مِن حَديدٍ سَبَقَ وُجودَ الحديد (١)

وما دامَت حِكمَةُ الإنسانِ تَجعَلُ الشَّيْءَ الصالِحَ لِلقِيامِ بالمُقتضي لِوُجُودِهِ سَعيدًا بِذٰلِكَ القِيامِ وشَقيًّا اذا عَجِزَ عن ذٰلِكَ القِيامِ فَلا بُدَّ مِنَ التَّسْليمِ بِأَنَّ مَن يَسُنُّ السُّنَّةَ يَجِبُ ان يَقبَلَ بقَضائِها على نَفسِهِ وَقَد قَالَ الشاعر .

فَلا تَبْتَئِسْ مِن سُنَّةٍ قد سَنَنْتَها
فأَوَّلُ راضي سُنَّةٍ مَن يَسُنُّها

فإِنْ قُلنا هٰذِهِ السُّنَّةُ مِن وَضْعِ البَشَرِ . قُلتُ إِنَّه بِمقتَضَى وَضعِهِم لَها وجَريِهِم عَليها في ما تَقَعُ المعامَلَةُ بِهِ بَينَهم ومِنهُم يَجِبُ ان يَقبَلوا بجَرَيِ قَضاءِ اللهِ عَلَيهِم بِمُقْتَضاها . وَمَن قَالَ هٰذِهِ السنةُ وَضْعٌ إِلٰهيٌّ هَدَى اللهُ الإِنسانَ إِليهِ فَهُوَ مُجبَرٌ ان يَتبعَ هٰذِهِ السُّنَّةَ لأَنَّ المَخلُوقَ

لواحق الانسان فهي عقب وجود الانسان فلا تكون الحرارة الجسدية اي دليل المرض قبل الكينا ولكنها قبل الاهتداء الى استعمال الكينا دواءً للمرض (١) يُعلل هذا الوجود كما علل الدليل السابق

يَجِبُ عَلَيهِ ان يَقبَلَ شَرعَ الخَالِقِ قُبولاً مُطلَقاً لا يَعتَرِضُهُ إِنكارٌ وَلا امتِناعٌ

الفَصلُ السابِعَ عشر

الانسان فقير الى رحمة ربه . وغناهُ المادي من أدِلة فقرهِ الى تلك الرحمة

يَعتَنِي الإِنسانُ بِالشيء الَّذي يَستورِدُ مِنهُ فائدةً . ويُهمِلُ ما لا يَعرِفُ مِنهُ فائِدةً ولو كانَ ذٰلِكَ الشيءُ مُتَضَمِّناً أَنفَسَ فائدة . فالطِّفلُ يَطلُبُ الخُبزَ طَلباً شَدِيدًا لِأَنَّ لَهُ عِلماً بِفائدةِ الخُبزِ . ولا يَكتَرِث لِلجَواهِرِ لِأَنَّهُ يَشعُرُ بِفائِدةِ الغِذاء ولا يَشعُرُ بِفائدةِ الجَواهِرِ النَفيسةِ . فعِنايَةُ الإِنسانِ بالشَّيء الخارِجِ عَنهُ مِن بابِ العِنايةِ بِذاتِهِ من جَسَدٍ ونَفْسٍ . بَل نَرَى الظامِئَ يَبذُلُ الثَّمينَ جِدًّا لَقاءَ جُرعةِ ماءٍ لِحِفظِ حَياتِهِ لِاعتِبارِهِ أَنَّ كُلَّ شَيءٍ يَملِكُهُ فِداءُ النَّفسِ فالنَّفسُ أَثمَنُ ثمين (١)

---

(١) ذكر لي أحد الاطباء في الجيش العثماني الذي كان في السلط مرابطاً تحت أمرة محمد جمال الصغير القائد التركي وانهزم امام الجيش

فَعِنايَةُ الراعي بِنَعْجَتِهِ مِن باب عِنايَتِهِ بنفسهِ فَيَتَّخِذُ من دَرِّها غِذاءً ومِن صُوفِها ثوباً وَهُوَ ذو حاجةٍ إِلَى الغِذاء والثَّوب . وعِنايتُهُ بأَرضِهِ مِن بابِ عِنايَتِهِ بنفسِهِ أَيضاً لِأَنَّهُ يَستَخدِمُ حُبوبَها طَعاماً وأَوْراقَها قِرطاساً[1] وشَجَرَها ظِلاًّ يَسْتَقِرُّ تحتَهُ وحِجارَتَها مَساكِنَ فَيَسْتَخدِمُ ما يَراهُ مِنَ المَوجوداتِ في شُؤُون حِفظِ حَياتِهِ فَيَصنَعُ مِنَ المَعادِنِ الادَواتِ الَّتِي بِها يَقوَى عَلَى أَعمالِهِ فلا يَبذُلُ عِنايةً في شَيءٍ إِلاَّ في سَبيلِ ما عائِدُهُ إِلَيهِ إِمَّا بأَن يَحفَظَ حَياتَهُ أَو يَزيدَ في هَناء مَعيشتِهِ أَو يُولِيَهُ ذِكراً طَيِّباً يَعُدُّهُ خيرَ الذَّخائِرِ . ويَحسِبُ سَيرَهُ على هٰذا النَّهج دَليلَ كَمالِ عَقلِهِ . وبِناءً عَلَى هٰذا الاِعتِبارِ قيلَ — العاقِلُ لا يَعمَلُ عَبَثاً ولا يَسعَى وَراءَ عَبَث . وَقيلَ أَيضاً — اللَّيلُ والنَّهارُ يَعمَلانِ فيكَ فاعمَلْ فِيهِما . أَي فاستَثْمِرْ لَكَ فائِدةً من مُرورِهِما عَليك

العربي في خريف سنة ١٩١٨ انه كان يبتاع ممن يمر بهم وهو هارب كأس الماء بذهب

(١) الصحيفة يكتب بها

ولا عَجَبَ في أَن يكونَ سَعيُ الإنسانِ في كُلِّ شأنٍ وَراءَ المَنفعةِ فإِنَّهُ فَقيرٌ إِلَى كُلِّ شَيءٍ والفَقيرُ لا يَنفَكُّ عن الجِهادِ ليُدرِكَ السَّعةَ وقد جاءَ في أَقوالِ الحِكمةِ حَضًّا على السَّعيِ ما يُثيرُ الهِمَمَ ومِن ذٰلِكَ قَولُ الشاعِرِ

أَلا أَيُّها الإِنسانُ قُمْ وَاسْعَ لِلغِنى
تَعِشْ ذا يَسارٍ[1] أَو تَمُوتَ فَتُعذَرا
ولا تَصحَبِ الوَنيَ الذَّميمَ ولا تَنَمْ
وكَيفَ يَنامُ اللَّيلَ مَن كانَ مُعسِرا[2]

ولا شَكَّ في فَقرِهِ[3] ما دامَ وُجُودُهُ لَيسَ مِنهُ لِيَقوَى على حِفظِ وجُودِهِ خِلوًا مِنَ الاستِعانَةِ بِشَيءٍ . فَإِنَّ مُوجِدَهُ اللهَ تَعالى فَطَرَهُ عَلى مَبدَإِ الاحتِياجِ . فَهُوَ مُحتاجٌ إِلَى ما يَحفَظُ لَهُ وُجُودَهُ . وهٰذا الاحتِياجُ هُوَ الَّذي قامَ عَليهِ بُنيانُ بَقائِهِ حَيًّا مَدَى عُمرِهِ فَإِذا بَطَلَ احتِياجُهُ بَطَلَ وُجودُهُ الحِسِّيُّ

---

(١) غنى (٢) الوني : الفتور (الكسل) . والمعسر : الفقير
(٣) الفقر بفتح الفاء وضمها بمعنى واحد

يَحْتاجُ الجَسَدُ البَشَرِيُّ إِلَى دَمٍ يُرسِلُهُ القَلْبُ إِلَى جَميعِ الأَعْضاء وهذا الاحتِياجُ هُوَ الذي يَدعُو القَلبَ إِلَى أَن يُوعِزَ الى المَعِدَةِ فَتُحَلِّلَ ما يَرِدُ إِلَيها فَتُرْسِلَ الى القَلْبِ خُلاصتَهُ . وحاجَةُ المَعِدَةِ إِلَى ما تُحَلِّلُهُ تَدعُوها إِلَى أَن تُوعِزَ الى الفَمِ لِيَلوكَ لها الطَّعامَ ويُرسِلَهُ مَمْضُوغًا وحاجَةُ الفَمِ إِلَى ما يَلُوكُهُ تَدعُو اليَدَ إِلَى أَن تُعِدَّ أَلوانَ الطَّعامِ ثُمَّ تَدفَعَها إِلَيهِ . ولا يَتَناوَلُ الفَمُ الأَلوانَ إِلاَّ بعدما سَعَتِ القَدَمانِ الى حَيثُ تُوجَدُ موادُّ تِلكَ الأَلْوانِ الَّتي تَجيءُ مَحْمولَةً بالْيَدِ أَو على الـكَتِفِ تُعالِجُها اليَدانِ حَتَّى تَصلُحَ لِلتَّناوُلِ . ولا تَحصُلُ اليَدُ عَلَى مَوادِّ تِلكَ الأَلْوانِ إِلاَّ بَعدَ بَذْلٍ مِن قِبَلِها والمَبذُولُ إِما عَمَلٌ أَو ما أَوصَلَ اليهِ عَمَلٌ . فَفَقرُ الإِنسانِ هُوَ الَّذي يَدعُوهُ إِلَى العَمَلِ . وَحينَما تَذْهَبُ خَلَّةُ(١) الفَقرِ مِنهُ فَيَستَغنِي القَلبُ عَنِ الدَّمِ ولا يُطلَبُ مِنهُ أَن يُرسِلَ الى أَعضاءِ الجَسَدِ دَماً يكونُ الجَسَدُ قَد أَمسى هامِدًا(٢) . فَهُوَ فَقيرٌ إِلَى رَحمةِ رَبِّهِ لَهُ بِأَن يُبقيَهُ فَقيرًا

---

(١) الخصلة والحاجة (٢) مائتاً

فَإِنَّ فقرَهُ يحفظُ لَهُ حياتَهُ وَإِذا انتفى عنهُ ذٰلِكَ الفقرُ فلا حياةَ لِجَسَدِهِ

وعَن احتياجِ الإِنسانِ أي عنِ افتقارِهِ لَذاذةُ حياتِهِ. فالطَّعامُ شَهِيٌّ ما كانَتِ المَعِدَةُ مُفتَقِرَةً إِلَى امتِلاءٍ. واللِّباسُ مَطلوبٌ ما دامَ الجَسَدُ مُحتاجاً إِلى كِساءٍ. والشُّعورُ بِالجَهلِ هُوَ الَّذي يُحَبِّبُ باكتِسابِ العِلمِ وعَن مَرارةِ مَذاقِ المَرَضِ تُعرَفُ حَلاوَةُ طَعْمِ الصِحَّةِ. فالفقرُ هُوَ الَّذي يَرفَعُ مَنزِلَةَ الغِنى وَهُوَ الَّذي يَسيرُ بالإِنسانِ إِلى أَمامٍ في عِلمٍ وعَمَلٍ

وَإِذا كانَ الإِنسانُ لا يَتمكَّنُ مِن أَن يَحفَظَ حَياتَهُ بالنَّزرِ أَو بالتافِهِ واقتَضى لِذٰلِكَ الحِفظِ أَن يُحرِزَ الكَثيرَ فيكنِزَ الأَموالَ الطَّائِلَةَ ويَذْخَرَ كَمِّياتِ الحُبوبِ الوافِرة، ويَقتَني الجَواهِرَ والحَيَوانات ويَتَمَلَّكَ المَسافاتِ الطِّوالَ مِنَ الأَراضي. فإِنَّ إِحرازَهُ هٰذِهِ الأَشياءَ دَليلُ شِدَّةِ احتِياجِهِ فَكُلَّما كَبُرَتِ الحاجَةُ كَبُرَ المِقدارُ الَّذي يَفي بِسَدِّها. فَاغتِناءُ الإِنسانِ في المَوجوداتِ العالَمِيَّةِ دَليلُ فَقرِهِ

الأَكْبَرِ . فأَغنَى الأَغْنِياءِ مِن بَنِي الإِنسانِ في إِحرازِهِ المَوادَّ التي استِعمالُها يَكفلُ(١) حِفظَ الحَياةِ يُقِيمُ بِغِناهُ ذٰلِكَ الغِنَى الجَزيل، دَليلاً عَلَى أَنَّهُ أَفقَرُ الفُقَراءِ فِي الاِحتِياجِ إِلَى ما يَحفَظُ لَهُ وُجُودَهُ . فَعَظَمَةُ الإِنسانِ في كلِّ شَيءٍ انَّما هِيَ دَليلُ حاجَتِهِ الشديدةِ إِلى حِفظِ حَياتِه فغِناهُ فَقرٌ أَو دَلِيلٌ عَلَى الفَقرِ فإِنهُ كُلَّما ازدادَ ثَروَةً كانَ اكثَرَ احتِياجاً إِلَى السَيِّدِ الَّذِي يُجزِلُ(٢) لَهُ تِلكَ الثَّروَةَ ولِذٰلِكَ يَكونُ دائِماً مُحتاجاً الى رَحمَةِ رَبِّهِ .ومَن حَظِيَ بِرَحمَةِ رَبِّهِ يَرتَشِدُ بِها إِلى ما يَصونُ حَياتَهُ الَّتي مَهْما طالَ فَقرُها فَلا بُدَّ مِن أَن تَصِلَ إِلَى الغِنى اي الى اكْتِفاءِ القَلبِ بِعَمَلِهِ ووُقوفِهِ عِندَ حَدٍّ فلا يَطلُبُ دَماً ولا يُوزِّعُ دَماً فيُمسِي رُمَّةً بالية، فيَعودُ إِلَى التُراب. وتَبارَكَ اللهُ الَّذِي تَفرَّدَ بالبقاءِ والغِنى مَعاً

---

(١) يضمن　(٢) يوسع

الفَصلُ الثامِنَ عشَر

الحياة الاخرى

فَقرُ الإنسانِ إمّا حقيقيٌّ وهُوَ أَن يَكون غيرَ حاصِلٍ عَلَى ما يَتطلَّبُهُ حِفظُ الوُجودِ مِن مَأكلٍ ومَشرَبٍ ومَلبَسٍ ومَبيتٍ وَهُوَ العوَز . واما غيرُ حقيقي وَهُوَ أَن يَكونَ ما يَتَطلَّبُهُ حِفظُ الوُجودِ مِن مَأكَلٍ وسِواهُ حاصِلاً ولٰكِنَّ سائِقَ الرَّغبةِ في إحرازِ السَّعَةِ في مُتَطَلَّباتِهِ يَحدُو[1] بِهِ إِلَى أَن يوغِلَ[2] في الاستِكثارِ من كَميَّاتِ تِلكَ الأَشياءِ وسائِقُ الرَّغبةِ الذي يَحدُو بِهِ الى هذا الإِيغالِ اما اعتِبارُهُ استِصفاءَ تِلكَ المُتَطَلَّباتِ لِنَفسِهِ حَقّاً لَهُ لِيَتَمَتَّعَ بِخَيراتِ دُنياهُ ولو شَقِيَ الآخَرونَ وإِمَّا اعتِبارُهُ أَنَّ حُصولَهُ عَلى تِلكَ المُتَطَلَّباتِ يُخوِّلُهُ أَن يَقومَ بِمَعونةِ الَّذينَ أَقعَدَتهُمُ العاهاتُ عَنِ العَمَلِ أَو نَزَلَت[3] بِهِم المَصائِبُ فَلَم تَدَعْ لَهم طاقةً عَلَى أَن يُحرِزوا ما يَحِقُّ لَهُم إِحرازُهُ في سَبيلِ حِفظِ وُجودِهِم

---

(١) يسوقه (٢) يبعد (٣) اي حلت عليهم

فَهُوَ يَطلُبُ الحُصولَ على السَّعَةِ لِيُوسِّعَ عَلَى الآخَرِين

فَإِذَن لنا أَن نَقولَ إِنَّ مَن يُحْرِزُ السَّعَةَ في مُتَطَلَّباتِ الحَياةِ قد تَطَلَّبَها لِنَفسِهِ إِمَّا لِقَضاءِ مآربِهِ الخُصوصيَّةِ فَقَط أَو لِتَنطَلِقَ يَدُهُ في مُساعَدَةِ الآخَرِينَ أَيضاً . وَعلى الحالَينِ لا بُدَّ مِنَ التَّسلِيمِ بِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِفَقرٍ يَحُضُّهُ على الاستيرادِ (١)

وطَلَبُهُ ما يَطلُبُ لِشُعورِهِ بِفَقرِهِ ظاهِرُ الوَجهِ . وطلبُهُ ما يَطلُبُ لِشُعورِهِ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَن يُعطِيَ الآخَرِينَ هُوَ اعتِرافٌ ضِمنِيٌّ بِالفَقرِ ولكِنَّهُ إِلَى ما هُوَ لَيسَ مِن مَوادِّ الغِذاءِ والِاكتساءِ وأَمثالِها . فَذوا السَّعَةِ في مَوادَّ يَحتاجُ الجَسَدُ اليها إِذَا كان يَطلُبُها لِنَفسِهِ ولا يَنفَكُّ عَنها فَقِيرٌ الى ما يُسَمَّى غِنًى دُنيَوِيًا . أَمَّا إِذا كانَ يَطلُبُها لِكَي يَبذُلَها لِمَن يَستَحِقُّ أَن يَحصُلَ عَلَيها مِن يَدِهِ بِدُونِ ثَمَنٍ فَهُوَ فَقِيرٌ إِلَى الأَجرِ الَّذِي يَرِدُ عَن ذلِكَ البَذْلِ . ولِشُعورِهِ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ إِلَى الأَجرِ يَبذُلُها فَيَستَعيضُ عَنها بِذِكرٍ جَميلٍ

---

(١) طلب الورود

عِندَ الناسِ عِلاوةً عَلَى ما يُخَوِّلُهُ بَذلُها مِن رِضَى الخالِقِ الكَرِيمِ وكلُّ فقرٍ في حقيقتِهِ عارِضٌ عَدَمِيٌّ . وقد تَقَدَّمَ مَعَنا أَنَّ الوُجودَ كِيانٌ إِيجابِيٌّ . فيكونُ الفَقرُ حيثُما وُجِدَ ضَرْباً من ضُروبِ العَدَمِ . وَقَد أَوجَدَ الخالِقُ تعالَى كُلَّ مَوجودٍ لِلوُجودِ لا لِلعَدَمِ فَإِذا رَأَينا أَنَّ موجودًا قامَ عَلَى أَنَّ وُجودَهُ مُستَقِرٌّ عَلَى استِلزامِ العَدَمِ فَلاغِنَى لَهُ عَنِ العَدَمِ ذَهَبَ بِنا الفِكرُ إِلَى أَنَّ هذا الطَّورَ ابتِدائِيٌّ لِأَنَّهُ لا يُناسِبُ كَمالَ حِكمةِ المُوجِدِ الَّذي يَستَلزِمُ لِذاتِهِ أَن يكونَ دَوامُ الوُجودِ قِوامَ المَوجود

ويَسهُلُ عَلَينا أَن نَفهَمَ أَنَّ المَوجودَ تَتوالَى عَلَيهِ أَطوارٌ مِن مُلاحَظَةِ الأَشياءِ الواقِعةِ تَحتَ نَظَرِ العَينِ فإِنَّنا نَجِدُ جَوفَ الدُّجاجةِ يَقذِفُ بَيضةً ثُمَّ يَخرُجُ من البَيضةِ فَرْخٌ ذَكَرٌ أَو أُنثَى فيكونُ لَهُ طَورانِ الأَوَّلُ طَورُ وُجودِهِ داخِلَ البَيضةِ والثاني طَورُ وُجودِهِ خارِجَها . كَما نَجِدُ الشَّجَرَ يَخلُو من أَوراقِهِ ثُمَّ لا يَلبَثُ أَن يَظهَرَ عَلَيهِ النَّورُ ثُمَّ يُورِقُ ثُمَّ يَبدُو الثَّمَرُ بَينَ أَغصانِهِ فَتَتوالى عَلَيهِ أَطوار .

وما يَعمَلهُ الإنسانُ منَ التَّطورِ أَعجَبُ إِذ يُحوّلُ الوَرَقَ قِرطاساً وثمرَ البطاطا أَزراراً والحَجَرَ كِلسًا والسُّمَ القاتِلَ تِرْياقًا إِلى غيرِ ذلِكَ مما لا يُحصَى لِكَثرةِ ضُروبِهِ وغَرابَةِ بَعضِها

وَهٰذا ما يَجِبُ أَن نَفهَمَهُ في تَطَوُّرِ الإنسان اي في انتِقالِهِ مِن طَور الى طَور. فنُدرِكَ بِهدايةِ العَقلِ أَنَّ الموجودَ العَالَميَّ غيرُ صالِحٍ أَن يَكونَ الغايَةَ التي تَستَحسِنُها حِكمةُ الخالِقِ لِأَنهُ مَبنِيٌّ عَلَى عَدَميَّةِ الوُجودِ . وحِكمةُ الخالقِ ولا رَيبَ وُجودٌ محَضٌ فَهيَ تَستلزِمُ وُجُودًا مَبنِيًّا على وُجودٍ أَيْ وُجُودًا قائِمًا على أَساسِ الغِنى لا عَلَى أَساسِ الفقرِ . وُجُودًا لا يَنفَدُ فلا يَتَصرَّمُ[١] بَتَّةً لا بِتَصَرُّمِ السنواتِ ولا بِتَصَرُّمِ الدُّهور

هٰذا الوُجودُ هُوَ الذي يَجمُلُ بِحِكمَةِ الخالِقِ أَن يَكونَ صادِرًا مِنها . وَهُوَ ما يُدعَى بالخُلودِ أَو الحياةِ الأُخرَى او النِهايةِ الأَبَدِيَّة . وإِلَى الحُصولِ عَلَى السَعادَةِ

---

(١) ينقضي

فِيهِ دَعَتِ الدِّيانَاتُ المُنَزَّلَةُ وأَوضَحَتْ لِكُلِّ راغِبٍ في الحُصولِ عَلَيها النَّهجَ الأَمينَ لِإحرازِها . وتَعَهَّدَتْ لِمَن نَهَجَ فيهِ نَهجاً قَوِيماً عَلَى مُقتَضَى هِدايَتِها بأَنَّهُ يُدرِكُ مَرجُوَّهُ أَتَمَّ إدراكٍ وَقَد أَقامَ الدُّعاةُ إِلَى تِلكَ السَّعادَةِ المعجزاتِ المُثبِتَةَ أَنَّ دَعوَتَهم صادِقَةٌ لِأَنَّ سَيِّدَهُمُ الذي يَدعُونَ إلَى اكتِسابِ مَرضاتِهِ يُؤَيِّدُ دَعواهُمُ الصادقةَ بأَنَّهمْ داعونَ إِلَى سَعادَةٍ بِما يَستَجيبُ لَهُم من المُلتَمَساتِ الَّتِي تَخْرِقُ نِظامَ الكائناتِ خَرْقاً لا يَأْتِي إلاَّ مِنْ قِبَلِ سَيِّدِ الكائِناتِ

الفصلُ التاسع عشر

للانسان وجود خالد

نَجِدُ الإِنسانَ يَستَعينُ بِكُلِّ شَيءٍ استَطاعَ أَن يَستَعِينَ بِهِ لِحفظِ وُجودِهِ الزَّمَنيِّ وَقَد قَدَّمْنا الدَّليلَ على ذٰلكَ . فَإيجادُهُ كُلَّ ما أَوجَدَهُ من بُنيانٍ وأَداةٍ وثَوبٍ وصِناعةٍ وتِجارةٍ ونِظامٍ شَرعِيٍّ إِنَّما هُوَ لِكَي يَستَعينَ بِهِ عَلَى حِفظِ

ذلكَ الوُجودِ الزَّمني . وَمَع ذلكَ السَّعيِ الحثيثِ لا يَظفَرُ بأُمنيَّتِه المَنشودَةِ . فيَتساءَلُ الفِكرُ عمَّا إذا كانَ اللهُ أَرادَ بإيجادِ ما أَوجَدَهُ الاستعانَةَ بِهِ كما يَستَعينُ الإنسانُ بمَصنوعاتِه وتَعالى اللهُ عَنْ أَن يَحتاجَ إلى تلكَ الاستِعانةِ . فالاستعانَةُ دَليلُ ضُعفٍ . واللهُ تَعالَى مَصدَرُ كلّ قوَّةٍ . فلا يَدنو منهُ ضُعفٌ بتَّةً . فهُوَ واحِدٌ لَهُ مُطلَقُ السُّلطان في مُلكِهِ غيرِ المحدود . وإذا قامَ دَليلٌ قاطِعٌ عَلَى شيءٍ أَنَّهُ غيرُ موجودٍ فهُوَ في الواقِعِ غيرُ مَوجودٍ . وَقَد قامَ الدَّليلُ عَلَى أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الاستِعانَةِ بأَحَدٍ بنَفيِ الدَّعوى بأَنَّ لَهُ نِدًا أَو مُقاوِماً فلا حاجَةَ لَهُ إلى استِعانةٍ بأَحَدِ مَخلوقاتِه

فبِماذا يُعَلَّلُ وُجودُ الإنسانِ وَقَد انتَفَى الادّعاءُ بأَنَّ وُجودَهُ للاستِعانَةِ بِهِ . يُعَلَّلُ بأَنَّ اللهَ موجودٌ ووُجودُهُ يَقتَضِي إيجادَ مَوجودٍ لأَنَّ الموجودَ لا يَنفكُّ عَنِ الإيجادِ فالوُجودُ قد ارتَبَطَ بِهِ الإيجادُ ارتباطاً لا انفِكاكَ لَهُ . واللهُ صالِحٌ فيَقتَضِي أَن يَكونَ ما يُوجِدُهُ صالِحاً . فإِذن يَجِبُ التَّسليمُ بأَنَّ الإنسانَ بِمُقتَضَى وُجودِهِ قد وُجِدَ صالِحاً .

وهٰذا الوُجودُ للإنسانِ قد استلزمَهُ وُجودُ اللهِ تعالى كما استلزمَ تأثيرُ النورِ أن يكونَ النورُ موجودًا فلا يُمكننا أن نتصوّرَ نورًا إلاّ تصوّرْنا تأثيرًا صادرًا عنهُ ولا أن نتصوّرَ تأثيرًا للنّورِ إلاّ عن وُجودِ النّورِ فإنّ بينَ العلّةِ والمعلولِ صادرًا عنها ارتباطًا كارتباطِ الأرومةِ بالغُصنِ فيَستلزمُ وُجودُ الأرومةِ حيّةً أن تعطِيَ الغُصنَ وُجُودًا وحياةً ويستلزمُ وُجُودُ الغُصنِ الحيّ وُجودَ الأرومةِ ذاتِ الحياةِ

وبما أنّ وُجودَ الإنسانِ عن صلاحِ اللهِ تعالى. وصلاحَ اللهِ تعالى غيرُ محدودٍ فما يُوجِدُهُ دليلاً على صلاحِهِ غيرِ المحدودِ يكونُ ولا ريبَ غيرَ محدودٍ ليفيَ بما وُجدَ لأجلِهِ

فإذا كُنّا نجدُ الإنسانَ في بعضِ أعمالِهِ غيرَ صالحٍ ففي هٰذا البعضِ قد خالفَ ما يجبُ أن يكونَ عليهِ بحسَبِ وُجودِهِ. ومَن خالفَ ما وُجدَ لهُ حقّت عليهِ العُقوبةُ. وكلُّ عقوبةٍ لذنبٍ تقعُ عليهِ بمقدارِ إساءتِهِ إلى الّذي جُنيَ عليهِ ولمّا كانَ اللهُ لا حدَّ لهُ فارتكابُ المُذنِبِ الذّنبَ اليهِ تعالى إساءةٌ لا حدَّ لها فتستلزمُ عقوبةً لا حدَّ

لَها . ومَن وَجَبَت عَليهِ عُقوبةٌ لا حَدَّ لَها وَجَبَ أَن يكونَ وُجودُهُ لا حَدَّ لَهُ حَتَّى يَتَحَمَّلَ العُقوبةَ الَّتي لا حَدَّ لَها . فإِذا كانَت عُقوبَتُهُ غَيرَ مَحدودةٍ ووُجودُهُ مَحدودًا فلا يَستوفي العَدلُ قِسطَهُ[1] منهُ وَبِما أَنَّ الإِنسانَ مَحدودٌ في طُولهِ وعَرضِهِ وقُوى جَسَدِهِ أَي رُوحِهِ الحيوانيةِ وبَقاءِ نَفسِهِ في هَيكَلِ جَسَدِهِ فَلا تَكونُ عُقوبَتُهُ الدُّنيويةُ إِلاَّ مَحدودة. فإِمَّا أَن تَنزِلَ بِهِ عُقوبةٌ غَيرُ مَحْدودةٍ لِيَستَوفيَ العَدلُ قِسطَهُ مِنهُ . أَو عُقوبةٌ مَحدودةٌ فلا يَستوفي العَدلُ قِسطَهُ . ونَتَج لنا مِن ذلِكَ أَنَّ تَحديدَ عُقوبتِهِ يَستَلزِمُ عَجزًا عَن وَضعِ عُقوبَةٍ عَلى الإِنسانِ غيرِ محدودةٍ . والخالقُ مُنَزَّهٌ عَن أَن يُتَصوَّرَ عَجزٌ يُنْسَبُ إِلَيهِ لأَنَّ الالُوهيةَ تَتَضَمَّنُ القُدرةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَم يَبقَ إِلاَّ القَولُ بأَنَّهُ تَعالَى يُجري عُقوبةً غَيرَ مَحدودةٍ على الإِنسانِ الَّذي يُسيءُ إِلَيهِ بِمَعصيةٍ إِذا خالَفَ أَمرَهُ فأَقدَمَ عَلَى ما نَهاهُ عَنهُ أَو امتَنَعَ عَن أَن يَعمَلَ ما أَمرَهُ بِعَمَلِهِ

---

(١) الجزء المقسط من الدين اي الحصة

وَبِما أَنَّ الذَّنبَ وَقَعَ من نفسِهِ العاقلةِ فالنَّفسُ أَحرَى بِأَنْ تُعاقَبَ فما الجَسَدُ إِلاَّ مَركَبٌ لِلنَّفسِ ولا تُلامُ الآلَةُ بِمِقدارِ ما يُلامُ مَنِ استَعْمَلَها . فالعِقابُ أَوَّلاً لِلنَّفسِ ثُمَّ لِلجسدِ لِوُقوعِ المَعصيَةِ بِالجَسَدِ لالتِذاذِ الجَسَدِ بِها . فالعُقوبَةُ مُوَجَّهَةٌ إِلى النَّفسِ بِإِيلامِ الجَسَدِ فإِنَّ الوَجْهَ الَّذي وَقَعَ الذَّنبُ بِهِ يَجِبُ أَن يَقَعَ العِقابُ بِهِ أَيضاً . وَإِذا كُنَّا نَرَى الجَسَدَ يَنْدَثِرُ فَيَنحَلُّ تَرَكُّبُهُ . فإِيقانُنا بِأَنَّ عِقابَ اللهِ عادِلٌ وكامِلٌ وأَنَّهُ لِلنَّفسِ والجَسَدِ معاً يَحمِلُنا على التسليمِ بِأَنه لا بُدَّ من عَودَةِ النَّفسِ والجَسَدِ الى الانضمامِ مَعاً لِكَي يَجرِيَ عَلَيهِما عَدلُ اللهِ بِما استَحَقَّاهُ عَنِ اشتراكِهِما مَعاً في العَمَلِ الواحِدِ

وكَما يَستَحِقُّ الإِنسانُ العِقابَ عَلَى سَيِّءِ العملِ مَسوقاً مِنهُ الى اللهِ تَعالَى. يَستَحِقُّ الثَّوابَ على جَيِّدِ العَمَلِ أَمامَ اللهِ. وهٰذا الثَّوابُ يَجِبُ أَن يَكونَ غيرَ محدودٍ ، لِأَنَّ العَمَلَ مُوَجَّهٌ إِلَى اللهِ غيرِ المَحدودِ . وَإِذا كانَ المُسيءُ يَنهَضُ بَعدَ مَوتِهِ وَيَنضَمُّ جَسَدُهُ ونَفسُهُ معاً ، ويُجازَى بِما هُوَ أَهلُهُ مَن

عقوبةٍ . فبالأحرى أن ينهضَ المُحسنُ بعدَ موتِهِ بالجسَدِ ، فيَعودَ جسدُهُ منضمًا الى نفسِهِ ، ويَحظى بالثوابِ على عمَلِهِ الحسَنِ

فالأبرارُ والأشرارُ جميعاً سينهضُونَ ليأخُذَ كُلُّ واحدٍ جزاءً على ما قدَّمَهُ من خيرٍ أو شرٍّ . وهذا الجزاءُ لا ينفدُ لَه ينبوعُ ولذلكَ هُوَ خالدٌ

فالإنسانُ في كُلِّ عمَلٍ يصدُرُ منهُ يمشي خطوةً او خطَواتٍ إلى الخُلودِ . ويعمَلُ في ذلكَ على مقدارِ استنارةِ عقلِهِ . ولذلكَ نجدُهُ إذا كانَ حكيماً مُكبًا على استخراجِ أقوالِ الحكمةِ من معادنِها . رغبةً في أن يكونَ لَهُ أجرٌ عن جُودةِ نتائجِها . إذا جاءَ عمَلُهُ على مُقتضى ما هدَت إلى اتّباعِهِ . ولَهُ أيضاً عن كُلِّ عمَلِ ممَّن يأتمُّ[1] بقولِهِ الحكيمِ أو بعملِهِ الصالحِ أجرٌ ولا يقَعُ حصرٌ عندَ الناسِ لعَدَدِ الَّذينَ يَرَونَ قولَهُ سَديدًا ؛ ويعملونَ بهِ ، ومَن يقتدُونَ بهِ وبِهِم عصرًا عقيبَ عصرٍ .

---

(١) يستضيءُ

ولنَضرِبْ لِذلِكَ مَثَلاً . جَدوَلَ الضَّربِ الذي وضَعَهُ فِيثاغورُسُ الفَيلسوفُ اليُونانيُّ . وَقَد جرَى الناسُ عَلَى استِعمالِه من عَهدِ وَضعِهِ ذلِكَ الجَدوَلَ إِلَى الآنَ . فانتَشَرَ فِي أَقطارِ الدُّنيا ، ولا يَقَعْ عَدَدُ مُستَعمِليهِ فِي ما مَضَى والآنَ وَفي المُستَقبَلِ تحتَ حَصرٍ ، بَل لا يَقَعُ حَصرٌ لاستِعمالِ الإِنسانِ الواحِدِ إِيَّاهُ فِي مَدَى حَياتِه ، بَل فِي مَدَى سَنَتِهِ بَل فِي مَدَى شَهْرِهِ[1] . فَهٰذا الفَيلسوفُ أَحسَنَ إِلَى كُلِّ إِنسانٍ استَخدَمَ جَدولَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ احتاجَ إِلَى استِعمالِ هٰذا الجَدوَلِ فَكَم جائزَةً تَحِقُّ لَهُ مِنَ الإِنسانِ الواحِدِ وما دامَ هذا الاستِخدامُ لا حَدَّ لَهُ فالثَّوابُ عَنهُ لا حَدَّ لَهُ فَبالأَولى أَن يَكونَ ما يَحِقُّ لَهُ ثَواباً مِنَ الناسِ الذينَ استَعمَلوا جَدولَهُ وهُم لا حَدَّ لهم لا حَدَّ لَهُ . والَّذي جاءَ في عَمَلِهِ أَن يَستَوفِيَ ثَواباً لا حَدَّ لَهُ يَكونُ وُجودُهُ لا يَستَنفِدُهُ حَدٌّ . فَإِذَن يَقتَضِي أَن يَكونَ لَهُ وُجودٌ خالِدٌ

---

(١) ليس ذلك عن ان العدد يقصر عن العد فان العدد لا نهاية له ولكنَّ الذاكرة الانسانية تنسى ان تَعُدَّ ما يجب ان يُعَدَّ

وَيجبُ أَن يُعلَمَ أَن قولَنا أَنَّ عمَل الإنسانِ الذي لا حَدَّ لَهُ إِنَّمَا ذٰلِكَ بِمُقتَضى عِلمِ الإنسانِ. أَمَّا بِمُقتَضى عِلمِ اللهِ فَكُلُّ شيءٍ محدودٌ عندَهُ وما من ذَرَّةٍ في الأَرض أَو في السَّماء الاَّ مَعلومٌ لَدَيهِ كُلُّ أَمرِها

وابنُ آدمَ الَّذي أَوجَدَ بِفَتكِهِ بأَخيهِ غيلةَ القتلَ، قد صارَ مُدَرِّبًا لِكُلِّ فاتِكٍ مُغتال. ولَهُ على هٰذا التَّدريبِ ما يَستَحِقُّهُ مِنَ العُقوبةِ عَن كُلِّ عَمَلٍ صَدَرَ مِمَّن تَتَبَّعَ طَرِيقَتَهُ الأَثيمةَ. ولا رَيبَ في أَنَّ عَدَدَ أَتباعِهِ غيرُ محدودٍ فَما يَستَحِقُّهُ عقوبةً عَن تَدريبِهِ لَهُم غيرُ مَحدودٍ. فالعُقوبةُ الخالِدةُ لِمَنْ وُجودُهُ خالِدٌ. فاقتَضى العَدلُ أَن يكونَ ذٰلِكَ القاتِلُ خالِدًا لِيُدرِكَهُ عِقابُهُ وَفاءً

فالإِنسانُ مُحسِنًا أَو مُسيئًا، يَقتَضِي أَن يكونَ وُجودُهُ خالِدًا. إِمَّا لِثَوابٍ أَو عِقابٍ وهٰذا ما يَدعونا إِلَى أَن نُحسِنَ العَمَلَ ونَتَجَنَّبَ الإِساءَةَ

فطهرُ النفس مصدر كل نعمى   تنيل كرامة يوم النشورِ
فاستُ لمطلب الشهوات ارضى   عقاب الله يخلد للدهورِ

الفَصلُ العُشرُونَ

بَينَ اللهِ الخالقِ والانسان المخلوقِ سفراءُ همُ الهداةُ المرْسَلونَ مِنْ قِبَلهِ

لِلإِنسانِ بَداءَة وُجودٍ فيتَكوَّنُ جَسَدُهُ من جَسَدَي أَبَوَيهِ ونَفسُهُ من نَفسَيهِما ولَهُ يَومُ وِلادةٍ مُعَيَّنٌ في كِتابِ حِكْمَةِ اللهِ والعَقلُ الإِنسانيُّ يَعرفُهُ متى عَرَفَ يَومَ حُدوثِ بَداءَةِ التَّكوُّن بِناءً عَلَى استِقراءِ أَنَّ مُدَّةَ الحَمْلِ تِسعَةُ شُهورٍ فالحَدُّ موجودٌ على الإِنسانِ إِذ لَهُ بَداءَةُ وُجودٍ ومادَّةُ وُجودٍ وعُمرٌ محدودٌ وطُولٌ محدودٌ وعَرَضٌ محْدودٌ وهلُمَّ جَرًّا . وكلُّ ذلِكَ واضِحٌ كلَّ الوُضوحِ وَلَهُ أَيضاً عَقلٌ محدودٌ وقُوَّة محدودةٌ فَلا بُدَّ لِقُواهُ الحِسيَّةِ وغَيرِ الحِسيَّةِ مِنَ الوُقوفِ عِندَ حَدٍّ محْدُود

وَبِما أَنَّ ما يَستَحِقُّهُ من ثَوابٍ عَلى جُودَةِ عَمَلٍ وعِقابٍ عَلى إِساءَةِ عَمَلٍ غيرُ محدودٍ فاقتَضَى لَهُ أَن يكونَ لَهُ وُجودٌ يَمْتَدُّ إِلى زَمَنٍ غَيرِ محدودٍ عَلى مِقدارِ امتِدادِ ما حَقَّ لَهُ من ثَوابٍ أَو حَقَّ عَلَيهِ مِن عِقابٍ فَهذا الامتِدادُ في الزَّمَنِ

إلى ما حدَّ له مكتسب من عدل الله تعالى وقدرته لا لأنَّ الإنسان له ذلك الامتداد من نفسه. فالإنسان يحظى من لدن الله تعالى بوجوده وبامتداد وجوده الى مالانهاية زمان له ومن يعط من عنده شيئاً فلاشك أنَّ ما أعطاه هو له بوجه أولى. فلله إمتداد وجود إلى مالانهاية له فهو قبل بداءة الوجود ولانهاية وجود له فهو الأزلي الابدي

ولكي يستحق الإنسان الوجود الخالد في نعمة أو نقمة اقتضى أن يعمل ما يستورد له النعمة أو النقمة. وهذا العمل يكون بإرادة الإنسان لأنَّ العمل بمقتضى الإرادة هو الذي تبنى عليه المكافأة. فاستلزم إعداده للمكافأة أنَّه أعطي حرّية إرادة أي انه معطى أن يتصرَّف بإرادته كما يشاء فيقبل على الشيء أو يعرض عنه على ما يحسن في عينيْ عقله فانَّه قد خلق حرَّ الإرادة في دنياه ليتمكَّن بحرّيَّة إرادته أن يستورد لنفسه الوجود الخالد الَّذي ينبغي له الحصول عليه

وَالشَّيْءُ الذِي يكونُ وَسيلةً لِشَيءٍ آخر سِواهُ يَجبُ أَن يكون مُنتَهِياً فإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَنتَهِ فلا وُصُولَ الى سِواهُ . ولِذلِكَ كانَ لا بُدَّ مِنَ الوْصولِ الى الوُجُودِ الخالِدِ مِن وُجودٍ غيرِ خالِدٍ.فَالإِنْسانُ يُوجَدُ أَوَّلاً في دُنيا زائِلةٍ وَعَنْ وْجودِهِ بها يَتَوصَّلُ إِلى وُجودٍ لا زَوالَ لَهُ. و بِعِبارةٍ أَوضَحَ يَتَطَوَّرُ بُنيانهُ مِن زائِلٍ الى غيرِ زائِلٍ (١)

واقتِضاءُ وُجودِهِ في دُنيا زائِلَةٍ استَلزَمَ أَن يَكونَ مُرَكَّباً لِأَنَّ المُرَكَّبَ فَرعِيٌّ وكُلّ فَرعِيٍّ عائِدٌ إِلَى أَصلٍ فَالتَّركِيبُ يَلزَمهُ الانحِلالُ طَبْعاً لِأَنَّ البساطةَ أَصلٌ ولا يَكونُ الاصلِ وفرعِهِ مُساواةٌ في كُلّ شَأْن فَإِنَّ التَغايُرَ يَأْتي عَنهُ افتِراقٌ ما . فالمُرَكَّبُ قابِلٌ لِلانحِلالِ فَيعودُ إِلَى انفِرادِ كُلِّ جُزءٍ من أَجزائِهِ عَلَى حِدَةٍ وإِنْ لم يَقَعْ ذلِكَ فِعلاً فَهُوَ مُعرَّضٌ لِلوُقوعِ فِعلاً . والمُفرَدُ لا انحِلالَ لَهُ فِعْلاً ولا يُتَصوَّرُ لَهُ انحِلالٌ فِعلاً فَلَو أَمكَن أَن يَنحَلَّ فِعلاً أَو قُوَّةً لَكانَ مُرَكَّباً . ولِأَنَّ الإِنسانَ ذونفسٍ وروحٍ وَجَسَدٍ فَهُوَ

---

(١) هذا بالنسبة الى الجسد اما النفس فنسمة خالدة

مُرَكَّبٌ وكُلُّ مُرَكَّبٍ قابلٌ للإنحلال . وبما أَنَّ الجَسَدَ ترابيٌّ فالجَسَدُ يَطلُبُ أَن يَعودَ تُراباً . وبما أَنَّ الروحَ نِظامٌ لحفظِ الجَسَدِ التُّرابيِّ نامياً فبانحلال الجَسَدِ يَنحَلُّ نِظامُهُ أَيضاً أَو بتَوَقُّفِ ذلكَ النظام يَنحَلُّ ذلكَ الجَسَدُ . وبما أَنَّ النَّفسَ ذاتَ الإِدراكِ قُوَّةٌ حَيَّةٌ تعملُ ماهُوَ خالِدٌ بالنِعمةِ وبالعَدلِ فَهيَ خالِدَةٌ بالنِعمةِ اي باستِحقاقِها الثَّوابَ او بالعَدلِ أي باستِحقاقِها العِقابَ

ولِكَي تَستَهدِيَ النَّفسُ في سَيرِها سَوِيًّا فَتَعمَلَ ما يُوجِبُ لَها ثَواباً أَو يَصونُها من العُقوبَةِ أَوجَدَ اللهُ لها إِنارَةً فعَلَّمَها ما يُؤَمِّنُها مِنَ الهَلَكَةِ ويُخَوِّلها النَّعيمَ إِذا تَبِعَتْهُ وذلِكَ بأَنَّهُ وَضَعَ في النَّفسِ شَرعاً يَدعُوها إِلَى الخَيرِ ويَنهاها عَنِ الشَرِّ وَهُوَ المُسَمَّى شَرعَ الضَّميرِ او شَرعَ الوِجدانِ . فَإِنَّ المُحسِنَ عَمَلاً يُسَرُّ بعَمَلِهِ وَإِنْ لَم يَأْخُذْ عَنهُ ثَواباً من أَحَدٍ . لأَنَّ شُعورَهُ بأَنَّهُ أَحسَنَ عَمَلاً يُنعِشُ نَفسَهُ . كما أَنَّ المُسِيءَ عَمَلاً يُقَرِّعُهُ(١) شُعورُهُ بالإِساءَةِ فَلاَ يَنتَعِشُ نَفساً

---

(١) يلومه بشدة

بَل يَكونُ كَمِدًا وإِنْ لَمْ يَرِدْ إِلَيْهِ مِن أَحَدٍ لَومٌ وَلا عَتْبٌ وهذا الشَّرعُ كانَ ومَا زالَ سارِيًا في كُلِّ نَفسٍ ولِذلِكَ نَجِدُ النَّصَّ عَن أَن آدَمَ فَقَدَ البَهجةَ حالَما ارتَكَبَ المَعصِيَةَ فأَدرَكَتهُ طائِلَةُ الكَمَدِ قَبلَ أَن يَقِفَ لِيؤَدّيَ عَن عَمَلِه جَوابًا . والشَّرعُ الَّذي سَرَى عَلَى الأَبَوينِ الأَوَّلَينِ لا يَزالُ سارِيًا عَلَى كلِّ فَردٍ من ذَرارِيهِما

وَزادَها اللهُ عَلى هذا الشَّرعِ الكَريمِ شَرْعًا آخرَ أَرسلَ بِهِ الهُداةَ الصالِحينَ حَضًا عَلى المَبَرَّةِ ونَهيًا عَنِ الإِساءَةِ فَإِنَّهُ خَوَّلَ مَنِ اصطَفاهم أَن يَدعُوا الناسَ إِلى اتِّباعِهِم في سبيلِ الهُدى ويُوضِحوا لَهم أَنَّ مَن اعتَنَقَ الإِيمانَ الذي بِهِ أُرسِلُوا لا يَجهَلُ طالحًا فَيَجتَنِبَهُ ولا يَضلُّ عن صالحٍ فيُقبِلَ عليهِ وعن اجتِنابِهِ الطالحَ وإِقبالِهِ عَلى الصالِحِ إِحرازُ خَيرِ الدُّنيا ونَعيمِ الآخرة

ولكي يكونَ كلُّ مَن أَقبَلَ عَلى استِماعِ أُولئِكَ الدُّعاةِ أَمينًا من صِحَّةِ تِلكَ الدَّعوةِ فلا تُخامِرُهُ شائبةٌ بإِجابَتِها خَوَّلَ أُولئِكَ الدُّعاةَ أَن يُجرُوا ما يَخرِقُ حُدودَ النِّظامِ

الَّذي وَضَعَهُ لِلطَّبيعةِ فكانت وما زالت تجري عليهِ فيُبَرهِنُ ذٰلِكَ الخَرقُ الذي يُبرِزُهُ الداعي أَنَّهُ أُعطِيَ سُلْطانًا مِمَّن وَضَعَ ذٰلِكَ النِّظامَ حَتَّى يُوقِفُ ذٰلِكَ النِّظامَ عَن سَيرِهِ القانونيِّ وهٰذا الايقافُ دَليلُ كرامتِهِ عِندَهُ تَعالى ولا يكونَ الكَريمُ عِندَهُ الاَّ صادِقًا في قَولِهِ طاهِرًا في عَمَلِهِ . وصِدقُ القَولِ وطَهارةُ العَمَلِ يستلزمانِ أَن يُتابَعَ صاحِبُهُما . فَصَنَعُ رجالُ الدِّينِ الحَقِّ المُعْجزاتِ يَرُدُ تَثبيتًا لِدَعواهم أَنَّهم يَتَكَلَّمونَ من قِبَلِ الخالِقِ لا من عِندِ أَنفُسِهم فتَحريمُ ما يُحَرِّمونَهُ وتَحليلُ ما يُحَلِّلونهُ صادِرٌ مِنَ الخالِقِ لا منهم

وهٰذِهِ المُعجِزاتُ صادرةٌ عَلى وَجهَينِ الأَول حِسِّيٌّ أَي يُدرَكُ بِالحَواسِّ الخَمسِ وأَنواعُهُ كَثيرةٌ فان موسى حِينَما بَعَثَهُ اللهُ الى بني اسرائِيلَ في مصرَ أَيَّدَهُ بِمُعجِزَتَينِ الأُولى أَن يَطرَحَ عَصاهُ فَتَصيرَ حَيَّةً تَسعَى . والثانيةُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ في عبِّهِ وَهيَ سليمةٌ فيُخرِجَها بيضاءَ عن غيرِ سوءٍ أَي برصاءَ ثم يَضَعَها ثانيةً وَهيَ بَرْصاءُ ويُخْرِجَها فإِذا هِيَ سَلِيمَةٌ . وأَيَّدَهُ بِمُعجِزاتٍ أُخرى في مصر . وبَعدَ خروجهِ

بِبَنِي اسرائيلَ من مِصرَ فَلَقَ البَحْرَ الأَحمَرَ بِعَصاهُ وأَجازَ فيهِ بني اسرائيلَ دُونَ بَلَلٍ وأَخرَجَ الماءَ مِنْ صَخْرٍ، وجَعَلَ الأَرْضَ تَفْتَحُ فاهَا وتَبْتَلِعُ مَن عاداهُ إِلى غير ذٰلِكَ من المُعْجزاتِ العجيبةِ

وصَنَعَ يَشوعُ خَلَفُ مُوسى مُعجِزاتٍ أُخْرى . فأَوقفَ نَهرَ الأُرْدُنّ كما أَوقَف مُوسَى ماءَ البَحرِ الأَحْمَرِ . وأَسقَطَ سُورَ مَدينةِ أَرِيحا بِتَبْوِيقِ الكَهَنَةِ . وأَوْقَفَ الشمسَ عَن مَسيرِها

وأَنزَلَ إِيليَّا نارًا من السَّماءِ على الذَّبيحةِ الَّتي قدَّمَها لِلّهِ وأَنْزَلَ النارَ أَيضاً فأَحرَقَتِ الَّذين كانوا يُريدونَ أَن يُوقعوا عليهِ شَرًّا

ومُعْجِزاتُ المسيحِ أَشهرُ من أَن تذكَرَ

ويَروِي المسْلِمونَ لِمُحَمَّدٍ مِثلَ هٰذِهِ المُعجزاتِ بأَنَّهُ أَطعَمَ بِقَليلٍ من الخُبزِ وقَصعةٍ كثيرينَ وأَنبعَ الماءَ من إِصبعَيهِ وَتفَلَ في عيَنَي عَلِيِ بنِ أَبي طالبٍ وَهُوَ أَرمدُ فزالَ رَمَدُهُ حالاً

والثاني عقليٌّ يُدرَكُ بالعقلِ أنَّهُ دليلٌ على أنهُ واردٌ من قِبَلِ اللهِ كما أَورَدَ موسى بياناً عن خلقِ الكائناتِ بترتيبٍ لم يستطعِ العلمُ أن يعارضَهُ بلِ اتخذَهُ هادياً أميناً. وكما وردت نبوّاتٌ عمّا سيقعُ قبلَ زمنِ الوقوعِ بمدًى طويلٍ ثم جاءَ المحكيُّ عنهُ على ما نصّت عليه النبوّةُ فقد تنبّأَ أحدُ الأنبياءِ في عهدِ يربعامَ ملك اسرائيل (سنة ٩٧٥ ق : م) أنهُ سيولَدُ لبيتِ داودَ ولدٌ اسمهُ يوشيّا يذبحُ كهنةَ الأوثانِ فتمّتِ النبوّةُ (سنة ٦٣٤ ق : م) اي بعد ٣٥١ سنة . وقد تنبأَ كثيرٌ منَ الأنبياءِ على مُدُنٍ كثيرةٍ فتمَّ في ما بعدُ مصداقُ النبوّةِ

وأهلُ الإسلامِ يعتقدونَ أنَّ صاحبَ الرسالةِ الاسلاميَّةِ أَورَدَ حديثاً مفادُهُ أنَّ الحسنَ ابنَ عليٍّ السبطَ سينزلُ عن خلافةِ المسلمينَ وأنَّ معاويةَ سيلي أمرَ المسلمينَ وأنَّ الحسينَ ابنَ عليٍّ السبطَ سيُقتلُ في كربلاءَ وأمثالُ هذهِ الشؤونِ تستغرقُ مجالاً واسعاً فيُكتفى بما ذُكِرَ

واقتناعُ الناسِ في قبولِ الدعوةِ متغايرُ الأبوابِ

فالإسرائيليون في عهد الحواريين (تلاميذ المسيح) كانوا يطلبون آية اي معجزة يدركونها بالحس ليؤمنوا وأما اليونانيون فكانوا يطلبون حكمة أي إقناعًا عن طريق العقل لا عن طريق الحس

فلم يأت نبي بلا معجزة ولكن للمعجزات وجوهًا عديدة . فضلًا عن أن الانبياء كانوا على أعظم جانب من التقوى والإقبال على الصلاح واجتناب السوء في قول وعمل فمن لم يكن في تقوى الله وعمل الصالحات وجودة الأخلاق على أكمل الوجود فلا يمكن أن يكون نبيًا فمن شروط النبوة طهر القلب وجمال السيرة ومكارم الاخلاق

الفصل الحادي والعشرون

سعادة الآخرة تستلزم سعادة دنيوية سابقة لها

إذا أريد بناء طبق أعلى في منزل فلا بد من أن يكون مسبوقًا ببناء طبق أسفل أولًا * وإذا أردنا أن يكون

بُنيانُ الطَّبَقِ الأعلى مُحْكَماً وَجَبَ أَن نَبنِيَ الطَّبَقَ الأَسفَلَ مُحكَماً فَإِنَّ العَقلَ السَّليمَ يُسَلِّمُ أَنَّهُ لا يَقومُ بُنيانٌ وَطيدٌ عَلى أَساسٍ مُتَداعٍ

واذا أَرَدنا أَن نَجنِيَ غِلالَ حِنطةٍ جيِّدةٍ اقتَضى أَن نَنتَخِبَ أَوَّلاً بِذاراً ذاتَ جُودَةٍ فَإِنَّ جُودَةَ الأَرضِ لا يُمكِنُها أَن تَجعَلَ لِلبِذارِ الرديئَةِ غَلَّةً جَيِّدةً . وكَذلِكَ شَأنَ الأَشجارِ فَعَلَينا أَن نَعنَى بانتِخابِ الشَّجَرةِ جيِّدةً لِكي تُعطِيَ ثَمَراً جَيِّداً

واذا أَرادَ رَجلٌ أَن يَحظَى من نِعمةِ مولاهُ بأَولادٍ صالِحينَ يَنبَغي لَهُ أَن يَختارَ لِنَفسِهِ زَوجةً ذاتَ عقلٍ سليمٍ وأَخلاقٍ كريمةٍ وصِحَّةٍ جَيِّدةٍ فالجَيِّدُ لا يَكونُ إِلاَّ عَن جَيِّدٍ

وهذا المَبدأُ الوارِدُ في الكُتُبِ المُنزَلَةِ واعتَرَفَ بِصِحتهِ الحكماءُ فورَدَ في أَقوالِهم .

قال زُهَيرُ ابنُ ربيعةَ المُزَنِيُّ

فَما يَكُ من خَيرٍ أَتَوهُ فإِنّما
تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبْلُ

وهَلْ يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلاّ وَشيجُهُ
ويُغرَسُ إلاّ في مَغارِسِهِ النَّخلُ

وقالَ ابو الأَسودِ الدُّؤَليُّ لأَولادِهِ أَحسَنتُ إِليكم قَبل ان تُولَدوا و بَعدَ ما وُلِدتُم فسأَلوهُ كيفَ أَحسَنتَ إِلَينا قَبلَ أَن نُولَدَ فاجابَ إِنَّني لم أَختَرْ إلاّ كُلَّ كَرِيمةٍ من قومٍ كِرام

فأَوَّلُ إحساني إِلَيكم تَخَيُّري
مُكَرَّمةَ الأَصلَينِ حُلوٌ مَقولُها(١)

وقالَ شاعِرٌ آخَرُ

لا تَنكَحَنَّ سِوَى كَرِيمةِ مَعشَرٍ
فالعِرقُ دَسَّاسٌ مِنَ الطَّرَفَينِ
أَوَ ما تَرَى أَنَّ النَّتيجةَ حُكمُها
تَبَعَ الأَخَسَّ مِنَ المُقَدَّمَتَينِ

وفي البيتِ الثاني مِن هٰذا الشاهِدِ إِشارةٌ الى أَنَّ هٰذا المَبْدَأَ واردٌ في علمِ المَنطِقِ الذي هُوَ عِلمُ مِيزانِ العُلومِ ومِعْيارِ المَعقولاتِ . وما هُوَ مَبدَأٌ مَنْطِقِيٌّ لا مُنازَعَةَ في

---

(١) للعجز من هذا البيت رواية أخرى

صِحَّتِهِ . ومُقْتَضَى ذٰلِكَ المَبدَإِ أَنَّ الخِسَّةَ (١) إِذا دَخَلَت في إِحدَى مُقَدَّمَتَي القِياسِ فَلا تَخلُو النَّتيجةُ من الخِسَّةِ فعن دُخولِ نفي نتيجةٌ مُتَضمِنةٌ نَفياً . وعن دُخولِ تَبعيض نَتيجةٌ مُتَضمِّنَةٌ تَبعيضاً (٢) فالجُودَةُ التي هِيَ إِيجابٌ وعُمومٌ تَطلُبُ الجُودَةَ لَفظاً وحُكماً . فَإِنَّ النتائِجَ الجَيِّدَةَ لا تكونُ إلاَّ عَن أُصولٍ جَيِّدَةٍ

والمُعتَنونَ بِنَتاجِ الحَيَوانِ يُراعُونَ هٰذا المَبدَأَ . فلا يَسْمَحونَ بأَن يَقترِبَ فَحلٌ غَيرُ كَريمٍ مِن أُنثى من نَوعِهِ ذاتِ أَصلٍ كريمٍ فاذا طَمَحت نَفسُهُ اليها صُدَّ عَنها وضُرِبَ أَنفُهُ دُونَها حَتَّى يَتَضَرَّجُ بِالدَّمِ وإِلى ذٰلِكَ أَشارَ المُهَلهِلُ

---

(١) يعد المنطقيون النفي والتبعيض خسة فالنفي مثل ليس كلما كان الانسان قارئاً كان كاتباً والتبعيض مثل بعض الحي انسان

(٢) مثال ذلك في النفي لا شيء من الحجر بانسان (مقدمة أولى) وكل انسان ناطق (مقدمة ثانية) فلا شيء من الحجر بناطق (نتيجة) فان وجود النفي في النتيجة جاء عن وجود النفي في المقدمة . ومثال التبعيض بعض الانسان كاتب بالفعل (مقدمة اولى) . وكل كاتب بالفعل قارئ بالفعل (مقدمة ثانيـة) فبعض الانسان قارئ بالفعل نتيجة فورد التبعيض في النتيجة عن ورودهِ في المقدمة

عَدِيُّ ابن ربيعةَ التغلبيُّ وَقَد أُرغِمَ عَلى أَن يُزَوِّجَ ابنَتَهُ بغيرِ كُفْءٍ لها لغُربتِهِ وضعفِ ناصرِه

أَنكَحَها فَقدُها الأَراقِمَ في
جنبٍ وكانَ الخباءُ من أَدَمِ (١)
لو بأَبانَينِ جاءَ يَخطُبُها
ضُرِّجَ ما أَنفُ خاطبٍ بِدَمِ (٢)

فالمَبدأُ الَّذي سَلَّمَ بِصِحَّتِهِ كلُّ ذي مَلَكَةٍ في شأنٍ علِمي وزراعي واجتماعيّ وأَخلاقيّ مَبدأٌ لا وَجهَ لِلاعتِراضِ عَلَيهِ وقد قَبِلَ الناسُ بِهِ قديماً والآنَ وسيكونُ مَقبولاً في الغَدِ أَيضاً فهُوَ ولا رَيبَ صَحيحٌ ويَجبُ أَن نَعتَرِفَ بِصِحَّتِهِ

---

(١) الاراقم حي من تغلب . والأدم اسم لجمع الاديم اي الجلد والخباء الخيمة وكونها من ادم دليل الفقر . وجنب اسم

(٢) ابانين مثنى ابان والاصل ان ابان ومتالع جبلان متجاوران وقد ثناهما تغليباً من باب تسمية العمرين لابي بكر وعمر رضي الله عنهما والذي يؤكد ذلك قول لبيد العامري : عفت المنا (اي المنازل) بمتالع فأبان . وابان ومتالع موطنان لبني تغلب اي لو كانت في قومها لما تزوجت به لانها رفيعة الشأن وهو منحط الشأن

وَبِناءً عَلى ذٰلِكَ يُقالُ أَنَّ الوُجودَ الخالِدَ طَورٌ يَعقُبُ طورَ الوُجودِ الزائِلِ فَهُوَ ثَمرَةٌ تُستَغَلُّ مِن شَجرةٍ وغَلَّةٌ ناجِمةٌ في تُربةٍ عن بِذارٍ ونَتيجةٌ عَن اقتِضاءٍ سابِقٍ فَلا بُدَّ أَن يَسبِقَ الوجودُ الزائِلُ السعيدُ الوجودَ الخالِدَ السَّعيدَ . فَسَعادَةُ الآخِرَةِ قد استَلزَمَتها سَعادةُ الدُّنيا . واذا كانَ الوجودُ الزائِلُ غَيرَ سَعيدٍ فلا يُعطِي الاَّ وُجودًا دائِماً غَيرَ سَعيدٍ . فإِنَّهُ لا يُمكِنُ لِشَجَرةٍ جَيِّدةٍ أَن تُعطِيَ ثِمارًا رَدِيئَةً ولا لِشَجَرةٍ رَدِيئةٍ أَن تُعطِيَ ثَمرًا جَيِّدًا

وَمِنَ الواجِبِ أَن نَذكُرَ أَن السَّعادَةَ لَيستِ القُوَّةَ ولا الثَّروَةَ ولا العِلمَ الدُّنيَوِيَّ ولا الوَجاهةَ ولا الصِّحَّةَ فَكُلُّ هٰذِهِ الأَشياءِ لا تُعَدُّ سَعادةً . وإِنَّما السَّعادةُ عَمَلٌ تَرتاحُ النَّفسُ إِلى أَنَّهُ يَنيلُ رِضى الخالِقِ . فالفَقيرُ الجاهِلُ العُلومِ الدُّنيَوِيَّةِ الصَّعلوكُ العليلُ يَستَطِيعُ أَن يَكونَ حاصِلاً على السَّعادَةِ بِتَتميمِهِ ما يَرضَى اللّٰهُ عن عَمَلِهِ . والقَوِيُّ الغَنِيُّ العالِمُ سَيِّدُ المَالِكِ الصَّحيحُ البِنيَةِ يَكونُ غَيرَ سَعيدٍ إِن كانَ عَمَلُهُ عادِلاً عَن نَهجِ الفضيلة. لِأَنَّ وِجدانَهُ لا يَرتاحُ

الى تِلكَ المَعيشةِ وَصوتَ أَحشائِهِ يُقرِّعهُ على مآثمِهِ

الفَصلُ الثاني والعشرون

النظامُ ضروري لِحفظِ وُجودِ الانسانِ

اللَّيلُ والنهارُ يتعاقبانِ كُلَّ يومٍ على سَواءٍ فإِن كانَ اللَّيلُ يَطولُ في الشِّتاء فإِنَّ النهارَ يَطولُ في الصَّيفِ. والفُصولُ الأَربعةُ تتعاقَبُ في السَّنةِ الواحِدَةِ فَتَردُ هكَذا رَبيعاً فَصيفاً فَخَريفاً فَشِتاءً لِكَي تُزهِرَ الأَشجارُ فَتُورِقَ وتُثمِرَ فَيَنضجَ ثمرُها بحرارةِ الشَّمسِ فيُجنَى. ثم تَخلَع الأَشجارُ أَوراقَها وتَستَندي السماءَ فَتَجودُها بِأَمطارِها فَتَعودُ إِلى الإِزهار

فَللطَّبيعةِ نِظامٌ تَجري عَلَيهِ ولا تَخرُجَ عَنهُ. وَقَد يَحدُثُ خُروجٌ عَنهُ فَتَقعُ مِن جَراء ذلِكَ جوائحُ من انتِشارِ أَمراض أَو إِمحالِ أَرْض أَو طُروءِ زَلزال أَو ثَوَرانِ بُركانٍ فَتَفدَحُ المَصائِبُ. فَإِنَّ خُروجَ الليلِ عن نِظامِهِ (لو وَقعَ) حَتَّى يأْخُذَ مِن مسافَةِ الوَقتِ أَكثَرَ مِمَّا تَعيَّنَ لَهُ حدًّا

نَتيجة خَلَل في نِظام الكائنات ولا يَعلَمُ مِقدارَ أَذاهُ إلاَّ اللهُ تَعالى

فَفي سنةِ ١٩٠٦ ب : م ظَهَرت عَلى مُحَيَّا الشمسِ كُلَفٌ عَدَّلت حَرارَةَ الشَّمسِ عَلى سَطحِ الارضِ تَعديلاً مُهِمًّا جَعَلَ كَثيرًا من الثَّلجِ يَترا كَمُ تَرا كمًا هائِلاً على أَحَدِ القُطبينِ الشماليِّ والجنوبي . فَحَدَثَ عَن ذٰلِكَ اختِلافُ الطَّقسِ فَفي سوريَّةَ كَثُرَتِ الأَمطارُ وفي الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الاميركيةِ قَلَّتِ الأَمطارُ وارتَفَعت درجةُ الحرارةِ عن مُعَدَّلِها في مِثلِ ذٰلِكَ العَهدِ في السِّنينَ الماضيةِ فَنَتَجَ عن ذٰلِكَ أَنَّ الكُرَةَ الأَرضِيَّةَ لَمْ تَدُرْ عَلى ذاتِها حَولَ الشَّمسِ دَوَرانًا تامَّ الانتِظامِ فَحَدَثت فِيها الاهتِزازاتُ والانفِجاراتُ . فَثارَ بُركانُ يزوفَ في إِيطاليا وأَلقَى حِمَمَهُ عَلى ما يُجاوِرُهُ وثارَ زِلزالُ كاليفورنيا في أَميركا فَهَدَمَ مَدينةَ سان فرنسيسكو[1]

---

(١) هذا الحادث الخطير قد أنشأت له كتاباً خاصًّا سنة ١٩٠٦ وطبعته في نيويورك تحت اسم كامنة شاعر في وصف خطب نادر

فالنِّظامُ ضَروريٌّ في كلِّ شَيْءٍ في أَكلٍ وشَربٍ ونَومٍ وعَمَلٍ والخُروجُ عنهُ وَخيمُ العواقِبِ . وما أَكثَرَ الذين يَتَسرَّعونَ إلى دارِ البقاءِ لإخلالِهم بالنِّظامِ أَو لجَريِهم على نِظامٍ غيرِ مُحكَمِ الوَضعِ كما لو جرَى أَحَدٌ على نِظامٍ لا يُعطي الجَسَدَ قِسطَهُ الكافِيَ منَ الراحة

وَقَد عرَفَ الانسانُ مُنذُ القديمِ أَن كلَّ شَيْءٍ لا بُدَّ لهُ من أَن يَتبعَ نِظامًا فَهُوَ يأْتي بنظامٍ ويَذهَبُ بنِظامٍ فإِذا طَرَأَ عليهِ ما لا يعرفُهُ تبصَّرَ بأَمرِهِ حَتَّى يَقِفَ على نِظامِهِ فإِذا وَقَفَ على نِظامِهِ هانت عَلَيهِ مُكافَحتُهُ لَوْ كانَ عَدُوًّا وأَحسَنَ استِثمارَ الفائدةِ بِهِ اذا كانَ صَديقًا

فَلِلريحِ التي تُسيِّرُ السَّفينةَ الشِراعيَّةَ بها نِظامٌ . ولِلنَّجمِ المُستَقِلِّ في أَوجِ السماءِ ويَهتَدي بهِ السارونَ لَيلًا نِظامٌ ولِلداءِ الذي يَعرُو الجَسَدَ نِظامٌ . فالنِظامُ ضارِبٌ ظِلالَهُ في ما يُحيطُ بالإِنسانِ وفي الإِنسانِ أَيضًا فَهُوَ يَتَدرَّجُ

فيه من الابحاث الطبيعية والادبية والاخلاقية والالمام بحضارة اميركا ما يفيد ويلذ لكل قارئ

بِنِظامٍ نُمُوًّا من نُطفَةٍ الى عَلَقَةٍ الى جَنينٍ فطِفلٍ فوَلدٍ فشابٍّ فرَجُلٍ ثُمَّ يَتَدَرَّجُ بِنِظامٍ الى كَهلٍ فَشَيخٍ فهَرِمٍ فَهِمٍّ. فالنِظامُ ضَروريٌّ لِبَقاءِ الإِنسانِ

وإذا كانَ النِظـامُ ضَروريًّا لِبَقاءِ الإِنسانِ فيكونُ أَوجَبَ داعٍ لِلنِظامِ تَعيينُ حَقِّ كُلِّ فَردٍ مِنَ الناسِ في ما يَحِقُّ لَهُ لِيَحفَظَ حَياتَهُ ولا يُعتَدَى عَلَيهِ ولا يَقَعَ مِنه اعتِداءٌ عَلَى سِواهُ. فَلا بُدَّ لِلإِنسانِ مِن أَن يَتَمَشَّى في أَعمالِهِ عَلَى نِظامٍ لا بَخسَ فيهِ ولا شَطَطَ يُوصِلُ كُلَّ عامِلٍ إِلَى حَقِّهِ مِنَ العَمَلِ ويُخَوِّلُهُ الحُصولَ عَلَى ثَمَرَةِ تَعَبِهِ في عَمَلِهِ ويَمنَعُ عَنهُ الحَيفَ في مَنعِهِ عَن حَقِّهِ مِنَ العَمَلِ او في مَنعِهِ عَنِ الحُصولِ عَلَى ثَمَرَةِ تَعَبِهِ في ذٰلِكَ العَمَلِ. فالنِظامُ العادِلُ الذي يُلزِمُ كُلَّ إِنسانٍ الوُقوفَ عِندَ حَدِّهِ القانونِيِّ يَجعَلُ كُلَّ إِنسانٍ مُتَمِّماً واجِباتِهِ وحائِزًا مُتَمَنَّياتِهِ المَشروعَةَ على الوَجهِ العادِلِ

الفصل الثالث والعشرون

الهيأة الحاكمة

لا يقوم عمل إلاّ بعمّال. فإذا رأينا العسل يؤتى به إلى السوق في أوان خزفية او زجاجية فإنّ قوّة الإدراك العقليّ تهدينا الى أنّ يدًا بشريّة استخرجته من خلاياه ووضعته في تلك الآنية أو أنّ تلك الآنية وضعت بيد بشريّة في خلاياه فصنع النحل عسله فيها. وذلك لأنّ النحل عاجز عن أن يصنع آنية من فخار او زجاج فيضع فيها شهده. وكذلك إذا رأينا فاكهة في سلال فاننا نقول أنّ يدًا بشريّة استخرجته من غصونه ووضعته في السلال

وإذا رأينا ثوبًا مخيطًا ذهب بنا الفكر الى أنّه كان اوّلاً قطعة واحدة ثم عملت يد في تحويله من قطعة واحدة الى قطع عديدة بمقتضى نظام. ثمّ وصلت يد أو أيد تلك القطع على مقتضى النظام الذي حوّلها من قطعة واحدة الى قطع عديدة. فكانت باتصالها معاً الفائدة

المَطلوبةُ من نَسجِها وتَقطِيعِها لِأَنَّها بَعدَ اتِّصالِها تَصيرُ ثوباً واحدًا يَفي بحاجةِ اللابِس

وَإِذا رَأَينا أَنَّ نِظامَ خِياطةِ الثَّوبِ لا يَقِفُ عَلَيهِ إِلاَّ مُتَخَصِّصٌ لَهُ كَما أَنَّ نِظامَ العِنايةِ بالأَشجارِ حَتَّى تَجودَ ثَمَرًا يَقتَضي إِحكامُهُ أَن يَتَخَصَّصَ أُناسٌ لَهُ . فلا بُدَّ لَنا مِن أَن نَقولَ : إِنَّ كُلَّ نِظامٍ في حاجةٍ الى مُتَخَصِّصينَ بِهِ . وبِما أَنَّ بَينَ أَنظِمَةِ الأَشياءِ تَفاوُتًا فَبَعضُها واضِحٌ سَهلٌ لِلفَهمِ إِدراكُهُ وبَعضُها دَقيقٌ عَسيرٌ على الفَهمِ إِدراكُهُ فَلا بُدَّ مِنَ القَولِ إِنَّ النِظامَ الأَدَقَّ يَستَلزِمُ بَحثًا أَوفى وَفَهمًا أَجزَلَ . فَنِظامُ فِلاحةِ الثَّرَى لا يَستَلزِمُ ذَكاءً لِفَهمِهِ بِمِقدارِ ما يَستَلزِمُ نِظامُ سَيرِ السَّيَّاراتِ في السَّماءِ ونِظامُ سَيرِ الداءِ في الجَسَدِ

والنِّظامُ الذي بِهِ يَعرِفُ كلُّ إِنسانٍ حَقَّهُ وكَيفَ يَصونُهُ مِن اعتِداءِ الآخرينَ عَلَيهِ هُوَ ولا رَيبَ مِنَ الدِّقَّةِ بِمَكانٍ فَهُوَ يَتَطَلَّبُ مُتَخَصِّصينَ أَكفاءً لَهُ تَمَيَّزُوا بِثُقوبِ الذِّهنِ ودَوامِ البَحثِ والقَولِ بالحَقِّ دُونَ تَهَيُّبٍ

وكلُّ شيءٍ يُرادُ حِفظُهُ لا بُدَّ من إيجادِ قوّةٍ تتولّى أمرَهُ فلا حِفظَ بدُونِ قوّةٍ فالإناءُ الذي يحفَظُ الماءَ لا غِنَى لَهُ عَن قوّةٍ لِيتَمكّنَ مِنَ الاحتِفاظِ بالماء . والقُوّةُ التي يتطلّبُها الإناءُ هِيَ قُوّةُ التّماسُكِ والتّلاصُقِ بَينَ أجزائِهِ فإذا كانت هٰذِهِ القُوّةُ مفقودَةً أو متغورةً كأَنْ يكونُ الإناءُ مُحطّماً أَو مثقوباً فَلا يَستَطِيعُ الإناءُ أَن يحفَظَ الماءَ

فالّذينَ يَتخصّصونَ بأَنْ يكونوا قوّامينَ على النّظامِ لا غِنَى لهم عن قُوّةٍ تُخوّلُهُم أَن يَقوموا بذٰلِكَ العَمَلِ حَقَّ القِيامِ . وهٰذِهِ القُوّةُ قُوّةُ اتّفاقِ الكَلِمةِ على نِظامٍ يُتّبَعُ في كلِّ أَمْرٍ دُنيَوِيٍّ . وَدَفعُ النّظامِ المُتّبَعِ إلى مَن يَزَعُ (١) بمُقتَضَى ذٰلِكَ النّظامِ . فالوازِعُ هُوَ أَوّلُ موجودٍ وهٰذا الوازِعُ هُوَ في الحَقيقةِ اللهُ تعالى كَما يُعَلّمُنا الدّينُ فاللهُ سَيّدُ الناسِ وَهُوَ يُؤَمِّرُ مِن قِبلِهِ تَوّاً أَو بالواسِطَةِ أَي بصَوتِ الشّعْبِ رَجُلاً يكونُ وازِعاً أَدنَى يَضُمُّ إِلَيهِ الذينَ

---

(١) الوزع في الاصل المنع ولكنه استعمل للحكم فشمل الامر والنهي معاً

يَرضاهم أَن يكونوا أَعوانَهُ فَيتَأَلَّفُ مِنَ انضمام هَؤُلاء الأَتباعِ إِلَيهِ هيأَةٌ تُدعَى الهَيْأَةَ الحاكمةَ . فَيُطلَقُ على الذينَ انقادوا إِلَيها اسمُ الهيأَةِ المحكومةِ أَو الشَّعْبِ أَو الرعيَّةِ أَو الامَّة

فالهيأَةُ الحاكمةُ لا بُدَّ لَها مِن مُتَقَدِّمٍ فيها وَهُوَ المَوضوعُ عَلَى رأْسِ العَمَلِ وإِلَيهِ مَرجعُ النَّظَرِ في تَطبيقِ العَمَلِ على مُقتَضَى النِّظامِ المُختارِ دُستورًا[1] لِلعَمَلِ . ومَجموعُ الهيأَةِ الحاكِمَةِ في كلِّ أُمَّةٍ يُمَثِّلُ طَبيباً قانونيًّا يُداوي العِلَلَ التي تَعرِضُ عَلَى الأَصِحَّاء لِإِزالَتِها ويُبَيِّنُ لِلأَصِحَّاء سُبُلَ التَّوَقِّي مِنَ العِلَلِ وَوُجوهَ استِزادةِ الصِّحةِ جُودةً . أَو هُوَ راعٍ حَكيمٌ أَمينٌ يَسهَرُ عَلى القَطيعِ الذي هُوَ الشَّعبُ لِيَدفَعَ عَنهُ شَرَّ الذِّئابِ الَّتي تَبغي افتِراسَهُ إِنْ وَجدت إِلى ذلِكَ سَبيلاً . ولا يَكتَفي بالسَّهَرِ فَيُضيفُ إِلَيهِ أَنَّهُ يَقتادُهُ إِلى المراعي الخَصيبةِ والمَناهِلِ الشَّهيَّةِ . أَو هُوَ أَبٌ رَؤُوفٌ يَعتَني بأَولادِهِ صِغارًا ويُدَرِّبُهم في

---

(١) القانون

شؤُونِ الحَياةِ كِبارًا ويُوعِزُ إِلَيهِم بِعَمَلِ ما يَرَونَ الخَيرَ لَهم وللآخرِينَ ثَمَرَةً عَنهُ ويَنهاهُمْ عَن عَمَلٍ ماعاقبتُهُ شَرٌّ فَيَجِبُ أَن يُمتَنَعَ عَنهُ

الفصلُ الرابعُ والعُشرونَ

لِلهيأَةِ الحاكِمَةِ رأسٌ

الواحِدُ أَساسَ العَدَدِ كُلِّهِ صَحيحاً وكَسْرًا . فَيَتَدَرَّجُ الصَّحِيحُ صُعُودًا بِانضِمامِ واحِدٍ إِلى واحِدٍ فعَن انضِمامِهِما اثنانِ . وعَن انضمامِهما الى واحدٍ ثلاثةٌ ويَقَعُ الانضِمامُ الى ما لانهايةَ لَهُ صُعُودًا في العدَدِ الصَّحيحِ . ويَتَدَرَّجُ الكَسْرُ مِنِ انقِسامِ الواحِدِ الى قِسمينِ مُتساوِيَينِ فيكونُ النِّصفُ وإِلى ثلاثَةِ أَقسامٍ مُتَساوِيَةٍ فيكون الثُلْثُ وتَقَعُ التَّجزِئَةُ عَلَى هٰذا النَّحوِ الى ما لانِهايَةَ له في العَدَدِ الكَسر

فأَساسُ العَدَدِ كلِّهِ الواحِدُ ولا يَصِحُّ أَن نَتَصَوَّرَ وُجودَ عَدَدٍ ما إِلاَّ اقتَضَى تَصَوُّرُهُ عَنِ الواحِدِ وأَنَّ هٰـذا الواحِدِ فيهِ مَوجودٌ حقيقةً أَو ضِمناً فَإِنِ امتَنَعَ أَن يُتَصَوَّرَ الواحِدُ

فَلاَ عَدَدَ بَتَّةً لا صحيحاً ولا كَسْرًا

ومثالُ الواحدِ في وُجُودِ العَدَدِ مِثالُ الاب في وجُودِ العائلةِ ذاتِ الأَعضاء المُتَعَدّدَةِ .فَلا بُدَّ مِن التَّسليمِ بوُجودِ أَبٍ هو أَساسُ العائلةِ كُلِّها فهُوَ الذي يَختارُ أُنثى زَوجةً يَدعوها إِلى مُشارَكَتِه في شُؤُون الحياةِ وعَن قَبولِها وانضِمامِها إِلَيهِ نَيلُهما بَرَكَةُ الخالِقِ فيُنعِمَ عَلَيهما بالبَنِينَ والبَناتِ . فلا يَكونُ لعائلةٍ وُجودٌ اذا لم يكن لها أَبٌ فَعَنِ الأَبِ البَنونَ فَوُجودُ البَنِينَ يَستَلزِمُ وُجودَ الأَبِ وهذا الوُجُودُ يَعرِضُ عَلَيهِ أَمرانِ امَّا أَن يَبقَى الأَبُ موجودًا فِعلاً (ما دام في قيد الحياة) او يكونَ موجودًا حُكماً (متى لَحِقَ بِرحمةِ رَبِّهِ) فَفِي قَولِنا مَثَلاً الاسرَةُ الهاشِمِيَّةُ تَسليمٌ بوُجودِ أَبٍ اسمُهُ هاشِمٌ لَهُ بَنونَ وما قَولُنا القَبيلَةُ التَغلبيةُ إِلاَّ تَسليمٌ بوُجودِ أَبٍ اسمُهُ تَغلِبُ . وما قَولُنا الأُمَّةُ المصريَّةُ إِلاَّ تَسليمٌ بوجودِ أَبٍ اسمُهُ مصرايِمُ وما قَولُنا بالآدميةِ الاَّ رُجوعٌ إِلى وُجودِ أَبٍ اسمُهُ آدمُ هُوَ أَبٌ لِكُلِّ إِنسانٍ

فكُلُّ مُتَعَدِّدٍ لا بُدَّ لَهُ مِن فَردٍ هُوَ مِنهُ بِمَثابةِ الأَساسِ من البناء فلا يَكونُ تعَدُّدٌ فِعلاً او تَصوُّرًا إلاَّ إذا كانت فَرِدِيَّةٌ . ولكِنَّ الفردِيةَ لا تَستَلزِمُ تَعَدُّدًا فإنَّ جِرْمَ الشَّمْسِ واحِدٌ وفِيهِ الكَفايةُ لإِضاءَةِ الكائنات عَلَى أَنَّ الفَرديَّةَ لا تُنافِي ان يَكونَ عَنها تَعَدُّدٌ إذا قامَ دَلِيلٌ على قَبولِ مَبدَإِ التَّعَدُّدِ كما يُسَلِّمُ العَقلُ بأَنَّ طِفلاً في مَهدِهِ إذا حاطَتهُ رَحْمةُ رَبِّهِ يَنمو فيَصيرُ أَساساً لعائِلَةٍ ذاتِ أَفرادٍ عَدِيدينَ . فَإِنَّ العَقلَ لا يَرَى ذٰلِكَ مُمْتَنِعاً . وَهُوَ يُشاهِدُ هٰذا الأَمرَ عِياناً كُلَّ يوم

وحُكمُ مَبدإِ أَنَّ الفَردَ أَساسُ التَّعَدُّدِ غيرُ مُقتَصِرٍ على المحسوساتِ فَهُوَ يَسرِي أَيضاً عَلَى المَعقولاتِ فإذا أَرَدنا أَن نُعَلِّمَ أَحَدًا عِلماً ما تَدَرَّجنا في تَعلِيمِه فَصلاً فَفصْلاً . وَذَكَرْنا لَهُ حَقائِقَ كُلِّ فَصلٍ واحدةً إِثرَ واحدةٍ . وإذا أَرَدنا أَن نَعمَلَ أَعمالاً عديدةً اقتَضى أَن نُنجِزَ عَمَلاً بَعْدَ عَمَلٍ . فإنَّ الكِتابَ الضَخمَ يُؤَلِّفُهُ المُؤَلِّفُ قِسماً بعد قسمٍ وفَصلاً بَعدَ فَصلٍ ويَكتُبُهُ سَطْرًا بَعدَ سَطرٍ . ويَكتُبُ

كَلَّ سطرٍ كلمةً بَعدَ كلمةٍ ويَخُطُّ كلَّ كلمةٍ حَرفاً بَعدَ حَرْفٍ
والتسليمُ بأَنَّ الفَرْدَ قبلَ التَّعَدُّدِ ما لا يَجهَلهُ أَحَدٌ وَلا يَسْتَطيعُ أَن يجهَلَهُ والمثلُ القائِلُ « قَصٌّ القَصَبِ (قَصَبِ السُّكَّر) قِطعةً قِطعةً » مُشتَهَرٌ عِندَ عامَّةِ الناسِ فَضلاً عَنِ الخاصَّةِ ويَعمَلُ بهِ الطِفلُ والشابُّ والشيخ . فالطفلُ يَرضَعُ من ثَديَي والدتِهِ على التَّعاقُبِ ولا يَدِرُّ الثَّديُ إلاَّ دَرَّةً إثرَ دَرَّةٍ وما عَمِلَ بِهِ الطِفلُ فَبالأَولى أَن يَعمَلَ بهِ الشابُّ والشيخ

والهيأَةُ الحاكِمةُ التي تَندرِجُ تَحتَ مَبدَإِ المُتَعَدِّدِ لأَنَّها ذاتُ اشخاص مُتَعَدِّدةٍ وَلَها وظائفُ مُتَعَدِّدةٌ بَين مُلكيةٍ وَعَسكَريَّةٍ وماليَّةٍ وقَضائيَّةٍ لا بُدَّ لَها من رُجُوعٍ إلى واحدٍ . فلا بُدَّ لَنا أَن نَجِدَ لها رَأْساً يَرجِعُ إِلَيهِ جَميعُ أَعضاء الهَيأَةِ رُجُوعَ التابِعِ إِلَى مَتبُوعِهِ . فكلُّ ما سِواهُ مِنَ الهَيأَةِ الحاكِمَةِ تَحْتَ سَيطرَتِه . وقيامُهُم بالأَعمالِ عَن إِيعازٍ يَصْدُرُ مِنهُ إلى كُلِّ واحدٍ منهم رأْساً أَو بالواسطةِ
وهٰذا الآمِرُ يُدعَى بِمُقتَضَى النِظامِ الّذي عَيَّنَهُ رَأْساً

للهيأةِ الحاكمةِ فإنّ تعيينَ لقبهِ وحدودِ وظيفتهِ راجعٌ الى الدستورِ (١) الذي أقرّت الأمةُ أن تجريَ شؤونها بمقتضاه

فاذا كانَ ذلكَ الدستورُ يجعلُ خلفَ الحاكمِ الأعلى يتولّى الأمرَ لصلتهِ النسبيّةِ بسلفهِ كأنْ يكونُ أكبرَ بنيهِ او وحيدهُ او الأقربَ اليه نسباً فذلكَ الحاكمُ ملكٌ او سلطان . وان كان ذلك الخلف يتولّى الأمرَ لإجماع السوادِ الاعظمِ (٢) منَ الشعبِ على توليتهِ بغيرِ نظرٍ الى صلةٍ نسبيّةٍ له بالحاكمِ السابقِ وولايتهُ ذاتُ مدّةٍ محدودةٍ فذلكَ الحاكمُ رئيس

وبينَ الملكِ والسلطانِ فروقٌ متغايرةٌ لا متعارضةٌ فإن اجتمعت في الشخصِ الواحدِ فهوَ الملكُ والسلطانُ معاً وان استقلَّ بقسمٍ منها فهو يُدعى بمقتضى استقلالهِ ملكاً او سلطاناً . وقد سبقَ لي أن أضعَ رسالةً بهذا الصددِ دعوتها ما يجبُ أن يُدعى بهِ أبو العرب . فاذا وفّقَ اللهُ نشرتُها مطبوعةً لتعميمِ فائدتِها واللهُ وليُّ التوفيق

---

(١) هو مجموع قوانين المملكة وشرائعها　(٢) الفريق الا كبر

الفَصلُ الخامِسَ والعشرونَ

الدِّينُ أساسُ العُمرانِ

لا غِنَى لِلعُمرانِ عَن عَدلٍ مَنشورِ الأَعلام وعِلمٍ غَزيرِ اليَنبوعِ وأَخلاقٍ حِسانٍ كَرَوضٍ عَرفُهُ فَوّاحٌ وبُلبُلُهُ صَدّاحٌ ومَشاهِدُهُ تَنعَشُ الأَرْواحَ. فَلا يَستَوِي النِّظامُ إِلاَّ بالعَدلِ. وَلا يَأْتَلِفُ شَملُ قَومٍ إِلاَّ حَيثُ خَيَّمَتِ النَّصفَةُ(١). فَحيثما خَلا المُقامُ مِن مَعدَلةٍ سُلِبَ الأَمنُ وأَكَلَ القويُّ الضَّعيفَ فأَمسَى الخَوفُ عَلَى العِرضِ والدَّمِ والمالِ يَدعُو إِلى الرَّحيلِ عَن ذلِكَ الوَطنِ قال الشاعرُ

تَرَحَّلْ عَن مكانٍ فيهِ ضَيمٌ
وخَلِّ الدارَ تَنعِي مَن بناها

وقَالَ شاعرٌ آخر

ولا يُقيمُ عَلى ضَيمٍ يُرادُ بِهِ
إِلاَّ الأَذَلاَّنِ عيرُ الحَيِّ والوَتَدُ(٢)

---

(١) العدالة (٢) الضيم الظلم . العير الحمار كان الاقدمون من العرب يأتون بالماءِ على ظهر حمار يكون مشتركا بين الحي كله فسمى عير الحي

هـذا على الذلِّ مربوطٌ برمّتِـهِ
وذا يُشَجُّ فَلا يَرثي لَهُ أَحَـدُ

وبالعِلمِ يَتَّسِـعُ نِطاقُ الارتزاقِ وتَتَوَفَّرُ وسائِلُ الرُّقِيِّ في الصّناعاتِ والزراعةِ وتَمتَدُّ جُذورُ التِّجارةِ فَتَنبَثُّ سِلَعُها في ما دَنا وما نَأَى[١] مِنَ الأَقاليمِ وعَن ذٰلِكَ جَلالَةُ قدرٍ وخَفضُ[٢] عَيشٍ ونَباهَةُ ذِكرٍ . وبِالعِلمِ أَيضاً تُمَحَّصُ مَوادُّ الشَّرعِ وتُنتَقى أَفضَلُ الطَّرائقِ لِإِصدارِ الأَحكامِ عادلة

وتؤَلِّفُ الأَخلاقُ الحِسانُ بين المتباعِدِينَ مَوطِناً حَتَّى تُسقِطَ حُجُبَ النَّوى[٣] بَينَهم فَيتآلَفونَ أَرواحاً وإِن تَهاجَرُوا أَشباحاً وتَعقِدُ صِلاتِ وَلائِهِم المتينةَ حينَ لاتَكونُ عَلاقةٌ ما فيَفدي الصاحِبُ صاحِبَهُ لِإِعجابِهِ بِجُودَةِ طَبعِهِ ولوَفاءٍ بِصادِقِ وُدِّهِ وَلِحِرصٍ على المَنفَعةِ المَرجُوَّةِ عَن حِفظِ حياتِهِ وما أَحسنَ ما قِيلَ

---

(١) بعد (٢) هناء (٣) النوى البعد وحجب النوى اي البعد كالحجب من باب التشبيه البليغ

إِن فاتَنا نَسَبٌ يُجَمِّعُ بَيْنَنا　　أَدَبٌ أَقَمناهُ مُقامَ الوالِدِ

فالعُمرانُ مُحتاجٌ إلى شُؤُونٍ مُتَعدِّدةٍ . وحَيثُ تَعَدُّدٌ فلا بُدَّ مِن فَردِيَّةٍ سابقةٍ كما أَورَدْنا الدَّليلَ في الفصلِ السابِقِ فالوَحدةُ أَصْلٌ والتَّعَدُّدُ فَرعٌ عَنها ولا يكونُ فَرعٌ إلاَّ عَن أَصل

والفَردِيَّةُ في هٰذا التَّعدُّدِ (العَدلُ والعِلمُ والخُلْقُ الحَسَن) تَستلزِمُ أَحَدَ أَمرينِ إِمَّا أَنَّ أَصلَ هٰذا المُتَعدِّدِ وَارِدٌ فيهِ أَو أَنَّهُ غيرُ واردٍ فِيهِ . فلا غِنَى عن التَّسلِيمِ بِأَصْلٍ وفرعَينِ أَو بِأَصلٍ وثلاثة فروعٍ

فإِن قلنا بأَصلٍ وفرعينِ كانَ الأَصلُ إِمَّا العَدلُ او العِلمُ او الخُلقُ الحَسَنُ ولا قولَ آخَرُ : فإِن قُلنا العَدلُ هو الأَصلُ لم يَصِحَّ ذٰلِكَ فإِنَّ مكارِمَ الأَخلاقِ تَتَضَمَّنُ مَبدَأً أَسمَى مِن مَبدَإِ العَدلِ . فالعَدلُ يَقِفُ عِندَ إِيصالِ كلِّ ذي حقٍّ الى حَقِّهِ وأَن يَحتَفِظَ صاحِبُ الحَقِّ بِحَقِّهِ فَلا يَطَّرِحُهُ . والأَخلاقُ الحِسانُ تَحمِلُ صاحِبَها عَلَى أَن يَنزِلَ عن حَقِّهِ

تَسامُحاً حَيثُ التَّسامُحُ أُكرومةٌ تَطيبُ ذِكرًا او تَهَبُ أَجرًا قال الشاعِرُ

وأَغفِرُ عَوراءَ الكَريمِ اِدِّخارَهُ
وأُعرِضُ عَن شَتمِ اللئيمِ تَكَرُّما

وَمن شأنِ المَبدَإِ الأَكرمِ أَن لا يكونَ فرعًا لِما هُوَ مبدأٌ أَقَلُّ مِنهُ كَرامةً فإِنَّ الأَصلَ أَكرَمُ مَبدَأً من فَرعِهِ. فَالَّذي يَثبُتُ بَينَ مُتَعَدِّدَينِ أَنَّهُ أَكْرَمُ مَبْدَأً امتنعَ أَنْ يكونَ فَرعًا لِلآخَرِ. فالأَخلاقُ الحِسانُ لا تكونُ فَرعًا لِلعَدلِ بل هِيَ فَرعٌ لِمَا هو أَكرَمُ مِنَ العدلِ

ولا يكونُ الخُلقُ الحَسَنُ أَصلاً لِلعَدلِ لِأَنَّ العَدْلَ أَسبَقُ وُجُودًا مِنَ الخُلْقِ الحَسَنِ فَإِنَّ التَّمسُّكَ بالحَقِّ سابقٌ لِلتَّسامُحِ بالحَقِّ فَلاَ يُتَسامَحُ إِلاَّ بِما تَعَيَّنَ اتِّصالُهُ بِصاحِبِهِ وهٰذا هُوَ العَدل. والسابقُ لا يكونُ فَرعَ مَسبُوقِهِ

ولا يَصِحُّ أَن يكونَ العِلمُ فَرعًا عَنِ الخُلْقِ الحَسَنِ فإِنَّ آباءَنا العَرَبَ بَلغوا في عَهدِ جاهِلِيَّتِهِم (١) شأْنًا عجيبًا من

---

(١) عهد الجاهلية عند العرب العهد الذي سبق زمن الرسالة الاسلامية

دَماثةِ الخُلْق ورِقَّةِ الجانب وحَلاوةِ القَولِ والأَنَفَـةِ من الذلّ والتَّرَفُّعِ عَنِ المَعايبِ وإِيثارِ الأَخِ على النَّفسِ غَـيرُ بعيدٍ أَن يكونَ من هُم أَساطِينُ هذا العَصرِ الراقي لم يَبلُغوا اليهِ على تَفَرُّدِ عَصرِنا في العُلومِ العَقليَّةِ والمادِّيَّةِ واللُّغَويَّةِ والشَّرْعيَّةِ. وقد سُمِعَت أَقوالُ الحِكمةِ مِن آبائِنا وهم أُمِيُّونَ وهي تَأْتي على أَجوَدِ الاخـلاقِ . فلا تَستَلزِمُ جُودَةُ الأَخلاقِ غَزارَةَ عِلمٍ . فلا يكونُ العِلمُ فَرعًا لِلخُلْقِ الحَسَنِ كما أَثبَتْنا أَنَّ العَدلَ لا يكون أَصلاً لِلخُلقِ الحَسَنِ

ولا يَصِحُّ أَن نَقولَ انَّ العامَ أَصلٌ لِلعَدلِ ولِلخُلْقِ الحَسَنِ لِأَنَّ الفرعَ راجعٌ ولا بُدَّ الى أَصلِهِ وقد أَثْبَتنا ان الخُلقَ الحَسَنَ وُجِدَ ولا عِلمَ ناضجٌ . وهذِهِ أُمَّةُ الالمانِ في هذا الزمانِ لَها في العِلمِ مكانةٌ بَلَغَت الى أَرقى مُستَوًى عمرانيّ فَهِيَ ولا نـكيرَ مِنْ أُمَّهاتِ الأُمَمِ الراقيَةِ في عِلمِها وصِناعتِها ومَتاجِرِها . وَهِيَ عِندَ نَفْسِها أَنَّها فاقت كُلَّ الامَمِ رُقِيًّا . وثَبَتَ أَنَّها في حَربِها الأَخـيرةِ (من سـنة ١٩١٤ — ١٩١٨) لَم تَرعَ لِلعدلِ عَهْدًا ولا عَرَفت لِمَكارِمِ

الاخْلاقِ حُرْمةً . فارتكبت مِنْ ضُروبِ البَغي وطَرَقت، من أَبواب الشَرّ ما لم يَقَعْ لَهُ نَظِيرٌ ممَّن عَرَفَهمُ التاريخُ أَعرَقَ الأُمَمِ جَهالةً فالعِلمُ من حَيثُ هُوَ عِلمٌ لا يُلزِمُ جادَّةَ عَدل ولا يُوجِبُ البَقاءَ في نِطاقِ خُلقٍ حَسَنٍ فَإِذَن لا يكونَ العَدلُ والخَلقُ الحَسَنُ فَرعَي العِلم .

وما دامَ البُرهانُ قد أَثبَتَ أَنَّهُ لا صِلَةَ بَينَ العِلمِ والعَدْلِ والخُلقِ الحَسَنِ تجعلُ أَحَدَها أَصلاً والآخَرَينِ فرْعَينِ لهُ . فقد أَلزَمَ البَحثُ أَن نُسَلِّمَ بأَنهُ لا بُدَّ من أَصلٍ تَرجِعُ إِلَيهِ هذهِ المتعددات الثَّلاثَةُ وَمِنْ شأْنِ ذٰلِكَ الأَصْلِ أَن يكونَ أَسْمَى من فُروعِهِ شأْنًا وأَغزَرَ مادةً . فَتَنبَثِقُ منهُ وَتَعودُ اليهِ فَهُوَ يَسُودُ عليها كلِّها

فاذا أَرَدنا البَحثَ بالوَجهِ الهادي عَنِ الأَصلِ وَجَبَ عَلَينا بَيانُ الداعي لِوُجودِ هَذهِ الثلاثةِ الأَركانِ . فَنَجِدُ أَنَّ العِلمَ أَوسعَ مواردَ رزقِ الإِنسانِ والعَدلَ يَصونُ ما حَقَّ لهُ مِنْها. والخُلْقَ الحَسَنَ يحَبّبُ بصاحبِهِ من كان ذا شعورٍ حَيٍّ وكلَّ ذلكَ يَعمَلُ لِحفظِ حياةِ الانسانِ او لتأْمِينِ

حيَاتِهِ . والحِفظَ او التأْمينَ دَعا الى وُجُودِ تلكَ الأَركانِ (العدل والعلم والخلق الحَسَن) فلا تكونُ تِلكَ الاركانُ الاَّ حَيثُ حَياةٌ

والبَحثُ في الحَياةِ راجِعٌ الى الدِّينِ فهُوَ الَّذي يَذكُرُ عن مَصدَرِها وأَدوارِها والغايةِ من وُجُودِها فإِلى الدينِ مَرجِعُ كُلِّ تِلكَ الاركان

أَلدينُ هو صِلَةُ المَخلوقِ بالْخالِقِ . فَبِهِ يَعْتَرِفُ الانسانُ المَحدُودُ في عَقلِهِ وقُواهُ وحَيِّزهِ وعُمرِهِ ما هُوَ في حاجةٍ إِلَيهِ مِن بَحرِ مراحِمِ الخالِقِ الذي تَعالَى عَن أَن يَبلُغَ الحدُّ إِليهِ في وُجُودِهِ وقُدرتهِ وعِلمِهِ وقَداستِهِ . ويَملأُ كُلَّ مَكَانٍ ولا مَكَانَ يَحُدُّهُ .

الدينُ هُوَ الأَصلُ الذي يَرجِعُ إِلَيهِ كُلُّ ما في هٰذا الوُجودِ من جَودَةِ سيرَةٍ وغَزارةِ عِلمٍ ونَقاوَةِ سريرةٍ ورَفاهِ عَيشٍ وعَدلٍ مَضروبِ الظِلالِ . الدينُ لِجامٌ في فَمِ مَنِ اعتصَمَ بهِ يَكبَحُ جِماحَهُ اذا شَرِهت نَفسُهُ الى الشُّرورِ ويَحُضُّهُ على لُزومِ حَياةِ الصَّلاحِ والتحلّي بطَهارةِ القَلب

وتقاوة الذيل ويأمره بأن يحسن العمل لدنياه وأخراه معاً.
فحينما استقرت للدين نسمة فهنالك فضل باهر ولطف
رائع ونشاط وافر وأصالة رأي وحكمة في قول وعمل

فالناس لا دين يرعاهم زبانية وبالتدين تغدو أرضنا كسما

فالعمران الحقيقي الذي نحظى به بكرامة الدنيا لا غنى له عن الاعتصام بالدين الذي يخولنا كرامة الآخرة ويستدرجنا الى الظفر بها بما يمنحنا من كرامة الدنيا. — فالدين هو الغاية القصوى من كل مطلب شريف. هو ولا ريب الغاية التي لأجلها وجد الانسان

وكما أنه لا يصح لنا ان نحفظ الغصن كاسيًا بأوراقه متزينًا بثماره الا اذا احتفظنا بالأرومة فنضع لها السماد المناسب. ونرويها بمياه على مقدار ما تطلب حتى ترتوي ونحرث أرضها في الأوقات الصالحة للحرث كذلك اذا أردنا سعادة الدنيا توجب علينا أن نحفظ الدين سليماً من الشوائب متبوع الأحكام في جليل ما يعرض علينا وحقيره. فلا يقال عن حكم من أحكام الدين أنه عرضي

باطِلٌ. بل يُقالُ إنَّ كُلَّ أَحكامِهِ حَقٌّ ولا مَندوحةَ عن العَمَلِ بِمُقتَضاها. فَمَن عَمِلَ بها أَفلَحَ وكانَ من السُّعَداءِ المُهتدِينَ

فَلَهُ بِدُنياهُ حَياةُ رَغادَةٍ   ولَهُ إذا جاءَ الحِسابُ نَعيمُ

الفَصلُ السادِسُ والعِشرُونَ

يجبُ على رأسِ الحكومةِ أن يكونَ له دِينٌ يأمرُ بِهِ.

الحاجةُ الى الشَّجَرِ تَستَنزِلُ الهِمَمَ الى العِنايَةِ بِها لِاستِخراجِ فَوائِدَ جَمَّةٍ[1] منها يُمكِنُني أن أَعُدَّ منها ما يأتي

١ً) الإِثمارُ بِغَزارةٍ وَجُودةٍ في سَبيلِ إِشباعِ الانسان

٢ً) الإِفادَةُ فَإِنَّ امتِدادَ الظِّلِّ يَصونُ من أَشِعَّةِ الشَّمسِ الَّتي عَن شِدَّتِها ضَرَرٌ كالرَّعَنِ[2] واسوِدادِ البَشْرَة

٣ً) استِدرارُ أَمطارِ السَّماءِ فَكلَّما كَثُرَت أَشجارُ قُطرٍ كَثُرَت أَمطارُهُ. والإِنسانُ والحَيَوانَ والنَّباتُ في حاجةٍ شديدةٍ الى الماء

---

(١) عديدة (٢) ضربة الشمس

٤) تَعدِيلُ الأَهوِيَةِ فإذا مَرَّ الهَوَاءُ بِشَجَرٍ حالت دُون شِدَّة مَهَبِّهِ

٥) خِدمةُ الأَوراقِ حاجَةَ الإِنسانِ . فَوَرَقُ التُّوتِ مَثَلاً يكونُ طَعاماً لِلدُّودِ المُسمَّى دُودَ القَزّ فَيَسْتَلُّهُ من جَوفِهِ (فيالج)[1] وعنهُ الثَّوبُ الحريريُّ الثَّمِين .وَوَرَقُ كثيرٍ مِنَ الأَشجارِ يَدْخُلُ في الأَدويَةِ اويتَحوَّلُ قِرطاساً لِلكِتابة

٦) خِدمةُ الخَشَبِ في بُنيانِ البُيوتِ والأَدَواتِ العَديدةِ المُستَخدَمةِ في حاجةِ الانسانِ في يَبْسٍ وغَمْرٍ فَلا يَستَغني عَنها بَيتٌ ولا زَورَق

وامتِدادُ نَتائِجِ الشَّجرِ لاأَستطيعُ أَنْ أَستقصيه وعندي أَنَّ الأَصلَ في هٰذِهِ النتائِجِ الإِثمار . فَإِنَّ تَعَدُّدَ النتائِجِ يَستَلزِمُ أَنْ تكونَ إِحدَى النتائِجِ سابقةً . فإنَّ الأُخوَةَ المُتَعَدِّدِينَ لا بُدَّ أَن يكونَ لِاحَدِهِم سَبَقُ وِلادةٍ

وعلى هٰذا يَتَمشَّى القَولُ إِلى أَنَّ للحكوماتِ نتائِجَ عديدة فَهِيَ

---

(١) شرانق

١ً) تَحفَظُ الحياةَ أي تحقِنُ الدمَ فلا يُسفَكُ جَورًا

٢ً) تَحفَظُ العِرضَ اي تَصونُ العِرض من أن يَجتَرِئَ أَحَدٌ على ان يَمَسَّهُ على وَجهٍ لا يُجِيزُهُ الشَّرع

٣ً) تَحفَظُ المالَ أي تُؤَمِّنُ كلَّ ذي مالٍ عَلى مالِهِ سَواءٌ كان نقودًا او عُروضًا (١) او حُبوبًا او ثِمارًا او حَيَوانًا اوشَيئًا آخر. فلا يُؤخَذُ شيءٌ من صاحِبِه بِغيرِ مسوِّغٍ شرعي. وتُطلِقُ لِصاحِبِهِ ان يُثَمِّرَهُ بكلِّ وجهٍ مشروع . فإنْ حاجةَ الانسان بِتَواصُلِ الى الطَّعامِ والكِساءِ والشَّرابِ والرُّقاد تَستَنفِدُ بِتَواصُلٍ ما بِيدِهِ من المالِ فإن لم يكنْ مُؤَمَّنًا على وسائِلِ تَثميرِ مالِهِ بالوُجوهِ المشروعةِ نَفَدَ المالُ الذي بِيَدِهِ

٤ً) إِعمارُ الأَراضي : لِأَنَّ الأَراضي العامرةَ تُعطِي وارداتٍ ولِلحكومةِ ضرائِبُ على الوارداتِ فتَعمَلُ في إِعمارها خدمةً لِمَصلَحَتِها لِأَنَّ كلَّ مَصلحةٍ لِلشعبِ هِيَ مَصلَحَةٌ لِلحكومةِ أَيضًا

---

(١) جمع عَرض اي المتاع

٥ً) صَدُّ الأَوبئَةِ ومُقاوَمَةُ الجَوائحِ فإِنَّ الحكومةَ تَبذُلُ مجهودَها في هٰذا حِفظاً لِلشَّعبِ الَّذي هو مَصدَرُ حَياتِها فإِن بادَ بادت حَتْماً وكُلُّ ذي حِكمةٍ يَعمَلُ ما فيهِ حِفظُ وُجودِهِ

٦ً) إِنماءُ الشَّعبِ لِأَنَّ نموَّهُ يُخوِّلُها قُوَّةً معنويةً وماديةً فكلَّما زادَ عَدَدُ الشعبِ وَوَفَرت ثَروتُهُ كانت حُكومتُهُ أَنفَذَ كَلِمةً وأَثبَتَ أَركاناً وأَعلى مكانةً

واذا بَحَثنا في هٰذِهِ الشؤُونِ رَأَينا أَنَّ الأَصلَ فيها حِفظُ الحَياةِ فَهُوَ الَّذي استَدعَى حِفظَ العِرضِ فَإِنَّ ابتِذالَ العِرضِ يَذهَبُ بالرَّوابِطِ التي بَينَ الزَّوجَينِ الداعيةِ الى المُعاضَدَةِ في شؤُونِ الحَياة . وقد أَثبَتَ الواقِعُ العِيانيُّ أَنَّ إِباحةَ العِرضِ يؤُولُ الى انقِراضِ الامِم التي تُجيزُ تِلكَ الإِباحَةَ . فالضِمادُ[1] شاع قديماً في شُعوبٍ هنديةٍ فَمَشَت الى الانقِراض . والشُّعوبُ التي تَرَى أَنَّ صِيانةَ العِرضِ

---

(١) ان يكون للمرأة رجلان معاً فاكثر

ليست واجباً يَنقُصُ عَدَدُها [١] ولا يَزِيدُ كما يعرفُ ذلك كلُّ مَن وَقفَ على عَدَدِ الامم مُنذُ خمسينَ سنةً وعلى عَدَدِها الآن. فانهُ يَرَى صِيانةَ العِرْضِ زادت عَدَدَ الامةِ والتخلّي عن تلك الصيانة أنقصَ العَدَد [٢]

وكما استَدعَى حِفظُ الحياةِ صيانةَ العِرضِ استَدعَى أَيضاً صيانةَ المال لِأَنَّ المالَ وَسيلةُ الحُصولِ على حاجاتِ الحَياةِ مِن مأْكَلٍ ومَلْبَسٍ ومَرقَدٍ فنَفَقاتُ الحَياةِ يَنبوعٌ دائِمُ الفَيَضانِ . وهٰذا اليَنبوعُ يَستَلزِمُ مالاً لا يَنضُبُ مَوارِدُهُ الصادِرُ من الوُجوهِ المشروعة . وهكذا يُقالُ في المَطالِبِ الثلاثةِ الأَخيرةِ فهيَ راجعةٌ الى حِفظ الحياة

فاهتِمامُ الحُكومةِ دائرٌ على مِحوَرِ حِفظِ الحَياةِ . وحِفظُ الحياةِ يَستلزِمُ مَعرِفةَ الحَياةِ مِن أَينَ مَصدَرُها وما هِيَ أَطوارُها وأَيَّةُ نِهايةٍ لَها

---

(١) ان تاريخ الشعوب منذ مئة سنة ونيف جلي وهو الحكم في هذه القضية (٢) فبعد ما كانت انكلترا منذ مئة سنة ٢٥ مليونا صارت اليوم ٤٣ مليوناً و بينما كانت تلك الامة ٤٠ مليوناً نراها اليوم ٣٥ مليوناً

ومَصدَرُ الحياةِ واطوارُها والنهايةُ التي لا بُدَّ ان تَرِدَ عَلَيها شُؤُونٌ لا يُمكِنُ الوقوفُ عَلَيها الاَّ من الوجهةِ الدِّينيَّة . فإِذَن لَيسَ في إِمكانِ الحكوماتِ أَن تقومَ بِواجباتِها إِلاَّ اذا كانت ذاتَ اطِّلاعٍ عَلى الأَديانِ. ومَتى وَجَبَ عليها الاطِّلاعُ على الأَديانِ فلا بُدَّ مِن أَن تَختارَ لها واحداً منها

ومما يَدُلُّ عَلى أَنَّ الحكومةَ لا تَقدِرُ ان تَتَجَرَّدَ من صبغةٍ دِينيَّةٍ انها في مُحاكَماتِها تَحتاجُ إِلى الاِستعانةِ باللهِ لِكَشفِ الغِطاءِ عن الخَفيِّ فإِنَّ البَيِّنةَ عَلى مَنِ ادَّعى واليمينَ على مَنْ أَنكَرَ مادَّةٌ شرعيةٌ لا بُدَّ مِنَ الرُّجوعِ اليها في شُؤُونٍ قَضائيةٍ عديدة

ورجوعُ القضاءِ الى اليَمينِ انما هُوَ من بابِ التسليمِ بأَنَّ اللهَ موجودٌ وهو سَيِّدُ الكائناتِ كُلِّها وأَنَّ الحكومةَ عَمَّالاً نصبَها لِعَمَلِ ما تستطيعُ عَمَلَهُ لِخَيرِ الانسانِ ودَفعِ الشرِّ عَنهُ وأَنَّ الذي يَعسرُ عَليها يَسهلُ عَليهِ وحَيثُما انتَهت قُدرَتُها فَقُدرتُهُ تَبدو بِوَجهٍ اخصَّ فَطَلَبُ اليمينِ مِنَ المُنكِرِ

تَحويلٌ لِلدعوى عليهِ من النَّظَرِ فيها بإحكامٍ بَينَ ايدي الناس الى النَّظَرِ فيها بَينَ يَدَيِ اللهِ تعالَى الذي عنـدَهُ المعلومُ والمجهولُ متَساويانِ وهوَ الحاكِمُ العادِلُ مُثيباً لِلبَريءِ وَمُعاقِباً للأثيم (١)

وإِذا ثبَت ضِمناً أَنَّ الحُكمَ عائِدٌ الى اللهِ . فالثابتُ ضِمناً كالثابتِ نَصًّا . فإِنَّ ذٰلِكَ يَستَلزِمُ القولَ . إِمَّا أَنَّ اللهَ أَفهَمَ الناسَ عَن صِلَتِهم بهِ أَو لا . فانْ كانَ لم يُفْهِمْهُم فَكيفَ يَحلِفونَ باسمِهِ . ويَنسِبون إِليهِ السِيادةَ عَليهِم وإِن كانَ أَفهمَهم فَكَيفَ ذلك . . إِنَّ ذٰلِك يَستَدرِجُ حَتْماً الى التَّسليمِ بِوُجودِ أَديانٍ مُنزَلَةٍ . ومَتَى عُرِفَت أَديانٌ لَزِمَ النَّظَرُ في صحةِ ادّعائِها ومن وَراءِ ذٰلِكَ التَّسليمُ بواحِدٍ

---

(١) يَذهبُ البعض الى انه يستبدل الحلف بالله بالحلف بالشرف والفرق بينهما ظاهر فالحلف بالله رفع الدعوى الى محكمة الله . واما الحلف بالشرف فاتيان بمستأنس لتحكم المحكمة ليس الا . فعن رفع الدعوى الى الله استصدار حكم عادل شديد وعن بقاء الدعوى في قضاء الانسان بقاء القضاء فيها معرضاً للخطاءِ والصواب معاً

مِنها أَنَّهُ الدِينُ الواجِبُ الاِتِّباعِ فَكُلُّ حُكومةٍ يَجِبُ أن تَتَّبِعَ ديناً واحدًا

وما يَجِبُ أَنْ تَعرِفَهُ الهَيأَةُ الحاكِمَةُ في الأُمّةِ يَجِبُ أَنْ يَعرِفَهُ رَأْسُ هٰذِهِ الهيأَةِ بِوَجهٍ أَتَمَّ. لِأَنَّهُ يَتَبَوَّأُ مَكانةً مِنَ الهَيأَةِ الحاكِمَةِ هِيَ مكانَةُ الشَّمسِ مِنَ النُّجومِ. فَكَما تَقتَبِسُ النُّجومُ أَضواءَها من الشَّمْسِ، يَجِبُ أَنْ يَقتَبِسُ رِجالُ الحكومةِ مَبادِئَ العَمَلِ في سِياسةِ الامَّةِ مِنْ رأْسِ الهيأَةِ الحاكِمَةِ

إِنَّ رَأْسَ الحُكومةِ لَهُ في الهيأَةِ الحاكِمَةِ مَنزِلَةُ المُرشِدِ الأَكبرِ إِلى الحَقائِقِ والى وُجُوهِ الاِعتِصامِ بِها . وبما أَنَّ اللهَ هو حقيقةُ الحَقائِقِ، والاعتصامُ بِهِ تَعالَى يَرُدُّ عن سَبيلِ اتِّباعِ الدِينِ الّذي أَمَرَ اللهُ تعالى الناسَ بأَن يَتَّبعوهُ فلا يَكُونُ الحاكِمُ الأَعلَى قائِماً بواجِبِ مَنصِبِهِ القِيامَ الحقيقيَّ الاّ وهو مُطيعٌ لله مُعتَصِمٌ بشرعِهِ .

وَإِذا عُدنا بالحاكِمِ إِلى ما كانَ عَليهِ في أَوَّلِ وُجُودِهِ لَرَأَيناهُ الأَبَ بَينَ أَبنائِهِ. وأَولُ واجبٍ عَلى الأَبِ ان يَهدِيَ

أَبناءَهُ إلى طاعةِ اللهِ وحُسنِ عبادتِهِ . فعليهِ ان يُغذيَ النفسَ كما يُغذيَ الجسدَ . وغِذاءُ النفسِ تلقينُها الإيمانَ ، وتخريجُها في عملِ الصالحاتِ . فلمَّا كثُرت عليهِ المهامُ تخيَّرَ لهُ منها ما رأى أنَّهُ أدعى لتخفيفِ العبْءِ عنهُ . فأقامَ لشؤونِ الدينِ خُدَّاماً ، وتفرَّغَ لأمرِ الدنيا ، أو أبقى لنفسِهِ صفةً دينيةً مَعَ قبضِهِ على زِمامِ أُمورِ الدُّنيا . فالحاكِمُ أخذَ منصبَهُ عن أصلٍ دينيٍّ ، والفرعُ مهما خرجَ يجبُ أن يكونَ لهُ صلةٌ بأصلِهِ . لأنَّ ذهابَ الأصلِ بتَّةً يذهبُ بالفرعِ أيضاً

فعلى الحاكمِ الذي يفرضُ على رعيتِهِ حُسنَ الطاعةِ لهُ ليتمكَّنَ من أنْ يرفِهَ معيشتَها، ويجلَّ مكانتَها ، ويصونَ حقوقَها ، حُسنُ الطاعةِ للهِ سيّدِهِ . فانَّ للهِ تعالى عليهِ من الحقِّ ما هوَ مصدرُ الحقِّ الذي لهُ على الناسِ . فإن استضعفَ سلطانَ اللهِ عليهِ. فهو بذلكَ يستضعِفُ سلطانَهُ على الناسِ . وما طاعةُ الناسِ لهُ الاَّ ثمرةُ طاعتِهِ للهِ . وما اجتراءُ الناسِ على معصيتِهِ ، إلاَّ عن اجترائِهِ على ركوبِ

مَعصيَةِ اللهِ . فَعلَى الحاكِمِ الأَعلى أَن يكونَ في سرِّهِ وجَهرِهِ ، وقَولِهِ وعَمَلِهِ ، في طاعةِ اللهِ ، بالمَكانةِ العُليا . لأَنَّهُ أُعطِيَ مِنَ الكَرامةِ الدُّنيَويَّةِ المَكانَةَ العُلْيا . وَمَنْ فَضَّلَ في العَطاءِ ، وَجَبَ عَلَيهِ أَن يكونَ الأَفضَلَ في جُودَةِ العَمَلِ . عَلَيهِ أَن يُؤْمِنَ بِمُعْتَقَداتِ الدِّينِ الذي يَعْتَنِقُهُ إِيمانًا وَطيدًا ويُتَمِّمَ شَعائِرَهُ جِهاراً ويَتَمَسَّكَ بالسُّنَنِ الفُضلَى فيهِ . فَإِن لم يَكُنْ مِن صَلابَةِ التَّدَيُّنِ ووَفاءِ الشَّعائِرِ بالمَنزِلَةِ العُليا ، فهو الأَبُ وَالشَّعْبُ بَنوهُ

وَإِن كانَ رَبُّ البَيْتِ بالدَّفِّ ضارِباً
فَزِينَةُ أَهْلِ البَيتِ كُلهم الرَّقْصُ

وَهُوَ مَسؤُولٌ عَن نَفسِهِ وعَن رَعيَّتِهِ في ما تُماشيهِ عليهِ مِن سَبيلٍ عاثِرٍ . كَما لَهُ حُسْنُ الأُحدوثةِ وجَليلُ الثَّوابِ إِذا دَرَّبَ الشَّعْبَ عَلى حُسنِ التَّقْوى ومَحامِدِ الشِّيَمِ

ما أَسعَدَ المَلْكَ قد طابت سَريرَتُهُ
وآثَرَ البِرَّ في قَوْلٍ وفي عَمَلِ

فإِن يكُنْ مُلْكُهُ في الأَرضِ مُنتَقِلاً
فَمُلْكُهُ في خُلودٍ غيرُ مُنتقِلِ

الفَصلُ السابعُ والعُشرونَ

لماذا يجبُ أن يكونَ رأسُ الحكومةِ متديناً

تُوجِبُ أَسبابٌ عديدَةٌ على الحاكِمِ الأَعلى أَنْ يكونَ مُتَمسِّكاً بِمُعتقَداتِ الدِّينِ الَّذي يَتبَعُهُ فأَوَّلُها : أَنَّهُ إِنسانٌ تَحتَ قَيدِ الإِنسانيَّةِ ، لَهُ جَسَدٌ ورُوحٌ ونَفْسٌ . وَما وَضَعَهُ اللهُ عَلى كلِّ مُكَلَّفٍ مَوضوعٌ عَلَيهِ حَتْماً بَلْ هُوَ مَسؤُولٌ أَمامَ اللهِ أَكْثَرَ من كلِّ مَن هُمْ تَحتَ أَمْرَتِهِ ومُحاسَبٌ حِساباً أَدقَّ وذلِكَ لأَنَّهُ مَأْمورٌ أَنْ يُعلِّمَ الشَّعبَ واجباتِ الطاعَةِ لِلهِ . ومن مُقتَضَياتِ مَنصِبِهِ أَنْ يكونَ أَعلَمَ مِن تَلاميذِهِ . فإِذا لَمْ يكنِ الحاكِمُ الأَعلى مُتقِناً بالعَمَلِ واجبَ الطَّاعةِ لِلهِ فكَيفَ يُمكِنُهُ أَنْ يُعلِّمَ الآخَرينَ ما يَجْهلُهُ هُوَ ويَقومُ عَلى جَهلِهِ الدَّليلُ بِعَمَلِهِ الخارِجِ عَنِ الواجِبِ الموضوعِ عَلَيهِ فَيُقالُ لَهُ

يا أَيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ
هَلاَّ لِنَفسِكَ كانَ ذا التَّعليمُ

تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وذي الضَّنى
كيما يَصِحَّ بِهِ وأَنتَ سَقيمُ

إِبدَأْ بِنَفسِكَ فَانْهَهَا عَن غَيِّها
فَإِذا انْتَهَت عَنهُ فأَنتَ حَكيمُ

لا تَنهَ عن خُلقٍ وتأْتِيَ مِثْلَهُ
عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فَهَلْ يُمكِنُ لِنارٍ غيرِ شديدةِ الحَرارةِ ان تَصهَرَ (١) الرصاصَ او تُذِيبَ الفِضَّةَ اوالذَّهَبَ أَو النحاسَ حتى يَصيرَ مادَّةً مائعةً بِشِدَّةِ الحَرارةِ العارِضَةِ عَلَيه وكَذلِكَ لا يَكونُ الحاكِمُ الأَعلَى مُتَكهرِباً بالدِّينِ إِن كانَ لا يُكهرِبُ بالدِّينِ رَعِيَّتَهُ أَيضاً

كُلُّ إِنسانٍ وُجِدَ على وَجهِ البَسيطةِ مُنذُ وُجِدَ الإِنسانُ الأَوَّلُ (آدمُ) مَخلوقٌ لِينالَ حَياةً كَرامةٍ خالِدةً فإِنَّ صَلاحَ

(١) صهر الشيء أذابه

الخالِقِ اقتضى ذ يَخلقَ كلَّ مخلوق لإِسعادِهِ لا لإِشقائِهِ.
وحياةُ الكرامةِ واحدةُ المنهجِ فلا تتغيَّرُ . وهيَ أَن يكونَ
العملُ على مقتضى مشيئةِ اللهِ . فلا يتغيَّرُ هذا المنهجُ في
لَيلٍ ولا في نهارٍ . لا في قيظٍ ولا في شتاءٍ . لا في صحةٍ
ولا تحتَ أعراضِ داءٍ لا إذا كانَ الإقليمُ جيِّدَ الهواءِ ولا
إذا كانَ رديءَ الهواءِ لا في إعوازٍ ولا في إثراءٍ . فليسَ
لإِنسانٍ أَن يخرُجَ في شيءٍ مِمَّا يقولُهُ أَو يفعلُهُ عمَّا أَمرَهُ اللهُ
بعملِهِ وقولِهِ متجنِّباً ما نهاهُ عن أَن يعملَهُ او يقولَهُ فقد
قسَمَ اللهُ بشرعِهِ الطاهرِ الأَشياءَ إِلى ما هو حلالٌ وما هوَ
حرامٌ . وأَوجبَ الامتناعَ عنِ الحرامِ بتَّةً فما حرَّمَهُ اللهُ لا
طاقةَ لإِنسانٍ أَن يجعلَهُ حلالاً والحلالُ إِمَّا واجبُ العملِ
وامَّا جائزُ العملِ . فما هوَ واجبُ العملِ لا مندوحةَ لأَحدٍ
عنِ القيامِ بهِ وما هوَ جائزُ العملِ فلكلِّ إِنسانٍ الخيارُ
في عملِهِ وفي الامتناعِ عن عملِهِ على أَنَّ ما كانَ جوازُهُ
محبوباً فهوَ أَولى بالطلبِ . وما كانَ جوازُهُ مكروهاً فهوَ
أَولى بالإعراضِ عنهُ . وما الملكُ إِلاَّ إِنسانٌ عليهِ ما على

كُلّ إِنسان وَلَهُ ما لِكُلِّ إِنسانٍ من حَيثُ هُوَ إِنسانٌ . فَليسَ لِإِنسانٍ أَن يَذهَبَ الى الشِركِ بِاللهِ أَو إِلَى تَركِ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ مَلِكًا كانَ او غيرَ مَلِكٍ لا بَل على المَلِكِ تَبِعَةٌ أَشَدُّ إِن جَهِلَ هٰذا الواجِب .

جَيشُ المَلِكِ يَتأَلَّفُ من قُوَّادٍ ومَتبُوعِينَ . وعَلى كُلٍّ مِنهم أَن يُخلِصَ لِلْمَلِكِ فِي الخِدمةِ . فَلا يَجوزُ لواحِدٍ مِنَ الجَيشِ أَن يَخونَ المَلِكَ أَو أَن يَتَقاعَسَ عَن قِتالِ عَدُوِّ المَلِكِ ما دامَ في طاقتِهِ القِتال أَو ما جازَ له أَن يُقاتِل . ولا أَن يَتجاوَزَ أَوامِرَ المَلِكِ ذاتَ الحِكمةِ والإِحكام لِأَنَّ مصلَحَةَ المَلِكِ مَصلَحةٌ لِكلِّ فَرْدٍ مِنَ الجَيشِ . والقائِدُ مَسؤُولٌ أَكثرَ من المَقودِ . وكلَّما عَلَت مَرتَبةُ القائِدِ كانت التَّبِعَةُ عَلَيهِ إِنْ خانَ أَو قَصَّرَ في إِداءِ الواجِبِ أَشَدَّ . حَتَّى يكونَ قائِدُ القُوَّادِ (القائِدُ العُموميُّ) تَحتَ التَّبِعَةِ الكُبرى وهٰذا شأنُ المَلِكِ في الأُمَّةِ أَمامَ سَيِّدِهِ الخالقِ مَلِكِ المُلوكِ والأُمَمِ فَهُوَ تَحتَ التَّبِعةِ الكُبْرى فَيَقْتَضي أَن يكونَ أَفضَلَ مِن كُلِّ فَردٍ من أُمَّتِهِ في طاعةِ اللهِ والعَمَلِ

بأَوامرِهِ والِانتهاء بنَواهيهِ . ولِلعَمَلِ بالأَوامرِ ولِلانتهاء بالنَّواهي أَحكامٌ جاءَ بها الدِّينُ فَلا يَخرُجُ المَلِكُ عَنها ، ولا يَنالُ السَّعادةَ المرجوَّةَ في دارِ البقاءِ الاَّ بِها فالمَلِكُ السَّعيدُ هُوَ المُتَدَيّنُ

اذا كانَ الفَردُ لا يكونُ سَعِيدًا إِلاَّ إذا اعتَصَمَ بالدِّينِ فبالأَحْرَى أَن لا تكونَ لِلكَثيرينَ سَعادةٌ إِلاَّ بأَن يَعتَصِموا بالدِّينِ لِأَنَّ ما وَجَبَ عَلى الفَردِ يَجِبُ عَلى الكَثيرين . فَالدِّينُ الذي لا غِنَى عَنهُ لِفَردٍ لا غِنَى عنهُ لِمَجمُوعٍ . والحكوماتُ مجموعُ أَفرادٍ . فلا غِنَى لِلحكوماتِ عَن ان تَعتَنِقَ كُلُّ واحِدَةٍ دِيناً وتُعلِنُ عن اعتِناقِهِ جِهارًا . وما هُوَ مَوضوعٌ عَلى الحكومةِ كُلِّها مَوضوعٌ عَلى رَأسِها حَتماً لِأَنَّهُ هُوَ مَرْكَزُ الشُّعورِ والقُدوةُ لِلآخرينَ . فَعَلى المَلِكِ أَن يكونَ قدوةً متبوعةً في إِخلاصِهِ لِلدِّينِ في قَلبِهِ وعَمَلِهِ ومقالِهِ

فَرَأْسُ الحُكومةِ انتُدِبَ لِإِسعادِ كُلِّ الأُمَّةِ الَّتي وَلِيَ حاكِمِيَّتَها فَيَستَمِدُّ مِنهُ كِبارُها وصِغارُها ذُكورًا وإِناثًا

سَعادَتَهُم . ومَن عَلَيهِ أَن يُسْعِدَ الآخَرِينَ يَجِبُ أَن يَكُونَ حائِزًا سَعادةً خاصةً به . فما مِن أَحَدٍ يَقْدِرُ أَن يُعطِيَ الآخَرِينَ ما لَيس عِندَهُ فالإِعطاءُ يَستَلزِمُ تَمَلُّكًا وغِنًى بذلِكَ التَّمَلُّكِ حَتَّى يَهَبَ للآخرينَ مِمَّا في مُلْكِهِ . والسَّعادةُ الحقيقيَّةُ عَن طَريقِ التَّدَيُّنِ لِأَنَّ السَّعادةَ الحقيقيَّةَ سَعادَةُ الدُّنيا الباقِيَةِ . ولا تُنالُ هٰذِهِ السَّعادَةُ إِلاَّ عَن طَريقِ التَّدَيُّنِ . فرَأْسُ الحُكُومةِ يَجِبُ أَن يَكونَ مُتَدَيِّنًا التَدَيُّنَ الصادِقَ لِيَكونَ سَعِيدًا السَّعادَةَ الحَقيقيَّةَ بَل عَلَيهِ أَن يَكونَ مُتَمَيِّزًا بِشِدَّةٍ تَمَسُّكِهِ بالدِينِ لِيَتَمَكَّنَ أَن يَجعلَ يَنبُوعَ السَّعادَةِ الحَقيقيَّةِ غَزِيرَ الفَيَضانِ لَهُ ولِكُلِّ فَرْدٍ من أُمَّتِهِ التي تَطلُبُ السعادَةَ عَن يَدِهِ . وعَلَيهِ أَن يُخَوِّلَ كُلَّ فَردٍ منها تلكَ السَّعادةَ بان يَحُضَّهم عَلَى التَدَيُّنِ ويَستَخدِمَ ما بِيَدِهِ مِنَ السُّلطانِ الزَّمَنِيِّ في مَنْعِ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيهِم الكفرُ باللهِ والإِضرابُ عن وَفاءِ واجبِ عِبادَتِهِ .

رأسُ حُكومةِ الامَّةِ مَسْؤُولٌ عَن حِفظِ حَياةِ الأُمَّةِ بأَسْرِها . وحِفْظُ الحَياةِ يَتَطَلَّبُ مَعرِفةَ الحَقائِقِ والعَمَلَ

تقتضي هذه المعرفة . وما معرفة الحقائق إلاَّ عن معرفة حقيقة الحقائق التي عنها صدرت الحقائق وبها تثبت

وحقيقة الحقائق الله تعالى الذي أوجد كلَّ شيءٍ .

والى معرفته تعالى يتوصل العقل البشري من تلقاء نفسه . ولكنه لا يكتفي بقواه لإدراك ما يجب عليه إدراكه عن حكمته المقدسة فيستعين بما أولاه من الهدى . وما أولاه من الهدى هو الدين الذي يعلّم الإنسان ما يفوق طور إدراكه ولا يمكن أن يسري(1) عليه فحصه الذاتي .

فالحاكم الأعلى مضطرٌّ إلى اعتناق الدين ليقوم بواجب دعوته أن يكون رأس حكومة الأمة . فإذا أحب أن يفي واجب المنصب الذي يتولاه فلا مندوحة له عن التدين ليستنير بالدين في ما يجب عليه عمله . وإن أعرض عن التدين قصَّر عن الوفاء بواجب منصبه . وثمرة القصور في تأدية الواجب رديئة فعنها حرمان السعادة لنفسه وللامة أيضاً وبئست الثمرة الحرمان . وثمرة وفاء الواجب حسنة

---

(1) اي يجري

وعنها حصول السعادة لنفسه وللأمة أيضاً ونعمت الثمرة الحصول

رأس حكومة الأمة يطلب من كل فرد من أفراد الأمة عضو في الهيأة الحاكمة أو في الهيأة المحكومة أن يعرف له حق أبوته وأن يقوم بوفاء المقتضيات التي أوجبتها هذه المعرفة فيكون كل فرد من الامة عاملاً بأمره . وهذا ما صرح بطلبه سمو الأمير فيصل المعظم في خطابه الذي ألقاه في النادي العربي الدمشقي مساء اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٣٧ هجرية فإنه قال « كنت أظن أنني لو قلت للشبان ارموا بأنفسكم إلى البحر لفعلوا ولم يتخلف منهم أحد لعلمه أنني أقول ذلك لحكمة »

وتلك الحكمة موجهة الى استدراج السعادة للأمة ولا تكون سعادة لمجموع إلا عن تعاضد أفراد المجموع كلهم أتم تعاضد في العمل الواحد ولا يكون تعاضد بين جماعة على عمل واحد إلا اذا عرف كل واحد منها ما عليه

أَنْ يَعمَلَهُ وما عَلَيهِ أَنْ يَمتَنِعَ عَن عَمَلِهِ فيَمنَعَ نَفسَهُ أَنْ تمتَدَّ إِلَيهِ .فإذا كانَت أُبُوَّتُهُ لِلشَّعْب تُلزِمُ الشَّعبَ أَنْ يَعمَلَ كلُّ فَردٍ مِنهُ ما يَجِبُ عليهِ عَمَلُهُ وأَنْ يَمتَنِعَ عمَّا يَسوءُ عَمَلُهُ . فَإِنَّ هذهِ الأُبُوَّةَ لَمْ تَرِدْ لَهُ مِنْ قِبَلِهِ فَهِيَ ولا ريبَ مِن قِبَلِ اللهِ الَّذِي خَوَّلَهُ[1] هذهِ النِّعمةَ . وكلُّ أَبٍ لِلشَّعْبِ ضَعيفٌ إِزاءَ اللهِ ضُعْفاً لا حَدَّ لَهُ فَهُوَ وأَحقَرُ إِنسانٍ مِنْ شَعبِهِ سواءٌ إِزاءَهُ تَعالى[2] فإِن سِيادَةَ اللهِ عليهِ تَفوقُ بِما لاقياسَ لَهُ سِيادتَهُ على الشَّعبِ . ومَن يُطالِبْ بحَقٍّ لَهُ فَعلَيهِ ان يُسَلِّمَ بالحَقِّ الذي عَلَيهِ ولا سِيَّما لِأَنَّ الحَقَّ الَّذي لَهُ وارِدٌ عَنِ الحَقِّ الَّذي عليهِ . ويَرِدُ عَن إِنكارِهِ الحَقَّ الَّذي عليهِ إِنكارُ الآخرينَ الحقَّ الذي لَه . ولا يكونُ

---

(١) ملَّكه (٢) ان قيل كيف يتساوى الضعيف والقوي و بينهما تغاير . أجيب ان القوي من الناس قوته ازاءَ الضعيف من الناس بما أعطي من الله امّا عن رحمةٍ او عن توسع لتكون عقوبته ان أساء العمل أشد . فان صرف الله عن القوي ما أولاهُ قوة فهو ضعيف أيضاً. ثم ان قوة رجل قوي كقوة رجل ضعيف ازاء زحزحة جبل من حجر واحد يراد اخراجه من موضعه دفعاً باليدين

تَأْييدُ شَيْءٍ من بابِ العَمَلِ في هَدمِ ذٰلِكَ الشيْءِ فَعَلى الحاكِمِ أَنْ يُطِيعَ اللهَ سَيّدَهُ لِيُطِيعَهُ الشعبُ الَّذي حَظيَ هُوَ بالسِيّادَةِ عليهِ بِنِعمةٍ مِن قِبَلِ اللهِ سَيّدِهِ . واعترافاً بِصِحّةِ هٰذا المبدَإِ وعَمَلاً بِهِ قالَ أَبو بكرٍ الصِدّيقُ حِينما وَلِيَ الخِلافةَ « أَيُّها الناسُ إِنّي قد وَلِيتَ عليكم ولَسْتُ بِخَيرِكم . فإِن رَأَيْتُموني عَلَى حَقّ فأَعينوني . وَإِنْ رَأَيْتُموني عَلَى باطِلٍ فَسَدِّدوني . أَطيعوني ما أَطَعْتُ اللهَ فِيكم فإِذا عَصَيْتُهُ فلا طَاعةَ لِي عَليكم »(١)

وَقالَ أَيضاً « إِنَّهُ لم يَبلُغْ من حقّ مخلوق أَن يُطاعَ في مَعصِيَةِ الخالِقِ ، ومَعرِفةُ طاعةِ ومَعصِيَةِ الخالِقِ لا مَورِدَ لَهَا إِلاّ الدِينُ . فَعَلى الحاكِمِ الأَعلى أَن يكونَ مُتَبَحِّرًا في الشُؤونِ الدِينيّةِ وعامِلاً بِما تُوجِبُهُ ومُمْتَنِعاً عَمّا تَمْنَعُهُ وَإِذا كانَ شأْنُهُ كَذٰلِكَ فَهُوَ مُتَدَيّنٌ

---

(١) اوردتُ هذا الشاهد والشاهد الآخر الذي يليه من كلام هذا الصحابي الجليل نقلاً عن كتاب الخطب من الجزء الثاني من العقد الفريد لابن عبد ربه

رأسُ الحُكومةِ يَجِبُ عَليهِ أَن يَكونَ مُتَدَيِّناً لِأَنَّ الدينَ يَهديهِ في المَسيرِ على السَّبيلِ السَّواءِ في رِعايةِ الشَعبِ ويُنهِضُ قُواهُ إِذا كَلَّت ويَحُلُّ أَمامَهُ المَشاكِلَ اذا استَعصت ويُحَبِّبُهُ إِلى قلوبِ الشَّعْبِ ويَجِلُّ مَكانَتَهُ في عُيونِهِم . فَما عَزَّ إِنسانٌ بِمِثلِ تَذَلُّلِهِ لَدى اللهِ سَيِّدِهِ في إِداءِ فريضةٍ دينيةٍ وتَصريحِهِ بالعُبوديَّةِ لَهُ قولاً وعَملاً . والاستِنصارِ بِمَعونَتِهِ في كُلِّ أَمرٍ . فالدِينُ مَصدَرُ كُلِّ قُوَّةٍ وحِكمةٍ . والحِصنُ الحَصِينُ في وَجهِ كُلِّ أَذِيَّةٍ وخَورِ عَزيمةٍ ونَقيصةٍ تَقتادُ الى ضَعفٍ وهَوانٍ .

الفصل الثامنُ والعشرونَ

تأثير تدين رأس الحكومة على الأمة كلها

تأثيرُ تَدَيُّنِ رَأسِ الحكومةِ عَلَى الأُمَّةِ جَمعاءَ ثابتٌ في تاريخِ كُلِّ أُمَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عامِلٍ جاءَ عَمَلُهُ على مُقتَضى ما يَجِبُ أَنْ يكونَ سَعُدَ هو وأَسعَدَ أُمَّتَهُ وذلِكَ لِأَنَّهُ تابعَ الحَقَّ وجَرَى على هِدايةِ الحِكمةِ

فنرى في صحائف تاريخ كل أمة أن أسعد عصورها عصر عرف رأس حكومتها بتدينه وكلما كان تدينه أتم كانت منزلته أجل والخير لشعبه أوفى

فأسعد عصر عند الشعب اليهودي العهد الذي كان فيه الملك سليمان الحكيم موجهاً فيه شطر وجهه إلى الاهتمام ببنيان بيت الله ليعبد الله فيه حق عبادته . ففي ذلك العهد «كان يهوذا واسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر في الكثرة يأكلون ويشربون ويفرحون . وكان له (أي للملك سليمان) صلح من جميع جوانبه حواليه . وسكن يهوذا واسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته . وكان لسليمان أربعون ألف مذود لخيل مركباته واثنا عشر الف فارس» (١)

فإن الشعب تمتع بالأمن والغنى والبهجة والسلام فنما وكان قوياً ومحترماً . وتمتع الملك بالاقتدار ومحبة الشعب وبكثرته التي بها يرهب جانبه وتكثر ثروته

---

(١) عن الفصل الرابع من سفر الملوك الأول

وأَسعَدُ عَصرٍ عِندَ الشُّعوبِ المَسيحيَّةِ عَهدُ قسطنطينَ الكبيرِ الَّذي اعتَنَقَ النَّصرانيَّةَ بقَلبٍ صافٍ وجَعَلَهُ دِينَ المَملَكةِ فابتَنَى المَعابدَ ومَشَى في أَعمالِهِ على عَدْلٍ ممزوجٍ بِرَحمةٍ . وعَرَفَ لِرجالِ الدِّينِ مَنزلَتَهم فأَجَلَّهم . وكانَ عن تَدَيُّنِهِ الصادِقِ أَنَّ شَعبَهُ أَحَبَّهُ وأَعداءَهُ تَهَيَّبوا بأْسَهُ وعَمَدُوا الى مُسالَمَتِهِ

وأَسعَدُ عَصرٍ عِندَ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ عَصرُ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ فإِنَّهم أَحسَنُوا الاقتِداءَ بصاحِبِ الرِّسالةِ فنَعِمَ حالُ المُسلِمينَ ومَن تَحتَ ظِلِّ دَولَتِهم بعَدلٍ شامِلٍ ونُجحٍ كامِلٍ . وفَشَت في الناسِ يومئذٍ الفَضائلُ والفَواضِلُ (١)

بَل نَرَى التاريخَ يَروي أَنَّ سَعادةَ الشُّعوبِ ثَمرَةُ تَدَيُّنِ مُلوكِها بمَثابَةِ قَضيةٍ اتَّفَقَ على التَّسليمِ بصِحَّتِها الناسُ في كُلِّ زَمَنٍ مَرَّ سَواءٌ كانوا مِن تَبَّاعِ الدِّياناتِ السَّماويَّةِ

---

(١) الفضيلة المزية الادبية كالحكمة والقناعة والصدق والعفاف وجمعها فضائل . والفاضلة النعمة وجمعها الفواضل . فالفضائل تاتي بالفواضل

الثلاث (الموسوية والعيسوية والاسلامية) أو من تباع غيرها وقد جاء في تلك المرويات ما فيه لذة ودليل قاطع لا مرد عليه

ففي تاريخ رومية يرد عن نوما بومبيليوس ملك رومية الثاني (من سنة ٧١٥ — ٦٧٣ ق : م) [١] أنه كان قبل دعوته الى أبوة الشعب أي الملك عاكفاً على العبادة والتأمل في ما وراء الطبيعة منفرداً بنفسه إلى الكهوف تنسكاً. فدعي من تلك الوحدة إلى الاستواء على العرش فأبى قائلاً : أية منفعة للشعب من ملك يصرف همه الى توطيد السلام والعدل وحض الناس على التقوى. لكنه أجاب بعد امتناع لأمارة [٢] دينية أقنعته أنه مدعو إلى الملك من قبل الحكمة السماوية. وملك ثلاثاً وأربعين سنة فتمتع في عهده الشعب الروماني بسلام تام فلم يشنوا [٣] غارة على أحد ولم يشن أحد الغارة عليهم.

---

(١) عن النهج القويم في التاريخ القديم لهارفي بورثر وتاريخ رومية لنجيب ابراهم ضراد (٢) علامة (٣) شن الغارة صبها على وجه التشبه من صب الماء من اناء

فكانَ مَحبُوباً من شَعبِهِ ومنَ الشعوب المَجاورَةِ لِشَعبِه فَلَمَّا ماتَ بكاهُ الشَّعبُ بُكاءَ اليَتيمِ عَلَى أَبيهِ[1]

وكانَ الأَمبراطورُ الروماني انطونينوسُ (من سنة ١٣٨ — ١٦١ ب : م) حَلِيماً فاضِلاً رَقيقاً عَطوفاً جادًّا في خَيرِ الناسِ ورَفاهيَتِهم بعيداً عن كلِّ ما يُؤذيهم . وَلَم يَعنِ بمَجدِ نَفسِهِ بَل براحةِ مَملَكَتِهِ فَدُعِيَ بعَدل (بيوس) أَي التَّقيَّ فَلَم يَحدُثْ في عَهدِهِ حَربٌ أَو هيَجانٌ أَو شيءٌ مِمَّا يَستَحِقُّ الذِّكرَ فتَمَتَّعت أُمَّةُ الرُّومانِ مُدَّةَ مُلكِهِ بالرَّاحةِ والأَمان .وكانَ فَيلَسوفاً من رُتبةِ الرِواقيينَ وذَهَبَ مَذهَبَهم في التَّعَفُّفِ وقَمعِ الشَّهواتِ وَاحتِمالِ النَّكَباتِ وَلَم يُكَلِّفْ غيرَهُ ما لا يَحتَمِلُهُ هُوَ نَفسُهُ . فَشَرَّفَ طائفَتَهُ بفَضائِلِهِ وأَحسَنَ إِلى الجَميعِ وانتَشَرَ صيتُهُ بَينَ الأُمَمِ المُجاوِرَةِ لِسَلطَنَتِهِ . وَقيلَ إِنَّ بَعضَها طَلَبَ الانضِمامَ تَحتَ لِوائهِ لِلاستِظلالِ بعَدلِهِ ولُطفِهِ فَأَبَى . إِذ لَم يَطمَحْ الى توسيعِ نِطاقِ سَلطَنَتِهِ واعتَنَى بأُمورِ الوِلاياتِ وأَنشَأَ

---

(١) (تاريخ رومية لنجيب ابراهيم طراد الصفحة اا ٢٤)

فيها المدارسَ ورَقّى التجارةَ ووسَّع نطاقَها[١] فتأريخُ هذا السلطانِ المتديّنِ من أجملِ ما يعرضهُ تاريخُ رومية على الناسِ للائتمارِ بالمصلحةِ العموميةِ التي فيها الخيرُ العميم

وكانَ عُمَرُ ابنُ عبدِ العزيزِ المَرْوانيُّ مِنَ التعبُّدِ للهِ والعملِ بأوامرهِ والانتهاءِ عن نواهيهِ بمنزلةٍ دانت منزلةَ الخلفاءِ الراشدينَ وفاقَ من سبقَهُ منَ الامويّينَ فساسَ الناسَ سياسةً حسَنةً وأثّرت جُودةُ سيرتِهِ فيهم فكانَ الرَّجلُ إذا رأى في صباحِهِ أخاهُ او صديقَهُ سألَهُ من كانَ عندكَ أمسِ منَ القُرّاءِ وكم جُزءًا (من القرآن) قرأتَ البارحة . فكانت رغبةُ الناسِ منصرفةً إلى ما يُولي الثوابَ يومَ الحساب

والرواياتُ عن عُمَرَ ابنِ عبدِ العزيزِ لا تقتصرُ على ما كانَ من شأنِ الناسِ في لزومِهم العملَ بالمعروفِ والانتهاءِ عنِ المنكرِ . فتعدّت إلى أنَّ الحيوانَ المفترسَ كفَّ عنِ الأذيّةِ . في كتابِ الإمامةِ والسياسةِ للإمامِ الفقيهِ

---

(١) (تاريخ بورتر صفحة ٥١٥)

عبدِ اللهِ ابنِ مُسلمٍ ابنِ قتيبةَ المُتوفّى سنة ٢٧٠ هـ ما نصّهُ :

ذَكَرُوا أنّ رجلاً من أهلِ المدينةِ قال : وَفَدَ قَوْمٌ من أهلِ المدينةِ الى الشامِ فنزلوا برجُلٍ في أوائلِ الشامِ مُوسَعًا عليهِ تَرُوحُ عليهِ إبلٌ كثيرةٌ وأبقارٌ وأغنامٌ فنظرُوا الى شيْءٍ لا يَعلَمُونَهُ غيرَ ما يعرفونَ من غضارةِ العيش . إذْ أقبلَ بعضُ رُعاتهِ فقال . إنّ السَّبُعَ عَدا اليومَ على غنمي فذهبَ منها بشاةٍ .فقالَ الرَّجلُ : إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون . ثم جعلَ يأسفُ أسفاً شديدًا فقلنا بعضُنا لبعض . ما عندَ هذا خيرٌ . يتأسّفُ ويتوجّعُ من شاةٍ أكلَها السَّبُعُ . فكلّمَهُ بعضُ القومِ قالَ لَهُ : إنّ اللهَ تعالى قد وسّعَ عليكَ فما هذا التوجُّعُ والتأسّف . قال : إنهُ ليسَ ممّا ترَونَ ولكنّي أخشى أن يكونَ عُمَرُ ابنُ عبدِ العزيزِ قد تُوُفّيَ الليلة . واللهِ ما تعدّى السَّبُعُ على الشاةِ الا لموتهِ . فأثبتوا ذلكَ اليومَ فإذا عمرُ قد تُوُفّيَ في ذلكَ اليوم[1]

فإذا كانَ تأثيرُ رأسِ الحكومةِ يمتدُّ الى الوُحوشِ

---

(١) (صفحة ١٢٥ من الجزءِ الثاني طبع سنة ١٣٢٥ هـ)

الضَّارِيةِ فتَجتَنِبُ الأَذى فبالأَحرَى أَن تمتدَّ في شُعوبِ الأَرضِ ولا سيَّما شعبهُ المؤتَمِرَ بأَمرهِ الناظرَ الى هَديِ مِنهاجِهِ . فالمَلِكُ المتديّنُ رحمةٌ من اللهِ عامةٌ للناسِ وخاصةً للشعبِ الذي ينقادُ إليهِ . ولا عَجَبَ . فاللهُ إلهُ الرحماتِ والعدلِ ربُّ الجميعِ .سحابُ رحمتهِ للمَلِكِ الصالحِ بأَن يُسلِسَ لهُ قيادَ شعبهِ في ما يوليهِ قرَّةَ عينٍ وانشراحَ صدرٍ . وللشعبِ المباركِ بأَن يَكِلَ أَمرهُ الى مَلِكٍ حكيمٍ نيرهُ خفيفٌ والخيرُ بهِ مُطيفٌ . وسَوطُ[1] عدلهِ للمَلِكِ الغاشمِ بأَن يجمحَ شعبهُ من تحتِ نيرهِ الثقيلِ . وللشعبِ البَطِرِ بأَن يسوقهُ مَلِكٌ جائرٌ سوقاً عنيفاً

---

(١) ما يضرب به من جلد مضفور . وقولنا سوط عدله اما من باب التشبيه البليغ باضافة المشبه به الى المشبه اي عدله كسوط . او من باب الاستعارة المكنية فيكون العدل كذي أمر والسوط بيده فقد كان الخليفة عمر الفاروق يأخذ بيده الدرّة وتبعه بذلك عثمان ذو النورين

الفَصلُ التاسعُ والعُشرُونَ

حاجةُ كلِّ انسان الى الاعتصام بالدين

تَتَعَدَّدُ الشؤُونُ في حَيَاةِ كُلِّ إِنسانٍ فلا بُدَّ من أَن يكونَ رئيساً أَو مرؤوساً وغَنِيًّا أَو فقيرًا وصَحيحاً او عَليلاً وغالباً عَلى أَمرِهِ أَو مَغلوباً عليه . وهُوَ في كلِّ شأْنٍ من هٰذهِ الشؤُونِ في حاجةٍ الى أَن يُنيرَ فؤَادَهُ بِضياءِ الدِينِ ليأْمَنَ شَرَّ العِثارِ . ويَقتَطِفَ من رَوضِ الكَرامةِ أَشهى الثِمارِ

إِذا كانَ رئيساً فَالدِينُ يَهديهِ الى الوَسائِلِ الَّتي تَجعَلُ النفوسَ مُنقادةً إِلَيهِ وَيُبَيِّنُ لَهُ سَبيلَ العَمَلِ الناجِحِ والغايةَ المرجوَّةَ منهُ .فالرئيسُ المتَدَيِّنُ عَطوفٌ عَلى مرؤُوسيهِ صادِقٌ في مُعامَلَتِهِ يُريدُ الخَيرَ في عَمَلِهِ ويُعرِضُ عنِ الشرِّ فلا يَقسُو عَلى عامِلٍ تَحتَ يدِهِ ولا يَبخَسُ عميلَهُ حَقَّهُ ويَأْبَى الرِبحَ عَن طَريقِ الغِشِّ والخِداعِ ويَندَفِعُ الى مَيدانِ المَبَرَّةِ من حَيثُ أَمكنَهُ الدُخولُ لِإِيقانِهِ بأَنهُ وُلِدَ ليكونَ عامِلاً بالبِرِّ دُونَ البُؤْسِ والأَذَى

وإن كانَ مَرؤُوساً . فالدِينُ يُدَرِّبُهُ على العَمَلِ بأَمانةٍ وَنَشاطٍ ويُحَبِّبُ إِلَيهِ الربحَ القليلَ مِنَ الوَجهِ المشروعِ ويكُفُّهُ عن الربحِ الكثيرِ منَ الوُجوهِ المحرَّمةِ . فإِنَّ الربحَ المشروعَ يُثمِرُ خيرًا لِصاحِبه فَيَسعَدُ وَالربحَ غيرَ المشروعِ لا خَيرَ فيهِ فهوَ كَنارٍ آكِلةٍ . يَذهَبُ بِنعمةِ مَن رَضِيَ بهِ

فالمالُ لا يَخرُجُ من حيثُ خرَجْ
إلاَّ مِنَ البابِ الذي منهُ وَلَجْ

ولذلكَ جاءَ في أَقوالِ الحِكمة :

إِذا عُوفِي المَرءُ في نَفسه
وأَعطاهُ مَولاهُ قَلباً قَنُوعا
فأَعرَضَ عن كلِّ ما لا يَليقُ
فذاكَ المَليكُ وإِن ماتَ جُوعا

إِذا كانَ غَنيًّا فالدِينُ يُدَرِّبُهُ في تَنمِيَتِه ثَروَتَهُ بالوُجوهِ المُحلَّلةِ شَرعاً فيُكسِبُهُ بِها السُّمعةَ الحَسَنةَ . وهيَ ثَروةٌ خَيرٌ منَ المال . ويُطلِعُهُ على وُجوهِ إِنْفاقِ ما بيدِهِ مِن فُضولِ الدُنيا لِيُعَمِّرَ بهِ دارَ آخِرتِهِ ويُسمِعُهُ ثَناءً على جَمعِهِ

المالَ مِن وُجوهِ حِلِّه وَبَذلِه في وُجوهِ حِلِّه تَهَشُّ له نَفسُهُ فيرتاحُ خاطِرُهُ إلى أنَّهُ قامَ بما يَجِبُ عَلَيهِ عَمَلُهُ قياماً حَسَناً . ويكونُ لِسانُ حالِه مُنشِدًا

ما أَحسَنَ المَالَ إن كانت مَوارِدُهُ
نَقيَّةً ما بِها غِشٌّ ولا طَمَعُ
فاستَثمِرِ المَالَ أَضعافاً مُضاعَفَةً
إن كانَ في كَنَفِ[1] الإحسانِ يَجتَمِعُ
وأَعطِهِ في مَشاريعٍ مُبارَكَةٍ
بها الهِدايةُ لِلخَيراتِ تَتَّسِعُ
رِضى المُهيمِنِ[2] سَهمٌ لِلكَريمِ إذا
ما كانَ[3] يَنفَعُ أُخواناً ويَنتَفِعُ

واذا كانَ فقيرًا دَرَّبَهُ الدِّينُ على القَناعةِ وأَراحَ ضَميرَهُ بأَنَّهُ خُلِقَ لِيَعمَلَ ما يُرضِي اللهَ . وأَنَّ الرِّضى بالقَليلِ مِنَ الوُجوهِ المُحَلَّلةِ دَليلُ جُودةِ السِّيرةِ ونَقاوةِ السَّريرة . وأَنَّ

(١) ناحية (٢) من اسمائه تعالى ومعناه الامين القائم على خلقه بارزاقهم وآجالهم (٣) ما هنا زائدة اي اذا كانت

الثَّروةَ الحقيقيّةَ ثروةُ القلبِ القنوعِ الذي يتطلَّبُ من متاعِ الدُّنيا ما كَفلَ لهُ بحفظِ حياتِهِ . فيقولُ بلسانِ حالِهِ

إذا كُنتُ أَجني البِرَّ من مَسلَكِ التُّقى
يَراهُ ضَميري طَيِّبَ الطَّعمِ كالقَطرِ
وإن كُنتُ أَجني الحُلْوَ بالشرِّ والأَذى
يكُنْ طَعمُه عِندي أَمرَّ مِنَ الصَّبرِ
فلا مُرَّ إلاَّ ما يَقودُ الى لَظًى(١)
ولا حُلوَ إلاَّ ما يَسوقُ الى الأَجرِ
وإن قيلَ إنَّ البِرَّ يَجعَلُ كُلَّ مَن
تَخَيَّرَهُ نَهجاً خَلِيًّا مِنَ الوَفرِ(٢)
وحاجاتُ هٰذا العُمرِ يَحلو حُصولُها
ولَم يَجنِ مِنها السُّؤلَ إلاَّ فَتًى مُثرِ(٣)
ومَن يطلُبُ الإثراءَ يَنْهَجُ في أَذى
سِواهُ فَصُنعُ السُّوءِ يَحدُثُ بالقَسْرِ(٤)

(١) نار (٢) الغنى (٣) جنى الثمرة قطفها والسؤل الحاجة والمثري الغني (٤) اي قهراً عن غير رضى

أُجِيبُ رِضَى القَدُّوسِ أَكْرَمُ مَا رَبُ
أَهِيمُ بِهِ فِي سِرِّ أَمْرِي وَفِي جَهْرِي
فَإِيَّاهُ أَبْغِي مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ
عَلَى حُبِّهِ أَحْوِ السَّعَادَةَ فِي الحَشْرِ
فَفَقْرِيَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الفَقْرُ حِينَمَا
أَقُومُ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ ضَجْعَةِ القَبْرِ
وَفِي تَرْكِ مَا يَفْنَى لِأَحْظَى بِخَالِدٍ
دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ العَقِيدَةِ وَالصَّبْرِ
فَمَنْ تَبِعَ المَذْمُومَ فِي طَلَبِ الغِنَى
يَكُونُ الغِنَى شَرًّا عَلَيْهِ مِنَ الفَقْرِ

إِذَا كَانَ صَحِيحَ البِنْيَةِ فَالدِّينُ يُدَرِّبُهُ أَنْ يَهِبَّ الى العَمَلِ بِنَشَاطٍ وَبِعَطْفَ عَلَى الأَعِلَّاءِ مُوَاسِيًا كُلَّ ذِي ضُعْفٍ مُوقِنًا بِأَنْ مُوَاسَاةَ العَلِيلِ تَسْتَنْزِلُ لَهُ بَرَكَةً سَمَاوِيَّةً تَملأُ حَيَاتَهُ رَغَدًا . فَيَصْرِفُ مَا أُعْطِيهِ مِن قُوَّةٍ إِلَى مَبَرَّةٍ يَرْجُو ثَوَابَهَا مُنْتَصِحًا بِقَوْلِ القَائِلِ

وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعلُ نفسَهُ
فَفي صالحِ الأعمالِ نفسكَ فاجعلِ

وإن كانَ عليلاً فالدِّينُ يصونُ لسانَهُ عَنِ التذَمُّرِ لِسُوءِ ما يُعانيهِ ويُنطِقهُ بالشُّكرِ للهِ على جلائلِ نعمِهِ فإنَّ أحكامَهُ عدلٌ ومرحمةٌ ولا جورَ فيها . والشُّكرُ للهِ في آنِ البَلوَى يأتي بالفرَجِ ويدفعُ غائلةَ الحرَجِ (١) ويُقِرُّ السكينةَ في المُهَجِ . فلا مُعينَ على الشِّدَّةِ الا مَراحِمُ اللهِ . ولا تكونُ مرحمة إلاّ لِمَن استنزلَها من سماواتِ ربِّهِ بقلبٍ خاشعٍ ولِسانٍ ضارعٍ وكم بلوَى أدَّت الى جدْوى (٢) وكم نكبةٍ نزلَت بعاقلٍ فاستخرجَ منها لنِعمةَ باتباعِهِ نهجَ الفضيلة وإبائِهِ مُتابعةَ الرذيلة فهو يقول

الحمدُ للهِ في سرٍّ وفي علَنٍ
في العُسرِ واليُسرِ في ضعفٍ وفي حوَلِ (٣)
للشَّملِ مجتمِعاً او غيرَ مجتمعٍ
للعُمرِ مُكتمِلاً او غيرَ مُكتمِلِ

---

(١) الضيق (٢) عطية (٣) قوة

فِي الفَجرِ فِي اللَّيلِ فِي آنِ المَلالِ وفِي
آنِ البُروزِ إِلَى سَعْيٍ بلا مَلَلِ

إِذا كانَ غالِباً عَلَى أَمرِهِ فالدِينُ يَحجزُهُ عن أَن يَتَجاوزَ حَدَّهُ كما تُرِيدُ طَماعَةُ النَّفسِ ويَجعلُهُ عامِلاً بِمِلءِ طاقَتِهِ فِي دَفعِ المَظالِمِ وإِيصالِ كلِّ ذِي حَقٍّ يَقوَى عَلَى إِعانَتِهِ إِلى حَقِّهِ

فالدِّينُ سَدٌّ حاجِزٌ عَن سَيِّءٍ
وطَرِيقُ هَدي فِي الفِعالِ الصالِحَهْ
فَأَخو التَّدَيُّنِ نَفسُهُ تَوّاقَةٌ
لِمَبَرَّةٍ وعَنِ الإِساءَةِ جانِحَهْ (١)

وَإِن كانَ مَغلوباً عَلَى أَمرِهِ فالدِّينُ يُعَزِّي فُؤادَهُ أَجمَلَ تَعزِيَةٍ فَيقولُ لَهُ : إِنَّ اللهَ نَصيرُ المَظلومِينَ وإِنَّ يَومَ المَظلومِ عَلَى الظالمِ أَشدُّ من يَومِ الظالِمِ عَلَى المَظلومِ . وإِن وُقوعَ الظُلمِ قد يكونُ مِن أَسبابِ نُموِّ المظلومينَ فإِنَّ فِرْعونَ موسى وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَن يُبيدَ بني إِسرائيلَ فأَوْجَبَ عليهم

(١) تواقة راغبة وجانحة حائدة

مِنَ المَشاقِّ وسَنَّ من الأَحكامِ ما خالَ[١] أَنَّ استِئصالَهُم به مَحتومٌ. فكانَ عَن ذٰلِكَ أَنَّ الشَّعبَ نَما وكَثُرَ جدًّا[٢]

وكانَ الحَجَّاجُ ابنُ يُوسُفَ الثقفي يَجورُ على الخَوارِجِ أَشَدَّ جَورٍ فقالَ لِامرأَةٍ مِنهم : إني لأَحصِدُكم بالسَّيفِ حَصْدًا . فأَجابَتهُ : أَنتَ تَحصُدُ ، واللهُ يَزرَعُ . فما تَقتُلُ مِنَّا واحدًا حتى يَنضَمُّ إِلَينا عَشَرة ، فأَينَ قُدرةُ المَخلوقِ مِنْ قُدرَةِ الخالِق . فالشِّدَّةُ لا تُبِيدُ حِينَ يكونُ الرَّجاءُ بالبَقاء قَوِيًّا . قال الإِمامُ عليُّ ابنُ أَبي طالبٍ بَقِيَّةُ السيفِ أَنما عَدَدًا . وقال أَحمدُ ابنُ الحُسَينِ المتنبي

فَما الخَوْفُ إِلاَّ ما تَخَوَّفَهُ الفَتَى
ولا أَمن إِلا ما رآهُ الفَتَى أَمْنا

فالدِّينُ هو الذي يُهَوِّنُ العَسيرَ ، ويُحَسِّنُ المَصير

مَن كانَ شابًّا فالدِّينُ يُحَذِّرُهُ مِنَ الإِقبالِ عَلَى هَوَى نَفسِهِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ . ويَردَعُهُ عن شُرورِ الشَّبِيبةِ ويُخَوِّفُهُ

---

(١) ظن (٢) الفصل الاول من سفر الخروج ثاني أسفار توراة موسى

منْ امتِطاء مُتونِ[1] المَلاهي والانجِذابِ الى المَعصيةِ ويُذَكِّرُهُ بما أَعَدَّهُ اللهُ مِن جَزيلِ الثَّوابِ لِمَنْ غَلَّبَ عقلَهُ على هَواهُ وأَصغى الى صَوتِ الدِّينِ وأَعرَضَ عن دَعوةِ الغَيِّ واختارَ الحَلالَ على الحَرامِ ولَزِمَ نَهجَ الكَمالِ في الأَقوالِ والأَعمالِ

خَيرُ الشَّبيبةِ ما أَخلَقتَ رَونَقَهُ
بِطاعةِ اللهِ في قَولٍ وفي عَمَلِ
وكُنتَ مقتَدِياً بالمُتَّقِينَ فَلَم
تَكتُبْ بِسِفرِكَ ما يُفضي الى خَجَلِ

ومَن كانَ شيخاً فالدينُ يُنعِشُ فؤَادَهُ بأَنَّهُ جازَ عَهدَ الغَيِّ وانتَهى الى عَهدِ الحِكمةِ وأَنَّ دعوتَهُ بَعدَ بَقيَّةِ جِهادِهِ في الحَياةِ الدُّنيا الى نَعيمٍ خالِدٍ فيُثابُ بِهِ على عَمَلٍ مَبرورٍ وسَعيٍ مشكورٍ

---

(١) امتطى . صار على مطاه وهو الركوب عليه والمتن من الظهر هو ما اكتنفه من يمين وشمال من العصب واللحم

«فما هذه الدنيا بدار إقامة
وما الناس إلا راحل بعد راحل »
فأحسن صنيع الصالحات تحز بها
أجل ثواب يوم حشد القبائل
فما رحمات الله إلا لمنفق
مدى العمر في حسن التقى والفضائل

الفصل الثلاثون

التساهل الديني

إتخذ الإنسان الدقيق الذي لا غنى له عن إدخاله في مواد اغتذائه من حبوب متعددة . فيكون من قمح والشعير والذرة والجاودار والأرز والفول وسواها . ومن غير الحبوب كالبطاطا . ومن ثمار لأشجار في بعض أقاليم أميركية يطحن الناس ثمر الموز بعد تيبيسه فيقوم دقيقه مقام دقيق الحنطة . ويستخدم فريق من العرب التمر بدلاً من الحنطة . ويستخرج فريق من سكان البرازيل

جـذرًا ينمو في الارض لنفسه كما تنمو الكمأة في القطر السوري لنفسها فيغسل ويطحن ويذرّ على ألوان الطعام فيغني عن الخبز . ويستعيض بعض الهنود بثمار النارجيل[1] عن الخبز والماء معاً . ونطاق هذا الباب متسع وفي ما ورد كفاية الى الإدلال على أن بين الناس اختلافاً في اختيار مادة الغذاء

وكل من ألف طعم مادة من المواد التي ذكرناها ذهب الى أنها أنسب المواد للاغتذاء أو قال إنها هي المادة المعينة للتغذية من قبل الله المعتني بالناس لتكون لهم غذاء . فمن سورية الذي ألف طعم الحنطة لا يمكنه أن يقنع الروسي بأن الحنطة أفضل من الجاودار ولا الكوبي بأن الحنطة أفضل من الموز ولا الهندي بأن الحنطة أفضل من النارجيل بل لا يستطيع من يفضل الحنطة ان يقنع من يفضل الذرة على حين أنهما في نطاق حكومة واحدة وفي صقع[2] واحد كابن طرابلس

(١) المعروف بجوز الهند (٢) ناحية

الشام وابن عكار [1] وعلى استحسان كلّ ذي مشربٍ مشربه جاء المثل العربيّ «كلّ فتاةٍ بأبيها معجبة»

والحقيقة التي لا ريب فيها هي أنّ الغرض من استعمال الحنطة وسواها غذاء واحد فكما يعيش السوريّ بالحنطة او بالذرة او بالشعير [2] يعيش اليابانيّ بالأرز وكما يكون عند السوريّين أقوياء وضعفاء يكون عند اليابانيين كذلك . فلا تكون القوّة ولا الضعف من سهم قومٍ دون سواهم

ولا يقتصر اختلاف الناس على مادّة الطعام فهم أيضاً لا يألفون مادّة واحدة في ملابسهم فمنهم من يتّخذ ثوبه من الصوف وآخر من الحرير وثالث من القطن ورابع من الكتّان وخامس من جلد الحيوانات . ولا لوم ولا تثريب على هذا التعدّد فإنّه كلّه يؤول الى غاية واحدة هي

---

(١) الحنطة غذاء الكثيرين في طرابلس الشام والذرة الغذاء لكثيرين في عكار (٢) الاشارة الى هذه الحبوب لأن السوريين يقتصرون عليها

الاحتفاظُ بالحَياةِ . والمَوادُّ الحريريَّةُ والصوفيَّةَ والكَتَّانيَّةُ وما عَلى نَمَطِها تَعمَلُ في خِدمةِ الوُجودِ الإنساني

وهكذا نَجِدُ التَّعَدُّدَ عادَ الى وَحدةٍ في الغايةِ . فالحِنطةُ وأَشباهُها تَملأُ الجَوفَ والحَريرُ وأَمثالُهُ تكسُو الجَسَدَ . بَل نَجِدُ الطعامَ والمَلبَسَ والمَرقَدَ وسِواها تعملُ لِغايَةٍ واحدةٍ هِيَ حِفظُ حَياةِ الإنسانِ

وَإِذا كُنَّا نَرَى الاختِلافُ بَينَ الناسِ واقعاً في تَفضيلِ المَحسوساتِ فيُفَضِّلُ الواحِدُ البُرَّ(١) والآخَرُ الأُرْزَ فلا عَجَبَ أَن نَرى الاختِلافَ حاصِلاً في ما هُوَ عَقليٌّ المادَّةِ ولاسيَّما الدِينُ الذي يَتَكَلَّمُ في شُؤُون مَصدَرُها يَسْمو العَقلَ البَشَريَّ فيقبلُ بها عَن إِيمانٍ لا عَن مَعْرِفةٍ اي يَقبَلُها تَسليماً بأَنَّها واردةٌ وَحْياً إِلهيًّا لا لِأَنَّ مَعرِفَتَهُ اتَّصلَت إِلَيها . فاجتِماعُ الناسِ على دِينٍ واحِدٍ لَمْ يَرِدْ مُنذُ تَعَدَّدتِ الشُعوب

يَروِي تاريخُ شارلكان أَنهُ بَذَلَ جَهْدًا جَهِيدًا بأَنْ

---

(١) هو القمح

يَجمعَ كلَّ الشعُوب الَّتي مِنها تتأَلَّفُ امبراطورِيَّتهُ إلى وَحدةٍ في المَذهَبِ فلم يُفلِحْ . وفي أَواخِرِ حَياتِه تَخلَّى عَنِ العَرش لابنِهِ وانقطَعَ إِلى دَيرٍ فجعَلَ دَأْبَهُ أَن يَتلاهى بِعَمَلِ ساعاتٍ رَمليَّةٍ (١) واعتَنى بضَبْطِها بحَيثُ تكونُ دَلالاتُها على انتهاء الوَقْتِ مُتفِقةً فَلَمْ يُفلِحْ فكان بينَها تَغايُرٌ (٢) . فقالَ في نَفْسِهِ : اذا استحالَ عَلَيَّ أَن أُوَفِّقَ بَينَ دَلالاتِ الساعاتِ الرَّمليَّةِ المَصنوعةِ باليَدِ توفيقاً يُزيلُ من بَينِها كُلَّ تَغايُرٍ فَبالأَولى أَنهُ يَستحيلُ عَلَيَّ أَن أُوَفِّقَ بَينَ الشعُوبِ المُتغايرَةِ على تَوحيدِ المُعتَقَدِ (٣)

وكلُّ حُكومةٍ مُنصِفةٍ تَعلَمُ هذهِ الحَقيقةَ — حقيقةَ تَغايُرِ الناسِ في مُعتَقَداتِهِم فهيَ تُجيزُ أَن يَتَغايَرَ أَبناءُ الأُمَّةِ في اتِّباعِ المُعتَقَداتِ الدينيَّةِ وأَن تكونَ المُجادَلةُ

---

(١) الساعات الرملية تتألف من دائرتين عليا وسفلى والعليا ذات ثقوب يُوضع الرمل في هذه الدائرة فيسقط من الثقوب شيئاً بعد شيءٍ ويكون هذا السقوط في مدى محدود (٢) أي ان الساعتين لم تتفقا فأتمت الواحدة اسقاط الرمل قبل رفيقتها (٣) ورد ذلك في خاتمة كتاب تاريخه المطبوع في مطبعة بولاق الاميرية

في أُمور الدِّينِ — اذا دَعَت اليها ضَرُورَةٌ — بالحُسنى فَلاَ إِكْرَاهَ في الدِّينِ —

عَلى أَنَّ الأَديانَ الَّتي يَجوزُ اعتِناقُها وَيَحقُّ التَّساهُلُ لِمُعْتَنقِيها يَجِبُ أَن تكونَ غيرَ ذاتِ مَصدَرٍ مَنبوذٍ[1] . فالاعتِقادُ « بأَنَّ الاوهيةَ مُتَعَدِّدةٌ وأَنَّ الآلِهَةَ لا تُحِبُّ ولا تُبغِضُ ولا تَشفَقُ ولا تَغضَبُ . ولا تُبالِي بالبَشَرِ عَلَى الإِطْلاقِ لا يَهِمُّها شأْنُ أَحَدٍ ولا تُشغِلُها عِنايَةٌ بل هِيَ مُنهَمِكَةٌ أَبَدًا بالمَسَرَّاتِ » كما شَرَحَ الفيلسوفُ سيناسُ قَواعِدَ الدِّينِ الذي ذَهَبَ إِلَيهِ ابيقوروس[2] وكالاعتِقادِ بأَن الدَّهرَ أَوجَدَ كلَّ شَيْءٍ[3] . وَأَمثالُ مَبادِيءِ هٰذَينِ الدِّينَينِ الكاذِبَينِ لا تَجُوزُ لِأَنَّها تُناقِضُ دِينَ الحكومةِ مُناقَضَةً وَلا وَجهَ تَوفيقَ . ولأَنها تَرمِي إِلى شعائِرَ تُفسِدُ

(١) مطروح (٢) انظر صفحة ١٠٥ من كتاب تاريخ رومية لنجيب ابراهيم طراد طبع بيروت (٣) جاءَ على ذلك نصٌّ في القرآن الشريف في آية كريمة هي « وقالوا ما هيَ الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » سورة الجاثية

الآدابَ فيقعُ بانتشارها الضَرَرُ على العِرضِ والدَّمِ والمال..
وللحكومة ان تَمنَعَ بَواعِثَ الضَّرَرِ اللاحقِ بهٰذِهِ الشؤُونِ.
فإذَنْ مَنْعَ كلِّ ما يُؤَدِّي إلى إحداثِ ضَرَرٍ على ما صِيانَتُهُ
مِنْ شُؤُونِها الخُصوصيَّةِ حَقٌّ لَها لا تُنازَعُ بِهِ وبهٰذا الحَقِّ
تَتَذَرَّعُ لِمُقاتَلةِ كُلِّ دِينٍ مَبْدَأُهُ شِرِّيرٌ

الفَصلُ الحادي والثلاثون

ما يُقبلُ مِنَ الأديانِ وما لا يُقبلُ

يُقبَلُ مِنَ الأديانِ ما دَعا الى تَوحيدِ اللّٰهِ تَعالى. وتَكَلَّمَ بِقَداسةِ أَحكامِهِ، وأَنَّهُ واجِبُ الوُجودِ. لا بَداءَةَ لهُ في زَمَنٍ لِأَنَّهُ أَوجَدَ الزَّمَنَ. ولا نِهايةَ لِمُلكِهِ فَهُوَ الأَزَلِيُّ الأَبَدِيُّ. يُعاقِبُ على الشَرِّ ويُثيبُ على الخَيرِ. أَحاطَ عِلمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ولا شَيْءَ يُحيطُ بِهِ. إنْ عاقَبَ فَعُقوبَتُهُ عادِلَةٌ، وإِنْ عَفا فَعَن رَحمةٍ لا حَدَّ لَها. عِنايَتُهُ بِخَلائِقِهِ كَعِلمِهِ بِها لا تَزالُ على غَيرِ احتِجابٍ. فإنْ حَجَبَ رَحْمَتَهُ عَنْ

مُسِيءٍ فَلِكَي يُعامِلَهُ بِعَدلٍ لا عَجزًا عَنْ إِحسانٍ ولا إِهمالاً لِحِسابِهِ

ولا يُقبَلُ ما يَجعَلُ الأُلوهةَ مُوَزَّعةً بين عَديدينَ فواحِدُ إِلهُ حربٍ وآخرُ إِلهُ حِكمةٍ وثالثٌ رَبُّ قَضاءٍ ورابعٌ رَبُّ المياهِ الى غيرِ ذَلِكَ(١) ولا ما يُؤَلِّهُ الشَّرَّ(٢) . ولا مايَستَحدِثُهُ الإِنسانُ ويَجعَلُهُ مُتَّصِفًا بالالُوهةِ كالوَثَنِ(٣) ولا ما يُؤَلِّهُ المادَّةَ في الأُفُقِ كالشَّمسِ والقَمَرِ(٤) او في الأَرضِ كالعِجلِ والتِّمساحِ والأَفعى(٥) ولا ما يَرِدُ عَنهُ أَنَّ الثَّوابَ والعِقابَ الأَبَدِيَّينِ لا صِحَّةَ لَهُما(٦) . ولا ما يُؤَلِّهُ أَعضاءَ البَشَرَةِ والشَّهَواتِ البَهِيمِيَّةَ(٧)

---

(١) هكذا كان يعتقد اليونانيون والرومانيون في عهد كفرهم (٢) كاعتقاد الفرس قديماً واليزيديين الآن (٣) كان ذلك في أمم كثيرة ومنهم العرب قبل الاسلام ولا تزال أمم في الشرق الاقصى على هذه الديانة الباطلة (٤) عبدت أمم كثيرة في القديم النجوم (٥) عبد المصريون القدماء العجل والتمساح وعُبدت الافعى في الهند (٦) كان ذلك عند فرقة من اليهود فان الصدوقيين كانوا يقولون ليس قيامة (انجيل متى العدد ٢٣ من الفصل ٢٢) (٧) هذا مقامٌ لايجوز أن يتجاوز الكلام فيه الاشارة

تَقبَلُ الأَدْيانُ المُنزَلَةُ (الموسويةُ والمسيحيَّةُ والإِسلاميَّةُ) فإِنها مُتَّفِقةٌ عَلى أَنَّ اللهَ واحِدٌ وأَنَّ كُلَّ شيءٍ مَوجودٌ عَن إِيجادِهِ تعالى لَهُ . وان كُلَّ إِنسانٍ أَمامَهُ الثَوابُ والعِقابُ على ما قَدَّمَهُ في حَياتِهِ من صالحٍ او رَدِيءٍ . وما من شَيءٍ في السَّماواتِ ولا في الأَرض الاَّ وعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بِه (١) فلا جَهلَ ولا نِسيانَ يَدنُوانِ منه تَعالَى ولا إِحسانَ ولا إِساءَةَ بِدُون حِسابٍ لَدَيهِ إِلاَّ أَنهُ رحيمٌ غفورٌ تَوَّابٌ عمَّن تابَ عن إِثمِهِ .

وقُصارى القولِ : أَنَّ التَساهُلَ في الدينِ يَصِحُّ في ما لا يَجُرُّ وَيلاً عَلى المَجموعِ البَشَرِيِّ أَمَّا إِن حَدَثَ عنهُ ضَرَرٌ فالضَّررُ يُزالُ

-(الفَصلُ الثاني والثلاثونَ)-

الحكومة والانسانُ

لَم يَمُرَّ على الإِنسانِ زَمَنٌ كانَ فيهِ خِلوًا مِن حُكومةٍ

(١) النص على ذلك واردٌ في الكتب السماوية على غاية الصراحة

وذلك لأنه لا يمكن أن يكون تآلف بين اثنين بدون اتفاق على رابطة ما فنظام الحكومة (الرابطة) موجود في كل موجود. ولبيان هذه الحقيقة يقال

لا يكون جسد بدون نظام فالإنسان في شخصيته يمثل حكومة فإن أعضاءه تعمل أعمالها على توافق بينها وهذا التوافق نظام لها تتبعه في شؤونها

فالعين تقوم بخدمة الجسد بأنها تريه الشيء كما هو ومكانه من القرب والبعد. والرجل تقوم بخدمة الجسد بأنها تحمله الى حيث شاء الذهاب على مقدار ما أعطيت قوة. واليد تقوم بخدمة الجسد بأن تدني إليه او تبعد عنه ما يشاء. فلا تكون الرجل أذناً تسمع، ولا العين يداً تدني وتبعد وهلم جرا

وأقل عدد الحلقة تجمع الاثنان. إما ذكر وأنثى او ذكران او أنثيان ولا يجتمع اثنان الا كان بينهما تفاوت في شؤون حسية وعقلية فإذا اجتمع ذكر وأنثى فالذكورة أصلب عوداً فهي أقدر على معاناة المشقة والانوثة ألين

عوداً وهي أرأف قلباً . فالجمع بين ذكر وأنثى يستلزم سيادة لأحدهما على الآخر بحسب اعتبارات لها وجوه متعددة . وكذلك لا بد من أن يتقدم أحد الذكرين على الآخر بمقتضى اعتبار ما هو إما السن او العلم او الوجاهة او الثروة او الوظيفة الى غير ذلك . وبين الأنثيين من التفاوت ما بين الذكرين

واذا رجعنا الى الوضع الانساني وجدنا ألفة الذكر الواحد والانثى الواحدة بحيث يصيران زوجين هو الأساس المعول عليه في العمران . ولا بد من أن يكون للذكر سيادة على الانثى بمقتضى ما جاء في الأديان السماوية (١) وهذه السيادة من أوضح دلائل وجود

---

(١) في التوراة ان الله القى سباتاً على ادم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة واحضرها الى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة لانها من امرء أخذت

١ تك ٢ : ٢١ — ٢٤

فأثبتت التوراة سيادة الرجل للمرأة لأن الفرع يتبع أصله لا ان الأصل يتبع فرعه

الحكومة او أدلة الاحتياج إلى سيطرة الحكومة .

وسيادة القلب على أعضاء الجسد هي أيضاً من أوضح الأدلة على أن الإنسان بمقتضى خلقه مضطر الى التسليم بوجود الحكومة وأنه لا استغناء عن الحكومة

واحتياج الانسان الى ترتيب أوقات اتناول طعامه لحفظ سيادة القلب على أعضاء الجسد دليل على أنه حيث حكومة فلا بد من وجود نظام مرعي الإجراء

الفصل الثالث والثلاثون

الدين والانسان

الدين صلة بين الله الخالق والإنسان المخلوق قد وجدت منذ وجد الإنسان فإنه تعالى أوجد مخلوقه مطبوعاً على الدين . فالدين خاصة للإنسانية لا تنفك عنه . الدين

وفي العهد الجديد : أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب . لان الرجل هو رأس المرأة (افسس ٥ : ٢٢ و ٢٣)

وفي القرآن الشريف « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم »

ما لا حياةَ بدونه للإنسانِ فهُوَ ما يُسلَّمُ بهِ على اختلافِ القُوى العقليّةِ والأقاليمِ والعصورِ وتغايُرِ المنازعِ في مطالبِ الحياةِ ورغائبِها . فقد طافَ البُحّاثُ أطرافَ المعمورِ . واستوضحوا كلَّ شعبٍ راقياً كانَ أو مُنحطّاً فوجدوا كلَّ أمّةٍ تدينُ بدينٍ . فالاختلافُ واقعٌ في الدينِ من حيثُ المعتقداتِ والشعائرِ والسُّنَن . لا من حيثُ وجودِ الدين . فالتديُّنُ مغروسٌ في فطرةِ كلِّ إنسانٍ منذُ البدءِ وسيبقى مغروساً الى ما علمُهُ عندَ اللهِ[1] وهوَ عندَ المؤمنِ باللهِ إلى يومِ الحشرِ فما وضعَهُ اللهُ في الإنسانِ لا يستأصلهُ إنسان . ولا يتغيّرُ قضاءُ اللهِ في أمرٍ أوجدَهُ فيبقى التديُّنُ في طبيعةِ الإنسانِ كما وضعَهُ تعالى . ولذلكَ جاءَ في تعريفِ الإنسانِ أنّهُ حيوانٌ متديّن

يكثُرُ قديماً والآنَ أن يظنَّ من لهُ دينٌ أن رفيقه الذي لا يُشاركُهُ في أمرِ اعتناقه ذلكَ الدينَ رجلٌ لا دينَ لهُ وهوَ قولٌ باطلٌ . وإذا تفاهمَ الصديقانِ ظهرَ كلٌّ منهما

---

(١) اي الى أن تقوم الساعة بأمر الله تعالى

يَتبعُ دِيناً . ومن أَمثِلَةِ ذلك ما رُوِي إِمَّا واقِعاً أَو وَضْعاً أَنَّ فَتاةً يُونانِيةً كانَت تُؤْمِنُ بأَنَّ الآلهةَ ذاتُ مَوادَّ محسوسةٍ (اي أَنْصاباً) حادَثَت شاباًّ فارِسِيّاً كان يُؤْمِنُ أَنَّ الآلهةَ مُتَجَرِّدةٌ عَنِ المادَّةِ المحسوسةِ فقالت له :

— ظَنَنتُ أَنْ لَيسَ عِندَكم آلِهةٌ

فأَجابَها — كَيفَ هٰذا . مَن يَقدِرُ أَن يَعيشَ بِدُونِ آلِهة . مَن يَوَدُّ أَن يكونَ بِدُونِ مُرشِدٍ . نَعم انَّ آلِهتَنا كما نَعْتَقِدُ لا تَسكُنُ في مَنازِلَ او صُوَرٍ كما تَعتَقِدونَ لِأَن القوَّةَ ذاتَ القُدرةِ يَجِبُ أَن تكونَ موجودةً في كلِّ مكانٍ وناظِرةً وسامِعةً كلَّ شيءٍ . ولا يُمكِنُ أَن يُغلَقَ عليها داخِلَ أَبوابٍ وأَسوارٍ (١) أَي انَّها لَيسَت محصورةً في مكانٍ فَهِيَ لَيست من مادَّةٍ كالنحاسِ والحَديدِ والحِجارةِ ولا مِن لَحمٍ وَدَمٍ كالثِيرانِ والفِيَلةِ والتَّماسيحِ والأَفاعِي

---

(١) ورد ذلك في رواية الاميرة المصرية المترجمة بقلم أسعد خليل داغر عن اصل راجع الى الالمانية لان الرواية من وضع الروائي جورج ايبرس الألماني . وهذه الرواية طبعتها مطبعة المقتطف

بَقِيَ أَنَّ بعضهم يذهَبُ الى أَنَّهُ لا إِلهَ ولا دِينَ (١) . ويَرجِعُ في الوُجودِ إِلى أَنَّ المادَّةَ أَوْجَدَت كلَّ شيْءٍ وتَعمَلُ كلَّ شَيْءٍ . فهذا الذي ذَهَبَ الى إِنكارِ الدينِ — دِين الصَّلاحِ — لَهُ دِينٌ هو دِينُ شَهَواتِهِ الأَثيمَةِ التي تَقتادُهُ الى القَبائِحِ فَهُوَ يَتَذرَّعُ إِلَيها بِإِنكارِ الإِيمانِ بِأَنَّ لِلناسِ إِلهاً قَدِيرًا مُتعالِياً فعَّالاً لِما يُرِيد . فَإِذا سُئِلَ هٰذا الذي اجتَرَأَ عَلى أَن يُنكِرَ اللّٰهَ أَن يَحمِلَ طَودًا (٢) لَصَرَّح بِأَنَّه يَعجَزُ عن ذٰلِك . وَجَوابُهُ هٰذا يَتَضَمَّنُ أَنَّ قُواهُ تَحتَ حَدٍّ فَلَيسَ في طاقتِهِ حَمْلُ الطَّودِ . وكَوْنُ قُواهُ تَحتَ حَدٍّ إِقرارٌ بأَنَّ الحَدَّ مَوجُودٌ ومَتى وجِدَ الحدُّ كانَ وُجودُهُ دَليلاً عَلى وُجودِ واضِعٍ لَهُ فمُوجِدُهُ مَوجُودٌ قَبلَ وَضعِهِ حَتْماً فإِنَّ الحَدَّ لا يكونُ مِن نَفسِهِ فلا بُدَّ لِكلِّ مُستَنيرٍ مِن أَنْ يُسَلِّم بوُجُودِ واضِعِ الحَدِّ — وَهُوَ اللّٰهُ جلَّ ثناؤُهُ —

وَمِنَ الجَدِيرِ أَن يُذكَرَ أَنَّ إِنكارَ بَعضِ الناسِ في

---

(١) هذا القول قديم في الزبور «زعم الجاهل في قلبه ان لااله»

(٢) الجبل

كُلِّ جيلٍ وقُطْرٍ وُجودَ اللهِ لِكَي لا يلزمهم إقرارُهم أن يُسلِّموا بصحةِ دينٍ سماويّ لا يُعارِضُ صحةَ تعريفِ الإنسان بأنّهُ حيوانٌ متدَيّنٌ . فإنَّ الإنسانَ يُقالُ في تعريفهِ أنّهُ ذو عقلٍ صحيحٍ مع أنَّ بعضَ الناسِ قد انطفأ نورُ العقلِ منهُ وما ذلكَ إلاّ لِأنَّ الانطفاءَ من العوارضِ فلا يُفسِدُ صحةَ تعريفٍ . فإنَّ التعريفَ يأتي على مُقتَضى ما هوَ عليهِ حالُ المُعرَّفِ في الأصلِ المَعروفِ وُجودُهُ عليهِ ولا يُكتَرَثُ للعَرَضيَّاتِ والنَّوادِرِ والشواذِ الطَّارئةِ عليهِ

الفصل الرابع والثلاثون

المعتقدات والشعائر والسنن

الدينُ او الإيمانُ — اقتِناعٌ باطنيٌّ تدُلُّ عليهِ أعمالٌ صادرةٌ عياناً فكما يدُلُّ العَمَلُ الصادِرُ مِنَ الجَسَدِ على وُجودِ النَّفسِ فيهِ يَدُلُّ العَمَلُ العِيانيُّ على وُجودِ مَصدَرِهِ الاقتِناعِ الباطني . وكما استلزَمَ وُجودُ النَّفسِ في الجَسَدِ

بُروزُ العَمَلِ الجَسَدِيِّ استَلزَمَ الاقتِناعُ الباطِنيُّ العَمَلَ الدالَّ على وُجُودِ ذلِكَ الاقتناع

الاقتِناعُ الباطِنيُّ هُوَ تَسليمُنا بأَنَّ للعالَمِ المَنظورِ خالِقاً فَردًا قدُّوساً لا حَصرَ لِقُدرَتِهِ وقَداستِهِ وعِلمِهِ. وُجودُهُ مالِئٌ كُلَّ مَكانٍ وزمانٍ ولا يَحُدُّهُ المَكانُ والزمانُ. وُجودُهُ لَيسَ بِحِسّيٍّ قَطُّ لأَنَّ الحِسّيَّ مَحصورٌ بالمَكانِ والزَّمانِ.

النُفوسُ الإِنسانيةُ والمَلَكيَّةُ وإِن كانت لَيست ذاتَ جِرمٍ منظورٍ بالعَينِ البشريةِ لَها جِرمٌ لِأَنَّ كُلَّ نَفسٍ محدودةٌ لا تَكونُ الاَّ في حَيِّزٍ واحِدٍ مَحدودٍ وتَقوى عَلى الانتِقال. وكُلُّ نَفس تَكونُ منفَصِلةً عَنِ الأُخرى. وكلُّ ما يَقَعُ في تَعيينِهِ الفَصلُ فَهُوَ مَحدود. وكلُّ محدودٍ فَلَهُ جِرمٌ. فاللهُ تَعالَى رُوحٌ لا يُدرَكُ بالمِثلِ إِذ لا مِثلَ لَهُ. ولكِن يُدرَكُ بأَعمالِهِ فماهِيَّتُهُ مَحجوبةٌ وأَعمالُهُ جَلِيَّة. فالأَعمالُ تَدلُّ على ماهيةِ شأنِها في تَعيينِ الإِيمانِ الذي هُوَ اقتناعٌ باطِنيٌّ

الاعمالُ هي ما تَصدُرُ حِسيًّا من سُجودٍ وتَسبيحٍ وزَكاةٍ وصَدَقةٍ وعَمَلٍ وبَذلِ نَصيحةٍ وإِزالةِ مَضَرَّةٍ مِمّا تَراهُ العَينُ

وتَسمَعُهُ الأُذنُ وتَلمِسُهُ اليدُ ويَستَنشِقُهُ الأَنْف

مِنَ الأَعمالِ ماهو شَعائِرُ وما هو سُنَنٌ . والشَّعائِرُ أَرفَعُ شَأْنًا في بُنيانِ الدينِ اي إنَّ وُجودَ الشعائِرِ مُقَدَّمٌ على وُجودِ السُّنَنِ . فالإلزامُ بِها وَرَدٌّ الاعتِذارِ عَن وَفائِها والتَّونيبُ(١) عَلى التَقاعُسِ عَنها أَشَدُّ مما لو حدثَ إبطاءٌ في مُتابَعَةِ السُّنَنِ .

فالصَّلاةُ أُولى الشَّعائِرِ لِأَنَّها مُثولٌ لَدى اللهِ تعالى ومُخاطَبَتُهُ بِلِسانِ الشُّعورِ الباطِنِيِّ بواجبِ العُبُوديَّةِ لَهُ . فَمَن لا يَقِفُ لَدى اللهِ تعالَى ويُؤَدّي لهُ تِلكَ المُخاطَبـةَ المَرْضِـيَّةَ لَديهِ عزَّ وَجَلَّ فلا يَصِحُّ له اعتِقادٌ بِوُجودِ اللهِ تَعالَى ونُفوذِ سُلطانِهِ والخُضوعِ لَهُ واستِمدادِ الحَولِ مِنـهُ فَحيثُ وُجِدَ اعتِقادٌ وُجِدَت صَلاةٌ . وإِن انتَفَتِ الصلاة انتَفَى الداعي إِلَى وُجودِها وَهُوَ الاعتِقادُ فلا تَصِحُّ دَعوَى بِدينٍ لِمَن لا يُؤَدّي صلاةً

والصَّومُ مِنَ الشعائِرِ ولَـكِنَّ الصلاةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَيه

---

(١) الملامة بشدة

فالصَّلاةُ يَجِبُ أَنْ تؤَدَّى كُلَّ يومٍ مرارًا لا مَرَّةً والمُسلِمُ يؤَدِّيها خَمساً[١] وداوُودُ النبيُّ والمَلِكُ ذَكَرَ تأْدِيَتَها سَبْعاً[٢] ودانيالُ النبيُّ ذكرَ تأْديَتَهُ الصَّلاةَ ثلاثَ مَرَّاتٍ في اليومِ[٣] وفي الرسالةِ الأُولى الى تسالونيكي « صَلُّوا بِلا انقِطاع. أُشكُروا في كُلِّ شَيءٍ »[٤]

وأَمَّا الصومُ فلا يَكونُ كلَّ يَومٍ فَلَهُ شهرٌ مَخصوصٌ عِندَ المُسلِمينَ ولَهُ تَرتِيباتٌ مَخصوصةٌ عِندَ الموسويينَ والمسيحيين. وكانَ الموسويُّ المُتَّخِذُ له مَذهَبَ الفَرِّيسيّينَ مَبدأً مَتبوعاً يَصومُ مَرَّتَينِ في الأُسبوعِ الواحدِ[٥]

والحَجُّ من شَعائِرِ الدينِ الاسلاميِّ ولٰكِنَّ وُجوبَهُ مُقتَصِرٌ على مَرَّةٍ واحـدةٍ في العُمرِ كُلِّهِ بِشَرطِ وُجودِ الِاستطاعةِ عَلَيه فإِن حالَ دونَهُ فقرٌ او مَرَضٌ او مانِـعٌ

---

(١) كما جاءَ في الحديث النبوي في بحث المعراج وجاءَت الآية « حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسطى وقوموا لله قانتين » سورة البقرة (٢) العدد ١٦٤ من المزمور ١١٨ (٣) العدد ١٤ من الفصل ٦ من سفر دانيال (٤) العدد ١٧ من الفصل ٥ (٥) العدد ١٣ من الفصل ١٨ من سفر لوقا

كأن يكون بين مقر الراغب في الحج ومكة المكرمة حائل دون المرور كحرب أو وباء سقط إداؤه. وكان اليهود يحجون إلى خيمة الشهادة أولاً (١) ثم إلى هيكل سليمان ثانياً (٢) في كل سنة مرة. فالحج يسقطه الفقر والمرض والموانع. اما الصلاة فلا يسقط الفقر واجب إدائها

أما السنن فكالرهبانية عند النصارى والزواج عند الإسلام بمعنى أن النصرانية تجل شأن الرهبانية. والإسلام يجل شأن الزواج لا ان كل مسيحي متبتل وكل مسلم متزوج

فالمعتقدات أساس الدين. والشعائر أدلة وجود تلك المعتقدات في نفس الإنسان. والسنن تعضد الشعائر في أن الجري على مقتضاها دليل الإيقان الوطيد بصحة تلك المعتقدات

---

(١) لعدد ٧ الفصل ١ من سفر صموئيل الاول (٢) العدد ٤١ من الفصل ٣ من سفر لوقا

فالختانُ من سُنَنِ[1] الإسلاميةِ واليهوديةِ فلو أُصيبَ وَلدٌ قبلما أتى على عهدِ الختان[2] بداء البَول السُّكَّريّ الَّذي يَجعَلُ الجَسَدَ غيرَ قادرٍ على قبولِ جُرحٍ لِخُلوّ اللحم من مادَّةِ الالتصاقِ بعدَ الجُرْحِ فلا تجري تلكَ السُّنَّةُ على ذلكَ الوَلَدِ العَليلِ لأَنَّ حفظَ حياتهِ أَوجَبُ . وفي الشَّرْعِ مادَّةٌ ذاتُ صِلَةٍ بهذا الموضوعِ هي : « المَشَقَّةُ تُوجِبُ التَّيسيرَ » فيكونُ المُسلِمُ مُسلِماً وَهوَ غيرُ مَختُون إِنْ كانَ دُونَ الختانِ مانِعٌ مشروعٌ كما أَنَّهُ يكونُ مُسلِماً وإِنْ لم يَصُمْ شهرَ رمضانَ إِن كانَ مُصاباً بداءٍ او على جَناحِ سَفَرٍ . وكذلِك يكونُ مُسلِماً وإِن لم يَتَزَوَّجْ لِفقرٍ او تَعَفُّفٍ او مَرَضٍ . ولا يَكونُ مُسلِماً إِن لم يُؤَدِّ الصَّلاةَ فإِنَّ

---

(١) السنة عند المسلمين ما واظب عليها النبي عليه السلام مع الترك احياناً فان كانت المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسنن الهدى . وان كانت على سبيل العادة فسنن الزوائد . نقلاً عن محيط المحيط

(٢) اي قبل ان يبلغ الى السن التي بها يختن عادة . ووقت الختان غير معين فيجوز عند اليهود أن يكون اليوم الثامن من مولد الطفل ويجوز تأخير تلك السنة الى عهد يلي طور الطفولة

الحائِلَ دونَ تأدِيَتِها ضئيلٌ فليسَ كُلُّ داءٍ يَحولُ دُونَ الصَّلاةِ

فالمتَدَيِّنُ يعتَنِقُ المُعتَقَداتِ اعتِناقاً لا انفِكاكَ لَه ما دامت نَفسُهُ في جَسَدِهِ ويُؤمِنُ ان نَفسَهُ ستكونُ بِها أَكثَرَ شَغَفاً بَعدَ ما تُغادِرُ الجَسَدَ . وبِمُقتَضاها لا يَجوزُ أَن يَشُكَّ بِوَحدانيَّةِ اللّهِ ولا بصَلاحِهِ ولا بِوُجودِهِ في كلِّ مكانٍ وَزَمانٍ ولا بِعِلمِهِ كلَّ شيْءٍ ولا بِقُدرتِهِ على كلِّ شَيْءٍ ولا بِعِنايَتِهِ بِكلِّ شَيْءٍ بَل عَلَيهِ أَن يُؤمِنَ هٰذا الإِيمانَ دُونَ انقطاعٍ عَنهُ لَحظَةَ طَرْفٍ في لَيلٍ ولا في نَهارٍ في جَدٍّ ولا في هزْلٍ فإِن أَخَذَهُ عن ذٰلِكَ ذهُولٌ فعَمِلَ او قالَ او افتَكَرَ بِما لا يَنْطَبِقُ على ذٰلِكَ الإِيمانِ فَنَسَبَ إِلى اللّهِ أَو إِلى شرائعِهِ أَو إِلى قَضائِهِ ما يَتَضَمَّنُ حَيفاً أَو جَهْلاً فَقَد خَرَجَ بِذٰلِكَ الذُّهُولِ عَنِ الإِيمانِ

والشَّعائِرُ تُقامُ في أَوقاتٍ دُونَ أَوقاتٍ . فلا يَعكِفُ المُؤمِنُ على الصَّلاةِ لَيلاً ونَهارًا بلا انقِطاعٍ بَتَّةً لِأَنَّ عليهِ واجباتٍ تَحُولُ دُونَ ذٰلِكَ . فَعلَيهِ أَن يأكلَ ويَشرَبَ ويَنامَ

ويَعمَلَ لِلحُصولِ عَلى ما يَضمَنُ لَهُ بَقاءَ نَفسِهِ فِي جَسَدِهِ . فالذي يَحرِمُ جَسَدَهُ النَّومَ في سَبيلِ ادائه شَعيرَةَ الصَّلاةِ او الطَّعامَ منعاً بَتاتاً في قِيامهِ بِشَعيرَةِ الصَّومِ لا يُقبلُ منهُ . لِأَنَّهُ مَأمورٌ بأَنْ يَرْفُقَ بِجَسَدِهِ فَيُحَمِّلَهُ ما يَقدِرُ عَلَيهِ لَيسَ إِلاَّ . وَقَدْ عُيِّنَ لِلصَّومِ ولِلصَّلاةِ مَدًى لِوَفاءِ ما هُوَ فَرْضٌ وما هُوَ نَفَلٌ[1] فإِداءُ الشَّعائِرِ يُقبَلُ على قَدرِ الطاقَةِ ولا يُقبَلُ ما كانَ عَن طريقِ المَزيدِ عَنِ الطاقة

فالمُعتَقَداتُ تَعمَلُ بالإِنسانِ[2] فَهِيَ لا تَنقَطِعُ. فَجُودَةُ العَمَلِ وصِدقُ الحديثِ والرِفقُ بالنَّفسِ مِمَّا تَقضِي بهِ صِحَّةَ الاِعتِقادِ. والمُؤمِنُ يُظهِرُ بِها طَوِيَّتَهُ التي هِيَ حَقيقَتُهُ فَتَظهَرُ المُعتَقَداتُ في الشعائِرِ وفي ما لَيسَ مِنَ الشَّعائِرِ كالنَّومِ والمأكَلِ واللَّهْوِ

والشعائِرُ تَرجِعُ الى المُعتَقَداتِ دائِماً ولكِنَّها رُبَّما لَم تَرجِعْ الى صِحَّةِ اعتِقادٍ كالصَّلاةِ رِئاءً والصومِ عَلى أَعيُنِ

---

(١) الفرض ما لا مندوحة عن وفائه . والنفل مافي وفائه تكثير الاجر (٢) انظر كرلوسي فصل ٣ عدد ١٧ و ٢٣

الناسِ والحجّ للمُباهاةِ والإدْلالِ والتِجارةِ والصَّدَقةِ لإحرازِ الثَّناء. فهٰذهِ من ضُروبِ الغِشّ وفِخاخِ الخِداعِ

والسُّنَنُ لِحفظِ المُعتقداتِ ولِلامتِناعِ عَنِ المَنهياتِ فإنَّ الزَّواجَ سُنَّةٌ لِحفظِ الوُجودِ الإنسانيّ ولِلعِفةِ فإن بَطَلَ التَّزوُّجُ بَتَّةً ذَهَبَ وُجودُ الناسِ . وبالزَّواجِ تَصونُ الزَّوجةُ زَوجَها عَنِ الزِّنى كما يَصونُها عنهُ أَيضاً . فَمَن رَأَى أَنَّهُ يَستَطِيعُ أَن يَحفظَ جَسَدَهُ بِغَيرِ وَصمةٍ وأَرادَ بالتَّبتُّلِ أَن يَنقَطِعَ الى واجبِ عِبادَةٍ أَو إلى خِدمةِ عِلمٍ اوكان فَقيرًا او مُضطَرًّا الى مُتابَعةِ أَسفارٍ فَلهُ مارَغِبَ فِيهِ. بِشَرطِ أَنْ يَحفَظَ جَسَدَهُ بلا دَنَسٍ . فإِن رَأَى أَنَّهُ يَعجِزُ عن ذٰلِكَ الحِفظِ فَعَلَيهِ أَن يَطرُقَ بابَ الحَلالِ فقد أَوسَعَ اللهُ على عِبادِهِ بالحَلالِ ما حَجَزَهُ بالحَرامِ . ولم يَمنَعْ إِنساناً عَن مُشتَهًى إِذا تَعَمّدَ السَّيرَ في طاعةِ اللهِ وأَنْ لا يَعتَدِيَ على حَقٍّ لِسواه

فالمُعتَقَدُ مَطلوبٌ لِنفسِهِ لا لِغَيرِهِ والشعيرةُ (١) تعمل

---

(١) واحدة الشعائر

للإدلالِ علَى المُعتَقَدِ الذي استلزَمَها والسُّنَّةُ تُتْبَعُ تَسلِيماً بِتَصديقِ الدَّعوةِ التي دَعَت اليها

الفَصلُ الخامِسُ والثلاثونَ

الدينُ والحكومة

الدِّينُ والحكومةُ وُجِدا مَعاً ولٰكِنَّ الدِّينَ يُوجِدُ حُكومةً والحكومةَ لا تُوجِدُ دِيناً فَهِيَ تُوجَدُ عَنِ الدِّينِ . فالحكومةَ والدِّينُ بِمَثابةِ الكِتابةُ والنُّطقُ في الإِنسان فلا يُوجَدُ النُّطقُ إلاَّ استلزَمَ وُجودَ الكِتابةِ فِعلاً او قُوَّةً ولا تُوجَدُ الكِتابةُ الاَّ عَنِ النُّطقِ . فَكلُّ إِنسانٍ ناطِقٌ وكاتبٌ ولٰكِنَّ النُّطقَ قِوامُ الانسانيَّةُ فَلَو فَقَدَ الإِنسانُ خاصَّةَ الكِتابةِ لم خَرَجَ عن أَن يكونُ إِنساناً أَمَّا لَوْ فَقَدَ النُّطقَ لَانتَفَت عَنهُ الإِنسانِيَّةُ . ودَليلُنا علَى ذلك أَنَّ الأُمِّيَّةَ أَي حالةَ الخلوِّ منَ العِلمِ دَفنٌ لِخاصَّةِ الكِتابةِ فَلا عَمَلَ لَها . وكلُّ ما لا عَمَلَ لَهُ تَساوَى وُجودُهُ وعَدَمُهُ فيكونُ الأُمِّيُّ أَشبَهَ بِمَن فَقَدَ خاصَّةَ الكِتابةَ ولٰكِنَّ ذٰلِكَ

لا يحولُ بينَهُ وبينَ الكرامةِ وانطلاقِ يدِهِ في شؤونِهِ بل يكونُ ذلك في أحوالٍ دليلاً على صحةِ دعوى ذاتِ شأنٍ فمِن أمائرِ صحةِ النبوّةِ لصاحبِ الرسالةِ الإسلاميّةِ أنّهُ أُميٌّ . أمَّا فقدُ النطقِ فيذهبُ بالكرامةِ ويحولُ دونَ الإنسانِ وتصرّفِهِ في مالِهِ كما نرى ذلك في معاملةِ مَن جُنَّ جنونًا مطبقاً أو غيرَ مطبقٍ . فيستغني الإنسانُ بنطقِهِ عن كتابتِهِ ولا يستغني بكتابتِهِ عن نطقِهِ إذ لا كتابةَ الاَّ عن نطقٍ . وبالقياسِ على النطقِ والكتابةِ أقولُ إنَّ الإنسانَ يستغني بالدّينِ عنِ الحكومةِ ولا يستغني بالحكومةِ عنِ الدّينِ . وهذا يقالُ استنتاجاً لا واقعاً لأنَّ الواقعَ وجودُهما معاً ولم يقعِ استقراءٌ ما يردُ بهِ أنّهُ وُجِدت حكومةٌ ولا دينَ لها

الدّينُ أوسعُ مادّةً وأمدُّ حكماً منَ الحكومةِ فهُوَ للدُّنيا والآخرةِ معاً . فلا يتغيّرُ دينُ الآخرةِ عن دينِ الدُّنيا عندَ أهلِ الدّياناتِ المُنزَلَةِ . وأمَّا حكمُ الآخرةِ فهُوَ للهِ ولا نيابةَ لإنسانٍ فيهِ وحكمُ الدُّنيا للهِ والحكّامُ نوّابٌ عنِ

اللهِ فيها فبَينَ الحُكمَينِ غيرِيَّةٌ

ولمَّا كانَ للدّينِ والحكومةِ اتّصالٌ غيرُ منفكٍّ .وكانَ للدّينِ امتدادٌ إلى ما تمتدُّ إليهِ الحكومةُ كانَ الدّينُ بمثابةِ الأرومةِ والحكومةُ بمثابةِ الغُصْنِ . فالأرومةُ في طاقتِها أن تُفرِخَ غُصناً جديدًا اذا فقَدَت غُصنَها ولا يَستطيعُ غُصنُها أن يتَّخِذَ لَهُ أرومةً غيرَ التي أنبتَتْهُ . فالحكومةُ فرعٌ والدِّينُ أصل

وقد علِمَت الحكوماتُ القديمةُ أنَّ الدّينَ مَصدرُ وُجودِها فلا يقومُ لها بُنيانٌ إلاَّ بهِ فتزَلَّفت الى الدّينِ ليَثبُتَ بناؤها وتعتزَّ مكانتُها فقادَ التزلُّفُ إلى أنِ ادُّعِيَ أن بَعضَ الملوكِ لهم صِلةٌ بالأُلوهةِ فحُسِبَ الملِكُ إلهاً صغيرًا او نُصفَ إلهٍ . فملوكُ مِصرَ في عهدِهم القديم آلِهَةٌ (١)

(١) جاءَت رواية عن ذلك في القرآن الشريف وهي الآية « فقال أنا ربكم الأعلى » حكاية عن فرعون في سورة النازعات

وفي تاريخ بورنر (واحترم المصريون الملك كلَّ الاحترام واتخذوه الهاً وهو حيٌّ (صفحة ٣٤)

وكَذلِكَ مُلوكُ فارس(١) ومُلوكُ اليابانيين لا تَزالُ عَليهم هٰذهِ المَسحةُ إلى هذا العَصرِ. ومُلوكُ الصِّينيينَ كانوا من ذَوي التأَلُّهِ حتى ذَهَبَت دَولتُهم مؤخَّرًا. ولا يَزالُ سَيِّدُ تِيبتَ إلهًا ولا يزالُ في سورية أَقوامٌ يَرَون لِبَعضِ الناسِ سَهمًا في الأُلوهَةِ . وذَهَبَ اليونانيُّونَ كلَّ مَذهَبٍ في تَوَلُّدِ عُظمائِهم من الآلهةِ فَهرقلُ ابنٌ لِزَفس كبيرِ الآلهةِ من أُنثى آدَميَّةٍ اسمُها أَلقَمينا مِن ثيبةَ(٢) وأَخيلُ ابنٌ لثيتيسَ إحدى إلاهاتِ البَحرِ وَلَدتهُ مِن فيلاسَ الإنسانِ المَحْضِ(٣) وإينياسُ ابنٌ لِلزُّهَرَةِ إلاهةِ الجَمال وانخيسَ الإنسانِ المَحْضِ(٤) وما أَكثرَ العظماءَ اليونانيينَ الذينَ يَنتَسِبونَ إلى آلِهةٍ صالحةٍ كإلٰهِ البَحرِ فوسيذَ وآلِهةٍ شرِّيرةٍ

---

(١) يستخرج هذا مما ورد في سفر دانيال (فصل ٦) ومما ورد في أخبار اسكندر الكبير المكدوني اذ كانت حاشيته من الفرس يسجدون له كاله فدفع هذا العمل اسكندر الى ان يطلب من قومه ان يسجدله كاله فأبى بعض المكدونيين واليونان ولا سيما كلستنيس الفيلسوف ابن أخت ارسطوطاليس وقال له ذلك يغيظ الآلهة (تاريخ بورثو صفحة ٢٩٦) (٢) الياذة البستاني صفحة ٧٦١ (٣) الياذة البستاني صفحة ٢٠٣ وصفحة ٢٣١ (٤) الياذة البستاني صفحة ٤٠٣

كَإِلهِ الحَرْبِ آرِس. وهـذا الشأنُ كانَ عندَ الرومانيينَ فَروملسُ باني رومية والمَلِكُ الأَوَّلُ فيها كانَ ابنَ آرسَ (المريخ) إلهِ الحَرب. وعُدَّ يوليوسُ قيصرَ نُصفَ إلهٍ وتألَّهَ كاليغولا ونيرونُ وفسباسيانُ وسواهم[١]

ورأى آخرونَ أن يكونَ للمَلِكِ المَنزلةُ العُليا في الكهانةِ فكانَ مَلِكا اسبرطة[٢] إحدى الشعوبِ اليونانية كاهنَيها الأعظَمينِ وأحرَزَ يوليوسَ قيصرَ مكانةَ الكاهنِ الاعظم[٣]

---

(١) كاليغولا ملك (من سنة ٣٧ — ٤١ ب : م : جاء في تاريخ بورتر عنه ما نصه

« وحسب نفسه الهاً ونادى بألوهية القياصرة » (صفحة ٤٩٨) ونيرون مثله في الظلم (من سنة ٥٤ — ٦٨ ب : م) وكان يدعي الألوهية والـه بته المولودة من بيبا كما جاء البيان المسهب عنه في رواية الى اين (كوفاديس) الشهيرة. وفسباسيان ملك (من سنة ٦٩ — ٧٩ ب : م) : فكان ملكاً حكيماً الا أنه كان يدعي الألوهية حتى جاء عنه انه كان يزعم انه يشفي المرضى بلمسهم قدميه (٢) كان في اسبرطة ملكان معاً في وقت واحد من نسل ارستوديمس الهرقلي جاء في تاريخ بورتر « فكان لهم (أي لاهـل اسبرطة) دائماً ملكان » (صفحة ٢٠٦) (٣) جاء في تاريخ رومية صفحة ١٨٢ اشارة الى انه كان كاهناً اما انه رئيس كهنة فورد في كتاب آخر ذهب عني اسمه

قَبلَما أَدرَكَ مَنزِلَةَ إِمبراطور . وبَقِيَ فيها بَعدَ ما صارَ الامبراطورَ. أَمّا الاوغسطسُ اقتافيوسُ قيصرُ فإِنهُ حازَ مكانةَ الكاهنِ الأَعظمِ بعد ما أَحرزَ الامبراطوريَّةَ (١) . وَقَد أَعطَى كَهَنَةُ مِصْرَ لِلملُوكِ البَطالِسةِ اليونانيِّينَ مَنزِلةَ المُلوكِ الفَراعِنَةِ (٢) فكانَ لَهُم مِنَ الالوهةِ نَصيب

أَما الدِّيانةُ اليهوديَّةُ فأَنزَلَت المَلِكَ مَنزِلةً عاليَةً إِذ دَعَتْهُ مَسيحَ الرَّبِّ (٣) وهذِهِ مَنزِلَتُهُ في الدِّينِ المسيحيِّ فَلَهُ مَكانةُ حامِي الدِّينِ

اما في دِينِ الإِسلام فوُجِدَ المَنصِبُ الدينيُّ قَبلَ المَنصِبِ الدُّنيويِّ والسُّنِّيُّونَ يُصَرِّحونَ بأَنَّ أَبا بكرٍ دُعِيَ

---

(١) في سنة ١٢ ب : م تعين رئيس كهنة تاريخ بورتر صفحة ٩٣ ؛ (٢) رواية كليوباتره ملكة مصر . والبطالسة اي المنسوبون الى بطليموس خلف الاسكندر في مصر (٣) صموئيل الاول فصل ٢٦ عدد ١٦ وكانت الملوك والكهنة مسحاء قال الرب للنبي الياس « اذهب . . . وامسح حزائيل ملكا على ارام . وامسح ياهو ابن نمشي ملكا على اسرائيل وامسح اليشع ابن شافاط من آبل محولة نبياً عوضاً عنك » (سفر الملوك الاول العددان ١٥ و١٦ من الفصل ١٩)

الى الخلافة بحجة أنَّ النبيَّ ارتضاهُ لدينِ أمته فارتضتهُ الأمةُ لدنياها . فأسُّ دعوة أبي بكر الى الخلافة أن النبيَّ استخلفهُ عنهُ بأن يؤمَّ المؤمنين في الصلاة[1] فجاءت الإمامةُ إلى أبي بكر الصدّيق بالحكومة ولم تجيء الحكومةُ الى الإمامة

ولمَّا كانَ الدّينُ أصلاً للحكومة كانَ لرئيس الدّين على رئيس الحكومة رئاسةٌ معنويَّةٌ فمن شأن الحكومات أن تضعَ الضَّرائب على الرعيَّة دونَ رجال الدّين . حتى تعفي أراضيهم من الضَّرائب[2] وربَّما خوَّلتهمُ الملوكُ إمدادات فقد جاءَ في سفر التكوين أوَّل أسفار توراة موسى أنهُ « كانت للكهنة فريضةٌ من قبل فرعون فأكلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعونُ لذلك لم يبيعوا أرضهم »[3]

وقد عرفت الحكوماتُ أنَّهُ من الواجب أن تنتمي

---

(١) انظر صفحة ٣٣٩ من الجزء الرابع من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي طبع المطبعة الشرفية في مصر سنة ١٣٢٦ هجرية (٢) اعفت الحكومة ارضهم من الضرائب . اي اسقطت عنها ما يحق لها من الرسوم (٣) الفصل ٤٧ العدد ٢٢

كُلُّ واحدةٍ مِنْها إِلَى دِينٍ تَضَعُ أَوامِرَهُ ونَواهِيَهُ شَرِيعةً لها . فَيَكونُ لِرَئِيسِ هٰذا الدِينِ سُلطانٌ غيرُ زَمَنِيٍّ على الرَّئِيس الدُّنيويِّ فِي ما عَلاقتُهُ دِينيَّةٌ . وَيَكونُ لِلرئيسِ الدُّنيَوِيِّ أَيِ الحاكِمِ سلطانٌ عَلَى الرئيسِ الدِّينيِّ فِي ما شَأْنُهُ دُنْيَوِيٌّ

الفَصلُ السادسُ والثلاثونَ

الرئاستان الدينية والدنيوية في الديانات السماوية

الدِياناتُ السَماوِيَّةُ وتُسمَّى الكِتابيَّةَ أَيضاً[1] ثلاثٌ[2] اليهوديةُ فالمسيحيةُ فالاسلامية . وعلى تَرتِيبِ سَبقِها في الزَمَنِ يَقتَضِي السَّبْقُ في البَحث .

---

(١) الكتابية نسبة الى كتاب اي ان صاحبها أرسل بكتاب من الله (٢) نشر الحاج الميرزا عبد المحمد الايراني صاحب جريدة چهره نماء الفارسية مقالة في المقطم عدد ٩٢٥٦ ذكر فيها ان زدرشت الذي له دين متبوع في فارس وكان انبعاثه في نحو سنة ٥٨٥ ق : م يعدهُ انباعه صاحب كتاب وان كتابه لم يزل موجوداً الى الآن بين أيدي أتباعه . أشيرُ الى ذلك والله أعلم

فكانَ موسى عليه السَّلامُ نَبِيًّا يَتَلَقى الوَحيَ من رَبّهِ وَعَهِدَ اللهُ إِلَيه بإخراجِ بَني إِسرائيلَ من أَرضِ مِصْرَ . فاجتَمَعت لهُ الرئاستانِ الدينيَّــة والدُّنيويَّةُ معًا . وتوَلَّى النَّظَرَ في شُؤُونِ النَّفسِ والجَسَد . وأَقامَ هارونَ بأَمرِ الله كاهناً أَعظمَ . وماتَ هارونُ ، فخَلَفَهُ على مَرتَبَتِهِ ، وَلَدُهُ اليعازرُ . وماتَ موسى ، فخَلَفَهُ في قِيادةِ الشعبِ ، خادِمُهُ يَشوعُ ابنُ نونٍ . فتَقَدَّمَ اليعازرُ الكاهِنُ على يَشوعَ بِدَليلِ أَنَّ سِفرَ يَشوعَ يَذكرُ هكذا «مَلَّكهم اياها أَليعازرُ الكاهِنُ ويَشوعُ ابنُ نونٍ ورؤَساءُ آباءِ أَسباطِ بني اسرائيلَ[1]» وبَقِيَ الكَهَنوتُ يَتَسلسَلُ في ذُرّيَّةِ هارونَ يَخلُفُ الابنُ أَباهُ والأَخُ أَخاهُ وابنُ العَمّ ابنَ عَمّهِ ولا يَخرُجُ منهم إِلى سِواهم . أَمَّا قِيادَةُ يَشوعَ فَخَلَفَتها رُتبةُ قَضاءٍ . وكانَ أَوَّلُ أُولئكَ القُضاةِ عثنئيلُ ابنُ قَنازَ اخي كالبَ من سِبطِ يهوذ . ثمَّ أَهودُ ابنُ جيرا من سِبطِ بَنيامين . ثمَّ شمجرُ ابنُ عناة. ثمَّ دبُورةُ امرأَةٌ نبيةٌ زَوجةٌ لِفيدوت. ثمَّ

---

(١) يشوع فصل ١٤ وعدد ١

جَدعونُ ابنُ يوآشَ الأَبيعزريّ وسواهم . فَعالي المُتَسلسِلُ من هارونَ . فَجَمَعَ عالي الكَهانَةَ والقَضاءَ معاً . فَصَموئيلُ مِن سبطِ لاوي الذي كانَ نبيًّا أَيضاً . وفي عَهدِ شَيخوختِهِ طلبَ بنو اسرائيلَ مَلِكًا فأُجيبوا مِن قِبَلِ الرَّبِّ الى ما سأَلوا وتَولَّى عَلَى بني اسرائيلَ شاؤُولُ من سِبطِ بَنيامين . ثم وَلِي داودُ من سِبطِ يهوذا . وَكانَ نَبِيًّا ومَلِكًا ولم يكن كاهِنًا لِأَنَّ الكَهَنُوتَ لِهارونَ وبَنيهِ . وَقَد أَنشأَ داودُ زَبورَهُ [1] حَمدًا لِلهِ وتمجيدًا لِقُدرَتِهِ وتَنَبَّأَ عما سَيَقَعُ قبلما يَقَعُ وأَجرى تَرتيباتٍ ذاتَ شأنٍ في تَنظيمِ شُؤُونِ الشَّعائِرِ الدينيَّةِ ومُسِحَ مَلِكًا كما مُسِحَ شاوولُ قبلَهُ . وهذهِ المَسحَة كانت تَعطَى لِلمُلوكِ والأَنبياءِ دُونَ سواهم وَبِها يُسَمَّى المَلِكُ مَسيحَ الربِّ

فَتَعَرُّضُ داودَ لِلشُّؤونِ الدينيةِ اقتَصَرَ على نَظمِ صلواتٍ وَتَرتيبِ دَورِ الخُدَّامِ لِلذَّبائِحِ . وإِيجادِ فِرَقٍ تُنشِدُ الترانيمَ الخُشوعِيَةَ . فَعَملُهُ لم يَمَسَّ جوهرَ الخدمةِ الدينيَّةِ واقتصرَ

---

(١) كتاب الزبور كتاب تسابيح واغانٍ روحية

على مَظهَرِها . وخَلَفَ سليمانُ أباهُ داودَ فبنى الهيكلَ ونَظَمَ ترانيمَ جديدة وأنشأَ أوانيَ جديدةً لخدمةِ الذبائحِ تَزيدُها مَهابةً

وخَطَرَ لِعزِّيّا ابنِ أمَصيّا مِن سُلالةِ سُليمانَ أن يَنتَحِلَ لنفسِهِ رئاسةَ الكهّانِ علاوةً على الرئاسةِ الدُّنيويّةِ فعارَضَهُ عَزَرياهو رئيسُ الكهّانِ ومَعَهُ ثمانونَ كاهِناً من بَني هارونَ وقال لَهُ « ليس لك يا عُزِّيّا أن تُوقِدَ للرَّبِّ بل للكَهَنَةِ بني هارونَ المُقَدَّسينَ للإيقادِ فحَنَقَ[١] عُزِّيّا . وقَضى اللهُ بينَهما بأن خَرَجَ بَرَصٌ في جُبهةِ عُزِّيّا والبَرَصُ داءُ لَعنةٍ . فكانتِ العاقبةُ وَخيمةً على المَلِكِ فبادَرَ الى الخُروجِ مِنَ الهيكلِ لأنَّ الربَّ ضَرَبَهُ[٢]

وسَخِطَ اللهُ على أبناءِ يعقوبَ الذين حادوا عَن عِبادةِ اللهِ وأقبلوا على عِبادةِ الأوثانِ فبقَضائِهِ العادِلِ جَلاهم[٣] مَلِكُ أشورَ من بِلادِهِم على دَفعتَينِ فجَلا أوَّلاً عَشرة

(١) اغتاظ　(٢) سفر اخبار الايام الثاني الفصل السادس والعشرون　(٣) اخرجهم

أَسباطٍ كانت تُدعى مملكتهم مملكةَ اسرائيلَ وثانياً السبطَينِ الباقيَين يهوذا وبَنيامينَ وكانا يُدعوان مملكةَ يهوذا . فزالَ بالجلاء الثاني المُلكُ من بني داودَ ولم يزُلِ الكهنوتُ من بني هارونَ

وشاءَ اللهُ أَن يعودَ بنو إِسرائيلَ من أَرضِ الجلاء إِلى وَطَنِهم فكانَ لِسيّدِ فارسَ والٍ من قِبلِه ينظُرُ في الشؤُونِ الدُّنيويّةِ . وأَمّا الشؤُونُ الدينيةُ فينظُرُ فيها سليلُ هارونَ ثم ذَهَبت دولةُ فارس. وجاءَت دولةُ الإِسكندرِ الكبيرِ المَكدونيّ فكانَت لرئيسِ الكُهّانِ اليهوديّ من سُلالةِ هارونَ كَرامةٌ عندَهُ . ثمَّ وَلِيَ بعدَ الإِسكندرِ الملوكُ السُّلوقيّونَ فأَرهقوا (١) الشعبَ الاسرائيليَّ باجترائهم على نَسْخِ (٢) دِينِ موسى وإِدخالِ مَن يَدينونَ (٣) بهِ في عِبادةِ الأَنصابِ. فثارَ الكاهنُ متثياسُ الهارونيُّ من بيتِ حشمناي على دَولةِ السلوقيّينَ وجاهرَ بعَداوتِهم وقاتَلَهم وتمكّنَ بَنوهُ من بَعدِهِ أَن يُنقِذوا أُمّةَ اليَهودِ من عُبُوديّةِ

(١) حملوهم على ما لا يطيقون (٢) محو (٣) يعتقدون

السلوقيينَ فصارَ الأَمرُ في الدين والدنيا معاً لِبَيتِ متثياسَ الكاهِنِ فَمُلكُ داودَ قد انضمَّ الى كهنوتِ هارونَ ولم ينضمَّ كهنوتُ هارونَ الى مُلكِ داود[١]

وبَقِي الكَهَنُوتُ والمُلكُ معاً في بَيتِ متثياسَ إلَى أَن ماتَ المَلِكُ والكاهنُ إسكندرُ المُلقَّبُ ينيوس ابن يوحنَّا الملقبِ هركانوس[٢] (من سنة ١٠٥ — ٧٨ ق : م) ولَهُ وَلَدانِ من زَوجتِهِ اسكندرةَ هما هَركانوسُ وأَرستبولسُ فكانَ المُلكُ فِعلاً بيد الأُمّ اسكندرةَ حتى ماتت (سنة ٦٩ ق م) فاختلَفَ الأَخوانِ ثم تسالَما على أَن تكونَ رئاسةُ الكَهَنوتِ لهركانوسَ والسياسةُ الدُّنيويةُ لارستوبولسَ فافتَرَقَ الكَهَنوتُ عَنِ المُلكِ[٣] . ثم عادا الى الخُصومةِ . وعن الخُصومةِ رُكودُ الريحِ فَذَهَبَ المُلكُ من بني حشمنايَ ثم ذَهَبَ الكَهَنُوتُ أَيضاً منهم واستطاعَ

---

(١) ان للمكابيين اسفاراً تعدُّ عند المسيحيين كتب تلاوة تنصُّ على ماجرى بين المكابيين والسلوقيين من الحروب حتى تمكن الشعب اليهودي من نيل استقلالهِ (٢) تاريخ بورتر صفحة ٣٤٥

(٣) تاريخ بورتر صفحة ٣٤٦

هيرودسُ ابنُ انتيباطِرَ الأَدوميّ[١] من سُلالةِ عيسو ابنِ اسحاقَ اخي يعقوبَ أَن يتقلَّدَ السُّلطانَ الزمَنيّ من قِبلِ السلاطينِ الرومانيين. وقلَّدَ هذا المَلكُ رئاسةَ الكَهَنوتِ لأَحدِ بني هارونَ . ثم ذَهبَتِ السُّلطةُ الزَّمنيةُ من بيتِ هيرودسَ أَيضًا في أَرضِ المَقدِسِ الاَّ الجَليلَ فتولَّى الحكومةَ وُلاةٌ رومانيُّونَ . وفي عَهدِ نيرونَ ثار الشعبُ اليهوديُّ فاطَّرَحَ نِيرَ[٢] روميةَ عن عُنقِهِ فأَرسلَ نيرونُ فسباسيانوسَ القائدَ الرومانيَّ الأَكبرَ في الشَّرقِ لمُحاربةِ العُصاةِ عَليهِ[٣]. ثم وَلِيَ فسباسيانوسُ امبراطوريَّةَ روميةَ ووَلَّى ولدَهُ الأَكبرَ تيطسَ قِتالَ اليهودِ[٤] فكانَ على يَدِ تيطسَ خرابُ اورشليمَ وزوالُ مملكَةِ اليهودِ وتوقُّفُ الكهنوتِ الهارونيِّ عَن الكهانةِ الى الابَدِ وذلك في سنةِ ٧٠ مسيحية[٥] وَلم يزلِ اليهودُ يَحلَمونَ باستِعادةِ تلكَ الدَّولةِ

(١) تاريخ بورتر صفحة ٣٤٨ (٢) النير في الاصل الخشبة المعترضة في عنق الثورين اذا أريد أن يقوما بجر المحراث في الارض ويراد بهِ السلطة (٣) تاريخ بورتر صفحة ٣٦٠
(٤) تاريخ بورتر صفحة ٣٦١ (٥) تاريخ بورتر صفحة ٣٦١

والله أعلم بما سيكون في مستقبل الزمن . ولكن الكهنوت الهاروني لن يعود أبداً

فالأصل في الشرع الموسوي استقلال الملك عن الكهنوت فكانت رئاسة الدين لبيت هارون من سبط لاوي ورئاسة الدنيا لبيت داود من سبط يهوذا ثم اجتمعت الرئاستان معاً لبيت هارون ولم يصح اجتماعهما لبيت داود فصح للرئيس الديني تولي الرئاسة الدنيوية ولم يصح للرئيس الدنيوي ان يتولى الرئاسة الدينية[1] وما ذلك إلا لأن الرئيس الذي له المقام الأول يمكنه أن يشغل المقام الثاني أيضاً . وأما الرئيس الذي ينتهي حده في المقام الثاني فليس له أن يشغل المقام الأول - فيستنتج من شريعة موسى أن رئيس الكهنة أعظم مرتبة

---

(١) وبالقياس على هذا في الدين الاسلامي يظهر جلياً ان بيت النبوة الاسلامية — بيت الدين — يصح له أن يتولى شؤون الدنيا أيضاً فيكون صاحب السلطة الدنيوية . ولا يصح لبيت عثمان — بيت السلطة الدنيوية — أن يكون صاحب الوظيفة الدينية .

مِن رئيسِ الشعب الدُّنيويّ (١)

وجاءَ الدِينُ المَسيحيُّ فَلَم يَتعرَّضْ لِلحُكومـةِ الدُّنيويَّةِ وصَرَّحَ المَسيحُ بأَنَّ مملـكَتَهُ لَيست دُنيويَّةً وحَضَّ على طاعةِ الحُكومةِ السائدةِ لِلامَّةِ وأَدَّى الضريبةَ الموضوعـةَ عَلَيهِ عَن نفسِهِ كتابعٍ لِلدَّولةِ الرُّومانيَّةِ وعن تِلميذِهِ الذي أَوعَزَ إِلَيهِ أَن يُؤَدّيَ عَنهُ تِلكَ الضريبةَ (٢) وصَرَّحَ لِلحاكِمِ الرُّومانيِّ الأَعلى في وِلايةِ اليَهوديَّة بأَنَّ السُلْطَةَ الدُّنيويَّةَ الَّتي وَلِيَها من جانِبِ رومية هِيَ في الحَقيقةِ صادِرةٌ من لَدُن الخالِقِ فقد قال لِلحاكِمِ الرُّومانيِّ :

« لَم يَكُن لَكَ عَلَيَّ سُلطانٌ البَتَةَ لَو لَم تَكُنْ قد أُعطِيتَ من فَوقُ (٣) » والمُرادُ بِفوقُ القُدرَةُ الإِلٰهيَّةُ الَّتي هِيَ فَوقَ كُلِّ الخَليقـةِ وَهِيَ التي تُعرَفُ بالدِّين. فَفي الدينِ المَسيحيِّ تَتْبَعُ الحُكومةُ الدينَ ولا يَتبَعُ الدينُ الحكومةَ

---

(١) وقياساً على هذا يكون شريف مكة اعظم من السلطان العثماني

(٢) الفصل السابع عشر من انجيل متى (٣) العدد ١١ من الفصل ١٩ من انجيل يوحنا

وقد ظَلَّتِ الرئاسةُ الدُّنيوية مُنذُ وُجودِ الدِّينِ المسيحيِّ نحوًا من ٣٠٠ سنةٍ لا معَرِفةَ لها بالرِّئاسةِ الدِّينيةِ فلم تكُن تُكرِمُ جانبَها بل كانت تَضْطَهِدُها أَشدَّ اضطِهادٍ فَكَم أَنزلَت بلاءً بأَبناءِ الدِّينِ المَسيحيِّ. فكثيرونَ منَ المَسيحيِّينَ « رُجِموا نُشِروا جُرِّبوا ماتوا قَتْلاً بالسَّيفِ طافوا في جُلودِ غَنَمٍ وجُلودِ مِعزًى مُعتازِينَ مكرو بينَ مُذَلِّينَ .. تائهينَ في فَلَواتٍ وجِبالٍ ومَغاورَ وشُقوقِ الأَرضِ »[1] إلى أَن هَدَى اللهُ إلى الإيمانِ المسيحيِّ الامبراطورَ الرومانيَّ قِسطنطينَ ابنَ قسطنديوسَ خلوروسَ المَولودِ في نِيش إِحدَى مُدُنِ سربيا الآنَ[2] فَجَعَلَ النَّصرانيةَ دِينَ مَملَكتِهِ الرَّسميَّ وأَجلَّ شأْنَ الرِّئاسةِ الدِّينيةِ المَسيحيةِ وخَوَّلَها الكَرامةَ الَّتي كانت قَبلاً للرِّئاسةِ الدِّينيةِ الوَثَنيةِ . وجاءَ بَعدَهُ حُكّامٌ قَلَّدوا الرؤَساءَ في الدِّينِ المَسيحي مَناصِبَ في السُّلطانِ

---

(١) العدد ٣٧ من الفصل ١١ من رسالة العبرانيين (٢) ملك من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧ ب : م نقلا عن تاريخ بورتر

الدُّنيويّ فكانَ من رُؤَساءِ الدِينِ المسيحي وُلاةٌ وقُضاةٌ (١)

ثم قامَت للبابا (وهو رَأْسُ الرُّؤَساء عِندَ المِلّةِ المَسيحيةِ الغَرْبيةِ) دولةٌ دُنيويةٌ في مَقَرِّ رئاستِهِ رُوميةَ . وَقَد ذَهَبَت مِن يدِهِ في عَهدِ فكتورَ عمانوئيلَ الثاني ملكِ ايطاليا الأَسبقِ جدِّ الملكِ الحالي ولم تَعُدْ اليه إلى الآنَ أَي ذهبت سنة ١٨٧٠ ب : م)

وَلِلمُلوكِ من أَهلِ الدِينِ المسيحيّ مَنزِلةٌ مُمتازةٌ عِنـدَ الرؤَساءِ الدِّينيينَ المَسيحيين . فَلَهُم في المَعابِدِ مواقِفُ خاصةٌ بِهِم دُونَ سِواهم ويَنالُونَ مَسْحةً مخصوصةً ويُدعَى لهم دُعاءٌ خصوصيٌّ . فالدِينُ المَسيحيُّ جَعَلَ الرِئاسةَ الدِينيَّةَ مُنفَصِلةَ عَنِ الرئاسةِ الدُّنيويَّةِ . وجَعَلَ مَرجِعَ الشؤُونِ الدِينيَّةِ الى الرؤَساء الدِينيينَ ، ومَرجِعَ الشُّؤُونِ الدُّنيويَّةِ الى الحُكَّام الدُّنيويينَ . ولَـكِنَّ الرِئاسةَ الدينيةَ المَسيحيةَ كانت مُنذُ

---

(١) فكان الولاة والقضاة من الاساقفة المسيحيين منـذ عهد الامبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية و بقيت الحال على هذا المنوال الى عهد غير بعيد

نَشأَتِها تتعَرَّضُ لِلرِّئاسةِ الدُّنيويَّةِ اذا رأَت منها خُروجاً عنِ العدلِ في الحُكمِ الدُّنيَويِّ وتتَصدَّى[١] لَها إِذا تعرَّضت لِامرٍ دينيٍّ فتأبَى أَن تُجارِيَها على ما تَراهُ غيرَ قويمِ المَنهَجِ

أَمَّا الدِينُ الإِسلامِيُّ ففِي بَدءِ عَهدِهِ جَمَعَ الرئاستَينِ معاً في شَخص واحدٍ فالخِلافةُ أَي إِمارةُ المُؤمنينَ سِيادةٌ مُزْدَوجةٌ أَي دِينيةٌ ودُنيويةٌ معاً . ولِلشأنِ الدينيِّ المَنزِلةُ الأُولى . وجازَ الفَصلُ بَينَهما . ففِي عَهدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ حَدَثَ نَصْبُ مُتَوَلٍّ لشأنِ الصلاةِ دونَ الحَربِ[٢] . ولشأنِ الحربِ دُونَ الصلاةِ . والحَربُ من شؤُونِ الدُّنيا والصَّلاةُ من شؤُونِ الدينِ وجاءَتِ الآيةَ القُرآنيةُ الشريفةُ « وأَطيعوا اللهَ وأَطيعوا الرسولَ وأُولِي الأَمرِ منكم »[٣] وجاءَ في كَلامِ الإِمامِ عَليِّ ابنِ أَبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ وكَلامُهُ حجَّةٌ ما معناهُ « ما اختلفَ رَئيسانِ دِينيٌّ ودُنيويٌّ الَّا حقَّتِ

---

(١) تتعرض لها وتتقبل عليها (٢) كان ذلك في عهد الخليفة عمر الفاروق . وقد جاء بيان ذلك في كتاب الجامع الصغير للامام الثاني في مذهب النعمان ابي يوسف يعقوب الانصاري المطبوع في مطبعة بولاق الاميرية (٣) سورة النساء

الغَلَبةُ لِلدِّينيِّ على الدُّنيوي »[١] وفَرضُ هـذا الخِلافِ يَستلزِمُ وُقوعَ انفِصالِ رئاسةِ الدِينِ عَنِ رئاسةِ الدُّنيا[٢]

وقد وَقعَ هـذا الانفصالُ فِعلاً في عَهدِ الخِلافة العَبَّاسِيَّةِ فانَّهُ لَمَّا عَراها الضَّعْفُ أَخذَ عُمَّالُها يَستَبِدُّونَ بالشُّؤونِ الدُّنيوِيَّةِ[٣]. وأَوَّلُ سُلطانٍ دُعِيَ في الإِسلام يُدعَى اشناسَ[٤] كانَ مَولًى للخَليفةِ هارونَ الواثِقِ ابنِ الخَليفَةِ مُحَمَّدٍ أَبي اسحاقَ المُعتَصِمِ ابنِ الخليفةِ هارونَ الرَّشيد. فإِنَّ الواثِقَ أَلبسَهُ التاجَ وسَمَّاهُ سُلطاناً. وقامَت لِلسَّلاطِينِ دُوَلٌ ولا سِيَّما دُوَلَ بَني طُولونَ[٥] وبُوَيهٍ[٦]

---

(١) ورد ذلك في كتاب سراج الملوك للطرطوشي (٢) في مواد الفقه الاسلامي مادة الثابت ضمنا كالثابت نصاً وهذا القول ينطبق على هذه المادة (٣) في عهد هارون الرشيد اقطع هذا الخليفة احد رجاله المدعو ابراهيم ابن اغلب برقة واكتفى منه ان يقيم الصلاة باسمه ويستقل بجباية المال وتعيين رجال الحكومة . وهذا وجه من وجوه استقلال الحكام الدنيويين (٤) جاء ذلك في تاريخ الخلفاء للسيوطي في ترجمة الواثق هارون ابن محمد المعتصم (٥) في مصر (٦) في بلاد العجم وخراسان والعراقين

والإخشيدِ[١] وآلِ حَمدان[٢] وبني سلجوقَ[٣] وبني أيُّوبَ[٤]. والمماليكِ الجراكسةِ في مِصرَ وبني عثمان[٥] وسواهم. وكانَ للسلاطينِ شيءٌ من الكرامةِ الدينيَّةِ فيُدعى لهم على المنابر. على أنَّ الخلافةَ العبَّاسيَّةَ لم تَخلُ من سُلطانٍ دُنيويٍّ ضئيلٍ منذُ عهدِ تمكُّنِ السلاطينِ منها حتَّى المُستعصِم العبَّاسيِّ آخرِ الخلفاء العبَّاسيِّين في بغداد . فاغتصبَ ذلكَ الباقيَ هولاكو التتريُّ . فانتقلَ الخلفاءُ العبَّاسيُّونَ من بغدادَ الى مِصرَ ولم يكن لهم من سُلطانِ الدُّنيا إلاَّ تقليدُ السلطانِ الزَّمنيِّ منصبَ السَّلطَنةِ فلمَّا افتتحَ السُّلطانُ العثمانيُّ سليمٌ المُلقَّبُ بياوزَ اي الشُّجاعِ مِصرَ استخرجَ الخلافةَ من الخليفةِ المتوكِّلِ العبَّاسيِّ وجمعَ في نفسهِ الرئاستينِ الدينيةَ والدُّنيويَّةَ معاً وهذا التقحُّمُ لم يجرأْ عليهِ قبلاً سُلطانٌ من سلاطينِ الإسلامِ الأعاجمِ لأنَّهُ

---

(١) في مصر ايضا (٢) في العراق والشام (٣) في اسيا الصغرى (٤) في مصر وسوريا والعراق واليمن (٥) في اسيا الصغرى و بلاد الروم وسوريا ومصر

مُخالفٌ لِاحاديثَ نبَوِيَّةٍ صَحيحةٍ منها «قَدِّموا قُريشَ ولا تَقَدَّموها» ومنها «لا يزالُ هذا الأَمرُ في قُريشَ ما بَقِي منها اثنان»(١)

وكانَ هٰذا المُتوَلِّي يُؤْثِرُ هوَ وَبنوهُ المَنزِلةَ الدُّنيويةَ بالكَرامةِ على المَنزِلةِ الدِينيةِ فَإِنَّهُم اُشتَهَروا بالسَّلْطَنةِ لا بالخِلافَةِ فيُدعَى سُلطانَ البَرَّينِ وخاقانَ(٢) البَحرَينِ وَيُذكَرُ في مَصكوكاتِهِ اسمهُ مَثَلاً مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ المَجيدِ خانْ(٣) مُظَفَّرٌ دائِماً الغَازِي الدُّستورِي . وَقد ذَكَرَ صاحِبُ بَدائِعِ الزُّهورِ فِي وَقائِعِ الدُّهورِ ابنُ أَياسَ المِصريُّ أَنَّ السلطانَ سليماً العثمانيَّ مِن سُلالة أَبي مُسلِمٍ عبدِ الرحمنِ ابنِ مُسلِمٍ الخراسانِيِّ داعيةِ دُولة بني العَبَّاسِ فَإِنْ صَحَّ ذٰلِكَ فَقَد بَنَى الابُ وهَدَمَ الابنُ

---

(١) لم يقف تقحم هؤلاء المتغلبون على هذا الشان فقط فتعدوا الى أنهم جعلوا لغتهم التركية التي هي خليط من لغات شتى لغة الحكومة الرسمية واهملوا العربية ولم تجسر دولة تترية كالسلجوقية او جركسية او كردية كالايوبية على هذا الامر　(٢) كلمة تركية بمعنى سلطان

(٣) كلمة تركية بمعنى سلطان او ملك

والخِلافةُ في بَني عُثمانَ فَضلاً عن أَنَّها تُخالِفُ الأَحاديثَ النَّبَوِيَّةَ جاءَت على ضِدِّ ما قَضَت بهِ الدِيانةُ اليَهودِيَّةُ الَّتي أَجازَت لِلرَّئيسِ الدِينيِّ أَنْ يَتَولَّى الأَمرَ الدُّنيويَّ وأَبَت على الرئيسِ الدُّنيويِّ أَن يَتَولَّى المَكانَةَ الدِينيَّةَ

وَبَقِيَ الأَمرُ مغصوباً في أَيدي بني عُثمانَ حَتَّى كانَ هٰذا العَصرُ السَّعيدُ ورأَى مَولانا شريفُ مَكَّةَ وعظيمُ أُمَّـةِ العَرَبِ المُتَفَرِّدُ بتَقواهُ وعلمهِ وشَرَف آبائِهِ وأَجدادِهِ وَمكارمِ أَخلاقِهِ ونُبلِهِ الحُسَينُ بنُ عليِّ الحَسَنيُّ أَيَّدَهُ اللّٰهُ أَنَّ الأَتراكَ عَمَدوا إِلى إِبادةِ الشَّعْبِ العَرَبيِّ جَوراً في حُكمٍ زَمنيٍّ وتَضليلاً في شؤُونٍ دِينيةٍ وتَبديلاً في شعائِرَ(١) مِمَّا لا يَصِحُّ السُّكوتُ عليهِ فاستمَدَّ المعونةَ منَ اللّٰه تعالى ونَهَضَ لِـكَبحِ جِماحِ المُضَلِّلينَ القُساةِ سافكي الدِماءِ الزَّكِيَّةِ فأَسقطَ حُكومةَ الجَمعِيَّةِ المُسَمَّاةِ بالاتحادِيَّةِ التي تَغَلَّبَت على

(١) قد نشرت الجرائد العربية ولا سيما جريدة الكوكب المصرية نصاحبها السيد محمد القلقيلي الكاتب النحرير رسائل مسهبة في هذا الشأن لم تبق ريباً في صحة عزيمة جمعية الاتحاد والترقي الفسادية على احداث الخرق في دين الاسلام والقضاء على القومية العربية

الدَّولةِ العُثمانيَّةِ وأنشأَ الحكومةَ العربيَّةَ السَّعيدةَ فأقرَّت لهُ أُمَّةُ العربِ باتِّفاقِ الكلمةِ أنَّهُ ملكها العالي المنار المُطاعُ الأمرِ واعترَفت لهُ دُوَلُ الأرضِ بهذهِ الصفةِ الجليلةِ والمرْتبةِ الساميةِ. ونادَت بهِ الشُّعوبُ الإسلاميَّةُ خليفةً (١). وهوَ قد صرَّحَ تكرارًا بمناشيرَ رسميَّةٍ أنَّهُ يُريدُ أن يتثبَّتَ بأمرِ الخلافةِ فقالَ إنَّ البتَّ في هذا الشَّأنِ الخطيرِ سيكونُ في مؤتمرٍ جامعٍ لكلِّ ذي سلطانٍ في الشُّعوبِ الإسلامية

فالدِّينُ الإسلاميُّ يُجيزُ الفَصلَ بينَ الرئاستينِ الدينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ولكنَّهُ يجعلُ الدُّنيويَّةَ تابعةً والدينيةَ متبوعةً فلا يخرُجُ شرعٌ دُنيويٌّ عمَّا نصَّ عليهِ الدينُ فيُقبلُ كلُّ أمرٍ دنيويٍّ قامَ دليلٌ على أنَّهُ غيرُ مُعارضٍ للاحكامِ الدينيةِ ولا يقبلُ أمرٌ دُنيويٌّ عارضَ سُنَّةً دينية

(١) راجع اعداد جريدة القبلة وذلك لان شروط الخلافة متوفرة فيه دون سواه فهو ذو الامر في البلدين الحرامين مكة والمدينة وهو من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو العلامة الثقة في عقائد الدين الاسلامي وشعائره وسننه واحكام الدنيا ومقتضياتها

الفصلُ السابعُ والثلاثونَ

وَضعُ الاحكامِ يستلزِمُ ديناً

إنَّ وَضعَ المَوادِّ التي تجري الأَحكامُ الدُّستوريَّةُ بمُقتضاها يَستلزِمُ عِلماً بكلِّ شَيْءٍ فَينبَغِي أَن لا يَطرأَ عليهِ جَهلٌ ولا ضَعْفٌ . وعِلْمُ الإنسانِ في كلِّ شَيْءٍ مُعَرَّضٌ لِلْخَطاءِ . فَمَهْما اتَّسعَ نِطاقُ عِلمِ الإنسانِ واستَضاءَت بَصيرَتُهُ يَظَلُّ عاجزًا عَن أَن يكونَ كُفْوًا لِمُهِمَّةِ وَضعِ الأَحكام

وقد عَرَفَ الأَقدمونَ ذٰلك وانصَرَفوا في وَضعِ أَحكامِهِم إلى الدِينِ . فانهُ هُوَ الَّذي وَضعَ الأَحكامَ قَديماً كما نَستَنتِجُ ذٰلكَ من تَصفُّحِ تواريخِ الدُّوَلِ العظيمةِ ذاتِ العُمرانِ الراقي في العُصُورِ الخوالي

ففي تاريخِ المِصريينَ أَنَّ تاريخَ عَهدِهم الأَوَّلِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ الكُهَّانَ كانوا حكَّامَ البِلادِ قَبلَ مينيسَ المَلِكِ الاوَّلِ في الدولةِ المِصريَّةِ الاولى[1] . ومِنَ المُقرَّرِ أَنَّ الكُهَّانَ

(١) تاريخ بورتر صفحة ١٠

يَعودونَ بما يَأمُرونَ بهِ الى أنَّهم تَلقَّوا بما أَبلَغوا إيعازًا منَ الأَرباب . ولا يَخرُجُ كهَّانُ مِصرَ عَن هٰذا المَبدإِ فهُم قد قالوا : إنَّ وَضْعَ الأَحكامِ صَدَرَ من قِبَلِ الدِينِ او بالحَرِيِّ من قِبَلِ واضِعِ الدِّين

وفي التَّوراةِ إنَّ فرعونَ يُوسُفَ حينما حَسُنَ لَدَيهِ أَنْ يُخَوِّلَ يُوسُفَ كَرامةً قال : « هل نَجِدُ مثل هٰذا رَجُلاً فيهِ رُوحُ الله » (١) فقلَّدَهُ مَنصِبَهُ الجَليلَ بِناءً على أَنَّ فيهِ روحاً إلٰهيَّةً أَي صَلاحاً فإحرازُهُ تِلكَ المَكانَةَ أَتى عنِ اعتِصامِهِ بالدِين

وفي تاريخِ الكلدانيينَ نَجِدُ بَختنصرَ يَثِقُ بدانيالَ ويُخوِّلُهُ ورِفاقَهُ الكَرامةَ « لِانَّ فيهِ رُوحَ الآلِهةِ (٢) » واعتَرَفَ بأَنَّ إلٰهَهم إلٰهُ الآلِهةِ وَرَبُّ الأَرباب (٣) فكَرامةُ دانيالَ ورِفاقِهِ عَن أَصلٍ دِينيّ أَيضاً

---

(١) تكوين العدد ٣٨ من الفصل ٤١ (٢) دانيال العدد ٨ من الفصل ٢ وقد ذكر الملك بختنصر الآلهة لأنه كان يعتقد بكثرة الآلهة (٣) دانيال العدد ٤٧ من الفصل ٢ وذلك لان بختنصر لم يكن موحّداً

وكانَ اليونانيُّونَ يَعودون في شُؤُونِهِم إلى الآلهةِ فَمينوسُ المُشترِعُ الكَريتيُّ زعمَ قومهُ أَنّهُ من نَسلِ زَفسٍ أَكبرِ آلهةِ اليونانيين . وَبِما أَنَّ سُلطانَ الابنِ مُستَمَدٌّ من سُلطانِ أَبيهِ وَضَع مينوسُ شَرعَهُ بِمُقتَضَى مادَّةِ الأُلوهةِ الَّتي فيهِ . فَشَريعتهُ عائِدةٌ الى مَصدَرٍ ديني. وكذلكَ يُقالُ في شأنِ لِيكورغوسَ الشارِعِ الإسبرطيِّ المتحدِّرِ من سُلالةِ هرقلَ سَيِّدِ أَبطالِ اليونانِ الذي يُنسَبُ الى زَفسٍ أَيضاً وقد شاعَ أَنَّ إِلهَ ذلفي حثَّهُ على وَضعِ شريعتهِ[1]

ورُوملسُ مُؤَسِسُ مدينةِ رومية والواضِعُ الأَوَّلُ لِشَرائِعِها[2] كانَ عندَ قومِهِ ابنَ إِلهِ الحَربِ المريخِ[3] مَولودًا من سلفيا ابنةِ نومتورَ . المُنتَسِبِ الى اينياسَ ابنِ الزُهرَةِ الاهةِ الجمالِ[4] وبهذهِ الدَّعوى كانت لَهُ السِيادةُ في

---

(١) تاريخ بورتر صفحة ٢١٢ (٢) ملك من سنة ٧٥٣ — ٧١٦ق:م نقلاً عن تاريخ رومية لنجيب ابراهيم طراد (٣) الصفحة ٨ من تاريخ رومية والمريخ هو آرس اليونانيين ومارس اللاتينيين (٤) هي عفرذيت اليونانيين ومنرفا اللاتينيين

قومِهِ[1] فاستَمَدَّ مادَّةَ التَّشريعِ من المَصدَرِ الَّذي سَبَقَ لمينوسَ وليكورغسَ أَن يَستَمِدَّا منهُ

وخَلَفَهُ نوما بومبيليوسُ[2] الذي سَبَقَ لَنا ان نُلِمَّ بذِكرِهِ في الفَصلِ الثامنِ والعِشرينَ[3] فكانَ قبولُهُ المُلكَ عن أَمارةٍ دِينيَّةٍ . وبَقِيَت رومية رَهنَ الأَحكامِ الدِينيَّةِ في مَدَى عُهود مُلوكِها السَّبْعَةِ الأَوَّلينَ . فالوَباءُ الذي حَدَثَ في عَهدِ طاركوينسَ الطاغيةِ[4] دَعا ذلِكَ المَلِكَ الى أَن يُرسِلَ وَلَدَيهِ مَعَ يُونيوسَ بروتوسَ الى بلادِ اليونانِ لِيَستَشيروا وَحيَ دلفي عن أَسبابِ الوَباءِ[5] . وهٰذا المَلِكُ اقتَنى كُتُبَ سحِرةِ « كومي » بِثَمَنٍ فاحشٍ ووضَعها في هَيكَلِ جوبتيرَ كابيتوليتسَ بِمَكانٍ خاصٍّ لِأَنَّها

---

(١) ان ذكر هذه الاخبار التاريخية ليس من باب التسليم بصحتها بل من باب الاستشهاد بأن ما ينسب الى مصدر سماوي يستدعي القبول به . واما الحقيقة فهي كما ورد في التوراة عن آلهة الامم « انهم ليسوا آلهة بل صنعة ايدي الناس خشب وحجر (العدد ١٨ من الفصل ١٩ من سفر الملوك الثاني (٢) من سنة ٧١٥ — ٦٧٣ ق : م (٣) انظر صفحة ٢١٣ (٤) من سنة ٥٣٤ — ٥١٠ ق : م (٥) تاريخ رومية لطراد صفحة ٤٥

اعتُبِرَت مُقَدَّسةً[1] فكانت مَرْجعاً للأَحكام. فالرُّومانيُّونَ كاليونانيينَ كانوا يَرجِعُونَ في أُمورِهم إلى أَحكامِ الدِينِ وكانَ العَرَبُ يَرجعونَ في أُمورِهم الى قَضاءِ الذينَ يُقالُ أَنَّ لَهم عَلاقةً بما وراءَ الطبيعةِ المَنظورةِ كما يُرْوَى عن هندِ ابنةِ عتبةَ ابنِ رَبيعةَ ابنِ عبدِ شمسٍ[2] حينما ساءَ الأَمرُ بينها وبَينَ زوجِها الفاكهِ ابنِ المغيرةِ فداعاهُ أَبوها الى حَكَمٍ كانَ من ذوي التَّوابِعِ[3]. وأَحاديثُ شِقٍّ وسَطيحٍ مَشهورةٌ في كُتُبِ تاريخِ العَرَبِ قَبلَ الإِسلام

فالدُّوَلُ التي سادت في العَهْدِ القَديمِ أُمَمَ الأَرضِ عَمَدت الى استِمدادِ مَوادِّ أَحكامِها من أَدْيانِها وتِلكَ الاديانُ ولا خِلافَ باطلةٌ وآلِهةُ تِلكَ الأُمَمِ طَواغيتُ. ولٰكِننا نَستَنتِجُ مما قَدَّمناهُ أَنَّ الناسَ لا يَعودونَ في شُؤُونِهم إِلى نُفُوسِهم ولا الى مَعلوماتِهم بل إِلى السِيادةِ التي يَعتَقِدونَ أَنَّها تَتَولَّى شؤُونَهم

---

(١) تاريخ رومية صفحة ٤٤ (٢) هي والدة معاوية ابن ابي سفيان (٣) الجزء الثامن من الاغاني صفحة ٦٤

وموسى مُشْتَرِعُ العبرانيينَ تَلَقَّى موادَّ الدِينِ ومَوادَّ الأَحكامِ الدُّنيويةِ معاً وأَدرَجَها سَوِيَّةً في توراتِهِ وقد نَشَرَها مُنْتَمِيَةً الى الوَحْيِ الالهيِّ[1] . وعَمِلَ بها هُوَ في حَياتِهِ وعَمِلَ بِها القُضاةُ فالمُلوكُ أَيضاً . فَلَمَّا تَنَصَّرَ قسطنطينُ الكبيرُ (سنة ٣٠٦ ب : م) عَمَدَ الى تَطبيقِ شريعةِ الامبراطوريةِ الرومانيةِ علَى شريعةِ مُوسَى . ولا

---

(١) ان موسى لم يكن خالياً من خصوم يسعون في الحط من كرامته فكان قورح ابن يصهار ابن قهات ابن لاوي وهو ابن عمه لحًّا (لأن موسى هو ابن عمران ابن قهات) خصماً له ألب عليه هو وداثان وابيرام ابنا اليآب واون ابن فالت (كلهم من سلالة رأوبين اكبر ابناء اسرائيل مولداً) مئتين وخمسين من الرؤساء قاوموا موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما « ان كل الجماعة باسرها مقدسة . وفي وسطها الرب . فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب » سفر العدد ١٦ : ١ فلو كان موسى أخذ شريعته من حموراني لما كان الكلام معه هكذا بل لأُشير الى الاخذ عنه اشارة تزيل الاغلاق عنها فيقال له مثلا علامَ تزعم انك تتلقى وحياً الهياً وانت تنقل حكمة انسانية او وضعاً بشرياً . فتسليم خصوم موسى لهُ أنه يتلقى الوحي الالهي ينفي النفي التامّ ان يكون موسى ناقلاً عن الناس . واما أن ينسب اليهم جهل مصدر النقل فلا يصحّ فمن هم في رأس مئتين وخمسين رئيساً لهم معلومات اكثر من واحد اوانين في شؤون ما يؤخذ عن السنة الناقلين

تَزالُ شرائِعُ الدُّوَلِ المسيحيَّةِ تتَّخِذُ ما وَرَدَ في شَرِيعةِ موسى أَساساً يُرجَعُ إِلَيه

وتَلَقَّى صاحِبُ الرسالةِ الإِسلاميَّةِ شَريعتَهُ لِلدُّنيا والآخِرَةِ معاً [١]. وهذِهِ كُتُبُ الفِقهِ الاسلاميِّ أَمامَنا وأَحكامُها تَرجِعُ الى العَمَلِ بالقُرآنِ وهو مُنزَلٌ على صاحِبِ الرِسالةِ . والى ما رُوِي عن الرَّسولِ في قَولٍ وعَمَلٍ. وما كانَ الرسولُ في حالٍ من أَحوالِهِ الاَّ تابِعاً لِلقُرآنِ مُستنيرًا بما جاءَ في أَحكامِهِ هَدْياً في سَبيلِ الحياة . او إِلَى ما استخرجَهُ أَحدُ الأَئِمَّةِ قَوْلاً يَرجِعُ به الى آيةٍ من القرآنِ او حَديثٍ نَبَوِيٍّ . فالقولُ الذي يَقَعُ الاجتِهادُ بِهِ لا غِنَى لَهُ عَن أَنْ

(١) العبارة في هذا الموضع كانت اولاً ووضع صاحب الرسالة الاسلامية شريعته للدنيا والآخرة معاً وهو لم يأت بها من عنده . والمراد بالوضع نسبة الفعل الى مرافقه ولذلك قيل وهو لم يأتِ بها من عنده كقول الشاعر . زهير حسام مفرد من حمائل . اي من غمد فسمي الغمد حمائل . ولما كانت هذه العبارة وقعت عند حضرة الناظر في الكتاب موقعاً غير حسن رجعتُ عنها وساويتُ في الكلام بين نبي العبرانيين ونبي المسلمين

يَرجِعَ إلى آيةٍ قُرآنيةٍ او سُنَّةٍ نبَويَّةٍ فإن وَرَدَ نَصٌّ صريحٌ فلا مُسَوِّغَ لِلاجتهاد في مَعْرِضِ النَّصّ

وقد تَغايَرت أقوالُ الأَئمَّةِ المسلمينَ في بَعضِ الأَحكامِ فكانَ القَبولُ عِندَ الواحِدِ منهُم غَيرَ القَبولِ عِندَ الآخَر وعادَ كلٌّ منهم في تأييدِ مَذهَبِهِ الى مُستَنَدٍ يَصِحُّ الوثوقُ بِهِ من آيةٍ او حَديثٍ . ولْنَضرِب لِذلِكَ مَثَلاً ما يأْتي : أَجازَ الإمامُ مالِكُ ابنُ أَنَسٍ صاحِبُ المُوَطَّإِ في الدِماءِ والتَّدْميَةِ في القتالِ ما أَنكرَهُ عَلَيهِ كثيرونَ من الفُقَهاءِ مِنهم أَبو يوسُفَ الإِمامُ الثاني في مَذهَبِ النُّعمانِ . وقد عَقَدَ صاحِبُ كتابِ الامامةِ والسياسةِ فَصلاً طَويلاً في المُناظَراتِ التي قامَ بِها مالِكٌ وتلاميذُهُ من جِهةٍ وأَبو يوسُفُ والذاهبونَ مَذْهَبَهُ في الإِنكارِ على مالِكٍ من جِهةٍ أُخرَى وقد أَتت حُجَّةُ مالِكٍ بالِغةً لا رَدَّ عليها . وإِلى ما ذَهَبَ مالِكٌ نَرَى رِجالَ الحكوماتِ المتمدِّنة يَذهَبون

وما دامَ الانسانُ في أَدوارِهِ كُلِّها كانَ يَعودُ في وَضعِ أَحكامِهِ الى الدِينِ وعندَنا المَبدَأُ الفِقهيُّ القائِلُ «الأَصلُ بقاءُ

ما كانَ على ما كانَ» وَهوَ مِمَّا تُسَلِّمُ بهِ الحُكوماتُ الموجودةُ الآنَ ومنها الحكومةُ العربيَّةُ التي تجعلُ مجلَّةَ الاحكامِ الموضوعةَ من قبلِ الدولةِ التركيةِ السائدةِ في إقليمنا قبلاً مَداراً للعَمَلِ وهذهِ المَجلَّةُ قد وَضَعَت مبدأَ «الأَصلُ بقاءُ ما كانَ على ما كانَ» مادَّةً مِن موادِّها فَلْنَتَّبِعْهُ فلا يَصِحُّ ان نُسَلِّمَ بأنَّ المَبدأَ الواحِدَ يكونُ في وَقتٍ واحِدٍ صحيحاً وغيرَ صَحيحٍ لِأَنَّ المتناقِضَينِ لا تكونُ الثقةُ بِهِما في مَنزلةٍ واحدةٍ . ولا يَصحُّ أَنْ نُخالِفَ المَبدأَ المتبوعَ مِن كُلِّ الأُمَمِ قديماً وحَديثاً ويُعدَلُ عنه بلا مُسَوِّغٍ ولا دَليلٍ مُقنِعٍ

إِنَّ أَمرَ الميراثِ قد ذَهبَتِ الشرائِعُ المدَوايةُ فيهِ مَذاهبَ مُتَعَدِّدةً فلا يَصِحُّ أَن يترُكَ المُسلمُ ما يَعتقِدُ أَنَّهُ جاءَ في قرآنِهِ عن الميراثِ شَرعاً إِلهيًّا لِيُقبِلَ على ما هوَ وَضعٌ بَشَريٌّ . ولا رَيبَ عندَهُ في أَنَّ كلَّ ما جاءَ عَن اللهِ عادِلٌ موضوعٌ عن حِكمةٍ فائقةٍ . وأَنَّ الَّذي جاءَ أَو يجيءُ عن إِنسانٍ فَهُوَ إذا غايَرَ أَو عارضَ شَرعَ اللهِ خطأٌ .

ومَن كانَ عاقِلاً لا يَدَعَ العادِلَ المَوضوعَ عنْ حِكمةٍ لِيَتْبَعَ خطاءً

إنَّ إقليمَنا الَّذي كانَ تحتَ سَيطرةٍ تُركيَّةٍ تَعودُ في أَحكامِها إلى شَرعٍ إسلاميّ يَجِبُ أَن يَبقَى لَهُ هٰذا الشَّرعُ شَرْعاً . وأَمَّا الامتِيازاتُ الَّتي لِلمِلَلِ المَسيحيَّةِ واليَهوديَّةِ فتبقى وتُوَسَّعُ على قاعِدةِ المُساواةِ لأَنها تَنطَبِقُ على قاعِدَةِ «الأَصلُ بقاءُ ما كانَ على ما كانَ» وبِما أَنَّ الشَّكوى من وُقوعِ حَيفٍ مُتواتِرةٌ ولِلمُتَواتِرِ حُكمٌ مَعلومٌ فلا بُدَّ من أَن يُعادَ النَّظَرُ في صِحَّةِ تَطبيقِ المَوادِّ الموضوعةِ مَدارًا لِلعَمَلِ على الأُصولِ التي أُخِذَت عَنها لكي تكونَ الثِقةُ في صِحَّةِ الأَخذِ مُؤَكَّدَةً فإِنْ تَغايَرَتِ المصادِرُ فالمَصدرُ الأَنسَبُ أَولى بالاِتِّباعِ . وفي القَولِ الفاتِحِ في كِتابِ مجلَّةِ الأَحكامِ العَدليَّةِ العُثمانيَّةِ كَلامٌ طويلٌ بهذا الشأْنِ أَتَى على غايةٍ من الصَّوابِ في هٰذا الشأْنِ المُهِمِّ فإلى مَفادِهِ أُوجِّهُ الأَفكارِ

الفصل الثامنُ والثلاثون

يجب أن لا تمس شعائر دين المملكة الرسمي

لِلحُكومةِ صَلاحِيَّةُ التَّشريعِ والقَضاء في الشؤونِ الدُّنيَوِيَّةِ الخاليةِ مِن صِبغةٍ رُوحيَّةٍ . ولِلدينِ صَلاحيةُ التَّشريعِ والقَضاء في الشؤونِ الروحيَّة . ويَرِدُ أَنَّ بَعضَ الشُّؤونِ لَهُ صِلَةٌ بالأَمرَينِ مَعاً فَصِلَتُهُ مُزْدَوجةٌ وَهُوَ مَوضَعُ النَّظَرِ

في الأَديانِ السَّماويَّةِ نَهيٌ قاطِعٌ عَنِ التَّضحيةِ بالنُّفوسِ البَشَرِيَّةِ لإلهٍ ما . وقد كانت أَديانٌ تُضَحِّي للنُّفوسِ البَشَرِيَّةِ هِيَ نظيرُ عِبادةِ مَلكومَ أَو مُولَكَ[1] وكانَ المِصريُّونَ القُدماءُ يُقَدِّمونَ لِلنيلِ حينَ نُضوبِ مائِهِ فَتاةً عَذراءَ يُهدونَها إِلَيهِ بِمَوكِبٍ حافِلٍ وَيَدعونَها عَروسَ النيلِ . ومِنَ الهُنودِ طائفةٌ تَرى أَن تُحرَقَ نِسوةُ المَيتِ مَعَهُ وتَعُدُّ هذا الحَرقَ شعيرةً واجبة

---

(١) انظر سفر اللاويين عدد ٢٠ فصل ١٨

ولمَّا كانت النفوسُ البَشَرِيةُ مُودَعةً إلى سُلْطانِ الحاكِمِ الدُّنيَوِيِّ . والشَرعُ المُنزَلُ يَعُدُّ التَّضحيةَ البشريَّةَ مُنكَرًا لا يُتَسامَحُ بِإجرائِهِ ،فَلا يُجازُ بَتَّةً .لِانَّ إجازَتَهُ تُسخِطُ اللهَ السَّخْطَ الشديدَ ، فلا يَسمَحُ الحاكِمُ الدُّنيويُّ الذي يَتبَعُ شَرعًا مُنزَلاً التَّضحِيَةَ بِنَفسٍ بَشَرِيَّةٍ .عَلى حِينَ أَنَّ عُبَّادَ مُولَكَ وجُهَّالَ مِصرَ قديمًا ومُتَهوِّسي الهنودِ يَرَونَ التَّضحِيَةَ شعيرةً واجبَةَ الإداء . والحُكمُ في هٰذِه القَضيَّةِ لِلحاكِمِ الدُّنيَوِيِّ . فَقَدِ انقَطَعَ وُجودُ تُبَّاعِ مُولَكَ وأَضْرابِهِم عَلى ما نَعلَم . والنِيلُ لم يَعُدْ بعدَ ما بُنِيَ لَهُ خزَّانٌ يَنضِبُ ويَفيضُ عَلى وَجهٍ يَضُرُّ بِمَصلَحَةِ مِصر . والهُنودُ عادوا في أمرِ نِسوَةِ المَيتِ إلَى التأْويلِ ، فَحَكَموا عَلى الأَرمَلةِ أَن تَمْتَنِعَ عَنِ الزَّواجِ ، فتكونَ بِمَثابةِ المائتةِ فِعلاً . لِانَّ مَن كانَ وُجودُهُ غيرَ عامِلٍ في الوَجهِ الذي وُجِدَ لِأَجلِهِ فَهُوَ بِمَثابةِ المَيت

الأَديانُ المُنزَلَةُ تَنهَى نَهيًا شَديدًا عَن أَن يَتَّخِذَ الرَّجلُ لَهُ زوجةً مَن هِيَ عِلَّةُ وُجودِه ، او مَن هوَ عِلَّةُ

وُجودِ ها ، اوكانت وإِيَّاهُ من أَحَدِ سَبَبي وجودِهِ(١) . فالأُمُّ والأُختُ والعَمَّةُ والخالةُ والبنتُ لا يَصِحُّ اتّخاذُ إِحداهُنَّ زوجةً . والمَجوسيُّ يَعُدُّ الزَّواجَ بِأُمِّهِ او بِمَن هي بِمَثابةِ أُمِّهِ او ابنتِه او أُختِهِ او عَمَّتِهِ او خالَتِه أَولَى مِن الزَّواجِ بِغَريبةٍ . وقد وَقَعَ قَبلاً عِندَ العَرَبِ قَبلَ الإِسلامِ أَن يكونَ الرَّجلُ

---

(١) في شريعة موسى عورة ابيك وعورة أمك لا تكشف . (اي لا يجوز لابنٍ أن يتزوج أمه ولا لابنة ان تتزوج أباها) وعورة امرأة أبيك لا تكشف انها عورة أبيك. وعورة أختك بنت أبيك او بنت أمك المولودة في البيت او المولودة خارجاً. لا تكشف عورة ابنة ابنك او ابنة ابنتك . . عورة بنت امرأة ابيك المولودة من ابيك . . عورة أخت أمك . . عورة اخي ابيك لا تكشف والى امرأته لا تقترب (اي لا تتزوج امرأة عمك) عورة كنتك . عورة امرأة اخيك لا تكشف . . عورة امرأة وبنتها لا تكشف ولا تأخذ ابنة ابنها او ابنة بنتها . ولا تأخذ امرأة على أختها للضر

وفي القرآن الشريف (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم . . . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم . . . وحلائل ابنائكم . . . وان تجمعوا بين الأختين . . . والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم . . . وأحلَّ لكم ما وراء ذلك . . .

زوجاً لامرأة أبيه قال الشاعر

وأخي ابنُ أُمِّي ثم عَمِّـــي لا يناسِبُني خِطابُهْ [1]

وقال آخرُ وكانَ زوجاً لامرأةِ أبيهِ

فلولا أُخوتي وَبَنِيَّ منها لَجادَ لها بِذي شُطَبٍ يَميني [2]

وقد تزوَّجَ دارميٌّ بابنتِهِ متابعاً مجوسَ فارس

فالمملكةُ التي ديانتُها الرسميةُ الإسلاميةُ او المسيحيةُ [3] تجري شعائرَ دينِها على كلِّ مستقرٍّ في ظلالِها في هذه الشؤونِ ولا تُجيزُ أن يحدُثَ حادِثٌ مِمّا نَهَتْ عنهُ تلكَ الشعائرُ

فالديانةُ اليهوديَّةُ منعتِ التضحيةَ لِمُولَكَ وجاءَ النصُّ هكذا « ولا تُعْطِ مِن زَرعكَ لِلإِجازةِ لِمولَكَ لِئَلا تُدنِّسَ اسم إلهك أنا الربُّ [4] » وجاءَ أيضاً « كلُّ إنسانٍ من

(١) اي هو اخي لأنه ابن أمي وهو ايضاً عمي لانه اخو ابي لأبيه اي ان ابي اخذ زوجة ابيه (٢) اي هي زوجة أبي فولد له منها اخوتي وهي زوجتي بعده فولد لي منها اولاد (٣) لم اقل واليهودية لانه لا توجد مملكة يهودية (٤) سفر اللاويين العدد ٢١ الفصل ١٨ .

بني اسرائيلَ ومنَ الغُرباء النازلينَ في إسرائيلَ أعطى من زَرعهِ لمولَكَ فإنَّهُ يُقتَل . يَرجمهُ شعبُ الأرضِ بالحجارة . وأجعلُ أنا وَجهي ضِدَّ ذلكَ الإنسانِ وأَقطَعهُ من شعبهِ ... وإن غمَّضَ شعبُ الأرض أعينَهم عن ذلكَ الإنسانِ حينما يُعطي من زَرعهِ فَلَم يقتلوهُ . فإنِّي أَضعُ وَجهي ضِدَّ ذلكَ الإنسانِ وضِدَّ عشيرتهِ وأقطعهُ وجميعَ الفاجرينَ وراءَهُ بالزِّنى وراءَ مولَكَ من شعبِهم . والنفسُ التي تلتفتُ إلى الجانِ وإلى التوابعِ لتزنيَ وَراءَهم أجعلُ وَجهي ضِدَّ تلكَ النَّفسِ وأقطعُها من شعبِها فتتقدَّسونَ وتكونونَ قدِّيسينَ لأنِّي أنا الرَّبُّ إلهكُم وتحفظونَ فرائضي وتعملونَها أنا الرَّبُّ مُقدِّسكُم » (١)

فجاءَت هذهِ الشريعةُ بالنصِّ الصريحِ على أنَّ شعائرَ الغُرباء عن أهلِ الدينِ اليهوديِّ يجبُ أن لا تعارضَ شَريعةَ موسَى . وأنَّ العُقوبةَ تقعُ على مَن خَرَجَ عن شريعةِ موسَى إن كانَ غريباً عن الشَّعبِ او غيرَ غريبٍ . فَشريعةُ

(١) سفر اللاويين العدد ٢ — ٩ الفصل ١٨

الحكومةِ يجبُ أن تتبعَ وبشعائرِها يجبُ العملُ ولا يُعملُ بما يُعارِضُها

وعلى هذا المبدإ تمشِي شرائعَ الممالكِ المسيحيةِ أيضاً فمنعتِ الحكومةُ البريطانيةُ الهنودَ الذينَ يحرقونَ نسوةَ الميتِ حينَ موتهِ عن ذلكَ العملِ الذي يعدّهُ الشرعُ المسيحيُّ إثماً عظيماً عملاً بشريعةِ المملكةِ . وكانَ الخليفة عُمرُ ابنُ الخطَّابِ قد سبقَ فمنعَ إلقاءَ فتاةٍ الى النيلِ حينَ هبُوطِ معدَّلِهِ كما كانَ للمصريّينَ عادة وطرحَ في النيلِ بدلاً من الفتاةِ كتاباً هذا نصُّهُ : « من عبدِالله عُمرَ بْن الخطَّابِ أَميرِ المؤمنينَ إلى نيلِ مصر . أمَّا بعد فإن كُنتَ تجري من قبلِكَ فلا تجرِ . وان كانَ اللّهُ يُجريكَ فأسأَلُ اللّهَ الواحِدَ القهَّارَ أن يُجرِيكَ » (١)

وعلى هذا المبدإ تمشَى أمرُ جلالةِ الملكِ المهاب الحُسَينِ بنِ عليٍّ أيَّدهُ اللّهُ في منعِهِ دُخولَ المنكرِ إلى

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي طبع المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٥ في الصفحة ٩٠

الحِجازِ وأَمرَ بِأَنْ يُصَبَّ ما يُوجَدُ مِنهُ في البَحرِ لِأَنَّ الدِينَ الاسلاميَّ دِينُ مَملَكَتِه يَنْهَى عن المُسكِرِ . وعلى مِنهاجِهِ القويمِ وهَديِهِ المُنيرِ مَشَى نَجلُهُ وَوليُّ عَهدِه الأَميرُ المعظَّمُ عليُّ بنُ الحُسيْنِ أَميرُ المدينـةِ المنوَّرةِ فأَقامَ على مَن ثَبَتَ عَليهِ السُكرُ حَدَّ الشارِبِ

الدِّياناتُ السَّماوِيَّةُ لا تجيزُ أَن يَكونَ لِلمَرْأَةِ إِلاَّ رَجُلٌ واحِـدٌ وتَفَرَّدتِ المَسيحِيَّةُ بأَنها لا تُجيزُ لِلرَّجُل إِلاَّ امرأَةً واحدةً . وأَجازَتِ اليهوديةُ والاسلاميةُ أَن يكونَ للرَّجُلِ أَكثَرُ من زَوجةٍ على شَرطِ أَن لا يَظلِمَ في القِسمةِ بَينَ مَن يَتزوَّجُ بِهِنَّ . فَكُلُّ الدُّوَلِ التي دِياناتُها سَماوِيَّةٌ تُعاقِبُ على الضِمادِ[1] أَي أَن يَكونَ للمرأَةِ رَجُلانِ فأَكثَرُ .

(١) الضماد أن يكون للمرأة أكثر من رجل واحدٍ قال الشاعر يخاطب امرأة

تريدين كيما تضمديني وخالداً　　وهل يجمع السيفان ويحك في غمدِ

اي ان الرجل سيف والمرأة غمد ولا يقبل الغمد الا سيفاً واحداً وأنت تريدين وأنت غمد أن يكون لك سيفان في وقت واحد وهذا لا يكون

وتُعاقِبُ على إِباحةِ العِرضِ أَي أَن تكونَ الأُنثى مُشاعةً لِكثيرينَ . فيَجبُ أَن تكونَ شَعيرةُ دِينِ الدَّولةِ الحاكمةِ مَتبوعةً مِمَّن لا يُشارِكُها في اعتِناقِ دِينِها وإِلاَّ عاقبَتهُ بحَقٍّ لأَنَّ شَعائِرَ دِينِ الحكومةِ يَجِبُ أَن تُتْبَعَ حَتماً (١)

إِنَّ حكومةَ الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الاميركيةِ في طَليعةِ الدُّوَلِ تَمَدُّناً وعَدلاً وتَساهلاً ومَعَ ذلِكَ تعملُ بِدُستورِها بِمِلءِ العِنايةِ . ولا تَسمَعُ فيهِ لَومةَ لائِمٍ . وهوَ مَنصوصٌ عَلى مُقتَضَى المَبدَإِ المسيحيِّ الآمِرِ بِمَنعِ تَعَدُّدِ الزَّوجاتِ

---

(١) وجه اجازة تعدد الزوجات وعدم اجازة تعدد الازواج نتيجة اعتبار موقفي الرجل والمرأة . فالمرأة كالارض تتلقى البذار وعلى هذا الاعتبار جاءت الآية القرآنية الشريفة « نساؤكم حرث لكم » والرجل كالباذر يلقي البذار في الارض. ويجوز القاء البذار في أراض متعددة فتعطي كلُّ أرض غلة ولا يجوز القاء بذار على بذار فانه مفسدة للزرع .

وتخصيص كل بذار بأرض غير منكر لذلك لا تقاوم الاسلامية ان يقنع الرجل بامرأة واحدة بل تثني على ذلك ولكنها تبيح ان يكون للرجل أكثر من واحدة فتخوّله ان يكون في عصمته من الحرائر المصونات اربع فقط

لِلرَّجلِ الواحدِ فَلا تَأْذَنْ لِمَن في أَرضِها أَو مَن يُريدُ الحُلولَ في أَرضِها أَن يكونَ لهُ زَوجانِ معًا وتَأْبَى عليهِ الإِقامةَ في ظِلِّها إِلاَّ إِنِ اكتَفَى بواحدةٍ مِنهما . وما ذلِكَ المَنعُ إِلاّ مِن بابِ وُجُوبِ جَرْيِ مَن يَأْتِيْ الى حِمَى الوِلاياتِ المتَّحِدَةِ في شُؤُونهِ على مُقتَضَى الشَّعائِرِ المسيحيَّةِ في ما هو خارِجٌ عن المُعتَقَداتِ والعِبادات

وَالدَّولةُ البريطانيَّةُ المَعروفةُ بِتَساهُلِها الدِينيِّ جاءَ في قانونِها الأَساسيِّ أَنَّ مَلِكَها مُلزَمٌ بِأَنْ يَعتَنِقَ مَذهَبَ الكَنيسةِ الأُسقفيَّةِ . فإِذا كانَ لا يَراهُ المَذهَبَ المَسيحيَّ الصحيحَ ، فَلَهُ أَن يعتَنِقَ المَذهَبَ الَّذي يَراهُ صَحيحًا . بِشَرطِ أَن يَتَخَلَّى عن العَرشِ ، وذلِكَ لِأَنَّ دِينَ الحُكومةِ الرَّسمِيَّ لا يَجوزُ لِلمَلِكِ أَن يَخرُجَ عَنهُ ولا يَجوزُ لِأَحدٍ من أَبناءِ تلكَ الحُكومةِ أَن يَمَسَّ شَعائِرَهُ

الفَصلُ التاسِعُ والثلاثونَ
وَجهَا صُدورِ الحكومة

كلُّ مؤمنٍ باللهِ في يقينِهِ أنَّ اللهَ خلقَهُ ولكنَّ آدمَ وحوَّاءَ قد خُلِقَا على وجهٍ خاصٍّ وقد روى موسى في توراتِهِ «أنَّ الرَّبَّ الإلهَ جبَلَ تُراباً منَ الأرضِ ونفخَ في أنفِهِ نسمةَ حياةٍ فصارَ آدمُ نفساً حيَّةً . وأوقعَ سُباتاً على آدمَ فنامَ فأخذَ واحدةً من أضلاعِهِ وملأَ مكانَها لحماً وبَنَى الرَّبُّ الإلهُ الضلعَ التي أخذَها من آدمَ امرأةً . »

ومِن آدمَ وحوَّاءَ تَسلسَلَ الناسُ جميعاً فينشأُ الإنسانُ نُطْفةً (١) ثم ينمو فيَصيرُ جنيناً (٢) وبعدَ تسعةِ شهورٍ من تكوُّنِهِ في أحشاءِ أُمِّهِ تلدُهُ أُمُّهُ طِفلاً إمَّا ذَكَرًا او أُنثى . فآدمُ وُجِدَ من التُّرابِ وحوَّاءُ وُجِدت من ضِلْعِ آدمَ . وكُلُّ إنسانٍ سِواهُما وُجِدَ مِن أبٍ وأُمٍّ معًا إلاَّ ما هوَ معلومٌ عَن وِلادةِ المسيحِ مِن أُمٍّ دُونَ أبٍ . فوَقعَ تغايُرٌ في وَجهِ الوُجودِ فيُقالُ خُلِقَ آدمُ مِنَ اللهِ توًّا وخُلِقَت حوَّاءُ بِهِ

(١) الماء القليل　(٢) الولد ما دام في بطن أمه

وكلُّ انسان سِواهُما خُلِقَ مِنهُما حتَّى المسيح لِأَنَّ أُمَّهُ من يُواكيمَ وحَنَّةَ أي مِنْ آدمَ وَحَوَّاءَ معًا

فَنَجِدُ التَّغايُرَ يَقَعُ فِي وَجهِ الوُجودِ لا في مَصْدَرِ الوُجودِ فَكُلُّ مَوجودٍ مِنَ اللهِ إمَّا بِغَيرِ واسطةٍ او بالواسِطة . فَمَوْجُوداتُ اللهِ إمَّا عَن إيجادٍ من غيرِ سابِقِ مِثالٍ لَهُ كَما أَوجَدَ اللهُ الأَبوينِ آدمَ وحواءَ وإِمَّا عَن إِيجادٍ لَهُ مِثالٌ كَما هُوَ شأنُ كُلِّ إنسانٍ في عَصرِنا الحالي

لِلانسانِ الأَوَّلِ وُجودٌ مِنَ اللهِ مُطلَقٌ لَم تَتَعَلَّقْ بِهِ مَشيئَةُ إنسانٍ. ولٰكِنَّ كُلَّ واحِدٍ من أَبناءِ آدمَ أَيْ مَن هُوَ من ذُرِّيَّتِهِ يَتَعَلَّقُ وجودُهُ على مَشيئَةِ إِنسانٍ تَنضَمُّ إِلى مَشيئَةِ اللهِ تَعالى(١) . فإِنْ مَنَعَ الرَّجُلُ نَفسَهُ مِنَ الدُّنُوِّ مِن كُلِّ أُنثى مُتَبَتِّلًا كَما يَصنَعُ المُتَنَسِّكونَ فَلا يَكونُ عَن وُجودِهِ وُجودُ إِنسانٍ مِن صُلبِهِ . والرَّجُلُ الذي يَتَّخِذُ

---

(١) لم تحبل سيدتنا مريم بانها الا بعد ما اعلنت رضاها بذلك كما تنصُّ الآيات في الانجيل والقرآن ومع ذلك فان ميلاد المسيح من الخوارق والكلام في هذا الشأن عمومي

لِنَفسِه زَوجةً على الوَجهِ الذي أَحلَّهُ اللهُ لَهُ لِيَستَولِدَ مِنها بَنينَ فتَلِدَ له امرَأَتُهُ وَلَدًا تكونُ مشيئتُهُ ومَشيئةُ زَوجَتِهِ قد انضَمَّتا الى مَشيئةِ اللهِ الخالِقِ في وُجودِ المَولود . فَلِلّه على ذلِكَ المَولودِ نعمةُ إِيجادِهِ وللأَبَوَينِ عَليهِ أَيضًا نعمةُ أَنَّهُ بِهِما وُجِدَ فآدمُ أَرومتُهُ الأُولَى وأَبَواهُ غُصنُهُ الأَدنى وَهُوَ الثمرَةُ التي وُجِدَتْ بالغُصنِ

والحكومةُ لا تخرجُ في أَمرِها عَن أَحَدِ هذَينِ الوَجهينِ فتَكونُ إِمَّا وَضعًا مِن قبَلِ اللهِ تعالى ولا دَخلَ للإِنسانِ في وُجودِها وإِمَّا وَضعًا مِن قِبَلِ اللهِ تعالى وقد خدَمَت مَشيئَةُ الإِنسانِ في وُجودِها فإِنَّ حاجَتَهُ الى الأَمنِ عَلَى عِرضِهِ ودَمِهِ ومالِهِ دَعاهُ الَى أَن يَدعُوَ مَن يَرَى أَنهُ مَوفورُ القُوَّةِ والعَدالَةِ والحِكمةِ — الشؤُون التي لا غِنَى عَنها لِلحاكِميَّة إِيجادًا لِلامنِ المَنشود — إِلَى أَن يَكونَ مُسَيطِرًا (١) عَلَيهِ . فَصارَ المُسيطِرُ مُسَيطِرًا بمَشيئَةِ اللهِ الذي أَعَدَّهُ لِتِلكَ السَّيطرةِ بما أَعطاهُ وبِدَعوةِ الإِنسانِ

---

(١) مسيطر على شيء والسيطرة الاشراف والمراقبة

كانَ موسى كليمُ الله يَرعى غَنَمَ يثرونَ[1] حَميهِ فساقَ الغَنَمَ الى وَراء البرِّيَّةِ وجاءَ إلى جَبَلِ الله حُوريبَ وهُنالكَ هَبطت عَليهِ الدَّعوةُ الإلهيَّةُ بأَنْ يَذهَبَ مِن قِبَلِ الله الى فرعونَ مَلكِ مِصرَ فيُخرِجَ بَني إِسرائيلَ من أرضِهِ . ورأى مُوسَى هذهِ المُهمَّةَ شاقَّةً فَوَدَّ أَن يكونَ عَنها بمعزَل . فأبَى اللهُ ذلكَ الاعتزالَ وأَوجبَ عَليهِ أَن يقومَ بِما نَدَبَهُ إلى القيامِ بِهِ وأَعانَهُ بالآياتِ وبأَخيهِ هارونَ فَذَهَبَ إلى فرعونَ بِرِسالتِهِ وبالمَعونةِ التي عَضَدَهُ اللهُ بِها أَخرَجَ بني اسرائيلَ من مِصرَ وقادَهُ في البَرِّيَّةِ أَربعين سَنةً واستَخدَمَ يَشوعَ ابنَ نُون فَصَحِبهُ في روحاتِهِ وغَدَواتِهِ وتَثَقَّفَ بِتَقواهُ وأَدَبِهِ وغَيرتِهِ فكانَ خَلَفَهُ في رِعايةِ الشعبِ . فدَعوةُ مُوسَى إلى رِعايةِ بَني اسرائيلَ كانت من قِبَلِ اللهِ نَوًّا وَهُوَ تَعالى أَوعزَ الى هارونَ أَن يَذهَبَ لاستقبالِ مُوسَى فَذَهَبَ وجاءَ بأَخيهِ الى الشَّعبِ وتَكلَّمَ

(١) تدعوهُ التوراة يثرون ورعوئيل وتدعوهُ القرآن شعيباً فالتغاير في التسمية لا في المسمى

بجميعِ الكلامِ الذي كلَّمَ الرَّبُّ موسى بِهِ وصنَعَ موسى الآياتِ أمامَ عيونِ الشَّعبِ فآمنَ الشَّعبُ. وهذا وجهٌ أوَّلُ من وجوهِ وجودِ الحكومة

وطَلَبَ الشعبُ الاسرائيليُّ في شيخوخةِ النبيِّ صموئيلَ قاضي اسرائيلَ أَن يكونَ لَهُ مَلِكٌ على مِثالِ ما لِلشُّعوبِ الأُخرَى التي تجاوِرُهُ فأَجابَهُ اللهُ إلى ما طَلَبَ. وٱختارَ اللهُ شاؤُولَ[1] ابنَ قيسٍ من سبطِ بنيامينَ أَصغرِ أَبناء يعقوبَ وبلَّغَهُ هذا الاختيارَ بِفمِ النبيِّ صموئيلَ. فإنَّ اللهَ كَشَفَ لِصموئيلَ مشيئتَهُ هكذا: « غدًا في مِثلِ الآنَ أُرسِلَ إِليكَ رجلاً من أَرضِ بنيامينَ فامْسَحْهُ رئيساً لِشَعبي إسرائيلَ » وجاءَ شاؤُولُ الى صموئيلَ فمسَحَهُ صموئيلُ كما تلقَّى أمرَ رَبِّهِ. واستدعَى صموئيلُ الشعبَ الإسرائيليَّ الى الرَّبِّ الى المصفاةِ[2] وهنالكَ أَبلغَهُ أَنَّ اللهَ اختارَ شاؤُولَ مَلِكًا إِجابةً لِطَلَبه. فكانَ شاؤُولُ مَلِكًا، وانتقَلَ الشَّعبُ الاسرائيليُّ من تحتِ رِعايةِ قاضٍ مندوبٍ من قِبَلِ اللهِ

(١) يدعوه الكريم القرآن طالوت (٢) مكان كانت فيه خيمة الشهادة

تعالى الى تحتِ رِعايةِ مَلِكٍ مَندوبٍ مِن قِبَلِ اللهِ تعالَى أيضاً ، ولٰكنَّ القاضيَ كانتِ الدعوةُ تأتيهِ منَ اللهِ فيُعلِنُ عنها للشَّعبِ كما أعلنَ موسى للشَّعبِ . والمَلِكُ تأتيهِ الدَّعوةُ منَ اللهِ بالتِماسِ الشَّعْبِ

فكلُّ حكومةٍ إمَّا بدعوةٍ منَ اللهِ كما دُعِيَ موسَى ليترأَّسَ بني إسرائيلَ وامَّا بدعوةٍ منَ اللهِ بلسانِ الشَّعبِ الذي طلبَ ملِكًا فأُعطِيَ شاؤُولَ ملِكًا

والمَنهجُ المَتبوعُ في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ اعتبارُ الحُكومةِ نعمةً منَ اللهِ تُعطى إجابةً لِمُلتمَسِ الشَّعبِ . أي بدعوةِ الشَّعبِ فأبو بكر وَلِيَ الخلافةَ في المُسلمينَ بإجماعِ الكَلمةِ على تخويلِهِ القيامَ بالأمْرِ . فالرسولُ اختارَهُ قوَّاماً لأمرِ الصَّلاةِ وَهيَ إسُّ الشَّعائرِ الدينيَّةِ فرَضيَهُ الناسُ لأمرِ الدُّنيا أيضاً فتقلَّدَ أمرَ الحكومةِ مَعَ أمرِ الدينِ خليفةً للرَّسولِ

ورأى ما أُعطِيَهُ منَ الأمرِ برِضَى الأُمَّةِ يجيزُ لَهُ أَنْ يُقيمَ مَن يَخلفُهُ على مكانتِهِ في سياسةِ أمرِ الامَّةِ فعهِدَ

الى عُمَرَ . وتَرَدَّدَ عُمَرُ في أَن يَعْهَدَ الى أَحَدٍ بالأَمرِ بَعدَهُ كما كانَ من أَبي بَكرٍ أَو أَن يَدَعَ ذٰلِكَ ثم أَقرَّ على أَن يَعهَدَ إِلَى واحِدٍ مِن سِتَّةٍ يَتَّفِقُ عليهِ أُولئكَ السِتَّةُ وآخَرونَ أَيضاً (١) إِذا اقتَضَى تَرْجِيحٌ فكانَ خَلَفُهُ عُثمانَ ثم وَلِي بَعْدَ عثمانَ عَلِيٌّ بصَوتِ الأُمَّةِ فَإِنَّها صَرَفَت إِلَيهِ الدَعوةَ فأَبَى ثُمَّ أَجابَ . ولَمَّا أَدرَكَهُ الأَجَلُ بِضَربَةِ الشَّقِيِّ ابنِ مُلْجِمٍ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ رَأْيَ الأُمَّةِ مُتَّجِهٌ الى دَعوةِ ابنِهِ الحَسَنِ لِيكونَ مَن يَلي الأَمرَ بَعدَهُ فقالَ لا آمُرُكم ولا أَنهاكم . فأَرجَعَ الأَمرَ الى الأُمَّةِ

وَجلالَةُ المَلِكِ الحُسينِ بنِ عَلِيٍّ يَتذَرَّعُ الآنَ بالحِكمةِ والرَّوِيَّةِ في قَبولِهِ الخِلافةَ التي تَتوارَدُ إِليهِ من أَقطارِ الدنيا التسميةُ بها وما ذٰلِكَ التروّي إِلاَّ عَن رَجاحةِ عَقلٍ وطَهارةِ وِجْدانٍ (٢) واحتفاظٍ على حُقوقِ ذوي الحُقوقِ وَهُوَ بإِجماعِ

(١) ثم ان يحضر أيضاً الحسنُ ابن علي سبط الرسول و ولدهُ عبد الله ابن عمر واجاز في حال عيّنها أن يعطي ولدهُ عبد الله صوتاً

(٢) قوّة للنفس بها يدرك المرءُ وجودهُ واحواله واعمال عقله

الكلمة أوّلهم وأولاهم بهذه المرتبة العالية[1] وله دون سواه في هذا العصر يصح ان يقال

أتته الخلافة منقادة إليه تجرجر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره ازلزلت الأرض زلزالها

وأعود الى البحث المعقود فأقول: إنّ تغاير أساس الهيأة الحاكمة في أنّها مدعوّة من الله توًّا او أنّها مدعوّة من الله بلسان الشعب يكون عنه تغايرٌ في موقف رأس الهيأة الحاكمة . وفي السلطان الذي يتقلّده رجال الهيأة

---

(١) صدر في جريدة القبلة الغرّاء في العدد ٣٠٩ بتاريخ يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ منشور من الديوان العالي الهاشمي هذا نصّه :

نظراً لحسن ظن كثيرين من الافاضل النجباء يذكرون في عنوان محرّراتهم لجلالة سيدي ومولاي مليكنا المعظم ـ لقب امير المؤمنين ـ وحيث ان هذا العنوان مرادف لعنوان الخلافة التي أمر تلقيبها منوط بالعالم الاسلامي فالمرجو من كافة اخواننا ان لا يذكروا في عناوين محرّراتهم الا العنوان الذى لقبته به البلاد كما تصرّح في المنشور الكريم في عدد ٢٣٧ من القبلة وتاريخ ٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٧

الحاكمة . فالمدعوُّ الى الأمرِ مِنَ اللهِ توًّا يعُدُّ الشَّعبَ وَدِيعةَ اللهِ في عُنُقِه يَسأَلُهُ اللهُ عنها ولا يَرَى لإِنسانٍ أَنْ يَسأَلَهُ عَنها إلاَّ مَن هُوَ مِن قبَلِ الله تعالى . فَسُلطانُهُ كما تَسَلَّمَهُ مِنَ اللهِ لا يَقبَلُ أَن يَقَعَ عَلَيهِ تحويرٌ فَيَوَدُّ أَن يُسَلِّمَ ابنَه من بَعدِهِ ما تَسَلَّمَهُ هُوَ من أَبيهِ . والمَدعوُّ مِنَ اللهِ بِلِسانِ الشَّعبِ يَستَمِدُّ سلطانَهُ منَ الشَّعبِ فالسُّلطانُ الذي وَلِيَهُ وَديعةُ الشَّعبِ مَدفوعةً إِلَيهِ بمَشيئَةِ اللهِ تعالى فَلِلشَّعبِ أَن يُحَدِّدَ لَهُ مِقدارَ سُلطَتِهِ لأَنَّهُ في حَقيقةِ الواقِعِ وكيلٌ عَن مجْمُوعِ الشَّعبِ في استِيرادِهِ الخَيرَ لِلمَجموعِ كلِّهِ وَلِكلِّ فَردٍ من أَفرادِ ذلِكَ المَجموعِ بِسَيرِهِ بِهِم عَلَى المِنهاجِ القَويمِ الذي أَنزَلَهُ اللهُ شَرعاً مِن عِندِهِ

فالنِظاماتُ التي تَضَعُها الهيأَةُ الحاكِمةُ التي تَعُدُّ رأْسَها مَدعُوًّا مِنَ اللهِ تَوًّا تَنفذُ أَحكامها مَتَى صَدَرت مَشيئَةُ رأْسِ الحكومةِ بِقَبولِها لأَنَّ الهَيآتِ الحاكِمَةَ مُوَلاَّةٌ مِن قِبَلِهِ فَهُوَ يَنْصِبُها ويَعزِلُها وَلَهُ أَن يَدفَعَ إِلَيها حَقَّ التَّشريعِ وأَن يستَرِدَّهُ استنادًا على أن كلَّ السُّلطان موضوعٌ عَلَيهِ

وَهُوَ يَتَصَرَّفُ بِهِ بِمَشِيئَتِهِ الَّتِي يَتَحرَّى بها دَفْعَ المَغْرَمِ عَنِ الشَّعبِ وجَلْبَ المَغْنَمِ لِلشَّعبِ

أَمَّا إِذا كانتِ الهَيأَةُ الحاكِمَةُ عائِدةً في أَمرِها الى رَأْس مَدعوٍّ من الشَّعبِ فما تَسُنُّهُ مِنَ النِظامات لا يُعمَلَ بِهِ نِهائيًّا إِلاَّ بعدَ ما يُسَلِّمُ الشَّعبُ بِلِسانِ نُوَّابِهِ الَّذينَ يُمثِّلونهُ أَنَّهُ مُنْطَبِقٌ عَلَى شَرعِ دِينِ المَملكةِ وعلى مَصلَحتِها وعلَى العَدلِ ومناسِبٌ لِأَحوالِ الشَّعبِ وحافِظٌ لِلعُهودِ التي بِمَوجَبِها تَوَلَّى الحاكِمُ الأَعلى السُلطانَ في الشَّعبِ وغيرُ ماسٍّ بِحُقُوقِ ذلكَ الحاكِم. ثُمَّ يُصَوِّبُ الحاكِمُ الأَعلى ذلِكَ المَسنونَ بَعدَ ما يَفحَصُ عَنهُ فَحصاً دَقيقاً بِنفسِهِ وبِمَن هُمْ ثِقاتُهُ فإِنَّ الحاكِمَ الأَعلى وكيلُ الشعبِ لَدَى القانونِ وَوكيلَ القانونِ لَدَى الشَّعبِ وعلَى كلِّ ذِي حَقٍّ أَنْ يُحافِظَ عَلَى حَقِّهِ

فَسَواءٌ كانت الحكومةُ صادرةً من اللهِ تَواً او مِنَ اللهِ بِدَعوةِ الشَّعبِ اليها ، لا يَجوزُ أَنْ تَصدُرَ أَحكامٌ إِلاَّ عَلَى الوَجهِ الذي يَنْطَبِقُ عَلَى شَرعِ دِينِ الحكومةِ الرَّسميِ

فالأَحكامُ تُطبَّقُ عَلَى الدِّينِ فالتي تُوافِقُهُ يقرُّها والتي لا تُوافقهُ ينبذُها . ولا يَجوزُ ان يُطبَّقَ الدِينُ على الأَحكامِ فَيُقبَلَ مِنَ الدِينِ ما ناسَبَ الأَحكامَ ويُنبَذَ ما لا يُناسبُها فإذَن تتغيَّرُ الأَحكامُ ولا يتغيَّرُ الدينُ . وكلُّ حكومةٍ أَجازَت لِنفسِها أَن تَتعرَّضَ لِشؤُونِ الدينِ أَتعبَتْ نَفسَها وَضَعُفَت من حَيثُ حَسِبَتْ أَنَّها تَستورِدُ قوَّةً

الفصل الأَربعون

التراخي الديني ونتائجُهُ الوخيمة

أَلدِّينُ الحَقُّ يَدعُو الإِنسانَ إِلَى أَن تكونَ حياتُهُ مَرضِيَّةً لِلّهِ في كُلِّ قَولٍ وعَمَلٍ فتَنهَجَ نَفسُهُ في سُبُلِ الصَّلاحِ عَلَى استِقامةٍ مُتَّجِهةً إِلَى إِحرازِ رِضى اللّهِ تَعالى دُونَ تَعَوُّجٍ ولا كَسَلٍ . ومَن مَشَى في صَلاحٍ سَعُدَ هُوَ والآخَرونَ أَيضاً . وإِذا تَوَفَّرتِ السَّعادةُ لِلعُمومِ أَبلَغَتِ الإِنسانِيَّةَ الغايَةَ التي تَنشُدُها والأُمنِيَّةَ الَّتِي تَتوقُ[1] إِلَى الحصولِ عَلَيها

---

(١) تاق الى الشيء اشتاق اليه

الدِّينُ الحقُّ يأمُرُ بالمَعروفِ ويَنهَى عَنِ المُنكَرِ . والأَمرُ بالمَعروفِ يُجزِلُ بَواعِثَ الوِئام . والنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ يُزيلُ أَسبابَ العُدوانِ [١] . وَإِذا انتَفَت أَسبابُ العُدوانِ واتَّفَقَتِ الكَلِمةُ عَلى الوِئام [٢] استَلزَمَ ذلِكَ الاتِّفاقُ التَّعاوُنَ عَلى الخَيرِ فَتَكثُرُ وَسائِلُ الراحةِ وتَستَتِبُّ دَعائِمُ الأَمنِ ويُنيرُ نِبراسُ الحِكمةِ ويَرتَعُ الناسُ في ظِلِّ رَغَدٍ شامِلٍ

فالنَّفسُ المُؤتَمِرةُ بالدِينِ حَقًّا تُذَلِّلُ جِماحَ الجسَدِ وتُلجِمُهُ [٣] عَمَّا يَسوءُ وَقعاً عَلَيهِ وعَلَى الآخَرينَ وتَقتادُهُ الى مافيهِ مَصلحتُها والنَّفعُ لِسِواها . وإِذا انتَفَى أَن يَقَعَ الضَّرَرُ مِنَ المَجموعِ كُلِّهِ فالدِينُ يَضَعُ الأَساسَ الصَّحيحَ لِكَي تَعُمَّ السكينةُ وتَقومَ الحكومةُ وَهِيَ بِراحةٍ بواجِبِ صَونِ الدَّمِ والعِرضِ والمالِ وإِسعادِ الأُمةِ في الحالِ والاستِقبالِ

---

(١) الظلم (٢) الموافقه في الصحبة (٣) تلبسه اللجام وهو مايجعل في فم الفرس والكلام مجازي فشبه الامساك عن السوء باللجام

فإن تطرّق[1] التراخي الدينيُّ إلى نفسٍ ما رأت من المُحلِّل لها أن تأخذ ما ليس لها فتتجاوز عن الوقوف عند حدّ ما يحقُّ لها إلى استخلاص ما لا يحقُّ . ولكلّ شيءٍ صاحبٌ . فاذا بخستَ حقًّا للغير فذلك الغيرُ لا يرضى أن يُستلب ذلك الحقُّ منهُ ويعدُّ من واجباته أن يحتفظ به . فيدفع التّجاوُز الذي طرأ على حقّه * وعن الاندفاع على حقّه ودفعه ذلك الاندفاع خصومةٌ . وعن الخصومة عناءٌ . فالتّراخي في الدين يجلبُ العناء كما يجلبُ الاعتصامُ بالدين راحةً وسلاماً

التّراخي في الدين تكون حقيقتهُ اطّراح الاعتصام بالمُعتقدات التي يجبُ على العين النّفسيّة[2] أي قُوى النّفس العاقلة أن لا تغفل عنها . وهذا الاطّراحُ يبدُو بمجاوزة الشّعائر او السُّنن تجاوُزًا غير جائز . فالذي يعمدُ الى السّرقة يعملُ عملهُ على وجهٍ ظاهرُهُ أنّهُ غيرُ مكترثٍ

---

(١) تطرق الشيء الى كذا وصل (٢) العين النفسية تطلق على القوى الادراكية التي تهدي النفس نظير هداية العين الجسدية للجسد

لِسُلطانِ الحكومةِ التي دفعَ اللهُ إليها واجبَ السهرِ على مَصالِحِ الشعبِ . وحقيقتُهُ أنهُ غيرُ مؤمنٍ باللهِ الذي حَتَمَ على الإنسانِ أن يَمتلكَ ما يَمتلكُهُ بوجهٍ شرعيٍ أجازَهُ لَهُ بلسانِ الدينِ الذي أنزلَهُ من سماواتِهِ لإسعادِ البَشَرِ . ولا مُصَدِّق بأنَّهُ إذا عَمِلَ بمقتضَى ذاكَ الحتمِ يُحرِزُ خيراتِ دُنياهُ وبركاتِ دارِ النعيمِ الباقية. فَمَنْ يُؤمنْ باللهِ يَعملْ ما يُرضيهِ . ومَن يعملُ ما لا يُرضيهِ فهُوَ لا يُؤمنُ بهِ ، ومَن أنكرَ الإيمانَ باللهِ فهُوَ يُريدُ التطرُّقَ (١) الى ما نَهَى عن عَمَلِهِ أي انهُ يَتعمَّدُ الشرَّ لِنفسِهِ وللآخرينَ . وكلُّ شرٍّ يَصدُرُ منهُ نحوَ الآخرينَ يعودُ عليهِ أيضاً

لا يَقعُ تراخٍ في الدينِ إلاَّ بأنْ تنحلَّ النفسُ عَنِ الارتباطِ باللهِ تعالى فمَن تراخَى عن وَفاءِ الصَّدقةِ مثلاً فهُوَ إمَّا أنَّهُ يَتجاهلُ صحةَ حُقوقِ الاخوَّةِ البَشريَّةِ التي يَفرِضُها كلُّ دينٍ سماويّ او أنهُ يُنكرُ في نفسِهِ أنَّ اللهَ دائِمُ العنايةِ بمخلوقاتِهِ . أو لا يُسَلِّمُ بأنَّ اللهَ يُثيبُ

---

(١) الوصول

بالإحسان عن كلّ إحسان . وسواءٌ تجاهل الأُخوّة البشريّة أو أنكر العناية الإلهيّة الدائمة أو شكّ في تدفّق الثّواب الرّبّانيّ بلا انقطاع لمن أحسن العمل. فقد خرج عن الوجه الذي أوجب اللهُ عليه أن يعمل به بمقتضى وجوده البشريّ الصادر منه تعالى . ولم يخرج أحدٌ عن ذلك الوجه إلاّ أصابه الشّقاء في دنياه وأخراه معاً

فالتراخي في الدين ان كان صدوره من حكومة أذهب ظلّها فما من حكومة لبثت عاملة بمقتضى الدين السماويّ الاّ سعدت ونمت واتّسعت بلادها وكثر شعبها . ولا انحرفت عن جهة العمل بمقتضاه الاّ خسرت رونقها وشقيت فيقلّ شعبها وتضيق بلادها ويطوى علمها [1] وإن كان من أمّة نزلت عليها العقوبة من السماء وأدركتها المتاعب من الناس فاستبيح حماها واجتاحتها [2] الأوبئة والنار والسيف . وأمحلت أرضها فتضمحلّ شيئاً فشيئاً

---

(١) المراد سيطوى علمها أنها تزول سلطنتها ولا يبقى لها علم
(٢) استأصلتها

وذلكَ لِأَنَّ الآثمينَ يُستأصَلونَ كما أعلنَ اللهُ ذلكَ الحكمَ الرَّهيبَ بلِسانِ رُسلِهِ الداعينَ إلى عبادَتِهِ — وفي طُوفانِ نُوحٍ عِظةٌ بالغة — وان كانَ من فردٍ تحوَّلت صِحتُهُ سقاماً وكرامتُهُ هواناً وغِناهُ فقرًا فآلَ أمرُهُ إلى شرِّ مآل.

ولِقائِلٍ أن يقولَ . كُلُّ دِينٍ يقولُ المُؤمنونَ بِصِحَّةِ هَديِهِ أنَّهُ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ — ولا يكونُ الدِينُ الحقُّ في مُتَعَدِّدٍ إلاَّ سَهْماً لواحِدٍ[1]. فأيُّ دِينٍ يَجِبُ أن يُتبَعَ

والجَوابُ : إنَّ هٰذا البَحثَ مُتَّجِهٌ الى فَحصِ صِحَّةِ الأَديانِ وهٰذا الفحصُ مَنوطٌ بِرجالِ الأَدْيانِ . فَعَلى كلِّ رئيسٍ دِينيٍّ أن يَقومَ بِحُجةِ دِينهِ في بَيتِ دِينهِ . مِن بابِ تَوضيحِ حقيقةِ مبدإِهِ الدينيِّ لا مِن بابِ قذفِ الأديانِ الاخرَى . فاعبُدْ رَبَّكَ على ما أوجَبَهُ عليكَ دينُكَ .

---

(١) ولكن هناك قولا آخر وهو « ان دين الله في كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم واحوالها وازمنها وامكنتها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية » من كتاب الاسلام دين الحضارة رويت هذه العبارة في صفحة ٧٥ من الجزء ٣ من مجموعة السميل

وحِكمُكَ فيهِ ظاهِرٌ في اختيارِكَ إيّاهُ دِيناً فكُلُّ امرِئٍ يَختارُ لنفسهِ ما يَعتَقِدُ صِحّتَهُ — فهو عِندَهُ الافضَل — إن كُنْتَ لا تَراهُ الأفضَلَ فعلامَ تعتنِقُهُ دُونَ الأفضَلِ —

كُنْ للحَقِّ جُنْدِيّاً ولا تَخَف

يَرِدُ أجودُ الثِمارِ عن أجوَدِ الأشجار . فإذَن يكونُ أجوَدُ الأعمالِ عن أجوَدِ الأَدْيانِ . أَرِني ما هُوَ عَمَلُك . فإنّهُ يُبيّنُ ما هُوَ دِينُك

أُنظُرْ في عَمَلِكَ فإن كُنتَ تَراهُ بالِغاً الغايَةَ مِنَ الجُودةِ فَبُلوغُ تِلكَ الغايَةِ يُلزِمُكَ أن تحتَرِمَ الآخَرِينَ لِيَحتَرِموكَ . فاحتَرِمْ أديانَهم يَحتَرِمُوا دِينَك . فَبِذَلِكَ تَصونُ نَفسَكَ مِنَ المَلامَةِ وتَصيرُ حَبيباً لِلقُلوبِ . وإن كُنتَ تَرَى عَمَلَكَ غيرَ بالِغِ الغايَةِ مِنَ الجُودَةِ فأنتَ غيرُ راسخٍ في دِينِكَ فكَيفَ تريدُ أن تُفَضِّلَهُ على أَدْيانِ الآخَرِينَ . وأنتَ بإهمالِكَ الاعتِصامَ بِهِ قد أَثبَتَّ أنّهُ غيرُ جَديرٍ بالإقبالِ عليهِ . هكذا جادِلْ نَفسكَ ولا تُجادِلِ الآخَرِينَ إلاّ بالّتي هِيَ أَحْسَن . فمَنِ اعتَصَمَ بِدِينِهِ تَجَنَّبَ

أَن يَحْدُثَ مِنهُ ما يَدعُو إِلى تَمزِيقِ كَلِمَةِ الأُمَّةِ الَّتي يَعُدُّ نَفسَهُ عُضوًا نافعًا فِيها

أَمَّا الحكومةُ المَشروعةُ فَتَنظُرُ في قَضِيَّةِ الأَدْيانِ هٰكذا : كُلُّ دِينٍ يَأْمُرُ بالمَعروفِ ويَنهَى عَنِ المُنكَرِ أَهلٌ لِلقَبولِ منها ومتَى ثَبَتَ لِدِينٍ أَنَّ لَهُ هاتَينِ الغايَتَينِ تَوَجَّبَ عَلَى مُعتَنِقِهِ[1] أَن يكونَ عامِلاً بِشَعائِرِهِ وسُنَنِهِ التي تَعودُ الى تَأْيِيدِهِ في مَناهِجِ الحَياةِ ومَن حازَ قَبولاً لَدَى حُكومَتِهِ تُعِينُهُ على القِيامِ بِشَعائِرِ دِينِهِ من وُجوهِ المُساعَدةِ المَشروعَةِ لِعلمِها أَنَّ مُعامَلَتَهُ بالحُسْنَى تَزِيدُهُ تَعَلُّقًا بِها . فَهِيَ لا تَجهَلُ أَنَّها مُوَلاَّةٌ على أَعمالِ النَّاسِ الظَّاهِرَةِ لا على نُفُوسِهِم فَتُثِيبُ عَلى ما عَمَلُهُ الظاهِرُ حَسَنٌ . وتُعاقِبُ على ما عَمَلُهُ الظاهِرُ غَيرُ حَسَنٍ . وما أَحسَنَ ما قالَهُ عَتْبَةُ ابْنُ أَبي سفيانَ لأَهلِ مِصر : « إِعلَموا أَنَّ سُلطانَنا عَلى أَبدانِكم دُونَ قُلوبِكم فأَصلِحوا لَنا ما ظَهَرَ ونَكِلُكم إِلى اللهِ في ما بَطَنَ » وقالَ لَهم

---

(١) اعتنق الشيء لزمه

أَيضاً : «لَنا عليكُم السَّمعُ والطاعةُ ، وَلَكم علينا العَدلُ ، فأَيُّنا غَدَرَ فلا ذِمَّةَ له عِندَ صاحِبِهِ . وَاللهِ ما انطَلَقَت بِها أَلسِنَتُنا حتَّى عُقِدت عليها قلوبُنا ولا طَلَبْناها مِنكم حتَّى بَذَلْناها لكم ناجزًا بناجِزٍ . ومَن حذَّرَ كمَن بَشَّرَ . فَنادَوْهُ سَمْعاً وطاعةً فناداهم عَدْلاً عَدْلاً[1] »

وها أَنا ذا أَذكُرُ قَضيةً ذاتَ شأْنٍ في عِنايةِ الدَّولةِ الحكيمةِ في احتيازِ مَحبَّةِ رَعيَّتِها وهي :

إِنَّ الحَجَّ مِن شَعائِرِ الإِسلام ، ولا رَيبَ . فَعلى كلِّ مُسلِمٍ أَنْ يَحُجَّ في العُمْرِ مَرَّةً واحدةً إِنْ تَوَسَّعت حالُهُ في الصِحَّةِ والنَّفَقةِ لِلحَجِّ . فَرَأَتِ الدولةُ الرُّوسيَّةُ في عَهدِ أُسرَةِ[2] آلِ رومانوفَ القَياصِرَةِ الأَرثوذكسيِّينَ أَنَّ مِن وَسائِلِ تَحْبيبِها بِنَفسِها إِلى المُسلِمينَ مِن رَعيَّتِها أَن تُعِينَ كلَّ مَن أَرادَ القِيامَ بِهٰذِهِ الشَّعيرةِ وَهُوَ صِفْرُ[3] اليَدَينِ بأَن تَتَكَفَّلَ لَهُ بِنَفَقةِ حَجِّهِ وذٰلِكَ لِعِلْمِها أَنَّهُ بعدَ قِيامِهِ

---

(١) فرش كتاب الخطب في الجزء الثاني من العقد الفريد

(٢) عشيرة (٣) الخالي

بهٰذه الشعيرةِ الدينيَّةِ يكونُ تعبُّدُهُ لربِّهِ أوفى ورغبتُهُ في حياةِ الصَّلاحِ أعظمَ وامتناعهُ عنِ المحارمِ أشدَّ وعملُهُ بأوامرِ دينِهِ أتمَّ فتجبي من جودةِ سيرتِهِ ونقاوةِ سريرتِهِ أضعافَ ما تُنفِقُهُ عليهِ في سبيلِ إدائِهِ واجبَ تديُّنِهِ . فمُعاضدَةُ الحكومةِ المسيحيَّةِ لابنِ رعيَّتِها المُسلِمِ ليكونَ قائماً بركنٍ من أركانِ دينِ الإسلامِ الذي يعتنقُهُ عملٌ مقصودٌ لدفعِ التَّراخي الدينيّ عنهُ . لأنَّ التَّراخيَ في واجباتِ الدينِ علَّةٌ وبيلةٌ إنْ أصابت منَ الفكرِ مكاناً أثَّرتْ على حالةِ النفسِ أقبحَ أثرٍ فهيَ أشبهُ بعلّةٍ تنشبُ في جزءٍ منَ الجسدِ فتشُلُّهُ فإذا أُهمِلَت معالجتُها عمَّتِ الجسدَ فأتتهُ بالموتِ الزُّؤامِ . وأيُّ موتٍ شرٌّ منَ التَّدميرِ الَّذي أصابَ روسيَّا في عهدِنا الحاضرِ لأنَّ قيادَ حكومتِها في قبضةِ زمرةٍ لا دينَ لهُمْ فجزَّأوها وسفكوا دماءَ أهلِها وهدَموا مدُنَها وغادروا أعاليَها أسافلَها . وكما أصابَ تركيًّا في عهدِ حكومةِ الجمعيّةِ الاتّحاديّةِ الاثيمِ التَّمزيقيَّةِ العملِ التي سادَ فيها الشقاءُ والهبوطُ الأخلاقيُّ

والعُمرانيُّ. والظَّلامُ والقُبحُ لِأَنَّ زِمامَها كانَ بِأَيدي سَعيدٍ وطَلعةَ وأَنورَ وجَمالٍ رِجالِ الدماء وأَركانِ المَخازي وأَبطالِ المُنكَرات

الفصل الحادي والأَربعون

الأمة العربية والتدين

يُعرَفُ تَدَيُّنُ كُلِّ أُمَّةٍ بما تَشتَهِرُ بِهِ أَخلاقُها ويُرَى مِن أَعمالِها. فلا يَكُونُ دِينٌ الاَّ انبَعَثَ عنهُ خُلُقٌ حَسَنٌ. كما لا يكونُ نورٌ الاَّ كانت حَرارةٌ، فإِذا أَرَدنا ان نَعرِفَ تَمَسُّكَ العَرَبِ بالدِينِ استَدلَلنا عَلى ذٰلِكَ بالأَخلاقِ الحِسانِ والأَعمالِ الصادرةِ عن طَهارةِ وِجدان

وَقَد جرَى حَدِيثٌ بَينَ النُّعمانِ ابْنِ المُنذِرِ مَلِكِ الحَيرةِ وكَسرَى سَيِّدِ فارِس، في شَأْنِ العَرَبِ وتَدَيُّنِهِم وأَخلاقِهِم فاندفَعَ النُّعمانُ في الكَلامِ عَنِ العَرَبِ في دِينِهِم وأَخلاقِهِم اندِفاعاً دَلَّ على قُوَّةِ عارِضَةٍ (١). ولَمَّا كانَ كَلامُهُ سَدِيدًا

(١) العارضة القدرة على الكلام

رَأَيتُ أَن أَنقلَ منهُ ما يَدخُلُ في مَوضوعِ كِتابي هٰذا . وذَيَّلتُهُ بما يَزيدُ قَولَهُ جَلاءً(١) او تأييدًا

قالَ النُّعمانُ عَن تَدَيُّنِ العَرَبِ هٰكذا : إِنَّهُم مُتَمَسِّكونَ بِهِ حتى يَبلغُ أَحَدُهم مِن نُسكِهِ بدِينِهِ أَنَّ لَهُم أَشهُرًا حُرُماً وَبَلَدًا مُحَرَّماً وَبَيتاً مَحجوجاً يَنسُكونَ فِيهِ مَناسِكَهم ويَذبَحُونَ فِيهِ ذَبائِحَهم . فَيَلقَى الرجُلُ قاتِلَ أَبيهِ أَو أَخيهِ وَهُوَ قادِرٌ عَلى أَخذِ ثأرِهِ وإِدراكِ رَغمِهِ مِنهُ فَيَحجِزُهُ كَرَمُهُ ويَمنعُهُ دِينُهُ عَن تَناوُلِهِ بِأَذىً »

ذيل : وما ذٰلِكَ إِلاَّ لِأَنَّهُ يَرَى عَدُوَّهُ في خَفارةِ(٢) رَبِّهِ ومن خَفَرَهُ المَولَى فلا سَبيلَ الى أَذيَّتِهِ . ومَنِ اعتَدَى على المُستَجيرِ أَسقطَ حُرمَةَ مُجيرِه. ولا يُمَسُّ مَن هُوَ في جوارِ اللّٰهِ. ويُؤَيِّدُ هٰذا أَنَّ الحجَّاجَ ابنَ يُوسُفَ الثقَفِيَّ حَجَّ ذاتَ عامٍ وَهُوَ يومَئِذٍ رَبُّ الصَّولةِ القاهِرَةِ فَسَمِعَ لَهجةً تَبيَّنَها يَمانيةً فاستَدعى صاحِبَها فَجاءَ إِلَيهِ فسأَلَهُ عَن أَخيهِ مُحَمَّدِ ابنِ يُوسُفَ وكانَ عامِلَ اليَمَنِ فأَجابَهُ اليَمَنيُّ بأَنَّهُ بَدِينٌ سَمِينٌ

---

(١) وضوحاً (٢) ذمة ربه وأمانه

عَيشُهُ رافِه [١]. فقالَ لَهُ الحجَّاجُ : ماعَن هـٰذا سَألْتُكَ إِنَّما مَسْأَلَتِي عَن أَمرِهِ فِيكم . فأجابَهُ اليَمَنيُّ هُوَ ظالِمٌ . أَبعَدَهُ اللهُ . فساءَ جوابُهُ هـٰذا وَقعاً لَدى الحجَّاجِ وقالَ : يا رَجُلُ أَما تَعلَمُ أَنهُ أَخِي فَمَن أَمنَكَ مِن عُقوبتِي وأَنتَ تَشتُمُهُ في وَجهي . فأجابَهُ اليَمَنيُّ : أَلَعَلَّ أَخاكَ بِصلَتِه بِكَ أَعَزُّ مِنّي وأَنا الآنَ ضَيفُ اللهِ تَعالَى أُتَمِّمُ حَجَّ بَيتِه ونَزيلُ رَسولِ اللهِ أُجرِي فَريضةَ دِينِه وزائِرُ مَقامَ إِبراهيمَ خليلِ اللهِ فإِن تَقتُلني فواللهِ لَقَد أَسعَدتَنِي من حَيثُ تُشقِي نَفسَك وكانَ على اللهِ وخَلِيلِهِ وحَبيبه نُصرَتي عَليكَ يَومَ نَقِفُ لِلقَضاءِ معاً . فأَعرَضَ الحجاجُ عَنهُ وَذَهَبَ الرَّجلُ . وما حَجَزَ الحجَّاجَ عَن أَذِيَّتِه إِلاَّ الدين

وقالَ (النعمان) عَن سَخاءِ العَرَبِ هـكذا : « إِنَّ أَدناهم رَجُلاً الذي تَكونُ عِندَهُ البَكْرَةُ والنابُ [٢] عليها بَلاغُهُ في حُمولِهِ وشَبَعُهُ وَرِيُّهُ فَيَطرُقُـهُ الطارِقُ الَّذي يَكتَفي بالفِلذةِ ويَجتَزِئُ بالشُربةِ فَيَعقِرُها لَهُ ويَرضَى أَن يَخرُجَ عَن

---

(١) هنيءٌ　(٢) البكرة الفتية من الابل . والناب الناقة المسنة

دُنياهُ كلِّها في ما يُكسبهُ حُسنَ الأُحدوثة وطيبَ الذِكر »

ذيل : وذلكَ الخُروجُ عنِ اعتقادِ أَنَّ الضيافةَ واجبٌ مَن قامَ بهِ نالَ السَّعادَةَ . ومَن نَكَلَ(١) عنهُ حقَّت عليهِ الشَّقاوَةُ . وَهيَ من بابِ مَحبَّةِ الانسانِ لأَخيهِ الإنسانِ في طاعةِ اللهِ مُوجِدِ الإنسانِ . فلا ضيافةَ الاَّ عن صِدقِ تَدَيُّنٍ وصَلابة إِيمان

وَمن أَغرَبِ رِواياتِ الضيافةِ أَن أَحَدَ التَّبابعةِ حاصَرَ يثرِبَ بُغيَةَ فَتحِها وكانَ الزَّعيمَ فيها أُحيحةُ ابنُ الجَلاحِ . فَجَعَلَ أُحيحةُ يُحارِبُهُ نَهارًا دِفاعاً عَنِ الذِمار(٢) ويُرسِلُ إِليهِ لَيلاً الذبائحَ قِياماً بواجِبِ القِرى(٣) . فَلَمَّا رأَى تُبَّعٌ(٤) ذلكَ رَحلَ عَن يَثرِبَ(٥) وتركَ قِتالَ أَهلِها

وقال (النعمان) عَن وَفاءِ العَرَب . إِنَّ أَحَدَهُم يَلحَظُ اللَّحظةَ ويُومِئُ الإِيماءَةَ فَهيَ وَلثٌ(٦) وعِقدةٌ لا يَحُلُّها إِلاَّ

---

(١) نكص أي رجع الى وراء (٢) الحمى (٣) الضيافة
(٤) تبع لقب لملوك اليمن كفرعون لمصر وقيصر للروم وجمع تبع تبابعة (٥) اسم المدينة المنورة أولا (٦) عقد من غير قصد

خروجُ نَفسِهِ . وإنَّ أَحَدَهم يرفعُ عُودًا منَ الأَرضِ فيكونُ رَهنًا بدَينِهِ فلا يُغلَقُ رَهنُهُ ولا تُخفَرُ[1] ذِمَّتُهُ . وإنَّ أَحَدَهم لَيَبلُغُهُ أَنَّ رَجُلاً استجارَ بِهِ وعَسَى أَن يكونَ نائيًا عَن دارِهِ فَيُصاب . فلا يَرضَى حتى يُفنِيَ تِلكَ القَبيلةَ الَّتِي أَصابتهُ أَو تَفنَى قَبيلَتُهُ لِما أُخفِرَ من جِوارِهِ . وإنَّهَ لَيَلجأُ إِلَيهِم المُجرِمُ المُحدِثُ من غَيرِ مَعرِفَةٍ ولا قَرابةٍ فتكونُ أَنفُسُهم دَونَ نَفسِهِ وأَموالُهم دُونَ مالِهِ »

ذيل : وذلِكَ عَن إِيقانِ أَن الصِدقَ واجِبٌ لا تَحوُّلَ عنهُ والوَعدَ دَينٌ لا مَهرَبَ مِنهُ . فَبَذْلُ الطاقةِ في أُكرُومةٍ هُوَ الشَّأْنُ الذي وُجِدَتِ الحَياةُ لَهُ . وذٰلِكَ كُلُّهُ عَن تَدَيُّنٍ راسخٍ

وَقالَ (النعمان) عَن أَنسابِ العَرَبِ وأَحسابِهِم :

« ليست أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ إلاَّ وقد جَهلت آباءَها وأُصولَها وكَثِيرًا من أَوَّلِها حتَّى أَنَّ أَحَدَهم لِيُسأَلُ عَمَّنْ وراءَ أَبيهِ دُنيا فَلا يَنسُبُهُ ولا يَعرِفُهُ . ولَيسَ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ إلاَّ

---

(١) تستباح

يُسَمِّي آباءَهُ أَبًا فَأَبًا أَحاطوا بِذٰلِكَ أَحسابَهم وحَفِظوا بِهِ أَنسابَهُم فَلا يَدخُلُ رَجُلٌ في غَيرِ قَومِهِ ولا يَنتَسِبُ إِلى غَيرِ نَسَبِهِ ولا يُدعَى إِلى غَيرِ أَبيهِ »

ذيل : وما ذٰلِكَ الاَّ عَن إِيمانٍ بأَنَّ الأبَ يَخلُدُ بِابنِهِ وأَنْ فَضلَ الآباءِ لَهُ تأْثيرٌ في حَياةِ الأَبناءِ . وأَنَّ دارَ الآخِرَةِ سَتَضُمُّ الأَبناءَ إِلى آبائِهِم فَمَن أَنكَرَ نَسبَهُ أَو جَهِلَهُ أَنكَرَهُ آباؤُهُ وجَهِلُوهُ ومَن حَفِظَ نَسَبَهُ واعتَرَفَ بِهِ وعَمِلَ بِنَسَبِهِ أَي كما كانَ آباؤُهُ يَعمَلونَ حَفِظَ لَهُ آباؤُهُ صِلَتَهُ بِهِم واعتَرَفوا بِهِ . وما أَحسنَ قولَ حَسَّانَ ابنِ ثابت

إِنَّا وَإِن كَرُمَت أَوائِلُنا
لَسْنا عَلى الأَنسابِ نَتَّكِلُ
نَبني كما كانت أَوائِلُنا
تَبني ونَفعَلُ مِثلَما فَعَلوا

فَكانوا يَعتَقِدونَ أَنَّ لِحِفظِ النَّسَبِ شَفاعَةً . وإِلَيها أَشارَ سَوادُ ابنُ قارِبٍ في قولِهِ مُخاطِبًا نَبِيَّ الإِسلام

فَكُنْ لِي شَفِيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ

بمُغْنٍ فَتِيلاً عَن سَوادِ ابنِ قاربِ

وقال (النُّعمانُ) عن حِكمةِ العَرَب: « إِنَّ اللهَ أَعطاهم في أَشعارِهم ورَونَقِ كلامِهِم وحُسْنِه ووَزْنِه وقَوافِيهِ . مَعَ مَعرِفَتِهم بِالأَشياءِ وَضَربِهم لِلأَمثالِ وإِبلاغِهِم في الصِفاتِ ما ليسَ لِشَيءٍ مِن أَلسِنَةِ الأَجناس »

ذيل: الحِكمةُ في المَقال تَهدِي إِلى اللهِ تعالَى بدَليلِ أَنَّ سقراطَ الفَيلسوفَ الآثينيَّ اهتَدَى بِها إِلَى تَوحيدِ اللهِ فأَعلَنَ إِيمانَهُ بتَوحيدِ اللهِ على حينَ كانت أُمَّتُهُ كلُّها غارقةً في ضَلالِ الشِرْك . واهتَدَى وَرَقَةُ ابنُ نوفَل القُرَشِيُّ إِلَى التَّوحيدِ قَبلَ الإِسلام ورَوى لَهُ صاحِبُ الاغاني ما ياتي

أَدِينُ لِرَبٍّ يَستَجيبُ ولا أَرَى

أَدِينُ لِمَن لا يَسمَعُ الدَّهرَ داعيا

أَقولُ إِذا صَلَّيتُ في كُلِّ بيعةٍ

تَباركتَ قد أَكثَرتَ بِاسمِكَ داعيا

يُريد في قولِهِ من لا يَسمَعُ الدَّهرَ داعياً الأَصنامَ

وكَذلِكَ زيدُ ابنُ عمرِو ابن نفيلِ القُرشيّ وَهوَ القائلُ

(رواية الاغاني)

عزَلْتُ الجِنَّ والجنَّانَ عَنّي كَذلِكَ يَفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ
فَلا العُزَّى أَدِينُ ولا ابنَتَيها ولا صَنَمَيْ بَني طَسْمٍ أُدِيرُ
ولا غُنْماً أَدِينُ وكانَ رَبًّا لنا في الدَّهرِ إِذ حِلمِي صَغيرُ
أَرَبًّا واحِدًا أَمْ أَلفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذا تَقَسَّمَتِ الامورُ
أَلَمْ تَعلَمْ بِأَنَّ اللّهَ أَفنَى رِجالاً كانَ شأْنَهُمُ الفُجُورُ

ونظَمَ لبيدُ ابنُ رَبيعةَ العامريُّ قصيدتَهُ التي مَطلَعُها

أَلا كَلُّ شَيْءٍ ما خلا اللّهَ باطِلُ
وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ

وَهِيَ ذاتُ مَعانٍ تَرمي الى مَبادِئَ دِينيَّةٍ صحيحة . وكانَ ذلِكَ منهُ قَبل دُخولِهِ في دِين الاسلام . وذَهَبَ إِلى الإِقرارِ بالحَياةِ الأُخرى بَعدَ هذه الحياة زهيرُ ابنُ رَبيعةَ المُزَنيُّ من شُعَراءِ العَهدِ الجاهليّ وذلِكَ في قَولِهِ

فَلا تَكتُمُنَّ اللّهَ ما في صُدورِكُم
لِيخفى فَمَهما يُكتَمِ اللّهُ يَعلَمِ

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ

لِيَوم الحساب أَو يُعَجَّلْ فَيَنْقِمِ

فهٰذهِ الأَقوالُ إِمَّا عَن تَأَمُّلٍ صَدَرَ عَن اجتهادٍ خُصوصيّ فَهيَ دَليلُ استِنارةٍ عقليَّةٍ . وان قيلَ إِنَّ النَّصرانيَّةَ والمُوسويَّةَ فَشَتا بَينَ العَرَب فعَن اتْباعهما أَخَذَ أُولئكَ الشُّعَراءُ كانَ ذٰلكَ القَولُ لنا لا علَينا فَإِنَّهُ يَدُلُّ على أَنَّ دِينَي موسى وعيسى فَشَيَا فكانَ سُكَّانُ خَيبَر وبَعضُ سُكَّانِ يَثرِبَ وجُمهورٌ من حِميَر موسويّين .وكانتِ النَّصرانية في لَخم وربيعةَ وبَكْر وطيٍّ وكِنْدَةَ وأَياد وقبائِلَ أُخرَى . أَوعَن دينِ إِبراهيمَ أَو دينِ نُوحٍ فيكونُ للعَرَبِ من الاحتِفاظِ بالدِينِ عَنِ الآباءِ ما يَدُلُّ عَلى حُسْنِ العَقيدةِ وصِدقِ النَّقلِ في الأَبناءِ عَنِ الآباءِ

وَقال (النعمان) عَن نِساءِ العَرَب : «نِساؤُهم أَعَفُّ نِساءٍ»

ذيل : حينَما بَلَغَت عِفَّةُ النِساءِ أَعظَمَ مَبلَغٍ فالرِّجالُ أَيضاً أَعِفَّاءُ . لأَنَّ الأُمَّ والأُختَ والزَّوجةَ يُؤَثِّرنَ عَلى الابنِ والأَخِ والزَّوْجِ وما هُوَ مَكرُمة مُشتَرَكةٌ بَينَ الرَّجُلِ

والمَرأَةِ فالرجُلُ الحكيمُ لا يَرضَى أَن تكونَ مَنزِلتُهُ منها أَدنَى مِن مَنزِلةِ المرأَةِ . وقد فَخَرَ فُضَلاءُ العَرَبِ بالعِفَّةِ وعَدُّوها مِن أَسمى مَناقِبِهِم : قال حاتِمُ طي

أَعشَى إِذا ما جارَتي بَرَزَت حتى يُظَلِّلُ جارَتي السِترُ (١)

وَقال أَيضاً

وَلِلجارِ مِنّي ما أَقامَ كَرامةٌ
ولا أَتَصبَّى عِرسَهُ حِينَ يَرحَلُ (٢)

فَلَم يَكُن فَخرُهُ بِكَرَمِهِ إِلاَّ مَوصولاً بِفَخرِهِ بِعِفَّتِهِ وذٰلِكَ لِأَنَّ الكَرَمَ إِحسانٌ مِن النَفسِ الى الغَيرِ والعِفَّةَ إِحسان من نَفسٍ إِلَيها . والكَريمُ حقيقةً مَن جَمَعَ بَينَ الإِحسانَين — الإِحسانِ إِلى النَفسِ والإِحسانِ إِلى الغَيرِ

ومَبدَأُ هذا كانَ مأثورًا عند كَثيرينَ مِن عُظَماءِ العَرَبِ فَقالَ عَنتَرَةُ العَبسِيُّ

---

(١) الأعشى من ساء بصره في الليل او بالنهار . وقوله أعشى أي أنا أعشى من حذف المسند اليه لدلالة مقام عليه (٢) تصبى خدع وفتن

وإِذَا سَكِرْتُ فإِنَّني مُسْتَهلِكٌ
ما لي وعِرضِي وافرٌ لَم يُكْلَمِ
واذَا صَحَوتُ فلا أُقَصِّرُ عن نَدًى
وكما علِمْتِ شمائِلِي وتَكَرُّمِي

وقال السَّمَوأَلُ ابنُ عاديا

إِذا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ
فَكُلُّ رِدَاءٍ يرْتَديهِ جَميلُ
وإِنْ هُوَ لم يَحمَلْ علَى النَّفسِ ضَيمَها
فَلَيسَ إِلى حُسْنِ الثَنَاء سَبِيلُ

إِلى أَن يقول

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قلِيلٌ عَدِيدُنا
فَقُلْتُ لَها إِنَّ الكِرَامَ قَليلُ
وما ضَرَّنا أَنَّا قَليلٌ وجارُنا
عَزِيزٌ وجارُ الأَكثَرِينَ ذَليلُ

وَلَن تكونَ العِفَّةُ إِلاَّ عَن ائتِمارٍ بِدِينٍ يَرْدَعُ عَنِ الغَوايَة . ويُلزِمُ باتباعِ الهِدَاية . ويَجعَلُ الزُّلفَى مِنَ اللهِ في

كُلّ أَمرِ الغاية . التي يَحسُنُ السعيُ إليها في البَداءَةِ وتكمُلُ النعمةُ بها في النِهاية

الفَصلُ الثاني والأربعونَ

وجدت الدنيا لخدمة الدين وليس الدين لخدمة الدنيا

هذه الدُّنيا مَجازٌ[1] للآخِرَةِ . فَكُلُّ عَمَلٍ فيها لهُ ما يَستحِقهُ في الآخِرَةِ ثواباً إذا كانَ حَسَناً وعِقاباً إذا كانَ رَدِيئاً . فالعَمَلُ لا يُرادُ لِنفسِهِ بل لِما يَتأَتّى[2] عنهُ

والدِينُ زاجِرٌ شَديدُ السُلْطانِ يَردَعُ عن هوَى النفسِ الأَمّارَةِ بالسوءِ . وآمِرٌ صَريحُ البَيانِ يُوجِبُ الامتناعَ عن المشتَهَياتِ الباطِلَةِ ، وقَمعَ[3] رغائبِ السوءِ عن الحلولِ في الصُدورِ .

فالدِينُ يَدعو إلى بِرٍّ ومَحمَدَةٍ
فَحيثُما كانَ صُنعٌ صالِحٌ يكُنِ

---

(١) الطريق إذا قطع من احد جانبيه الى الآخر (٢) ينهيأ
(٣) الروع والتذليل

يَدعُو إلى الزُهْدِ في لَذائذِ الدُّنيا الباطِلةِ ، ولكنَّهُ أَجازَ مِنها ما أَجازَ لِحفظِ الوُجودِ الإِنسانيِّ . فأَجازَ الطَّعامَ لِيَعيشَ الجَسَدُ بِهِ . فَيأْكُلُ لِيَعيشَ ولا يَعيشُ لِيأْكُلَ . ويَلبَسُ الثوبَ لِيَستُرَ عُرْيَهُ حِشمةً وَليَدفعَ الأَذى عَن جُثمانِهِ(١) يَتطَرَّقُ إِليهِ من الزَّمهَريرِ(٢) شِتاءً والقَيظِ(٣) صَيفاً . ولا يَجوزُ أَن يَستَورِدَ لِنفسِهِ أَذًى عَن طَريقِ الاِكتِساءِ بالثَّوبِ الثَّقيلِ لِجمالِهِ . ولا عَن طَريقِ الاِحتِذاءِ(٤) بالحِذاءِ اللطيفِ الصُّنعِ ضاغِطاً على قَدَمَيهِ لِيَظهَرَ على شَيءٍ مِن هَيَفِ القَوامِ وتَناسُبِ الأَعضاءِ . ويَتَزَوَّجُ لِيُرزَقَ نَسلاً يُرَبِّيهِ بأَدَبٍ وحِشمةٍ مُثَقَّفاً(٥) بدِينٍ مُرَوًّى(٦) حِكمةً ، مُزَيَّناً بخُلُقٍ رَضِيٍّ ونَهجٍ في المَكرُماتِ سَوِيٍّ(٧) ، ولا يَصِحُّ أَن يَتَزَوَّجَ لِطَيشٍ وغُرورٍ . وَيَبني بيتَهُ لِيَحتَرِسَ من المَضَرَّةِ على دَمِهِ وعِرضِهِ ومالِهِ ويَتَمَكَّنَ

---

(١) جسده (٢) شدة البرد (٣) شدة حر الصيف (٤) لبس الحذاء (٥) مهذَّباً ومعلَّماً (٦) من باب روَّى الظمآن حتى ارتوى والكلام على وجه المجاز اذ جعل الحكمة شراباً (٧) مستقيم

مِن تَنظِيمِ مَعيشَتِهِ وعَمَلِهِ على وَجهٍ مُحكَمٍ . لا لِيُفاخِرَ
الفَقيرَ فَإن أَرادَ في ما يَعمِدُ (١) إِلَيهِ مِن شُؤُونهِ الزَّهوَ
كانتِ الدُّنيا بُغيَتَه (٢) وبئسَتِ البُغيَةَ

وقد طَلَبَ كَثيرونَ دُنياهم غايةً فضَحَّوا في سَبيلِ
الحُصولِ عَليها الدِين . فَمِنهم مَن رَغِبَ في التَّقَرُّبِ مِن
ذي مَكانةٍ فَتقَرَّبَ إِلَيهِ بأَنِ اعتَنَقَ دينَهُ . ومِنهم مَن
داجَى وراوَغَ ونافَقَ مُستَنزلاً لِنفسِهِ صِلاتِ (٣) من يُداهِنهُ،
إِمَّا مالاً او مَنصِباً عالِياً . فَيُجَوِّزُ ما لا يَجوز . ويَسكُتُ
عَمَّا لا يَصِحُّ السُّكوتُ عَنهُ . وقد سَمِعنا سَمْعَ الاذُنِ
أَقوالَ كثيرينَ مِمَّن تَرَكوا الحَقَّ عَلَى أَنَّهُم لا يَجهَلونَ أَنَّهُ
هُوَ الحَقُّ وآثَروا المِراءَ مَعَ إِيقانِهِم بِسُوءِ العاقبةِ

حينما يَتولَّى المُراؤُونَ شأناً في أُمةٍ يُفسِدونَ سَلامَةَ
الأَخلاقِ ويُورِثونَ الشُكوكَ وَيُمَوّهُونَ (٤) البُطلَ بالحَقّ
فإيمانهم في حَقيقتِهِ كُفرٌ . وعَملُهم بمُقتَضَى المَصلَحةِ

---

(١) يقصد (٢) حجته (٣) جوائز (٤) يزخرفون

الشَّخصيَّةِ لا العُموميَّةِ . فَليسَ فِيهِ إِخلاصُ نِيَّةٍ . ومَنْ آثَرَ النَّزَوَاتِ الأَثيمةَ عَلَى المَبَرَّاتِ فهو مِمَّن اشتَرَى الضَّلالةَ بالهُدَى . وَما هُوَ مِمَّن يُحرِزُ طَيِّبَ الذِكرِ . ولا مِمَّن يَليقُ بِهِ خالِدُ الثَّناءِ وجَليلُ القَدرِ

أَمَّا اذا طُلِبَ الدِينُ بِالدُّنيا واختِيرَ الباقِي عَلَى الفانِي . فأَنفَقَ الغَنِيُّ أَموالَهُ في تَعليمِ الجُهَلاءِ وإِعالَةِ المَساكِينِ وتَمريضِ المَرضَى وبَذلِ المَدَدِ المالِيِّ عَن طِيبةِ نَفسٍ لِلأَرملةِ واليَتيمِ .ولِكلِّ مَشروعٍ يُرجَى أَجرُهُ. وجادَ العالِمُ بِعِلمِهِ لإِنارةِ العُقولِ وصَرفِ الافكارِ الى المَباحثِ العُمْرانيةِ النافِعةِ وتَزْبِيفِ[1] بَهارِجِ الجَهلِ والغَباوةِ وتأْثيمِ مَضالبِ الأَذَى والغَوايةِ . وعَنِيَ الكَبيرُ في الامَّةِ بأَن يَخدُمَ صِغارَها بوَجاهَتِهِ ويَعضِدُ مُفكريها بِما لَهُ مِن نُفوذِ الكَلِمةِ . فَهُنالِكَ تَكونُ الدُّنيا قد خَدَمَت الدينَ فَتَحسُنُ الدُّنيا والدينُ مَعًا وتَحلُو الثِمارُ وحِمَةُ الآثارِ وتَنسُبُهُ الحقائقُ البَيانَ الصادِقَ

---

(١) تحقير

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوائزهُ
لا يذهبُ العُرْفُ (١) بينَ اللهِ والناسِ

الفصلُ الثالثُ والأربعونَ

في انه يجبُ على الأمةِ العربيّةِ الآنَ ان تعتصمَ بالتدين

سبقَ لنا ان نثبتَ أنَّ اللهَ تعالى أوجدَ الإنسانَ . والموجِدُ ذو سلطانٍ على ما أوجدَهُ فللهِ تعالى سلطانٌ على الإنسانِ

وقد أوجدَ اللهُ الإنسانَ لدنيا تزولُ وآخرةٍ تدومُ . والدُّنيا غيرُ مقصودةٍ لذاتِها كما أنَّ الزَّهرَ غيرُ مقصودٍ لذاتِهِ والآخرةَ مقصودةٌ لذاتِها كما أنَّ الثَّمرَ مقصودٌ لذاتِهِ . وما هوَ المقصودُ أجلُّ شأناً مما هوَ توطئةٌ (٢) للوصولِ إلى المقصودِ كما يظهرُ هذا الأمرُ في تفضيلِ الثَّمرِ على الزَّهرِ فلا ريبَ في أنَّ الآخرةَ أجلُّ شأناً منَ الدُّنيا . ومتابعةُ العقلِ توجبُ أن ينصرفَ الطَّلبُ إلى الأفضلِ ولا سيَّما

(١) المعروف (٢) تمهيد

لأَنَّهُ خالِدٌ . والجاهِلُ مَن طَلَبَ الفُضولَ وآثَرَ الزَّائِلَ وما طَلَبُ الآخِرةِ إِلاَّ بأَنْ يكونَ تَصَرُّفُ الإِنسانِ في دُنياهُ على ما سَنَّتهُ لَهُ شَريعةُ اللهِ أمرًا بِمَعرُوفٍ هادياً في الصالحاتِ ونَهياً عَن مُنكَرٍ لَهُ شَرُّ العَواقِب . فَمَن آثر الصَّلاحَ صَلُحَ حالُهُ يَوْمَ يُعْرَضُ أَمرُهُ ويُسأَلُ عَمَّا عَمِلَهُ

وشريعةُ اللهِ هِيَ الدِينُ . فالدِينُ هُوَ ما يَحتاجُ إِلَيهِ كُلُّ إِنسانٍ وَهُوَ ما يُوجَدُ في كُلِّ إِنسانٍ بالفِطْرَةِ[1] . فإِن خَلا مِنهُ أَحَدٌ . فَلِذلِكَ الخُلُوِّ وَجهانِ . الأَوَّلُ أَن يَنزَعَ أَحَدٌ مِنهُ عاطِفةَ التَّدَيُّنِ بِما يَبُثُّهُ في نَفسِهِ مِنَ النَّوازِعِ[2] الأَثيمةِ ويُحَبِّبُهُ لَهُ مِن المَعاصي المُردِيَةِ[3] أَو كانَ شُعورُهُ بالدِينِ قَدْ فُقِدَ مِنهُ لِخُلُوِّ والدَيهِ مِنهُ فإِنَّ مُيولَ السُّوءِ تِراثُ[4] الأَبَوَينِ الشِرِّيرَينِ . ومِثالُ الأَوَّل العَمَى الَّذي يَعرِضُ[5] عَلى البَصيرِ . ومِثالُ الثاني العَمَى الذي يَعرِضُ عَلَى الجَنينِ في بَطنِ أُمِّهِ . وإِذا كانَ بَينَ

---

(١) الجبلة والخلقة (٢) جمع نازغة وهي الكلام الذي يغري ويفسد (٣) المهلكة (٤) ميراث (٥) يبدو

المَواليدِ مَن يَلِدُ أَعمَى أَو يَعمَى بَعدَ ولادتهِ فَذلكَ لا يَقْدَحُ [1] فِي أَنَّ الإِنسانَ حَيَوانٌ بَصيرٌ. فَهذا شَأنُ مَن كانَ شُعورُهُ بالدِينِ أَثَرِيًّا وَقَعَ عَليهِ التَّلَفُ فَذَهَبَ خَيرُهُ فَإِنَّ وُجودَ هذا الفَريقِ الذاهِبِ إِلى إِنكارِ الطاعةِ لِلدِينِ لا يَقدَحُ فِي صِحَّةِ تَعريفِ الإِنسانِ بِأَنَّهُ حَيَوانٌ مُتَدَيِّن

وما دامَ الدِينُ ضَرُورِيًّا لِكلِّ فَردٍ مِنَ الأُمَّةِ وَهُوَ مَوجودٌ فِيهِ بالفِطرَةِ .فبالأَحرَى أَن يكونَ ضَرورِيًّا لِلجَماعةِ فلا يَصِحُّ واقِعاً ولا فَرْضاً أَن يكونَ لِكُلِّ عُضوٍ مِن أَعضاءِ جَسَدٍ واحِدٍ حَياةٌ ويكونُ مَجموعُ الأَعضاءِ كُلِّهُ بِغَيرِ حَياة . فالَّذِي يَستَلزِمُهُ جُزْءٌ من المَجموعِ ولا تكونُ حَياتُهُ إِلاَّ بِهِ لا يُمكِنُ نَفيُ لُزومِهِ عَنِ المجموع

فما دامَ كلُّ فَردٍ مِنَ الامةِ العَرَبيَّةِ يَجِبُ أَن يكونَ مُتَدَيِّناً فَلا بُدَّ من التَّسليمِ بِأَنَّ الدِينَ ضَرورِيٌّ لِمَجموعِ الأُمَّةِ العربيَّةِ . فَلا بُدَّ لِحكومَتِها مِن دِينٍ تَرجِعُ إِلَيهِ وتُعرَفُ أَحكامُها بِأَنَّها مأْخوذةٌ عَن شرائِعه

---

(١) يخرق

مَنزلةُ الحكومةِ مِنَ الأمَّةِ مَنزلةُ الدَم مِنَ الأعضاء . والدمُ يجولُ في كُلِّ الأعضاء فتَحيَ بِهِ . وهكذا تحي الامَّةُ بحُكومتِها . وما دامَ الدِينُ ضَرورِيًّا لِكلِّ فَردٍ مِنَ الامَّةِ ولِلحُكومةِ رُوحِ الأُمَّةِ . فالدِينُ بِمَثابَةِ النَّفسِ نَفخَةِ اللّهِ الطاهِرةِ التي بِها حياة الجَسَدِ أَيضاً . وما دامَ الدينُ بِمَثابةِ نَفسِ الإنسانِ فوجودُ الإنسانِ إِنسانًا موَلّفًا من مَنظور وغيرِ منظورٍ إِنَّما هُوَ عَن بَقاء النَفسِ في الجَسدِ فَبوُجودِ النَّفسِ في الجَسَدِ يَتَحرَّكُ الجَسَدُ ويَنمُو وبِفقدانِها يُدرِكُهُ البَوار [1] ويَتَهَدَّمُ وهذا شأْنُ الدِينِ لِلحُكومةِ ولِلشَّعبِ فَلا تَقومُ قائِمَةٌ لِحكومةٍ ولا لشَعبٍ بِغيرِ دِينٍ. فالدِينُ لا غِنَى عنه لِحُكومةٍ ولا لِشَعبٍ ولا لِفَردٍ مِنَ الشَّعب

عَرَفَ آباؤنا أَنَّ الدِينَ حياةُ الأُمَّةِ فاعتَصَموا بِهِ ؛ ونَحنُ أَيضاً قد عَرَفنا الدِينَ أَنَّهُ مَصدَرُ الحياةِ لنا وتَوَفَّرَت لَنا منذ المَعرِفةُ عَنِ الآباء تَلقيناً وعَن أَرباب الصَّلاح

(١) الهلاك

بالحجةِ القاطعةِ والكُتبِ النافعة فلنعتصم به . فلا معرفةَ في الحقيقةِ حيث العَمَلُ خالٍ مِمّا يجبُ أن يكونَ حتماً . فإنَّ الحقيقةَ النظريّةَ تلبثُ في حيّزِ المعدومِ فعلاً ، حتّى يَرِدُ العَمَلُ بمقتضاها فحينئذٍ تكونُ حيّةً

لا تكونُ لنا دُنيا صالحةٌ يَطيبُ أثرُها ، ويَحلو ثمرُها إلاّ إذا كانَ لنا دينٌ رَسَخت على التقوى أركانُهُ . وثبتَ بصالحِ الأعمالِ بُنيانُهُ . فإنَّ الدينَ أساسٌ والدُّنيا بناءٌ عليه . واذا لم يكن أساسٌ فلا بُنيانَ يثبُتُ قائمُهُ ؛ وإذ كانَ الأساسُ مُحكماً آختِ العُصورَ المستقبلةَ دعائمُهُ(١)

وأن يكونَ لنا دينٌ يَعصِمُنا(٢) مِنَ الموبقاتِ(٣) ويَهدينا في سُبُلِ الصالحات ، ولا تكونَ لنا دُنيا توسِعُ ذهابنا في ثروةٍ زائلةٍ ومطالبَ باطلةٍ . لا يَشقُّ علينا ذلك . فإنّ اعتصامَنا بالدينِ يُعِدُّنا للحصولِ على نعيمٍ لا يَزولُ ظِلُّهُ ولا نفسَ تَملُّهُ . واما الدُّنيا فنعيمُها يَزولُ وهو ممْلول . فلا تَصلُحُ للإنسانِ الخالدِ لأَنَّهُ وُجِدَ لما لا يزولُ لا لما

(١) اي ان دعائمه تبقى في العصور المقبلة (٢) يحفظنا (٣) المهلكات

يزولُ . ومَن ظَفرَ في أمرٍ ما بما هوَ جوهرُهُ فلا بأسَ عليهِ إنْ لم يُصِبْ عرَضَهُ . وما أسعدَ الانسانَ الذي يُفوِّضُ أمرَهُ إلى رَبِّهِ فيقبلُ كُلَّ ما يُعطيهِ ولا يكترثُ[1] لِكُلِّ ما لا يُعطيهِ . لإيمانهِ بأنَّ اللهَ يتولاهُ بلُطفهِ إن سمحَ لهُ أو أمسكَ عنهُ

الفصل الرَّابعُ والأربعون

وجوب أن يكون الحكومة العربية دينية تقبل أبناءَ الاديان السماوية الثلاثة في مناصبها

ثبتَ لنا إنَّ الدينَ لا غِنى عنهُ في دُنيا لأنَّ الدُّنيا تحتاجُ الى أحكامٍ والأحكامُ تُستخرجُ من شرائعِ دينٍ جاءَ مِنَ اللهِ لا مِن معلوماتِ الناسِ . والشعبُ العربيُّ يتطلَّبُ دُنيا يحيَى فيها مُوفَّى الحقوقِ مَرعِيَّ الكرامةِ . فلا بُدَّ لهُ أنْ يعتنقَ الدينَ

قد يسأَلُ سائِلٌ أيُّ دينٍ يجبُ أن يكونَ لحكومةِ العَرَبِ وفي العَرَبِ مُسلِمونَ ومَسيحيُّونَ ومُوسويُّون . ومِمَّا

---

(١) يبالي

لا رَيبَ فيه أَنَّهُ « كُلُّ فتاةٍ بِأَبيها مُعجبه » و « كُلٌّ يُعَظِّمُ دينَهُ »

أُجيبُ انَّ مُورغنتو سفيرَ اميركا في القسطنطينيَّةِ اعترَفَ بِمَبداٍ عُمْرانيٍّ يَحُلُّ الإشكالَ الذي يَنسِجُ كالعَنكَبوتِ خُيوطاً لإخفاء وَجهِ الحَقيقةِ في هٰذهِ القَضيَّةِ . فان طَلعةَ الصدرَ الاعظمَ بالأَمسِ والمجرمَ الهارِبَ من وَجهِ العَدالةِ اليومَ عَرَضَ عَليهِ عَقدَ شِركةٍ لُصُوصيَّةٍ وَهيَ أَن يَشتَرِكا معاً في سَلبِ أَموالِ الأَرمنِ المَسيحيّينَ فأَنكرَ مورغنتو علَى طَلعةَ ذلِكَ المَبدأَ الفاسِدَ وقالَ لَهُ لا تَعُدْ الى مِثلِ هٰذا المَقال . فقالَ طَلعةُ ماذا يَهُمُّكَ[1] من أَمرِ المَسيحيّينَ العُثمانيينَ مِنَ العُنصُرِ الارمنيّ وأَنتَ يَهوديٌّ أَميركيٌّ . فأَجابَهُ : إِنَّني أُمَثِّلُ في مَنصِبي أَميركا وَهيَ مِئةُ مَليونِ نَسَمةٍ ونَيِّفٌ[2] في عَدادِها خمسةُ ملايينَ مِنَ اليهودِ لقاءَ خَمسةٍ وتسعينَ من المَسيحيّينَ

---

(١) يقلقك (٢) النيف الزائد كأن اصل التعبير مئة مليون وعدد زائد ايضاً

فأنا يهوديٌّ في خمسةٍ من مئةٍ ومسيحيٌّ في خمسةٍ وتسعينَ من تلكَ المئةَ

فهٰذا الجوابُ السديدُ الحُجَّةِ إنَّما هُوَ مبدأٌ شريفٌ . هو إن دينَ الفريقِ الأكبرِ منَ الشَّعبِ دينُ الحكومةِ . فالحكومةُ في العَدلِ يجبُ أن يكونَ دينُها دينَ العُنْصُرِ الذي لَهُ الفَضلُ الأوفى في إيجادِ الأُمَّةِ وتحريرِها

ولا رَيبَ في أنَّ العُنصُرَ الأوفَى عَدَدًا في الشَّعبِ العَرَبيِّ هو الشعبُ المُعتَنِقُ الإِسلامَ دِيناً كما أنه لا رَيبَ في أنَّ مَصدَرَ العَمَلِ في طَرحِ نيرِ[1] التُّركِ وزوالِ دَولَتِهم عن الأقاليمِ الّتي فيها يُقيمُ العَرَبُ جلالَةُ الملكِ الحُسينِ ابن عليٍّ الحَسَنيِّ دامَ تأييدُهُ ويليهِ في العَمَلِ أشباله الأبطالُ فُرسانُ الرأيِ الرَّجيحِ والبأْسِ الصَّحيحِ الذين خاضوا المَعامِعَ وبَذَلوا النُّفوسَ في سَبيلِ تَحريرِ الأمَّةِ

---

(١) كلمة النير في الأصل الخشبة المعترضة في عنق الثورين نأداسا وهي هنا بمعنى سلطة من باب المجاز

العَرَبيَّةِ مِن مَخالِبِ [١] تَركيًّا التي ارتكبت في دَورِ احتِضارِها [٢] في العِراقِ وسورِيَّة مِنَ الفظائِعِ ما يُصوِّرُها في مَشهَدِ التَّاريخِ وَحشاً ضارياً يَغتَذي بالدِماءِ وتَهَشُّ [٣] نَفسُهُ لِأَن تَخَيِّمَ [٤] البَلوَى على الأَعْداءِ والأَولياءِ . ولا جَزاءَ لِلوَفاءِ والإخلاص عنده بِغَيرِ الأَذِيَّةِ والشَّقاءِ . ونُخَصُّ بالفَضلِ على قُطرِ سُورِيَّةَ سموَّ أَميرِنا المَحبوبِ فَيصل صاحبِ اليَدِ البيضاءِ على كُلِّ مَن راعَى وِجدانَهُ ، وأَنطَقَ بالقولِ الصادِقِ لِسانَهُ . فَيَجِبُ أَن يكون دِينُ الإسلامِ دِينَ الحكومةِ العربيَّة

ومِمَّا يجعَلُ هذا الدِينَ حائزًا هذهِ المَكانةَ أَنَّ المسيحيَّ والموسويَّ في سوريةَ والعِراقِ أَلِفا العَمَلَ بالفَريضةِ الاسلاميَّةِ في تَقسيمِ الميراثِ مُنذُ مِئاتٍ مِنَ السِنينَ . وأَقرَّا على أَنَّ الشَرطَ في أَن يكونَ الإيصاءُ بثُلثِ التَرِكَةِ هُوَ عادِلٌ في

(١) المخلب ظفر كل سبع من الماشي والطائر . وفي الكلام استعارة ترشيحية فيجعل تركيا وحشاً ضارياً أو نسراً جارحاً بدليل اثباته لها المخلب الذي للوحش وللنسر (٢) احتضر الميت جاءه موعد الموت (٣) تفرح (٤) تستقر

حَقِّ الوُرَّاثِ وفي سَهم المَوصيِّ لَهُ وهذا الشَّرطُ مِمَّا جاءَ بِهِ شَرْعُ الإسلامِ ولم يَجِيءْ في شَرعٍ موسويٍّ أَو عيسويٍّ. فَهُما(١) لا يَرَيانِ بَأساً بان يُتابِعا مَن سَلَفوا من آبائِهما في قُبولِ ذلك الشَّرعِ فانَّ الأَصلَ بَقاءُ ما كانَ على ما كانَ ولا ضَرَرَ

دِينُ الإِسلامِ لا يَأبى أَن يَكونَ مَن وُلِدَ على دِينِ مُوسَى ثابتاً في دِينِ موسى ومَن وُلِدَ على دِينِ المَسيحِ ثابتاً في دِينِ المَسيحِ وجاءَت في قرآنِهِ آيةٌ كريمةٌ تُصَرِّحُ بهذا فهي «إِنَّ الذين آمَنوا والذينَ هادوا والنَّصارى والصابئينَ(٢) مَن آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحاً فلهم أَجرُهم عِندَ رَبِّهِم ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنونَ(٣)»

فالموسويُّ إِذا كانَ مُعتَصِماً بِدِينِهِ حَقَّ الاعتصامِ يَجِبُ أَن يَقومَ بما أُمِرَ بِهِ كما قالَ سليمانُ الحكيمُ في

---

(١) أي الموسوي والعيسوي (٢) ذكر ابو يوسف الانصاري الامام الثاني في المذهب الحنفي في كتابه الجامع الصغير رواية عن الامام علي ابن أبي طالب ان صابئين كان لهم كتابٌ فاجرى القرآن ذكرهم مع أهل الكتابَ لذلك الكتاب (٣) سورة البقرة

إرشاده « إتقِ اللهَ واعملْ وَصاياهُ فانَّ هذا هُوَ الإنسانُ كلُّهُ . فَإِنَّ اللهَ يُحضِرُ كُلَّ عملٍ إلى الدَّينونةِ على كُلِّ خفيٍّ خيرًا أو شرًّا [1] »

والمُرادُ باتِّقاءِ اللهِ الإيقانُ الداخليُّ المتضمّنُ الاعترافَ بوَحدانيَّتِهِ [2] تعالى وقُدرَتِهِ وَجلالِهِ ورَحمتِهِ وعَدلِهِ وكُلِّ ما هو خاصٌّ بهِ . والمُرادُ بوَصاياهُ ما جاءَ في اللَّوحَينِ الحجَريَّينِ اللَّذَينِ أعطاهُما اللهُ الى بَني اسرائيلَ بيَدَي كليمهِ مُوسى وهُما يَتَضَمَّنانِ الشَرعَ الآتي :

« أنا الرَّبُّ إلٰهُكَ الَّذي أخرَجَكَ مِنْ أرضِ مِصرَ من بَيتِ العُبُوديَةِ . لا يكُنْ لكَ آلِهَةٌ أُخرَى أمامي

لا تَصنعَ لَكَ تِمثالاً مَنحوتًا ولا صورةً ممَّا في السَّماءِ من فَوقُ وما في الأَرضِ مِن تَحتُ وما في الماءِ من تَحتِ الأَرض . لا تَسجُدْ لهُنَّ ولا تَعبُدْهُنَّ . لأني أنا الرَّبُّ إلٰهُكَ إلهٌ غيورٌ . أفتقِدُ ذُنوبَ الآباءِ في الأَبناءِ في

---

(١) جامعة سليمان عددان ١٣ و ١٤ من الفصل ١٢

(٢) الوحدانية هي تفرد المنفرد

الجيلِ الثالثِ والرابعِ من مُبغِضيَّ . وأَصنعُ إِحساناً إِلى أُلوفٍ من مُحِبّيَّ وحافظي وَصاياي

لا تَنطِقْ باسمِ الرَّبِّ إِلٰهك باطلاً . لِأَنَّ الرَّبَّ لا يُبرِّئُ من نَطَقَ بِاسمِهِ باطلاً (١)

أُذكُرْ يومَ السبْتِ لِتُقَدِّسَهُ . ستَّةَ أَيامٍ تَعملُ وتَصنعُ عَملَكَ . وأَمَّا اليومُ السابِعُ فَفيهِ سَبتٌ للرَّبِّ إِلٰهك . لا تَصنَعْ عَملاً ما أَنتَ وابنُكَ وابنَتُكَ وعَبدُكَ وأَمَتُكَ وبَهيمَتُكَ ونَزيلُكَ الَّذي داخِلَ أَبوابِكَ . لِأَنَّهُ في ستَّةِ أَيّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّماءَ والأَرضَ والبَحرَ وكُلَّ ما فيها واستَراحَ في اليومِ السابِعِ . لِذلِكَ بارَكَ الرَّبُّ يومَ السَّبتِ وقَدَّسَهُ

أَكرِمْ أَباكَ وأُمَّكَ لِكَي تَطولَ أَيّامُكَ على الأَرضِ التي يُعطيك الرَّبُّ إِلٰهُكَ

لا تَقتُلْ . لا تَزْنِ . لا تَسْرِقْ . لا تَشهَدْ على قَريبك شهادَةَ زُورٍ . لا تَشْتَهِ بَيتَ قَريبكَ ولا عَبدَهُ ولا أَمَتَه

---

(١) اي لا تحلف يميناً كاذبة

ولا ثورَهُ ولا حِمارَهُ ولا شيئاً مِمَّا لِقريبك[1] »

وليسَ في هذا الأساسِ الدينيّ تعارُضٌ لِأساسِ الدينِ الإسلاميّ ولكنَّ بينهما تغايرًا في تعيينِ يومِ العبادةِ والغيريَّةُ شيءٌ والتَّعارُضُ شيءٌ آخرُ فإنَّ التعارُضَ تغايرٌ مَعَ تكذيبٍ فلا يُجمَعُ بينَ مُتعارِضَينِ وأمَّا التغايرُ فلا تكذيبَ معَهُ .

إنَّ الدينَ الموسَوِيَّ يعُدُّ يومَ السبتِ يومَ العِبادةِ . ويعُدُّ الدينُ الإسلاميُّ ذلكَ اليومَ يومَ الجُمعةِ . وهذا التّغايرُ لا دخلَ لهُ في المُعتقَدِ باللهِ مِن حيثُ حقيقةِ الإيمانِ بل مِنْ حيثُ تغايرِ الرّسالةِ. والمُسلمونَ لا ينكرُونَ تَغايُرَ الرسالةِ معَ غيريَّةِ المُرسلِينَ في عَرَضيّاتِ الرسالة لا في الجوْهرِ . فإذا انقطَعَ مُوسَوِيٌّ عَنِ العَمَلِ يومَ السَّبتِ مُنصرِفاً إلى مُناجاةِ[2] رَبِّهِ واستِغفارِهِ عَن ذَنبِهِ وترَنُّم بِعَجائبِهِ وفائقِ حُبِّهِ فَلَيسَ عَن ذلكَ مَساسٌ بِدِينِ الاسلام

---

(١) سفر الخروج من العدد الثاني الى آخر ١٨ من الفصل العشرين (٢) المسارّة أي احادثة سرًّا

فَيَستَطيعُ المُوسَويُّ أَن يَكونَ عُضوًا فِي الأُمَّةِ العَرَبيَّةِ وأَحَدَ رِجال هيأَتِها الحاكِمةِ وهو أَمِينٌ لِرَبّهِ حُرٌّ باعتِناقِ دِينِ نَبيّهِ مُوسى حَقَّ الاعتِناقِ وتَقبَلُهُ الأُمَّةُ العرَبيةُ عُنصُرًا مِن عناصِرِها وتَختارُهُ في عَدادِ أَعضاء الهَيأَةِ الحاكِمةِ مِنها وفيها إِذا كانت لَهُ جَدارَةٌ (١) بالمناصِب

وقد سَبَقَ لِليهوديِّ أَن يَخدِمَ دُوَلاً وَثَنيَّةً كَدُوَلِ أَشورَ وفارِس (٢) ودُوَلِ البَطالسةِ وكانَ عُضوًا نافِعاً. وَهوَ الآنَ عُضوٌ في حكوماتٍ مَسيحيَّةٍ (٣). وفي كلِّ مَواقِفِهِ ظَهَرَ جديرًا بالثِّقةِ. فلا خَوفَ من أَنَّهُ يَكونُ غَيرَ أَمينٍ لِلحُكومةِ العَرَبيَّةِ التي خَدَمها آباؤُهُ في عَهْدِ العبَّاسيِّينَ والعُبَيدِيّينَ بِأَمانةٍ

والمسيحيُّ إِذا كانَ مسيحيًّا حَقًّا وَجَبَ عليهِ أَن يُؤْمِنَ

---

(١) اهلية (٢) فكان دانيال وزيراً لداريوس (٣) بين رجال الوزارة في الولايات المتحدة موسويون وكذلك في عداد رجال الأمر في أوربا

بموسى والأنبياء الّذينَ أتَوْا بعدَهُ وبعيسى وبتعاليمِهِ وتعاليمِ تلاميذِهِ الّتي هيَ بناءٌ قامَ على أساسِ تعليمِ المسيحِ مُعلّمهم لكي يزيدُوا أقوالَهُ بسطاً . فكلُّ مسيحيّ محتومٌ عليهِ أن يعتقدَ « أنَّ الديانةَ الطاهرةَ النقيّةَ عندَ اللهِ هيَ افتقادُ اليتامى والأراملِ في ضيقتِهم وحفظُ الإنسانِ نفسَهُ بلا دنَسٍ منَ العالَمِ [١] »

فهذهِ الغايةُ الجليلةُ هيَ ما يُعَدُّ في الدينِ المسيحيِّ الهدَفَ[٢] المعنويَّ المنصوبَ ليتّجهَ إليهِ عملُ كلِّ مسيحيٍّ على استقامةٍ . والعقائدُ المسيحيّةُ والشعائرُ التي لها والسُنَنُ المستحسَنةُ منها كلُّها منصرفٌ في هذا الغرَضِ السامي . ولا يرى المسلِمُ في هذا الغرَضِ مسّاً بما يؤمنُ أنّهُ مفروضٌ عليهِ فإنّ في آياتِ كتابهِ آيةً هي « وأقيموا الصلوةَ وآتوا الزكوةَ وما تقدّموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوهُ عندَ اللهِ إنَّ اللهَ بما تعملونَ بصيرٌ » فالغايةُ واحدةٌ

---

(١) رسالة يعقوب العدد ٢٧ من الفصل ١　(٢) هو في الأصل ما يُنصب للنضال والمراد به هنا الغرض المقصود

وَقد أَخلَصَ المَسيحيُّونَ الطاعـةَ لِلدَّولَةِ الرومانيَّـةِ الوَثَنيَّةِ وجاءَ في تَعلِيمِ واضِعِها . . « أُعطُوا ما لِقَيصرَ لِقَيصرَ وما لِلّهِ لله » اي التسليمُ بِكُلِّ حَقّ لِمَن هُوَ لَهُ . وإنَّ كلَّ سُلْطانٍ على الأَرضِ مُستَمَدٌّ مِنَ اللهِ . فَبالأَحرى أَن يُخلِصَ المَسيحيُّونَ الطاعةَ للحُكومةِ التي شَرْعُها الإِسلام . وَهُمُ قد أَخلَصوا لها مُنذَ تَوَلَّتْ في الأَرضِ الَّتي يَستَقِرُّ بِها المَسيحيُّونَ العَرَبُ مُنذُ ثَلاثِ مِئَةِ سَنَةٍ وأَلفِ سَنَةٍ . فَإِنَّ دمَشقَ الشامِ لَم تَخرُجْ من يَدِ المسلِمينَ مُنذُ افتَتَحها أَبو عُبيدَةَ عامِرُ ابنُ الجَرّاحِ وخالِدُ ابنُ الوَليدِ . وكما أَحسَنَ الآباءُ يَجِبُ عَلى الأَبْناءِ أَن يُحسِنوا . فَكُلُّ واحِدٍ مِن أَبناءِ الدِياناتِ السماويَّةِ يَرَى في الإِمكانِ ائتلافَهُ مَعَ أَخيهِ في القَوميَّةِ العَرَبيَّةِ إِذا كانَ التَّساهُلُ الدِينيُّ مَتبوعاً عن عقلٍ مُستَنيرٍ وقَلبٍ تَقيٍّ ومَبدَإٍ صالِحٍ

حَدُّ التَّساهُلِ الدِينيِّ أَن يُتَمِّمَ كلُّ ذي دِينٍ شَعائِرَ دِينِهِ عَلى وُجوهِها الصَّحيحةِ في بَيتِ عِبادَتِهِ وفي مَسكَنِهِ وأَن يَعمَلَ بِمُقتَضَى تَدَيُّنِهِ مِن صِدقٍ ولُطفٍ وحِشمةٍ وكَرَمٍ

وعَدل وأناةٍ ومحبَّةٍ وسَلام في كُلِّ مَكان وُجِدَ فيه . فالإيمانُ بأَنَّ اللهَ صالِحٌ يَجِبُ أَن يَحمِلَ كلَّ ذي دِينٍ سَماويٍّ على عَمَلِ الصَّلاحِ في المَعابِدِ والبُيوتِ والمَخازِنِ والحُقولِ والمَعامِلِ وكُلِّ مُجتَمَعٍ لاثنَينِ فأَكثرَ في المَعامِلِ والطُرُقِ ، في لَيلٍ وفي نَهارٍ . فلا يَصِحُّ لأَحَدٍ أَن يُؤمِنَ باللهِ أَنَّهُ صالِحٌ ويقبلُ[1] على عمَلٍ سَيّىءِ العُقبَى عَليهِ او عَلى آخرَ فإنَّ المؤمِنَ بأَنَّ اللهَ صالِحٌ عَليهِ أَن يُثبِتَ إيمانَهُ بعَمَلِهِ الصالِحِ ويَمتَنعَ عن عَمَلِ السُّوءِ . فمَن يَقولُ إنَّ اللهَ سَيّدُهُ وَجَبَ عَليهِ أَن يَعمَلَ ما يَرضَى سَيّدُهُ بهِ فإن عَمِلَ ما لا يَرضاهُ فهُوَ مَطرودٌ مِن بابِهِ مقطوعٌ عَن خِدمتِهِ مَمحوٌّ من جريدةِ[2] خدمتِهِ

فكَلِمةُ أَميرِنا الشَّريفِ فَيصلِ المُعظَّمِ « إنَّنا عَرَبٌ قَبلَ إبراهيمَ ومُوسَى وعيسى ومُحَمَّدٍ » تَرمِي إلى أَنَّ رُوحَ التَّساهُلِ الدينيِّ الَّذي جَمَعَ العَرَبَ في العَهدِ السابقِ لأَزمِنةِ أُولئكَ الهُداةِ يَجِبُ أَن يَجمَعَنا الآنَ . فيكونُ اعتِصامُنا

---

(١) الواو هنا للحال اي حال كونه يقبل (٢) جدول

بِطاعةِ اللهِ في قَوْلٍ وعَمَـلٍ الداعيَ إلى تَوحيدِ رَغائبِنا الصالِحَةِ وتَثميرِنا قُوانا في عُمرانِ بِلادِنا ورَفاهِ مَعيشتِنا ورُقِيّنا عِلماً وفَضلاً وصِناعةً وزِراعةً وَتِجارةً وأَحكاماً وأَخْلاقاً ومَبَرّاتٍ ومَعاهِدَ أَدَبيَّةً

نَحنُ مُتَّفِقونَ في شُؤُونِ الحَياةِ — لِأَنَّ أَديانَنا تُفهِمُنا أَنَّ الغايةَ مِنَ الحياةِ — على تَعَدُّد طُرُقِ البَيانِ عن هٰذِهِ الحياة — واحدةٌ . هِيَ تَمجيدُ اللهِ بِعَمَلِ ما يُرْضيهِ . فَعَلى كُلٍّ منا أَن يَصونَ نَفسَهُ مِمَّا يَسوءُ أَثَرُهُ عَليها وأَن يُحسِنَ إليها . ومِن مُقتَضَى ذٰلِكَ الإحسانِ أَن نُحسِنَ الى الغَيرِ في قَولٍ وعَمَلٍ وتَمْتَنِـعَ عَنِ الإِساءَةِ إليهِ في قَولٍ وعَمَلٍ

فَلْيحتَرِمْ كلٌّ مِنَّا دينَ أَخيهِ في الوَطَنيَّةِ وَلْيُحسِنْ في مُعامَلَتِهِ ما وَجَدَ إلى الإِحسانِ سَبيلاً . فَهُوَ لا يُعامَلُ إلاَّ بِمِثلِ ما عُومِلَ فالزارِعُ بَرَكَةً يَحصُدُ بَرَكَةً والمانِحُ سَلاماً يُعطَى سَلاماً

الفصلُ الخامسُ والأربعون

لا فصل بين الدين والحكومة

الدينُ ولا ريبَ ينهى عن الإساءةِ إلى النفسِ وإلى الغيرِ ويأمرُ بالإحسانِ الى النفسِ وإلى الغيرِ. ويقولُ [١] بأنَّ السيرَ بمقتضى هذا المبدإِ يأتي عنهُ صلاحُ حالِ الإنسانِ في الدنيا والآخرةِ معاً ويعودُ بهذا المبدإِ إلى أنهُ صادرٌ عن حكمةِ الخالقِ الصالحِ الذي أوجدَ كلَّ موجودٍ للصلاح

والحكومةُ تنهى عن الإساءةِ إلى النفسِ وإلى الغيرِ وتحضُّ على الإحسانِ إلى النفسِ وإلى الغيرِ وترى صلاحَ الدنيا متوقفاً على العملِ بما تسنُّهُ [٢] نهياً عن سيءٍ وحضًّا على حسنٍ

يعاقبُ الدينُ من خرجَ في عملهِ أوقولهِ عمَّا أُمرَ بهِ أو نُهيَ عنهُ بأن يُنكرَ ذلكَ الخارجَ فيقولُ لهُ : لستَ منّي . أو يُلومهُ لوماً هوَ أهلهُ. وتعاقبُ الحكومةُ من

---

(١) قال هنا بمعنى حكم (٢) يبنهُ

خَرَجَ عَمَّا تَسُنُّهُ على ما اقتضاهُ خُرُوجُهُ فإِمَّا تغريمًا بمال أَو توقيفًا في سجنٍ أَو ما هُوَ أَشدُّ من ذلك

عُقوبةُ الحُكومةِ عَنِ التَّجاوُزِ إِمَّا أَدبيَّةٌ أَو حِسيّةٌ فالأَدَبيَّةُ كالحِرمانِ من قَبولهِ في خِدمةٍ للحكومةِ وكالتَّشهيرِ والإِسقاطِ من الحُقوقِ المَدَنيَّةِ. والحِسيَّةُ كالأَشغالِ الشاقَّةِ والسَّجْنِ .

ولا بُدَّ لِصِحَّةِ إِيقاعِ العُقوبةِ من إِثباتِ التَّجاوُزِ وتَعْيِينِ وَجْهِهِ وَمِقدارِهِ لِتَكونَ المُجازاةُ العادِلَةُ على قَدْرِ العِصيان. فَلا بُدَّ من قَضاءٍ يُتيحُ لِلذي ادُّعِيَ عَلَيهِ التَّجاوُزُ أَنْ يُدافِعَ عن نَفسِهِ ان كانَ لَهُ مُسَوِّغٌ، فإِنْ حُوكِمَ مُدَّعًى عَلَيهِ ولَم يُؤْذَنْ لَهُ بأَن يُدافِعَ عن نَفسِهِ فالقَضاءُ جائِر . أَمَّا المُحاكماتُ الغِيابيَّةُ فعادِلَةٌ لأَنَّ المُدَّعى عَلَيهِ أُعطِيَ حَقًّا بالدِفاعِ عَن نَفسهِ فأَهمَلَهُ وَمَن أَضاعَ حَقَّهُ أَو ازْدَرَى بِهِ فَلَيسَ لَهُ أَن يَطلُبَ مِن سِوَاهُ أَن يَحفَظَهُ

ولا بُدَّ من أَن يَتَوَلَّى القَضاءَ حَكَمٌ وهذا الحَكَمُ إِمَّا فَرْدٌ واحِدٌ أَو مَجْمُوعُ أَفرادٍ . وَسَواءٌ كانَ فَرَدًا أَو مَجموعَ

أَفْرادٍ لا يَمتَنِعُ بِمُقتَضَى الطَّبيعةِ البَشَرِيَّةِ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيهِ الجَهلُ أَو الانخِداعُ أَو المحاباةُ فحُكمُهُ مُعَرَّضٌ لِلخَطاءِ عَن ذُهولٍ أَو عَن غَيرِ ذُهولٍ . ولِكَي تأمَنَ الحكومةُ أَن يَقَعَ جَهلٌ او انخِداعٌ أَو مُحاباةٌ وتُؤمَّنَ الأَحكامُ مِنَ الخَطاءِ عَن ذُهولٍ تَنصِبُ الحَكَمَ مَراتِبَ فَفَريقٌ يَراها لِلمَرَّةِ الأُولى بَداءَةً وفريقٌ للمرةِ الثانيةِ ستِئنافاً وفريقٌ لِلمَرَّةِ الثالثةِ تَميزاً . والنَّظَرُ في القَضيَّةِ الواحِدَةِ مِرارًا بداءةً استِخراجِ الحقيقةِ على عِلاَّتِها (١) وبعَدَدٍ متَعَدِّدينَ أَفضَلُ أُسلوبٍ لِلأَمْنِ من الزَّيْغِ عَنِ النَّهجِ الصَّوابِ وإِلَى هٰذهِ الحِكمةِ ذَهَبَ القائِلُ

فَرَأْيانِ أَحسَنُ مِن واحِدٍ وَرأْيُ الثلاثةِ لا يُنقَضُ

ومَعَ ذلكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الخَطاءَ قد يَتَسَرَّبُ (٢) إِلى الأَحكامِ

أَمَّا الدِينُ فإِنَّهُ يُقيمُ في داخِلِ الإِنسانِ قَضياً يُدعَى الضميرَ او الوجدانَ شاءَ اللّٰهُ تعالَى بِرَحمَتِهِ أَنْ لا يَتَطرَّقَ

---

(١) اي على كلِّ حال (٢) من دب تسرب الماء في جحره أي دخل

إِلَيهِ جَهلٌ أَو مُحاباةٌ او انخِداعٌ . هُوَ قاضٍ عادِلٌ لا يُمكِنُ أَنْ يَخرُجَ عَنِ العَدلِ . حُكمُهُ مُبرَمٌ [1] فلا استِئنافَ ولا تمييزَ يُعيدُ النَّظَرَ في قَضائِهِ فالصَّلاحُ عِندَهُ صَلاحٌ وَلا يَجعَلُهُ الاِحتِجاجُ مَهما تَلَوَّنَ غيرَ صَلاحٍ [2] والطَّلاحُ عِندَهُ طَلاحٌ ولا سَبيلَ الى إِلباسِهِ ثَوبَ الصَّلاح

الحاكِمُ المَنصوبُ مِن قِبَلِ الحُكومةِ هُوَ في أَعمالِهِ بَيْنَ أَمرينِ الأَوَّلِ أَن يَقِفَ وُقُوفاً لا شائبةَ [3] في صِحَّتِهِ عَلَى مَن تَجاوَزَ الحَقَّ . والثاني أَن يَعجَزَ عَن الوُقوفِ على مَن تَجاوَزَ لحَقَّ لِخَفاء بَعضِ المُستَنَداتِ . ثُمَّ أَن يَهتَدِيَ الى حُكمِ عُقوبَتِهِ العادِلِ أَو أَن لا يَهتَدِيَ

أَمَّا الحاكِمُ المَنصُوبُ من قِبَلِ الدِينِ فَهُوَ في أَعمالِهِ كلِّها عَلى جَلاءٍ فعِلمُهُ بِالمُتَجاوِزِ ومِقدارِ تَجاوُزِهِ وما ذا أَغراهُ على التَّجاوُزِ تامٌّ كلَّ التَّمامِ والحُكمُ الذي يَحِقُّ عَلَيهِ

---

(١) المبرم من الأحكام القاطع (٢) اي ما اثبت الوجدان انه صالح لا يؤثر فيه الوهم لأنه لا عبرة للوهم (٣) واحدة الشوائب وهي الأدناس والأقذار والعيوب

عُقوبةً لتجاوُزِه معلومٌ كلَّ العلْم

الحاكِمُ الذي يُمثِّلُ الحكومةَ — أو الحكومةُ المُمثَّلةُ بالحاكِم من قِبَلِها — يُجري العُقوبةَ على ما صَدَرَ من قَوْلٍ وعَمَلٍ متجاوزِ الحدِّ الواجبِ أن يُوقفَ عِندَهُ

أمَّا الضَّميرُ المتكلِّمُ بلسان الدِّين — أو الدينُ الذي يُقرِّءُ بلسان الضَّمير — فإنَّهُ يُعاقِبُ على القَوْل والعَمَلِ والفِكر فيَمتدُّ نِطاقُ حُكمِهِ إلى ما لا تَمتدُّ إليهِ الحكومة. فَمَنْ أساءَ إلى أُنثى قَوْلاً وفِعلاً عاقبَتْهُ الحكومةُ صائنةُ العِرْضِ. أمَّا إذا وَضَعَ في فِكرِهِ الإساءةَ ولَمْ يُخْرِجْ بِهِ إلى قَوْلٍ أو فِعلٍ فلا سَبيلَ للحكومة إلى عِقابِهِ وأمَّا الدِّينُ فيُعاقبُهُ « فمَنْ نَظَرَ إلى امرأةٍ ليَشتهيَها فقَدْ زَنَى بها في قَلْبِهِ »(١) وعَمَلاً بهذا المبْدَإ عَينِه يأمُرُ دينٌ إسلاميٌّ بغَضِّ الطَّرْف فجاءَت لآيتان « قُلْ للمُؤْمنينَ يَغُضُّوا من أبصارِهم » الى آخرها وقُلْ للمُؤْمناتِ يَغضُضْنَ مِن أبصارِهنَّ إلى آخرها (٢)

---

(١) سفر متى العدد ٢٨ من نص ٥ (٢) سورة سور

فعقوبةُ الدينِ تقعُ عدْلاً حيثُ تعجزُ الحكومةُ أَن تُوقِعَ عقوبةً . فالدِينُ أَوسعُ نطاقاً في سلطانٍ محدود ، وأَعدلُ شرعاً في حُكمٍ مورود، وأَهدى نهجاً الى غرَضٍ مقصود، وأَتمُّ نعمةً في كلِّ مَطلَبٍ محمود . فاستيفاءُ العَدلِ إِلَى كلِّ ما يتطرّق إِليهِ العَدلُ يستلزم الدِين وإِن انتـفى التّقيُّدُ بالدِينِ فلا يظفرُ العَدلُ بكلِّ حقِه .

وَمِنَ المَعلومِ أَنَّ النَّظْرَةَ الأَثيمةَ وَالفِكرةَ الأَثيمةَ تعملان في إِيجادِ العَمَلِ الأَثيمِ كما قالَ الشاعرُ « يَهيجُ عظَماتِ الأُمورِ صِغارُها » وعَنِ اختمارِ الإِرادةِ بهما الاندفاعُ الى تجاوُزِ الحدِّ الذي يجبُ أَن ترتدَّ النَّفس عَنِ الوُصولِ إِليهِ . وبِما أَن الحكومةَ تعجزُ عَن مُقاوَمةِ أَسبابِ التَّجاوز . فلا بُدَّ لها منَ الاستعانةِ بِمَن يقوى على محوِ أَسبابِ التجاوُزِ — وهٰذا المُستَعانُ بهِ هُو الدِينُ — فالحكومةُ لا يُمكِنُها إِن انفصلت عَنِ الدِينِ أَن تُؤَدِّيَ عَمَلَها كاملاً فالحُكومةُ مُضطرَّةٌ اعتِصاماً بِوفاءِ الواجب كاملاً أَن تبقى يَدُها مُمسِكَةً بيَدِ الدِينِ

والتفاضلُ بينَ ثوابَيِ الحكومةِ والدينِ كالتفاضلِ بينَ عقابَيهما . فكم أمينٍ لحكومتِهِ عُومِلَ بالحِرمانِ وجُوزيَ عَنِ الخيرِ شرًّا كما جُوزيَ سِنِمَّار . وهُو بنَّاءٌ ماهِرٌ شادَ لأحَدِ المَناذِرَةِ مُلوكِ العراقِ قصرًا أحسنَ في وَضعِهِ كُلَّ الإحسانِ فأَثابَهُ الملِكُ على عملِهِ بأنَّهُ قذَفهُ مِن علُوِّ ذلِكَ الصَّرحِ [1] إلى الأرضِ فماتَ . وكما جُوزيَ خريستفورُ كولمبسَ مُكتشِفُ أميركا بالعزلِ والقيدِ الثقيلِ [2] .

وإلى مثلِ هذهِ المُعامَلةِ الجائرةِ أشارَ الشاعرُ العربيُّ

وإنَّ الذي بيني وبينَ بني أبي
وبينَ بني عمّي لَمُختلِفٌ جِدًّا
إذا نَهشوا لحمي وَفَرتُ لُحومَهم
وإن هدَموا مَجدي بَنَيتُ لهم مَجْدا
وإن زَجَروا طيرًا بِشَرٍّ يَمُرُّ بي
زَجَرتُ لهم طيرًا يَمُرُّ بهم سعْدا

---

(١) البناء العالي (٢) كان من أمر خريستفورس كولمبس بعدما اكتشف ما اكتشفه ان ملكة الاسباني بعث من جاء به من اميركا مقيداً

فأثبتَ في قولِهِ أَنَّ حكومةَ الأقاربِ قد تقعُ ظالمةً فبالأحرى ان تقعَ حكومةُ الغرباء ظالمةً

وأَمّا الدينُ فلا يحرمُ محسناً من مكافأةٍ ولا يجازي عَنِ الإحسانِ إِلاَّ بالإحسانِ ومَن فاتَهُ ثوابُ الدُّنيا فأمامَهُ ثوابُ الآخرةِ وهُوَ أفضلُ

إذا تزاحمَ اثنانِ على أمرٍ واحدٍ فأقواهما مرجعُ أضعفهما وليسَ مِن مصلحة الضَّعيفِ أَنْ ينفصلَ عَنِ القويِّ الَّذي يُؤَيِّدُهُ في عملِهِ ويُعطيهِ قُوَّةً وكرامةً وهيبةً . وهذا شأنُ الحكومةِ والدينِ . فالدينُ مرجعُ الحكومةِ وليستِ الحكومةُ مرجعَ الدِّينِ . الدِّينُ هُوَ القويُّ واتِّباعُ شرعِهِ مِن كلِّ أحدٍ في كلِّ عملٍ يغني عَنِ الحكومةِ . والحكومةُ لا تُغني عن الدينِ . فمَنْ لا يُسيءُ إِلى أَحدٍ ولا يُسيءُ إِليهِ أَحَدٌ ولا يَطلبُ ثواباً من حكومةٍ على صالحِ عملٍ أجراهُ فأيَّةُ حاجةٍ لهُ إِلى الحكومةِ . أمَّا الحكومةُ فلا تجدُ إلى الغنى عَنِ الدينِ سبيلاً

الدينُ يعتني بالحكومةِ عنايةَ الأصلِ بفرعِهِ ويحوطُها

بظلّه وعلى الحكومة أن تعتني بالدين عناية الفرع بأصله فتعمل في تأييد ما يقبله ومنع ما يأبى حدوثه

الشجرة تتألف من أرومة وغصن أو غصون والأرومة أم والغصون أطفالها والثمر ما يرجى من الأرومة وغصنها

وهذا مثال ما نحن في صدده. فإنَّ الدين هو الأرومة والحكومة غصنها وثمرها الحياة السعيدة. والأرومة تجد لها حياة وعملاً او قطع غصنها أو غصونها فتنمو وتأتي بغصن أو بغصون. أمَّا الغصن إن قطع فلا حياة له إلَّا إذا جعل له من نفسه أروم. وذلك شأن الحكومة فلا غنى لها عن دين. ولو فرض أنَّها انشأت لها ديناً كما يزعمه من يقول بدين الوحدة القومية فأي الدينين أولى بالقبول أدين وضعه الله ودين وضعته السياسة.

فالدين يوجد حكومة أو حكومات. والحكومة لا توجد ديناً. وإن أوجدته لما صحَّ لأنَّ الدين يسيطر في الدنيا والآخرة. وليست للحكومة سيطرة في أمر الآخرة. فحاجة الدين الى الحكومة حاجة الأرومة الى الغصن، ليتكوَّن

الثَّمَرُ . وحاجةُ الحكومةِ الى الدِينِ حاجةُ الغُصنِ إلى الأَرومةِ لِيَستبقِيَ حياتَهُ أَوَّلاً ، وليقوى على أن يُثمِرَ ثانياً . فلِذلِكَ يَجِبُ أَن يكون الدِينُ والحكومةُ مُتَّصِلَينِ غَيرَ مُنفَصِلَينِ فَعلَى كلِّ حكومةٍ أَن تُلقِيَ زِمامَها إلى دِين

الفَصلُ السادِسُ والأَربعونَ

يُشترط في كل مَن يلي عملاً من أعمال الحكومة أن يكونَ دَيِّناً

مَن أَقبلَ على عَمَلٍ وَهُوَ مُقتَنِعٌ الاقتِناعَ التامَّ بِأَنَّ إِتقانَهُ واجِبٌ ولا مَندوحةَ عَنهُ ثابَرَ على الاشتِغالِ بِهِ لَيلاً ونَهارًا وقاوَمَ كلَّ المُثَبِّطاتِ[1] التي تَعرِضُ عليه لِكَفِّ يَدِهِ عَنِ العَمَلِ . وتَدَرَّعَ بِعَزيمةٍ لا تَعرِفُ كَلالاً . وظَلَّت نَفسُهُ جاهِدةً في سَبيلِ الوُصولِ إلى الإتقانِ المَطلوب . فلا يُوقِفُهُ فَقرٌ ولا غِنًى ولا صِحَّةٌ ولا ضُعفٌ ولا لَيلٌ ولا نهارٌ ولا خَشيةٌ مِن حاكِمٍ أَو إِثرَةُ نَفسٍ بِلَهوٍ وَباطِلٍ عَن أَن يَتَتَبَّعَ ما يَراهُ واجِباً

---

(١) العوائق

عَنْ هٰذا الاقتناء يفوزُ الجيشُ في معارك الوَغى فهُوَ لا يُبالي بالأخطار ولا تستهويه الزخارفُ ولا تثبطُ عزيمتَهُ المتاعبُ والجوعُ والعراء لأنَّهُ يحسبُ نيلَ الظفرِ ثميناً فكلُّ ما يبذلُ في سبيل الحصول عليه ثمنٌ تافه

أَما إِذا كانَ العاملُ يعملُ مسوقاً الى العمَل . عن غيرِ رغبةٍ فيه فهُوَ لا ينفكُّ عن التفكيرِ في إيجادِ الذرائعِ (١) التي تجيزُ لهُ ان يتوقَّفَ عن متابعةِ العمَلِ . فيشكو من بخس (٢) الأجرةِ ويتظلَّمُ من أَنَّ العمَلَ غيرُ منتظم ومن أَنَّهُ لا يُعطَ الراحةَ الكافيةَ ليعودَ إِليه النشاطُ الضروريُّ لكي يتمكَّنَ من العمَلِ

وعَن هٰذه الاحتجاجات يفشَلُ الجيشُ ويرتدُّ ناكصاً عن مقاومة عدوّه ويرى في الفرار من مكافحته غنيمةً وإِنَّ الحرصَ على الحياة أَولى من الزوح (٣) تحتَ تلكَ المشقّة

فالعملُ الناجحُ من عدَّ عاملُهُ القيامَ بهِ واجباً عليهِ

---

(١) الوسائل　(٢) نبخس النقصان　(٣) الـتعوض اعياء

لأنه واجب الحياة الحقيقية . والعمل غير الناجح من عدّ عامله العمل به من باب دفع الأذى عن الحياة فإن أمكن الاستغناء عن القيام به فذلك خير وأولى

والعامل الناجح يمثل الموظف المتدين فهو يعد حياته ملكاً للعدالة لكي تجري به في منهاجها السوي فيرضى ان يفقد أعز ما يملكه بل ما يلوذ به حتى يرضى بأن تزهق[1] نفسه في سبيل العدالة .

والعامل غير الناجح يمثل الموظف غير المتدين الذي يعد الوظيفة وسيلة للتعيش ليس إلاّ . فإن رأى أنه يتمكن بها من الحصول على رغائب النفس الأمارة بالسوء لا يرى بأساً فالعدالة عنده وسيلة للمرتب والمرتب مطية[2] للذائذ واللذائذ الغاية المنشودة في الحياة . فيحابي[3] ويراوغ ولا يبالي بضياع الحق على صاحبه بل يعوّج القضاء في سبيل حصوله على رغائبه وتمتعه بلذائذه

---

(١) تخرج (٢) الركوبة (٣) المحاباة في الأصل الميل وفي
[illegible]

لذلك كان كل عمل نافع يقوم به المتدين دون سواه فالمتدين يقضي القضاء العادل على نفسه وعلى بنيه وعلى أحب الناس إليه كما قال ابو بكر الصديق «ألا إن اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه[1]»

لم يقع فتق في حكومة إلا عن نكول الحاكم عن إجراء الحكم العادل على من استحقه بعمله . ولن ينكل الحاكم عن العدل حيث يتطلبه القضاء إلا لأنه ضعيف الثقة بنفسه غير جريء على إعطاء ما لله لله . ومن يمنع قضاء الله عن أن يأخذ حده فليس بالعبد الأمين لربه . فالقضاء العادل لا يقوم به إلا المتدين الصادق العزيمة في طاعة الله

سرقت فتاة مخزومية في عهد صاحب الرسالة الإسلامية وثبتت عليها السرقة فأمر أن تجري عقوبتها العادلة وهي كما في الآية القرآنية الكريمة . فسئل أن

---

(١) كتاب فرش الخطب في الجزء الثاني من العقد الفريد

يَرفقَ بها ويعفوَ عن يَدِها فأَجابَ بما معناهُ واللهِ لو سَرَقت فاطمةُ بنتُ محمَّدٍ لما كان عِندي في الأَمرِ هَوادَةٌ

وشَكَتِ امرَأَةٌ الى عُمَرَ ابنِ الخَطَّابِ رَجلاً أَساءَ إِلَيها في ما هُوَ محرَّمٌ لَهُ منها. وكانت لا تَعرِفُ ذٰلِكَ الرَّجلَ. ولكنَّها تَعرفُ صِفاتِهِ فعَرَفَهُ عُمَرُ حينَما ذَكَرَتِ الصِفاتِ أَنهُ أَحَدُ وُلْدِهِ: فَذَهَبَ الى بَيتِهِ وَوَجَدَ فيها ابْنَهُ فجاءَ بِهِ الى القَضاءِ وحاكَمَهُ. وثَبَتَتْ دَعوَى المَرْأَةِ عَلى الرَّجلِ فأَجرَى عُمَرُ العُقُوبَةَ عَلى ابنِهِ فماتَ تَحتَ السَّوط. ولَم يَنكُلَ عُمَرُ عن أَنْ يُقِيمَ ما ارتَضاهُ اللهُ تَعالى ثَوَاباً وعُقوبةً

فالحاكِمُ الذي يَقومُ بالأَمرِ حَقَّ القِيامِ هُوَ مَن لَم يَكُنْ ظالماً ولا استَعانَ بظالِمٍ. ومَنْ كانَ غيرَ دَيِّنٍ يَظلِمُ نَفسَهُ بحِرْمانِها مِن ثَوابِ الآخِرَةِ بسُوءِ نيَّتِهِ. ومَن هُوَ لِنفسِهِ ظالِمٌ فلِغَيرِهِ أَظلَمُ. فَلا يَصلُحُ مَن كانَ لا يَكتَرِثُ للدينِ أَن يَلِيَ مَنصباً في الحكومةِ العرَبيَّةِ

ومَن كانَ دَيِّناً فَلا تَثْبُتُ لَهُ هذهِ الصِفَةُ — صِفةُ دَيِّنٍ — إِلاَّ إِذا عَدَلَ بَينَ الناسِ في قَولٍ وعَمَلٍ. ومن عَدَلَ

في قضايا الآخرين فهو في قضية نفسه عليه أولى بالعدل. وقضية نفسه عليه أن يعمل ويقول في كل أمر ما يوليه لدى الله الزلفى . ومن عدل في قضية نفسه فهو ولا ريب ديّن — فالديّن من يصلح للمناصب في الحكومة العربية . فمن ظهر منه مروق في المعتقد الديني الصحيح . أو اطراح للشعائر الواجبة الإداء . أو عدول عن السنن القويمة ذهاباً مع هوى النفس . لا يصلح أن يكون في عداد رجال الحكومة رئيساً ولا مرؤوساً ولا خادماً لأنه غير مأموز من أنه يغش مستخدمه . واطراحه من باب العمل بالمبدإ الأحوط ومن عمل بالحيطة كان في عمله على هدًى

الفصل السابع والأربعون

طاعة الحكومة في طاعة الدين وليست طاعة الدين في طاعة الحكومة

داريوس الكبير ابن هستاسب ، يعد أعظم ملوك الفرس فضاهى قورش الملك الذي يعد الواضع الأول

لدولةِ الفُرْسِ في حُروبِهِ . وسَبَقَهُ وسَبَقَ غيرَهُ من مُلوكِ الفُرس في سياسةِ المَملَكَةِ سياسةً حَسَنةً . وأُوتِيَ[1] منَ الحِكمَةِ والدِرايةِ ما تَستَحِقُّ الذِكْرَ الجميلَ[2] وَقَد ذَكَرَ النَّبيُّ دانيالُ (وكانَ أَحَدَ وُزَرائِهِ) في سِفرِهِ ماحَدَثَ لَهُ مَعَهُ وهٰذِهِ رِوايتُهُ :

« حَسُنَ عِندَ داريُوسَ أَن يُوَلِّيَ عَلَى المملَكَةِ مِئةً وعِشرينَ مَرزُباناً[3] يَكونونَ عَلَى المَملَكَةِ كُلِّها . وعلى هؤُلاءِ ثلاثةُ وُزَراءَ أَحدُهُم دانيالُ لِتُؤَدِّيَ المَرازِبَةُ إِلَيهِم الحِسابَ . فلا تُصيبُ المَلِكَ خَسارة . ففاقَ دانِيالُ على الوُزَراءِ والمَرازِبَةِ . لِأَنَّ فيهِ روحاً فاضِلة . وفكَّرَ المَلِكُ في أَن يُوَلِّيَهُ عَلَى المَملَكةِ كُلِّها[4]

ثُمَّ إِنَّ الوُزَراءَ والمَرازِبَةَ كانوا يَطلُبونَ عِلَّةً يَجِدونَها عَلَى دانِيالَ مِن جِهَةِ المَمَلَكةِ فَلَم يَقدِروا أَن يَجِدوا عِلَّةً

---

(١) مُنح   (٢) التاريخ القديم لورتر صفحة ١٦٠

(٣) المرزبان عند الفرس الرئيس المقدم على القوم دون الملك

(٤) يستنتج من هذا انه لم يكن للملك يومئذ رئيس وزراء وان التولية على المملكة كلها اقامة رئيس وزراء

ولا ذنباً . لأنهُ كانَ أميناً ولَم يُوجَدْ فيهِ خطاءٌ ولا ذنبٌ. فقالَ هؤلاءِ الرجالُ لا نجدُ على دانيالَ هذا علةً إلاَّ أن نجدَها من جهةِ شريعةِ إلهِهِ . حينئذٍ اجتمعَ هؤلاءِ الوُزَراءُ والمَرازِبةُ عندَ الملِكِ وقالوا لَهُ هكذا : أيُّها الملِكُ داريوسُ عِشْ الى الأبَدِ . إنَّ جميعَ وُزَراءِ المملكةِ والشِحَنِ (١) والمَرازِبةِ والمشيرينَ والوُلاةِ قد تشاوروا على ان يضَعوا أمرًا ملكيًّا ويشدِّدوا نهيًا بِهِ بأنَّ كلَّ مَن يَطلبُ طلبةً حتَّى ثلاثينَ يوماً من إلهٍ أو إنسانٍ إلاَّ منكَ أيُّها الملِكُ . يُطرَحُ في جُبِّ الأُسود . فثبِّتِ الآنَ النهيَ أيُّها الملِكُ . وأمضِ الكتابةَ لكَي لا تتغيَّرَ كشريعةِ مادي وفارسَ التي لا تُنسَخ (٢). لأجلِ ذلكَ أمضى الملِكُ داريوس الكتابةَ والنهيَ

فلمَّا علِمَ دانيالُ بإمضاءِ الكتابةِ ذهبَ إلى بيتِهِ وكُوَاهُ مفتوحةٌ في عُلِّيَّتِهِ نحوَ أُورشليمَ فجثا على رُكبتَيهِ

(١) في الجامعة الضابطة "السلطان في البلد" (٢) نسخت الشريعة أبطلت . يستنتج من هذا انه كان في عهد داريوس مجلس شورى وان مجلس الشورى اصدر قراراً وأمضاه داريوس

ثلاثَ مرَّاتٍ في اليَوم . وصَلَّى وحَمَدَ قُدَّامَ إلٰهه كما كانَ يَفعَلُ قَبلَ ذٰلِك. فاجتَمَعَ حينئذٍ هؤُلاء الرِجالُ فوَجدوا دانيالَ يَطلُبُ وَيَتَضَرَّعُ قُدَّامَ إلٰهِهِ . فَتَقَدَّموا وتَكلَّموا قُدَّامَ الملِكِ في نَهيِ الملِكِ. أَلَم تُمضِ أَيُّها الملِكُ نَهياً بأَنَّ كُلَّ انسانٍ يَطلُبُ من إلٰهٍ أَو إنسانٍ حَتَّى ثلاثينَ يوماً إلاَّ مِنكَ أَيُّها الملِكُ. يُطرَحُ في جُبِّ الأُسود. فأَجابَ الملِكُ وقال: أَلأَمرُ صحيحٌ كشريعةِ مادي وفارِسَ التي لا تُنسَخ. حينئذٍ أَجابوا وقالوا قُدَّامَ الملِكِ: إنَّ دانيالَ الذي من بَني سَبْيِ يَهوذا لم يَجعَل لَكَ أَيُّها الملِكُ اعتِبارًا ولا لِلنَهيِ الذي أَمضيتَهُ بل ثَلاثَ مرَّاتٍ في اليوم يَطلُبُ طِلبتَهُ . فلمَّا سَمِعَ الملِكُ هٰذا الكَلامَ اغتاظَ على نَفسِه جِدًّا . وجَعَلَ قَلبَهُ على دانيالَ لِيُنجيَهُ . وَاجتَهَدَ إلى غُروبِ الشَّمسِ لِيُنقِذَهُ . فاجتَمَعَ أُولٰئكَ الرجالُ الى الملك. وقالوا لِلملِك إعلَمْ أَيُّها الملِكُ إنَّ شريعةَ مادي وفارسَ هِيَ في كُلِّ نَهيٍ أَو أَمرٍ يَضعُهُ الملِكُ لا تَتَغيَّرُ. حِينئذٍ أَمرَ الملِكُ فأَحضَروا دانيالَ وطَرَحوهُ في جُبِّ الأُسودِ. أَجابَ الملِكُ

وقالَ لدانيالَ : إنَّ إلهكَ الذي تعبُدُهُ دائِماً هُوَ يُنجيكَ . وأُتِيَ بِحَجَرٍ ووُضِعَ على فَمِ الجُبِّ . وختمَهُ الملكُ بخاتِمِه وخاتِمِ عُظَمائِهِ لِئلاَّ يتغيَّرَ القصدُ في دانيال

حينئذٍ مضى الملكُ الى قصرِهِ وباتَ صائِماً . ولَم يُؤْتَ قُدَّامَهُ بِسَراريهِ . وطارَ عنهُ نومُهُ . ثمَّ قامَ المَلِكُ باكرًا عندَ الفَجرِ وذَهَبَ الى جبِّ الاسودِ . فَلَمَّا اقتَرَبَ الى الجُبِّ . نادى دانيالَ بصوتٍ أسيف . أَجابَ الملكُ وقالَ لدانيال : يا دانيالُ عَبدَ اللهِ الحَيِّ هَل قدَرَ إلهُكَ الذي تَعبُدُهُ دائِماً على أن يُنجيكَ مِنَ الأُسود . فتكلَّمَ دانيالُ معَ الملكِ . يا أيُّها المَلِكُ عِش الى الأَبَد . إلهي أَرسَلَ مَلَكهُ وسَدَّ أفواهَ الأُسود . فلَم تَضُرَّني لأَنِّي وُجِدتُ بَرِيئًا قُدَّامهُ . وقُدَّامَكَ أيضاً أيُّها المَلِكُ لَم أَفعَلْ ذَنباً . حينَئذٍ فَرِحَ المَلِكُ بهِ وأَمرَ أن يُصعَدَ دانيالُ من الجُبِّ . فأُصعِدَ دانيالُ من الجُبِّ ولم يُوجَدْ فيهِ ضَرَرٌ . لِأَنَّهُ آمَنَ بإلهِهِ . فأَمَرَ المَلِكُ فأَحضَروا أُولئكَ الرِجالَ الذينَ اشتكَوا على دانيالَ وطَرَحُوهم في جُبِّ الاسودِ هُمْ وأَولادَهم

وَنساءَهم ولَم يَصِلُوا الى أَسفلِ الجُبِّ حتَّى بَطَشَتْ بِهِم الأُسودُ وسَحَقَت كُلَّ عِظامِهِم »

وَلَنا من هٰـذا الحادِثِ الخَطِرِ أَن نَقول : إنَّ طاعةَ الحكومةِ واجبةٌ في طاعةِ الدينِ ولا تكونُ طاعةُ الدِينِ في طاعةِ الحكومةِ في ما يَمَسُّ الدِينَ . فَخَرَجَ دانيالُ عن طاعةِ داريُوسَ في أَمرِهِ المُعارِضِ لِشرعِ دِينِهِ ولم يَخرُجْ عَن شَرعِ دِينِهِ طاعةً لِأَمرِ مَلِكِهِ . فَلا يُعصَى اللهُ لِيُستَرضَى إِنسان

وَلَنا نتائِجُ أُخرَى عن هذا الحادِثِ منها ما يَأْتي .

أَوَّلاً) يَجِبُ أَن يَتَرَوَّى المَلِكُ في كلِّ عَرْض يَرفعهُ رِجالَهُ إِلَيهِ فَرُبَّما كانَ مَضمونُهُ فَخًّا لِلفَتكِ بِبَرِيءٍ

ثانياً) إِنَّ النَّدَمَ لا يَصونُ من سُوءِ العاقِبةِ . فاغتِياظُ داريُوسَ عَلَى نَفسِهِ لِأَنَّهُ وَقَعَ عَلى ذٰلِكَ الأَمرِ الباطِلِ لَم يَدْفَع عن دانيالَ سُوءًا

ثالثًا) إِنَّ إِجماعَ رِجالِ الحكومةِ على قَرارٍ غَيرِ عادِلٍ لا يَجعَلُهُ قَرارًا عادِلاً فلا يُعمَلُ بِهِ . وأَمَّا الإِجماعُ الذي

يُعمَلُ بِهِ فما كانَ وَضعهُ لِدَرْءِ أَذِيَّةٍ أَو جلبِ مَنفعة

رابعاً) عَلى الحاكِمِ أَن يُعاقِبَ الكائدينَ لِلأَبرِياء بِمِثلِ ما كادوا فيَعودَ كَيدُهم عليهِم بالوَبال

خامساً) كُلُّ ذي سُلطانٍ تَجاوَزَ في أَوامِرِهِ إِلى ما لَيسَ لَهُ فلا يَجِدُ خيرًا في تَجاوُزِهِ بَتَّةً لا لِنَفسِهِ ولا لِرجالِهِ ولا لِشَعبِهِ .

الفَصلُ الثامنُ والأَربعونَ

تعارُضُ الرئيسَين الديني والدنيوي

يَتعارَضُ الرَّئيسانِ الدِينيُّ والدُّنيَويُّ في قَضايا مُتَعدِّدةٍ تَرجِعُ الى وَجهَينِ الأَوَّل : أَن تكونَ للحكومةِ مَصلَحةٌ في وَضعِ سُنَّةٍ ما لا يُسوِّغها الدِين . والثاني أَن يَخرُجَ أَحَدُ الرَّئيسَينِ عَن حَدِّهِ المَشروعِ فيَتَصَدَّى[1] لِخُصومتِهِ الرَّئيسُ الآخَرُ لِيَدفعَ عَنهُ عادِيَةَ خُروجِهِ

فَفي الوَجهِ الأَوَّلِ : أَن تطمَحَ رَغبةُ الرَّئيسِ الدُّنيَويِّ

---

(١) يتعرض

إلى أَن يَجيرَ ما لا يُجيزُهُ الدينُ . فلا رَيبَ في أَنَّ الرَّئيسَ الدينيَّ يُدافِعُ عنِ الشَّرعِ بمُقتَضَى تَولِيَتِهِ . ويَعُدُّ أَنَّهُ لَوْ سَقَطَ شَهيدًا في المَعرَكَةِ الناشبةِ بَينَهُ وبَينَ الرَّئيسِ الدُّنيَويِّ مِنَ النِّعَمِ الجَليلة . فَلِذَلك يَتَقَدَّمُ إِلى الجِهادِ بِعَزيمةٍ ثابِتَةٍ . وَما من رئيسٍ دُنيَوِيٍّ خَرَجَ من تلكَ المعرَكَةِ مَنصورًا .

وأَجيءُ عَلى صِحَّةِ ما أَقولُ بثلاثةِ أَنباء . أَلأَوَّل من تَأريخِ الاسرائيليينَ وَهوَ : إِنَّ يُوآشَ ابنَ أَخزِيَّا ابنِ يَهورامَ مِلكِ يهوذا كانَ في حياةِ يهوياداعَ الكاهِنِ الكبيرِ زَوجِ عَمَّتِهِ يَهوشَبعةَ بِنتِ يهورامَ عَلى مَنهَجِ صَلاحٍ في قَولٍ وعَمَلٍ . فبَعدَ ما ماتَ يَهوياداعُ انقادَ المَلِكُ الى المُمَلِّقِينَ فحادَ عن عبادةِ اللهِ خالقِهِ

« وَلَبِسَ رُوحُ اللهِ زَكَرِيَّا ابنَ الكاهِنِ يهوياداعَ فَوَقَفَ فوقَ الشَّعبِ وقالَ لَهُم : هكذا يَقولُ اللهُ : لماذا تَتَعَدُّونَ وَصايا الربِّ فلا تُفلِحون . لِأَنَّكم تَرَكتُمُ الربَّ

قد تَرَكَكم . فَفتَنُوا عليهِ وَرَجَمُوهُ بِحجارَةٍ بِأمرِ المَلِكِ في دارِ بَيْتِ الرَّب

وفي مَدارِ السَّنَةِ صَعِدَ عَلَيهِ (عَلَى يُوآش) جَيشُ آرامَ وأَتَوا الى يَهُوذا وأُورَشليمَ وأَهلَكوا كُلَّ رُؤَساءِ الشَّعب .. .. فأَجرَوا قَضاءً على يوآشَ . وعندَ ذَهابِهِم عنهُ لِأَنهُمْ تَرَكوهُ بِأَمراضٍ كَثيرةٍ . فَتَنَ عليهِ عَبيدُهُ مِن أَجلِ دِماء بَنِي يَهوداعَ الكاهِنِ وقتَلوهُ عَلى سريرِه[1] »

فإِنَّ موتَ زَكَرِيَّا الكاهِنِ استِشهادًا خَلَدَ لَهُ ذِكْرًا وخَوَّلَهُ أَجرًا . وأَمَّا يُوآشُ فَتَوالت عَلَيهِ المصائِب وماتَ غيرَ سَعيدٍ . فلا ذِكرَ يَطيبُ ولا آخرةَ صالحة .

الثاني من تَأْريخِ المَسيحيين وَهُوَ : كانَ للملكِ اركادِيوسَ ابنِ ثيودوسيوسَ الكبير وزيرٌ شاءَ أَن يُلغِيَ ما لِبُيوتِ العِبادَةِ من صيانةِ دَمِ مَن يَلجأُ إِلَيها إِنْ ذَنبٍ صَدَرَ منهُ عَن غيرِ عَمد . وهذا المبدأُ قد أَخَذَتهُ الدَّولةُ الرُّومانِيَّةُ عَن شريعةِ موسى . فقاوَمَ البطريكُ يوحنَّا

---

(١) الفصل ٢٤ من سفر الأخبار الثاني

الإنطاكيُّ المدعوُّ بالذهبيّ الفم الوزيرَ رغبةً في أن يُبقي للمعابدِ كرامتَها . فعَمِلَ الوزيرُ في أذى البطريركِ وإيغارِ صدر الامبراطورِ عليه .

وحَدَثَ أن اركاديوسَ اطّلعَ على أمورٍ صادرةٍ من وزيرِه ذاتِ عاقبةٍ سيئةٍ على مصلحةِ المُلكِ فاستاءَ وعَمَدَ الى عقوبةِ الوزير . وعلِمَ الوزيرُ بما آلَ امرُهُ إليهِ عندَ سيّدِهِ فخافَ مِن أن يَبطِشَ بِهِ وَلجأَ إلى المعبدِ ليَحقِنَ المَعبدُ لَهُ دمَهُ .

فَلمّا جاءَ الوَزيرُ الى المَعبَدِ ذَليلاً حَقيرًا يَسأَلُ غَوثًا دَعا الذهبيُّ الفَمِ الشّعبَ إلى أنْ يَحضُرَ أيضاً فَحَضَرَ . وَوَقفَ الذّهبيُّ خَطيباً فسأَل الذليلَ اللائذَ ببيتِ العِبادةِ عمّا دَعاهُ إلى ذلكَ اللّواذ . وقالَ لَهُ ما مَعناهُ : إذا كان بيتُ العِبادَةِ يَصِحُّ أَن يكونَ مَلاذًا — وَهُوَ يَصِحُّ كما يَعترِفُ بذلكَ الحَقّ الحَقيقِ على حِينِ انخِفاضِ جَناحِهِ — فعَلامَ أنكرَ عَليهِ ذلكَ الحَقّ حينَما كانَ الوزيرَ الجليلَ الشأنِ النافذَ الأَمر. وإِن كانَ لا يَصِحُّ أَن يكونَ مَلاذًا فَلِماذا لاذَ بهِ الآنَ

هنالِكَ قالَ لهُ وما أَصدَقَ قولَهُ : إنَّ بنيانَ الله لا يقوى إنسانٌ على نقضِهِ . وأَما بنيانُ الإنسانِ فينقضُهُ الله تعالى . ويُذِلُّ جلَّ شأنُهُ وتعالى مَن تعرَّضَ لِبُنيانِهِ ويحجبُ عنهُ رحمتَهُ .

الثالث من تاريخِ الخلفاء المسلمينَ وهو : إِنَّهُ في عهدِ المأمونِ والمعتصمِ والواثقِ الخلفاء العبَّاسيِّينَ امتُحنَ كثيرونَ منْ علماءِ الإسلامِ الأعلامِ كالامام أَحمدَ ابنِ حنبلَ صاحبِ المذهبِ المشهورِ بقضيَّةِ خلقِ القرآنِ . وكثُرَ اللَّجاجُ بهذا الشان

فقالَ أَحدُ العلماء للخليفةِ أَنتَ تدعونا إِلى قولٍ في الدينِ قالَهُ الرسولُ اولم يقلْه وعلِمَهُ او جهِلَهُ . إِن كانَ قالَهُ فأَينَ المستندُ وإِن كانَ لم يقلهُ فعلامَ تدعو الى ما لم يقلهُ الرسولُ وقد أَكملَ لنا الدينَ . فقالَ الخليفةُ علِمَهُ الرسولُ ولم يدعُ إِليهِ . وأَمَّا أَنا فأَدعو إِليهِ . فرَدَّ عليه العالمُ هكذا يَسَعُ الخليفةَ في هذا الامرِ ما وسِعَ النبيَّ فليدَعهُ :

وقد ذهبَ أَمرُ الخلفاء الذينَ عارضوا علماءَ الدينِ في

هذا الشأنِ الدقيقِ وبَقِيَ القَولُ أَي قولُ العُلَماءِ . وعُدَّ لَهمُ امتِناعُهُم عن إجابةِ الخُلَفاء إلى القولِ بخَلقِ القُرآنِ مِن أَسمَى الفضائِلِ .

وفي الوَجهِ الثاني أَن يَخرُجَ أَحَدُ الرئيسَينِ عَن حَدِّهِ الشرعيِّ في أَمرٍ دُنيَويٍّ . فلا خِلافَ في أَنَّ مَن لَزِمَ حَدَّهُ كانَ القَوِيَّ ومَن تَجاوَزَ حَدَّهُ كانَ الضعيفَ . فالقُوَّةُ عن مَعرِفةِ الوَاجِبِ والوُقوفِ عندَهُ والضُّعفُ عن جَهلِ الواجبِ والتَّجاوُزِ إلى ما وَراءَهُ وإليكَ شواهِدَ من ذلِكَ

اولاً) حَدَثَ في عَهدِ الامبراطورِ ثيودوسيوسَ الكبيرِ[1] أَنَّ قَوماً من اهل مدينة تسالونيكي[2] قاموا على بعضِ مستَخدِمَيهِ في مَدينَتِهِمْ وَقَتلوهُ. فأَمرَ عَسكَرَهُ في تِلكَ المدينةِ أَن يَقتُلوا جانِباً من أَهلِها عِقاباً لما فَعَلوهُ . وكانَ هذا الامبراطورُ يَومئِذٍ مُقيماً في مَدينةِ ميلانَ في إِيطاليا . فلما

---

(١) ملك القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية سنة ٣٧٩ ب : م ثم القسم الغربي سنة ٣٩٤ ب : م (النهج القديم لبورتر صفحة ٥٥٦ ومعنى ثيودوسيوس عطية الله (٢) هي مدينة سالونيك الحالية

بَلَغَ نَبأُ المَقتَلَةِ الى أَمبروسيوسَ حَبرِ ميلانَ المسيحيّ فشَعَرَ من ذلك وتَصدَّى للامبراطورِ فكَتَبَ إليه كتاباً يُوبِّخهُ فيهِ توبيخاً شَديدًا . فندِمَ ثيودوسيوسُ على ما فرَطَ منهُ وتابَ إليهِ تعالَى وذهَبَ الى المعبَدِ لتقديمِ العِبادَةِ وطَلَبِ المَغفِرَةِ فوقفَ أمبروسيوسُ لهُ في بابِ المَعبَدِ وسألَهُ ماذا تُريدُ بحُضورِكَ إلى هُنا . فاجابَهُ أُريدُ تأديةَ الصَّلاةِ فقال الحَبرُ : اتجسُرُ على الوُقوفِ في بَيتِ العِبادةِ ويداكَ مُلَطَّختانِ بالدَّمِ الزَّكيّ . الا تعلَمُ أَنَّ ذلك يُسخِطُ اللهَ تَعالَى عَليكَ ويستَنزِلُ عُقوبتَهُ الشديدةَ اقتِصاصاً منك . فاذهَبْ وتُبْ إِلَيهِ تعالى .

فأَبَى عَليهِ الدُّخولَ الى بَيتِ العِبادَةِ ولم يُجزْ لَهُ ذلكَ الاَّ بعدَ ثمانيةِ شُهورٍ صرَفَها ثيودوسيوسُ متَضعاً متَندِّماً واشتَرَطَ عَليهِ وَضعَ سُنَّةٍ هيَ أَنَّ الحكمَ بالإعدامِ لاينفُذُ في محكومٍ عَليهِ الاَّ بعدَ النَّظَرِ في ذلكَ الحُكمِ والتَّدقيقِ فيهِ مَرَّةً ثانيةً عَقيبَ صُدورهِ أَوَّلا بثلاثةِ أَشهرٍ . ومن ذلكَ الحِينِ صارت إِعادةُ النَّظَرِ في الحُكمِ الشديدِ سُنَّةً

لا يُعدَلُ عنها إلا في الحكم العرْفي

ثانياً) حَدَثَ في عَهدِ وَلَدِهِ اركاديوسَ أَنَّ امرَأَةً من ذَوات الثَّراء جارَ الوالي فأَخَذَ مالَها فلاذَت بالمَلِكَةِ أَفذوكسيا زوجةِ اركاديوسَ لِتُزيلَ ظَلامَتَها فاستدعتِ المَلِكَةُ الواليَ الى الحضورِ لَدَيها وعَنَّفَتْهُ على جَورِهِ وأَمَرَتهُ أَن يأتِيَها بما ابتزَّهُ من تِلكَ المرأَةِ وإِلاَّ رَفَعت أَمرَهُ الى الملِكِ وَهُوَ أَدرَى بالعاقِبَةِ . فخافَ الوالي وَعيدَ المَلِكةِ وجاءَ بالأَموالِ المَغصوبةِ فطَرَحها في حَضرةِ الملكة .

وشَرِهت نَفسُ المَلِكةِ على تِلكَ الأَموالِ فدَفَعت جُزءًا صَغيرًا منها إِلى المرأَةِ المُتظَلِّمةِ وأَبقَت لِنفسها الباقيَ

فلَم تَرَ تِلكَ المرأَةُ المَظلومةَ غَوثاً لَها إِلاَّ الرَّئيسَ الدينيَّ البطريركَ يوحنا الانطاكيَّ الذَّهَبيَّ الفم . فَشَكَت إِلَيهِ أَمرَها فهَبَّ هذا الراعي لِلدِفاعِ عَن تِلكَ النَّعجةِ فاَستَخرَجَ لَها مالَها من بين أَنيابِ ذِئبِ الشَّرهِ الَّذي دَفعَ المَلِكةَ افذوكسيا إِلى أَن تَظلِمَها

أَمَّا رجالُ الدينِ المُسلمونَ فلَهم في مُعارَضةِ الحُكّامِ

الدُّنيويّينَ مواقِفُ مشهودةٌ بالغَيْرَةِ مشهورةٌ بالفَضلِ فكم أَزالوا حَيفاً وأَنصفوا مَظلوماً وردُّوا مُستَبِدًّا عَن غَيِّه وعَنفوا غاوِياً عَلى غَوايَتِهِ وعَرَّفوا جاهِلاً حَدَّ نَفسِه حتَّى أَفتى مالِكُ ابنُ أَنَسٍ الإمامُ المشهورُ بخَلعِ المَنصورِ أَبي جَعفَرٍ العَبّاسيِّ مِنَ الخِلافةِ . وَما عَهدُ خَلعِ سَلاطينِ بَني عُثمانَ بِفَتاوى شُيوخِ الإِسلامِ بِبَعيد

وقدكانَ ابنُ هُبَيرَةَ عامِلاً لِيَزيدَ ابنِ عَبدِ المَلِكِ المَروانيِّ فَدَعا إِلَيهِ الحَسَنَ البصريَّ وابنَ سيرينَ وعامراً الشعبيَّ وَهُمُ المُتَصَدِّرونَ في عُلَماءِ عَصرِهِ . فقالَ لَهم : يَرِدُ إِلَيَّ من أَميرِ المؤمنينَ يَزيدَ كُتُبٌ فيها ما فيها أَخافُ سَخَطَ اللهِ إِن أَجَريتُها وأَخافُ غَضَبَ أَميرِ المؤمنينَ وعقوبَتَهُ إِن لَم أُجرِها فَدُلُّوني عَلى المَخرَجِ مِنَ التَّبِعَةِ في هٰذا الشَّأنِ . فرَأَى ابنُ سيرينَ أَن لا يَتعَرَّضَ لِلبَحثِ. وقالَ الشعبيُّ أَنتَ عاملٌ لِأَميرِ المؤمنينَ وَهُوَ مَن يَحمِلُ تَبِعَةَ العَمَلِ فأَحسِنِ الظَّنَّ بأَنَّ أَميرَ المُؤمنينَ يَعرِفُ ما تَعرِفُهُ من أَمرِ مَضمونِ كُتُبِهِ وأَنَّهُ لَم يَكتُبْ إِليكَ في أَمرٍ إِلاَّ وَلَهُ مَخرَجٌ حَسَنٌ .

فَساءَ وَقعُ هٰذا الجَواب عِندَ الحَسَنِ البصريّ وقال لِلشعبيّ : يا عامِرُ أَبهٰذا تُخلِصُ النَّصيحةَ للهِ وللأَمير ثم عَطَفَ الكلامَ إلى ابنِ هبيرَةَ فقال لَهُ : إعلَمْ يا ابنَ هَبيرَةَ أَنَّ اللّهَ يَقيكَ من أَميرِ المؤْمنينَ يزيدَ . وأَنَّ أَميرَ المؤْمنينَ يَزيدَ لا يَقيكَ منَ اللهِ . وأَنتَ مَسؤُولٌ ممّا تعملُ مأموراً أَو غيرَ مأمورٍ . ولَكَ عَنِ الخَيرِ خيرٌ وعَنِ الشَّرِّ شَرٌّ « فلا تَكُنْ لِلظالمينَ ظَهيرًا » فتَظلِمَ نَفسَك . فما يَرِدُ من أَميرِ المؤْمنينَ فاعرِضْهُ على كِتابِ اللهِ فإِن أَقرَّهُ فأَنفِذْهُ وإِن أَباهُ فاطَّرِحْهُ .

« وقد دَخَلَ الأَوزاعيُّ عَلى المَنصورِ فقالَ ، لَهُ المَنصورُ ما الذي أَبطأَ بِكَ عَنّي . فأَجابَهُ الأَوزاعيُّ وما تُريدُ مِنّي يا أَميرَ المؤْمنينَ . قالَ الاقتباسُ مِنكَ . فأَجابَ الأَوزاعيُّ يا أَميرَ المؤْمنينَ انظرُ ما تَقول ، فإِنَّ مَكْحُولاً حَدَّثَني عَن عَطيَّةَ ابنِ بَشيرٍ أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلَّمَ قالَ مَن بَلَغَتْهُ عَنِ اللهِ نَصيحةٌ في دِينِه فهِيَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ سِيقَت إِليَه . فإِنْ قَبلَها مِنَ اللهِ بِشُكرٍ وَإِلا فَهِيَ حُجَّةٌ

مِنَ اللهِ عَلَيهِ لِيَزدادَ إِثماً ويَزدادَ اللهُ عليهِ غَضَباً . ثم قال : يا أَميرَ المؤمنين . إِنكَ تَحمَّلتَ أَمانةَ هٰذِهِ الامَّةِ وقد عُرِضَت عَلَى السماواتِ والأَرضِ فأَبينَ أَن يَحمِلنَها وأَشفقنَ مِنها . وقد جاءَ عَن جَدِّكَ عبدِ اللهِ ابنِ عبَّاس في تفسيرِ قولِ اللهِ عزَّ وَجلَّ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إِلاَّ أَحصاها . قالَ : الصغيرةُ التَبَسُّمُ والكبيرةُ الضَحِكُ فما ظَنُّكَ بالقَولِ والعَمَلِ . فأُعيذُكَ باللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ أَن تَرى أَنَّ قَرابَتَكَ من رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمُ تَنفعُكَ معَ المُخالَفَةِ لِأَمرِهِ فَقد قالَ صَلَّى اللهُ عَليه وَسلَّم : يا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ ويافاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ استَوهِبا أَنفُسَكُما مِن اللهِ فإِنّي لا أُغني عَنكُما مِنَ اللهِ شَيئاً . وكذلكَ جدُّكَ العَبَّاسُ سأَلَ إِمارةً من النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ فقالَ اي عَمِّ نَفسٌ تُحيِيها خيرٌ لَكَ من إِمارةٍ لا تُحصِيها . نَظَرًا لِعَمِّهِ وشفَقَةً عَلَيهِ . مِن أَن يَلِيَ فيَحيدَ عن سُنَّتِهِ جَناحَ بَعوضةٍ فلا يَستَطيعُ لَهُ نَفعاً ولا عَنهُ دَفعاً . وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ : مامن داعٍ يَبيتُ غاشًّا لِرَعيَتِهِ الاَّ حَرَّمَ اللهُ عليهِ

رائحةُ الجنّة . وحقيقٌ على الوالي أن يكونَ لرعيّتِهِ ناظرًا ولِما استطاع من عوراتهم ساترًا . وبالحقّ فيهم قائمًا فلا يتخوّفُ محسنُهُم رهقًا ولا مسيئُهم عدوانًا . فقد كانت بيدِ رسول اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلّمَ جريدةٌ يستاكُ بها ويردعُ عنهُ المشركينَ بها فأتاهُ جبريلُ فقال : يا محمّدُ ما هذهِ الجريدةُ التي معك اتركْها لا تملأْ قلوبهم رعبًا . فما ظنُّكَ بمن سفكَ دماءَهم وقطعَ أستارَهم ونهبَ أموالهم . يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ المغفورَ لهُ ما تقدّمَ من ذنبِهِ وما تأخّرَ ، دعا الى القِصاصِ من نفسِهِ بخدشٍ خدشَهُ أعرابيًّا لم يتعمّدْهُ . فقالَ جبريلُ يا محمّدُ إنَّ اللّهَ لم يبعثْكَ جبّارًا تكسرُ قرونَ أُمّتِكَ . واعلمْ يا اميرَ المؤمنينَ أنَّ كُلَّ ما في يدِكَ لا يعدلُ شربةً من شرابِ الجنّةِ ولا ثمرةً من ثمارِها ولو أنَّ ثوبًا من ثيابِ أهلِ النار عُلّقَ بينَ السّماءِ والأرضِ لأهلكَ الناسَ رائحتُهُ فكيفَ بمن تقمّصهُ . ولو أنَّ ذنوبًا من النار صُبَّ على ماءِ الدّنيا لأحمّهُ فكيفَ بمن تجرّعهُ . ولو أنَّ حلقةً من سلاسلِ جهنّمَ وُضعت على جبلٍ لأذابتهُ .

فكيف بمن يسلك فيها ويردُ فضلها على عاتقه[١] » هذا مثالٌ مما كانت علماء الإسلام تعظ به رجال الحكومة في أيام مجد الدولة العربية قديماً .

نسأل الله أن يوفق أمتنا بجلالة مليكنا المعظم الحسين ابن علي الحسني الذي التفت حول رايته الجموع . وسكنت محبته في الضلوع . وأفاض سحائب عدله كالغيث الهموع . وأن يؤيد أميرنا الشريف فيصلاً في مطالبه المجيدة ، وسياسته الرشيدة ، ومناهجه الحميدة ، لتفوز الأمة بحياة سعيدة . وأن يكثر بيننا العلماء العاملون . الذين يقولون الحق ولا يخافون في قوله لومة لائم . ويعملون على نشر الوئام بين جميع الأقوام . فيعتصم كل ذي دين بدينه ويعمل في خدمة الحكومة الهاشمية العادلة التي أنقذت الأمة العربية من مخالب المنية . فإن الديانات السماوية كلها تحض كل شعب على طاعة حكومته الشرعية . فكل حكومة شرعية عليها أن

(١) من كتاب المواعظ والزهد في الجزء الأول من العقد الفريد

تَحُضَّ شعْبَها على احترام الأَدْيانِ السَّماوِيَّة . فإنّ الاِعتِصامَ بالدِّينِ حَبلُ النَّجاةِ المَتين . وبهِ النُّجْحُ في دارِ الزوال الدُّنيا والأَمنُ في دَار المآل الأُخرى . والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبعَ الهُدَى في المَقال والفَعال

ذيل فيه فصلان .

الفَصلُ الاوَّلُ

لِلحكومةِ العرَبيَّةِ دِينٌ رسمي (١)

أَوَّلاً الله واجب الوجود

١) الموجودُ ثَمَرَةُ الايجاد

٢) الايجادُ عَمَلُ المُوجِد

٣) فالموجودُ ما يعمَلهُ المُوجِدُ بالايجاد

٤) لا بُدَّ من مُوجِدٍ وُجودهُ من نَفسِهِ وبإِيجادِهِ وُجِدَ كلُّ موجود

---

(١) أي ان الحكومة العربية مؤتمرة بشرع دين سماوي تعمل بمقتضاه في سرها وجهرها في كل موادّ قضائها

٥) هذا المُوجِدُ هو الله تعالى

٦) فالله تعالى واجبُ الوجود

ثانياً : اللهُ تَعالى أَوجَدَ الانسان

١) العَمَلُ إِمَّا عَنِ اختيار أَو عَن إِجبار

٢) الإِجبارُ يَستَلزِمُ سلطةً لِلمُجبِرِ عَلَى المُجْبَر

٣) اللهُ مُوجِدُ كُلِّ مَوجودٍ فَلَهُ السلطانُ على كل شيء فتعالى شأنا أَن يكون مُجبَرًا

٤) فاللهُ الواجِبِ الوجودِ أَوجَدَ الإِنسانَ عن اختيارِهِ المَحْض

٥) الاختِيارُ المَحض هُوَ الإِرادةُ الخاصةَّ

٦) فالإِنسانُ موجودٌ بقُدرةِ اللهِ تَعالى عن ارادتِهِ الخاصة

ثالثاً : أَوجَدَ اللهُ الإِنسان لغايةٍ مَقصودةٍ

١) اندفاعُ العامِلِ في العَمَلِ إِمَّا الى غايةٍ مَقصودةٍ وإِمَّا الى غايةٍ غيرِ مقصودة

٢) الاندفاعُ الى غايةٍ غيرِ مَقصودةٍ يَتَضَمَّنُ جهْلاً لِلعَواقِبِ

٣) الجَهلُ لِلعَواقِبِ يُنافي كَمالَ العِلمِ وكَمالَ القُدرة

٤) اللهُ مُوجِدُ كلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كاملُ العِلمِ وكاملُ القُدرَةِ .

فَهُوَ مُنَزَّهٌ عن أَن يُنسَبُ إِلَيهِ جَهلٌ عَلَى الإطلاق

٥) ان امتِناعَ أَنَّ يُنسَبَ الى اللهِ تعالى جهلٌ يمنَعُ أَن يكونَ أَوجَدَ شيئاً لِغايَةٍ غيرِ مَقْصُودَةٍ

٦) فإِذَنْ وُجُودُ الانسانِ لغايَةٍ أَرادها اللهُ تَعالى عَمْدًا

رابعاً : ما هيَ الغايَةُ من وُجودِ الانسان

١) غايَةُ المُوجِدِ من إِيجادِهِ الشيَّ أَحَدُ أَمرَينِ . اسعادُ الموجِدِ نَفسَهُ مُستَعِيناً بِما أَوجَدَهُ لِيَفوزَ بذلِكَ الإِسعاد . أَو العَمَلُ بِمُقتَضَى جَوهَرِهِ لِأَنَّ مادَّةَ الإِسعادِ في نَفس العامِلِ خاصَّةٌ مُلازِمَةٌ فلا بُدَّ لَها مِنَ العَمَل

٢) عَمَلُ الشَّيءِ لِإِسعادِ نَفسِ عامِلِهِ يَتَضَمَّنُ فقرَ ذلِكَ العامِلِ الى ذلِكَ الاسعاد

٣) اللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الفقرِ فَإِنَّهُ أَوجَدَ كلَّ موجودٍ وَهُوَ مُستَغْنٍ عن إِيجادِهِ

٤) استِغناؤُهُ تَعالى عَن كلِّ شيءٍ يَنفِي أَنهُ أَوجَدَ شَيْئاً لِيَستَعِينَ بِهِ في مالَهُ إِسعادٌ عنه . فَهُوَ قد أُوجَدَهُ لِيُسْعِدَهُ لا لِيَسعُدَ بِهِ

٤) المتَناقِضانِ اللّذان لا يَجتَمِعان كالنّهارِ والليلِ اذا ثبت أَحـدُهما انتفى الآخر واذا انتفى أَحَدُهما ثبتَ الآخر. فاذا ثبت أَنَ الوقتَ ليلٌ فقد انتفى النّهارُ وإنِ انتفى أَن يكونَ الوقتُ ليلاً فَقَدْ ثبت أَنّهُ نهار

وعلى هذا القياسِ تقول: اذا انتفَى أَنَّ الله خَلَقَ شيئاً لكي يَستَعِينَ بهِ في جَلبِ الإِسعادِ لَهُ ثبتَ حتماً أَنَّ مادَّةَ الإِسعادِ هي فيه تعالى خاصّةٌ ملازِمَةٌ لِجَوهَرِهِ الأَقْدَس وهي الّتي تَعملُ لإِسعاد الإِنسان

٦) غايةُ اللهِ من ايجادِهِ الانسانَ أَن يُسعِدَ الإِنسانَ بنِعمةِ إِيجادِهِ

خامساً: الانسانُ سعيدٌ بمُقتَضَى إِيجادِهِ

١) كلُّ مُوجِدٍ أَوجَدَ شَيْئاً لِغايَةٍ مَقصودَةٍ إِما أَن يكونَ ذلك الايجادُ جرى منهُ بِوَجهٍ مُحكَمٍ أَو بِوَجهٍ غيرِ مُحكَم

٢) إِن أُوجِدَ شيءٌ على وجهٍ غيرِ مُحكَمٍ. فالذي أَوجَدَهُ غيرُ كامِلِ العِلم أَو غيرُ كامِلِ القُدْرَة

٣) اللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن أَن يكونَ غيرَ كامِلِ العِلمِ أَو

غيرَ كامِلِ القُدْرَةِ فهو كامِلُ العِلمِ والقُدْرَة

٤) الـكمالُ الالهي في العِلمِ والقدرة ينفي أن يكونَ ايجادُ ألله للإِنسانِ غـيرَ مُحكَمٍ فيثبت عَن ذلِكَ أنَّ ايجادَهُ للإِنسانِ مُحكَمٌ .

٥) ثَبَتَ لنا قبلاً أَن إِيجادَ اللهِ للإِنسانِ انما هو لإِسعادِ الإِنسانِ . وثَبَتَ لَنا الآنَ أَن ايجادَ اللهِ للإِنسانِ حتَّى يُنيلَهُ السعادَةَ مُحكَمُ الوضعِ . فَنتَجَ عَن ذلِكَ أَن الإِنسانَ سَعيدٌ بِمُقتَضَى إِيجادِهِ

سادساً : الانسان حيَوانٌ مُتَدَيِّنٌ

١) الانسانُ سعيدٌ بِمُقتَضَى إِيجادِهِ فتثبُتُ لَهُ سعادتُهُ ما بَقِيَ عَلَى ما وُجِدَ عليهِ . وسعى الى ما وَجَدَ لَهُ . وامتَنَعَ عَن أَن يَخرُجَ الى ما لم يُوجَدْ لَهُ

٢) لا غِنى للإِنسانِ في سبيلِ حِفظِ سَعادتهِ مِن أَن يَستَنيرَ عَقلُهُ بِمَعرفةِ ما وُجدَ لهُ حَتَّى يَتَّجِهَ إِليه في عمَلِهِ ويَمتنِعَ عن ان يَتَّجِهَ الى سواهُ فَمعرفةُ الغايَةِ من وُجودِ الانسان ضرورِيَةٌ لـكل انسان ولا مَندوحَةَ لَهُ عنها

٣) الوصولُ الى هٰذِهِ المَعرفةِ امّا مِنَ الإِنسانِ نَفسِهِ او مِن اللّٰهِ خالِقِهِ

٤) كلُّ ما في المخلوقِ هو من صَنيعِ خالِقِه. فاهتداءُ الإِنسانِ في شيءٍ ما ، انما هُوَ مِن رَحمةِ خالقِهِ لَهُ بإعطائِهِ قُوَّةً على ذلك الاهتداء . وسلطانُ المُوجِدِ في كلِّ شيءٍ اعظمُ مِن سُلطانِ ما أَوجَدَهُ. وما يصدر عَنِ الواجبِ الوُجودِ أَشرَفُ بِما لا قِياسَ لَهُ عمّا يَصدرُ من الذي أَوجدَهُ . فالرجوعُ بِهذِهِ المعرفة الى انها صادرةٌ مِن قِبَلِ اللّٰهِ توًّا رجوعٌ بها إلى المصدَرِ الاشرف

٥) الذي يُعَرِّفُ الإِنسانَ بِهٰذِه الغَايةِ المقصودةِ في وجودِهِ هو الدِين

٦) فالدين صادرٌ مِن قِبَلِ اللّٰهِ تَعالَى ولا غِنى عَنه لإِنسان

٧) فالإِنسان حَيَوانٌ مُتَدَيِّنٌ — اي فُطِرَ على التَّسليمِ بأَنَّ لَهُ دِيناً يَجِبُ أَن يَتَّبِعَهُ في كُلِّ أَدوارِ حَياتِهِ — ذَكَرًا كانَ او أُنثى كَبيرًا او صغيرًا . غنِيًّا أَو فقيرًا . مُعافًى أَو مَرِيضاً . رئيساً او مرؤُوساً

سابعاً : لا غِنى لِلأُمَّةِ عن الدِين

١) الأُمَّةُ مَجموعُ جَماعاتٍ

٢) الجماعاتُ مَجموعُ أَفراد

٣) الافرادُ المتماثِلَةُ لها حُكمٌ واحِدٌ

٤) الانسانَ الفَرْدُ لا غِنَى لَهُ عَنِ الدِينِ - كما تقدم البيان - فأَفرادُهُ المتماثِلَةُ لا غِنَى لها عَن الدين — فجماعاتُهُ المتماثِلةُ لا غِنَى لها عَنِ الدينِ . فمَجموعُ جَماعَاتِهِ أَي الأُمَّةُ لا غِنى لها عَنِ الدِّين

ثامِناً : لا غِنَى للحكومةِ عَن دِين

١) الأُمَّةُ شَخصٌ مَعنَوِيٌّ حَيٌّ دَقيقُ الشعور

٢) الشخصُ الحيُّ حَياتُهُ بِرُوحِهِ . فإِنَّ رَوحَ الشخص هو الذي يَحفَظُ للشخصِ حياتهُ في عالَمِ الوجود الحِسّي

٣) ما يَحفَظُ حياةَ الأُمَّةِ هُوَ حُكومَتُها فالحكومةُ هي رُوحُ الأُمَّةِ

٤) بِما أَنَّ الأُمَّةَ لا غِنَى لها عَن دِينٍ . فالحكومةُ التي هِيَ رُوحُ الأُمَّةِ ومَوطنُ شُعورِها الدقيق لا غِنى لها عن دِين

٥) الحكومةُ العربيَّة هيَ روحُ الامة العربيةِ فلا غنى لها عن دينٍ . فيجبُ ان يكونَ للحكومةِ العربيَّةِ دين

٦) إذا وجبَ شيءٌ وجوباً يقينياً امتنعَ جوازُ ضدّهِ امتناعاً باتّاً فمن وجوبِ أن يكونَ للحكومةِ العربيةِ دينٌ عدمُ جوازِ أن تكونَ الحكومةُ العربيةُ غيرَ منتسبةٍ الى اتّباعِ دينٍ . فالحكومةُ لا يجوز أن تكونَ لا دينيّة

والنتيجة

إنَّ الحكومةَ هي روحُ الامةِ فيجبُ أن يَرِدَ في قانونها الأساسيِ أنّها حكومةٌ متّبعةٌ في شؤونها ديناً تعملُ بأوامرِهِ منتهيةً بنواهيهِ . ترجعُ في أحكامها إليهِ . ولا تخرجُ في حكمٍ ما من أحكامها عن شرعِهِ السّويّ

أي يجبُ ان يردَ في قانونها نصٌّ صريحٌ أنّها بصفتها حكومةً شرعيَّةً تمثّلُ شخصاً معنويّاً كاملَ التصرُّفِ يتّبعُ في تصرُّفهِ الّذي هو سياسةُ الشعْب شرعَ الدينِ الذي تعدُّ الحكومةُ نفسها من أتباعهِ . وأن لها سلطتها ما ظلّتْ متّبعةً شريعتهُ . ولا سلطانَ لها اذا خرجتْ عن

شَرِيعتِـهِ . تَطاعُ في طاعتِـهِ ولا تُطاعُ في مَعصيَتِهِ . لها صَلاحيتُها ما دامت أَعمالُها تابعَةً أَحكامِهِ وإِن خَرَجَت عن نُصوصِها أَو مَقاصِدِها فقدت تلك الصَّلاحية

الفَصل الثاني

دِينُ الحكومةِ الرَّسمي في الامّـةِ العربية الاسلام

أَوَّلاً : الدِينُ وَضعٌ إِلٰهي

١) الدِينُ صِلةٌ بَينَ الخالقِ الله . والمَخلوقِ الإِنسان

٢) كلُّ صِلَةٍ ذاتِ اتِّصال بطَرَفَين يكون وجودُها عَن أَحَدِ أَمرين . الأَوَّل عن عَمَلِ أَحَدِ الطَّرَفَين باستِقلال . الثاني . عَن عَمَلِ الطَّرَفَين معاً

٣) فلنا أَن نَقولَ إِنَّ وُجُودَ الدِين إِمَّا مِنْ قِبَـلِ اللهِ والإِنسانِ معًا . أَو مِن قِبَلِ الإِنسانِ وقد أَجاز عَمَلَهُ الله . وإِمَّا من قِبَلِ اللهِ تَعالى وأَوجبَ عَلى الإِنسان اعتناقَهُ

٤) إِن قُلنا : الدِينُ من قِبَلِ اللهِ والإِنسان معاً . استَلزَمَ هذا القَولُ التَسلِيمَ بأَنَّ المُشْتَرِكَين في العَمَلِ تَساوَيَا في

وَجهٍ من الوجوهِ . حتى يَصحَّ استقلالُ كلٍّ واحدٍ عَن الآخَرِ في رأيٍ وإرادةٍ . ولا يَصحُّ هذا — لأنَّ المَخلوقَ مُمتَنِعٌ عليهِ أنْ يتساوى بالخالقِ في وَجهٍ مّا من الوجوهِ

٥) إِنْ قلنا عَنِ الدِينِ أَنهُ مِن قبَلِ الانسانِ وحدَهُ أَجازَهُ اللهُ — استلزمَ ذلكَ انقولُ أَولاً أَنْ يكونَ المَخلوقُ مُحيطاً بحِكمةِ الخالقِ كلِّها حَتّى عَمِلَ ما هُوَ شأنُ حكمةِ الخالقِ ان تعمَلَهُ .وهٰذا مُمتَنِعٌ فَلا يُحيطُ بحِكمةِ اللهِ. إلا اللهُ وحدَهُ ولذلِكَ نَجِدُ الإِنسانَ مهما سما عقلاً لا يَزالُ قاصرًا عن معرفةِ سرِّ شؤونٍ تَرِدُ عَن حِكمةِ اللهِ

ثانياً نِسبةُ التهاوُنِ الى حِكمة الخالقِ حَتّى عَمِلَ الانسان ما هُوَ من شأْنها ان تَعملَهُ — وهذا أَيضاً مُمتَنع —

ثالثاً اذا كانَ الدينُ وضعاً بَشَرِيًّا جاز للانسان أَنْ يَستَبدِلَه متى شاءَ لِانَّ ما وضَعَهُ الإِنسان في طاقةِ الانسانُ أَن يأتيَ بمثلِهِ او بخَيرٍ منهُ كلَّما زادت خبرتُهُ . وإِذا جازَ للإِنسان أَن يَستَبدِلَ تلكَ الصِلَةَ فإِنَّ الصِلةَ التي بَينَ طَرَفَينِ لا يَقدِرُ ان يَستَبدِلَها الا أَقواهُما وهذا خلفٌ فإِنَّ اللهَ هُوَ

القَوِيُّ والإِنسانَ ضعيفٌ وما ساقَ الى خطاءٍ فهو خَطاءٌ فلا يَصِحُّ أَن يَكونَ وَضعُ الدِينِ من قِبَلِ إِنسان

٦) إذا امتَنَعَ أَن يكونَ الدينُ موضوعاً من قِبَلِ اللهِ والانسان مَعاً . او أَن يكونَ موضوعاً مِن قِبَلِ الإِنسان وَحدَهُ . فَلَم يَبقَ الا التسليمُ بأَنَّهُ مِن قِبَلِ اللهِ وَحدَهُ — فالدِينُ شرعٌ إِلهيٌّ على الإِنسانِ أَن يَمتَثِلَ لَهُ لِأَنَّهُ وُجِدَ لِلامتِثالِ لهُ . وعَلَى كلِّ مَوجودٍ أَنْ يَتَّبِعَ الوَجهَ الذي وُجِدَ لَهُ . ولا تَكونُ الوَحدةُ القومِيَّةُ دِيناً لِأَنَّها وَضعٌ إِنساني لا رَبَّاني

ثانياً : الدِينُ أَقوَى مِنَ الحكومة

١) الوَضعُ الالهي لا يَستطيعُ انسانٌ نقضَهُ

٢) الحكومةُ امَّا من قِبَلِ اللهِ توًّا .او من قِبَلِ اللهِ بِوَضعِ الانسانِ بِهِدايتِهِ تعالى

٣) إِن كانتِ الحكومةُ مِنْ وَضعِ اللهِ توًّا . فلا يُمكِنُ أَن يَتناقَضَ دِينٌ من وَضعِ الله وحكومةٌ من وَضعِ اللهِ . لِأَنَّ الشيئَينِ الصادِرَينِ عن حكمةٍ كاملةٍ مُقدَّسةٍ مُنزَّهةٍ

عَنِ الذُّهولِ والخطاءِ والضُّعفِ لا تعارُضَ بَينَهما بل هما متعاضدان

٤) إِن كانت الحكومةُ مِن قِبَلِ اللهِ مصدرًا و بوَضعِ انسانٍ او أُناسٍ بهدايتِهِ فلا تَعارُضَ بَينَها وبَينَ الدينِ الذي هُوَ منْ وَضعِ الله توًّا . فإِنَّ الحِكمةَ تَستلزِمُ ان يَكونَ المتَعَدِّدُ الذي عن مَصدَرٍ واحِدٍ تَتساعَدُ أَفرادُهُ للوصولِ الى غايةٍ واحدةٍ ولا تَتَنازَعُ

وإِن تعارَضَ ما هُوَ مِنَ اللهِ توًّا بِما هُوَ مِنَ اللهِ بِوَضعِ الانسانِ ولم يكن لِرَفعِ التناقُضِ وَجهٌ استلزَمَ التناقضُ أَن يكونَ الإِنسانُ المُعَرَّض للذهولِ ولِلجَهلِ ولِلضُّعفِ قد أَدرَكَهُ شيءٌ من ذٰلِكَ فلم يجئْ ما وَضَعَهُ سديدًا وأَما اللهُ فكلُّ ما وَضَعَهُ سَدِيدٌ فانَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن أَن تُلِمَّ بِهِ شائبةٌ

فَعِندَ تَعارُضِ ما هُوَ من وَضعِ اللهِ توًّا بِما هُوَ من وَضعِ الانسانِ. يسقطُ ما هو مِن وَضعِ الانسانِ ولا يَبقَى الاَّ الذي هُوَ مِن وَضعِ اللهِ تعالى . فكل انسانٍ يُحارِبُ

الدينَ الذي أمرهُ سماويٌّ في قولٍ أو عملٍ يسعى الى هلكة نفسه . وكلُّ حكومةٍ تُعارضُ الدينَ الذي من قبلِ اللهِ تستوردُ الضعفَ لنفسِها من حيثُ تحسبُ انها تكتسبُ قوةً

٥) فالموادُّ التي تسنُّها الحكومةُ يجب أن تُطبَّقَ على الأصولِ الدينيَّةِ فتتحوَّرَ وتُبدَّلَ حتى تزولَ معارضتُها لاصولِ الدينِ . فالموادُّ التي من وضعِ الحكومةِ كالرَّحى والأصولُ العائدة الى الدينِ كالقُطبِ وكما تدورُ الرَّحى على القُطبِ يجبُ أن تدورَ رحى موادِ الأحكام الموضوعة من الحكوماتِ على قطبِ الاصول الدينية

ثالثاً : تساهلُ الحكومةِ مع الأديان

١) الحكومةُ جماعةٌ من الناسِ أعطيت من قبلِ اللهِ سلطاناً لتعملَ ما عائدهُ الخيرُ لمن أودِعَ اليها العنايةُ بهم فتُطاعُ أوامرُها لاكتسابِ خيرِ الدنيا من الوجوهِ المشروعة

٢) والدينِ قضاءٌ ربّانيٌ في اتباعهِ الخيرُ لكلِّ الناسِ في الدنيا والأخرى معاً فتُطاعُ أوامرُهُ لاكتسابِ ذلكَ الخيرِ

٣) الدينُ والحكومةُ من مصدرٍ واحدٍ فلا يقدرُ إنسانٌ أن يضعَ ديناً ولا أن يؤلِّفَ من نفسِهِ حكومةً . على أنَّ الدينَ أوسعُ نطاقاً فيستغني الانسانُ بدينِهِ عن حكومتِهِ ولا يستغني بحكومتِهِ عن دينِهِ

٤) الدينُ تمحَّضت بِهِ مشيئةُ اللهِ فلم يكن دينٌ بمشيئةِ إنسان . والحكومة تحوي مشيئةَ اللهِ على وجهٍ اختارتهُ حكمةٌ الإنسانِ . فسُنَنُ الدينِ أولى بالاتّباعِ من سُنَنِ الحكومة .

٥) اذا تعارضت سُنّتان دينيةٌ ودُنيويةٌ اقتضى العملُ بالدينيةِ واطِّراحُ الدُّنيويةِ

٦) الحكومة الحكيمةُ تجعلُ أحكامَها مُتساهِلةً في نطاقِ العدلِ الواسعِ بحيثُ لا تتعارضُ موادُّ حكمِها والسُّنَنُ الدينيَّةُ حيثُ للتَّوفيقِ مجالٌ . فتكونُ الحكومةُ متساهلةً معَ الأديانِ المُنزَلة

رابعاً : الدينُ الرَّسميُّ للحكومةِ العربيةِ دينُ الإسلام

١) الأديانُ التي تذهبُ أبناءُ الأُمَّةِ العربيَّةِ الى القولِ

بأنَّها سماويّةٌ ثلاثةٌ : الدِينُ الموسويُّ . الدِينُ المسيحيُّ . الدِينُ الاسلاميّ

٢) الحكومةُ التي تُريدُ سَعادَةَ أَبنائِها لا تَتَعَرَّضُ لَهم في اختيارهم الصِلَةَ التي بَينَ كلِّ فَردٍ منهم وَرَبِّهِ فَتُطلِقُ لَهُمُ الحُرِّيَّةَ بانْ يَقتَنِعَ كلُّ فَردٍ منهم بِالدِينِ الذي يَقتَنِعُ وِجدانَهُ بأَنَّهُ هو الصَحيح

٣) فالحكومةُ العَربِيَّةُ التي تُريدُ سعادةَ أَبنائِها لا تَتَعَرَّضُ لَهُم في شؤُونِ مُعتَقَداتِهِم وتَقبَلُهم أَبناءً لَها علَى تَغايُرِهِم مسلمينَ ومسيحيينَ وموسويين

٤) التَّساهُلُ شيءٌ والاعتِقادُ شيءٌ آخَر . يُمكِنُ للحكومةِ العربيةِ أَن تتساهَلَ بأَنْ يَعتَنِقَ كلُّ واحِدٍ من أَبنائها أَحدَ هذهِ الأَديانِ ولكِنَّها لا تَستَطيعُ أَن تَجعَلَ هٰذهِ الاديانَ دِيناً واحِدًا أَو أَن تَقولَ انها حكومةٌ دِينيةٌ مُسلِمةٌ مسيحيةٌ يَهودِيَّة . فَعلَيها ان تَجعَلَ دِينَ الحكومةِ أَحَدَ هٰذِهِ الأَديان

٥) إذا اختَلَفَ جَماعةٌ علَى شيءٍ واحِدٍ واستلزَم خِلافهم

صدورَ الحُكمِ لِأَحَدِهم بِهِ دُونَ سِواهُ كانت بَوَاعِثُ الحُكمِ ثلاثة . هي :

ا) الأَكثريةُ في العَدَد

ب) القُوَّةُ المؤَثِّرةُ في تأليفِ الجماعة

ت) الترتيب الذي كان في السابقِ متبوعاً

٦) لِنُطَبِّقْ ذلِكَ على حكومتِنا العَرَبيةِ فنَجِد

ا) الأَكثرِيةَ في عَدادِ الأُمَّةِ العَرَبيَّةِ لِلْمُتَدَيِّنين بالإسلام .

ب) البيت المالكَ في الأُمَّةِ الذي هُوَ العامِلُ الأَقوى لإيجادِ الحكومةِ العَرَبيَّةِ يَدينُ بالإسلام

ت) الترتيب السابقَ هو أَنَّ الإسلام دِينُ الحكومةِ

٧) فيَنبَغِي للحكومةِ العَرَبيَّةِ أَن تُجاهِرَ بأَنَّ الإسلامَ دِينٌ لَها . ولكنَّها تُبيحُ حُرِّيَّةَ التَّدَيُّنِ لكلِّ فَردٍ مِن أَبنائِها ضِمنَ دائرَة الأَديانِ السَّماويَّةِ وأَنَّها تُؤَلِّفُ هيأَتَها الحاكِمَةَ مِن مسلمين ومسيحيين وموسويين

الخلاصة

الاسلامُ دينُ الحكومةِ الرسميّ. فموادُّ الحكومةِ تُستَقى من أُصولِهِ، لا أَنَّ كُلَّ فردٍ مِنَ الشعبِ العربي يجب عليه أَن يَعتَنِقَهُ

فَكَونهُ دِينَ الحكومة الرسمي. لا يحول دون تَمَسُّك المسيحيّ بِمَسِيحيَّتِهِ والموسويّ بِمُوسَوِيَّتِهِ

ولا يَمنعُ ان يرتقي المسيحيُّ او الموسويُّ في الدوائرِ السياسيةِ والادارية والجندية والمالية والعدليَّةِ وامثالها متى وُجِدَت فِيه الكفايةُ والامانةُ أَمَّا الشؤُونُ الدينيَّةُ فلِكُلِّ أَهلِ دينٍ رئاساتُها فيكونُ المسلمُ دون سواه قاضياً ومفتِيًّا ونقيب أَشرافٍ . والمسيحي دون سواهُ بطريركا ومطرانًا وقسًّا وشماساً . واليهودي دونَ سواه حاخاماً

وأَنَّ على البَيتِ المالك التَّمَسُّكَ بالإسلامِ حَقَّ التَّمَسُّكِ فلا يجوز لهُ أَن يُخِلَّ بشيءٍ من شعائِرِه

وأَنَّ على كلِّ مُوَظَّفٍ في الحكومةِ العَرَبيَّةِ أَن يَعودَ في موادِّ عَمَلِهِ إِلَى أُصولِها من الدينِ الاسلامي فإِن كانَ

مُسلِماً عَمِلَ بها لانها شرعَ دِينهِ ومُعتَمَدُ حكومتهِ وان كان غَيرَ مُسلِمٍ عَمِلَ بها لِأَنَّها الشروطَ التي تَمَّ الاتِّفاقُ عَلَيها بَينَهُ وَبَينَ الحكومة التي استخدمتهُ على العَمَل

وأَنَّ على كلِ عَرَبيٍّ انْ يُجِلَّ الإسلامَ فلا يَتَناوَلَهُ بِقَدحٍ لِأَنَّ دِينَ حكومةِ الامةِ الرسميِّ يَجِبُ أَن يُكرَمَ مِن كل أَبناءِ الامةِ . فإِنَّ مَن يُجِلُّ دِينَ حُكومتِهِ يُجِلُّ حُكومتَه فيُكرِمُ نفسَهُ والسلام

يقول العبد الفقير امين ظاهر خير الله صليبا الشويري اللبناني . هذا ما جادت به القريحة الناضبة في سبيل خدمة الدين والحكومة والترغيب في حياة الصلاح والتشويق الى الفضيلة وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب للمرة الثالثة في ١٦ آب الشرقي سنة ١٩١٩ و٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٧ هجرية في دمشق الشام. والنجاز طبعه في ٤ كانون الاول الشرقي سنة ١٩١٩ و١٤ ربيع الاول سنة ١٣٣٨ هجرية في مصر القاهرة والحمد لله على جليل نعمه وجزيل كرمه .

فهرس الكتاب

صحيفة